

إسحاق ماشباش

الغُرباء

رواية تاريخية

ترجمة

وليد تحقاخه

مايكوب ٢٠١٧

يمضي الكاتب الكبير للشعب الأديغي - الشركسي إسحاق ماشباش في روايته التاريخية الجديدة (الغرباء) قدماً في وجهة نظره المطروحة من خلال رواياته التاريخية الكثيرة السابقة. ويعرض على عاداته للقارئ بصدق وأمانة حقبةً من مأساة تهجير الشعب الأديغي - الشركسي.

كلمة لا بد منها

استفاد كاتب الرواية وهو يعمل في كتابتها كما يلاحظ القارئ من الوثائق العثمانية والوثائق الروسية المعاصرة لها. ولذا يمكن لمصادر الدولتين المتحاجتين وقتها أن تختلف بعض الاختلاف.

المؤلف

الفصل الأول

ربيع عام ١٨٦٤

جبال آسيا الصغرى المتقابلة ذات القمم البيضاء تظهر من بعيد في أرض تركيا المرقطة. والناس المتعبون الذين أبحروا عدة أيام دون توقف ينظرون في ذلك الاتجاه من فوق رؤوس النساء اللواتي تجتمعن لا يعرف المرح طريقاً إليهن، ولم يعد يهتمن إلا أطفالهن. هذا يدفن رأسه في قبعته، وذاك يمسح العرق عن رأسه، وثالثٌ يُصلح وضع خنجره^١ في زناره. ورابع يدعو وعيناه مغمضتان. والرجل الطويل الواقف إلى جانبه داعم العينين من الإهانة.

الدنيا التي لن يسمعك فيها أحد، وإن استنجدت أو صرخت، صمًا. والشمس الحامية الآتية من جهة بلاد الأديجة المهجورة تنحدر من كبد السماء دون أن تلتفت إليهم. والبحر الذي يزداد ملوحة من دموع المأساة يبكي نفسه بأواجه الناعمة. والسفينة الغريبة الملأى بأحزان الناس تزحف على الماء دون ضجيج. وكلما دنوت من الساحل التركي اقتربت رويداً رويداً من مرأى العين القمم البيضاء وأشجار الزيتون المزهرة البيضاء الحمراء. وظهرت هنا وهناك قرى متباعدة غير كبيرة، سقوف بيوتها من الطين، والطيور المثقلة قوائصها ترفرف بأجنحتها وتتصايح.

- انظري يا نان هناك... - تقول داريجان الصبية الممشوقة القوام ذات الستة عشر عاماً، والتي تتناول على رؤوس أصابعها فتتظر من وراء والدها، لجدها، - ما أشبه هذه القمم والأشجار البيضاء بما عندنا!...

^١ ترجمت ما هو معروف عند الأديجة إلى الآن بـ "القامة" بالخنجر. ويمكن أن يكون قريباً من السيف القصير. والخواشي التالية للمترجم ما لم يُشر إلى صاحبها.

- لن تساوي قممنا وأشجارنا... - قال الأب لابنته التي وراءه بصوت قانط خافتٍ - إن تخيلتها هكذا فهو حسنٌ، سنرى ما أمامنا...

- نعم نعم يا مزحِب يا ولدي - وافقت عجوز آل باغ "ساوَدَت" ابنَها، ونصحت الصبيَّة - لا تنظري يا ابنتي من وراء ظهور الرجال برأس مكشوف، اجلسي. مصيرُنا مصير رفاقنا. سندعو إلى الله، لأنه هو أملنا، أن يحمينَا وينظر إلينا بعين العطف في البلاد الغربية التي طردونا إليها... - عادت إلى الجدة ساوَدَت ذكرى المأساة التي صبرت عليها إلى الآن وهي تلاطف الصبية التي ارتقت على صدرها بقامة رقيقة باردة وتنصحها: - لو كانت أملك التعيسة معنا لرضيْتُ بالأحزان التي مررتُ بها والتي ما تزال أمامنا يا حلوتي الصغيرة.

- لا إله إلا الله، الله أكبر! - صرخ أحد الرجال المستغرقين في النظر نحو الساحل التركي فردد معه رفاقه ثم سكتوا فجأة كأن الخرس أصابهم. ولكنهم دعوا إلى الله شاكرين إياه على أنهم نبخوا من المطر البحري أمس وأول من أمس، مبتهلين إليه أن يجعل مُقدِّمهم إلى البلاد التي سيحطون فيها بآمالهم الغالية مقدّم سعادة، وأن يعوضهم العذاب الذي عاشوه في بلادهم التي تركوها وراءهم خيراً.

الوقفة المفاجئة للسفينة قبل مسافة قصيرة من الوصول إلى ميناء "أجقاله" الواقع في المضيق خلطت الرجال الواقفين والنساء الجالسات على الأرض والأطفال والعجائز والجنائمين التي لم يجدوا الفرصة لإلقائها في البحر.

- ما الذي جرى لربان السفينة الأهودج، خالطاً رجالنا بنساءنا... - غمغم باغ مزحِب وربّت على كتف أمه التي تهدّل رأسها - ماذا جرى لك يا أمّنا، ها نحن الآن... يا داريجان ربما داخت الجدة، ضمي رأسها إلى صدرك...

ارتاعت الصبية التي تحضن رأساً ثقيلاً فارقته الروح:

- يا نان، أراك توقفت عن التنفس!

سجى مزحِب والدته على أرض السفينة بعدما جثا على ركبتيه أمامها، وجلس صامتاً بعض الوقت حزناً. ثم قال لابنته وهو يغطي وجه والدته بسترته:

- لا تبكي يا ابنتي، تحلي بالصبر!

- لا أريد البلاد التي جئنا إليها يا تات، لنرجع إلى بلادنا!

- لو كان عندنا ما نعود إليه!

- لا، لا. لم يقبل العجوز كُوبل جرمت هذا اليأس من الذين عزّاهم - لا تسمحوا لمثل هذا الضعف أن يستولي عليكم. كانت هذه المسكينة التي فارت الحياة تقول: مصيرنا مصيرٌ غيرنا، الله سيعيننا، لا تيأسوا!

- ظل مرزُخوي محمد¹ يعلننا بهذه الأمانى حتى تركناه يدمر حياتنا. - قال بُرانت حاتام الجالس إلى جثماني ميّته مطرقاً.

- أفهم أحزانك يا أخي الصغير - جلس مزحِب حاتام إلى جواره - وأنا سجيّ للتو والدي... - أنا وتلك الصبية آخرُ سلاله آل باغ... ولكن من حَسَن حظنا، أنت وأنا وهؤلاء الآخرين، أننا لم نُلق جثامين موتانا إلى الأسماك كما حدث لمن توفُّوا أمس وأول من أمس... ما إن نخرج من السفينة حتى ندفن موتانا... أسرع يا هارون واسأل عن سبب توقف السفينة!

- علينا انتظار نزول ركاب السفن التي سبقتنا. - قال هارون ابن العجوز جرمت.

أحصى مزحِب اثني عشر مركباً على المرسى الضيق متشابهةً متساوية في سعتها أو مختلفة، ملأى أو فارغة. ومن بينها أربعة ابتعدت واتخذت اتجاهها إلى

¹ من الشخصيات الرئيسة في رواية المطرودون.

الساحل الأديغي نحو الشرق حيث ركبوا هم. ومن أجل ألا يسمح لابنته بأن تراها سد الأب بجسمه الضخم حقل رؤيتها.

- ها نحن سننزل حالاً، جاء دورنا...

- ونانا؟ - كانت دارينخان منكبة على جثمان جدتها. - لن أترك نانا إلى أي مكان!

- وسنحمل نانا معنا... وهؤلاء الواقفون على الضفة أديغة، وهم بانتظارنا... الآن يترجل الناس مرتاحين من السفينة ليس كما استقلوها على الساحل الأديغي: الرجال واقفون والماء يغمر أوساطهم إلى صدورهم، ينقلون الأطفال والنساء والمسنين والمرضى. والأديغة القانطون الذين استقبلوهم يساعدون أبناء جلدتهم بعيون دامعة قائلين "وأنتم هل جاءت بكم المصيبة" إلى هنا، لماذا خربتكم بيوتكم بأنفسكم؟" قال مزحّب لابنته وهم يخرجون الجثامين الثلاثة عشر من السفينة وأمه على ظهره:

- هيا يا ابنتي اتبعيني، البحر ليس عميقاً.

- الآن لم أعد أخشى شيئاً يا تات.

حدّد مكان كثيف الشجر على ساحل البحر حُصِر فيه الأشخاص المتّان والستة والستون الذين بقوا على قيد الحياة من الثلاثة والأحد عشر المرّجلين من "شاجه" حين أُوصلوا إلى مضيق آجي، غير بعيد عن المدينة، خوفاً من تفشّي أمراضهم. والناس الذين نجوا من المهالك حدّدت لهم أماكن تجمّع حسب الأسر والأنساب والقرى حرصاً على تماسكهم.

^١ في الأصل: جاء بكم الطاعون، ويُعبّر عن المصيبة إلى الآن بالطاعون في استعمال مجازي.

الميت هو من لا دواء له، أما الحيّ فيجد دائماً مخرجاً ما مهما وجد نفسه في موقف صعب. لم يكن قد مضى نصف ساعة حتى ارتفعت في الأجمة أصوات التقاط العيدان اليابسة وتكسيورها، وفاحت في الجو رائحة النيران.

- الجوع، كما كان يقول جدك باغ إبراهيم، علاجه سهل يا مزحّب، لا بد من حلّ ما. - قال بَرَقْتُ زوال المكلفُ بمراسم الدفن والذي سبقهم إلى هنا بشهر. - غير أن مضيفينا طلبوا منا عدم التأخر في دفن موتانا.

- شكراً لهم على لفتهم علينا، غير أنني لن أدفن أُمّي قبل استكمال مراسمها. - قال مزحّب لبرقت الذي يشعر نحوه بشيء من الفتور.

- الشمس مالت للغروب، الوقت يداھمنا.

- لن تُبدي ضعفاً في البلاد التي استأنف فيها الله اختبارنا حتى لو غابت بالنسبة إلينا منذ زمن طويل.

- كما تريد يا مزحّب غير أن الضابط التركي يوسف الذي جاء يراقبنا لا أظنه يقبل منا... ها هو قادم أتركك تتفاهم معه.

- يا زوال... - فجّرت عبارة "أتركك تتفاهم معه" مزحّب الذي كان يكظم غضبه بصعوبة.

- نعم، نعم. لم أقل شيئاً ولم تسمع... ولكن لاحقاً...

سأل الضابط يوسف المصحوب بعدد من الجنود المسلحين، والذي يعرف الأديغية، الرجال بصوت خشن، ودون أن يحییهم:

- لماذا تماطلون في دفن ميّتكم؟! - ثم اختتم بصوت لطف حين رأى بين النساء المسنات المرتديات الأسمال الشابة داريخان: - لا تتأخروا. انتهى غيركم من دفن أقرائهم. قولوا آمين. ولتتلّ دعاء لأجل المرأة التي فارقت الحياة! كانت الشمس الحمراء الضخمة التي تُلهب السماء بكاملها تغرب حين خرج من

المقبرة الرجال الذين فرغوا من الدفن. كانت قلوبهم ما تزال فيها وإن لم يكن الالتفات إليها مستحسنًا. ولم يكن منظر القبور التي لم يغطها العشب بعد يفارق مخيلتهم. وفي أماكن متفرقة من الأجمة التي يعودون إليها تُسمع أصوات نواح. وأحياناً ترتفع أصوات إطلاق مسدسات. ويضاف إلى كل هذا أصوات أناس غاضبين.

حين عزى الرجال باغ مزحج في مكانه المختار من الشجرة وانصرفوا قال لداريخان:

- هذا ما حدث لنا... يبدو أننا لسنا من هنا ولا من هناك... الذين أتوا بنا إلى بلادهم ليسوا محتاجين إلينا.

- ماذا حدث لك يا تات؟ تغيرت جداً حتى لا أعرفك... - سألت داريخان لا تعرف تأويلاً لما سمعت، ثم لامت أباه: - ألسنت أنت من كان يقول: لا داعي لليأس؟!

- ظل زعمائنا يمتنوننا بالمستحيل كالفصل بين قرون ثورين متشابكين، ونحن بقينا نردد هذه الأقوال دون تفكير حتى دمرنا حياتنا بأنفسنا. ما الفائدة من أن تلحق بذيل الحصان بعد أن تفوت رأسه؟! ولكن مهما جرى لنا يا ابنتي فلا داعي لليأس. ومن يتعثّر ينهض من سقطته كما كان يقول جدي الأعلى إبراهيم، ومن يُحطّم أنفه يُشَفّ... هيا لن نطفئ نار الوجاق التي جعلونا نشعلها في بلاد الغربة، أظنك سلقّت عليها بعض الدُخن.

- نسيّت يا تات أنك لم تذق لقمة طوال نهارك!.. - قفزت داريخان، ومدت إلى والدها صحن الدخن الذي ما يزال ساخناً، ملفوفاً بغطاء رأس جدتها.

- وأنت؟

- هل كنت لآكل دونك يا تات؟!

حين سُمع صوت المؤذن عَجَلَ مزحِب قليلاً من عشائه وشرع في الوضوء. الرجال المئة تقريباً مجتمعون في المرعى واقفون على ستراتهم المفرودة. وعلى وجوههم الحمرة مع أشعة الشمس الغارية تبدو آثار خوف خفي يعصر القلوب. وكلما ركع المصلون أو سجدوا أو نهضوا سُع صليل سيوفهم وخناجرهم ومسدساتهم. وإن نظرت في وجوههم شعرت بأنهم، وإن هُزِموا وطُردوا من أرضهم، حاربوا من أجل حريتهم وأرضهم مادام في أجسادهم من القوة ما يكفي، وأنهم لم يستسلموا إلى الآن.

بدأت النجوم تتعاقب في سماء بلاد الغربية، والقمر المكتمل يسكب أشعته الباردة على الأرض، وأسلحة المصلين وعُددهم تلمع غير عابئة بهذه الأشعة الباردة. والرجال المنهكون جسداً وروحاً يائسون لا يتقبلون شيئاً. ويُخيل إليك أن صوت الإمام أحمد أفندي الذي يظل يكرر سورة الفاتحة لا يصل إلى الأجمة الأخرى، ولا يُسمع في الأنحاء القريبة، ولا يحوم فوق القرية الصامتة. والنساء الجالسات تحت الأشجار الباردة، والأطفال، والمسنون، والمرضى الذين يقوم السابقون على رعايتهم، والموتى، والرجال الذين يشعرون بالإهانة مما جرى لهم ففوّتوا صلاتهم، صامتون.

استدار العجوز النحيف الضئيل أحمد الذي أنهى الصلاة بـ "آمين" مسرعاً، ونادى المصلين بصوت حاد:

- أيها المسلمون الذين أدعو لهم أن يتقبل الله العلي العزيز صلاتهم، توقفوا، ودَعُونَا نتباحث قليلاً. الله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل هو إلى أحد، يجتربنا مرة أخرى في هذه البقعة من الأرض التي أرسلنا إليها لأنه لا شيء يحدث في العالم من دون علمه. دعونا نتحلى بالصبر، ولا ننسَ أننا أديغة! الترك الرحماء الذين سمحوا لنا أن ننزل ضيوفاً عليهم هم من أمة الله كما نحن

من أمته. وسلطانهم عبد العزيز موفد الله. ونحن نشكره بعد الله العزيز العلي. ونتعهد أن نخلص له بقدر ما تسمح به قوتنا وآمالنا. ونقدّر الطيبة التي قابلنا بها.

- ما الذي يقوله هذا؟! - تتم برانت حاتام الشاب العشريني الضخم غير قادر على السكوت. - بقيت أسمع في عمري القصير "اصبروا، الله يمتحننا" حتى فقدت كل أهلي وغدوت وحيداً في الحياة.

- نعم، يا أخي الأصغر، لو لم يكن إلا ما حدث لك في السفينة... ولكن لا تقل إنك وحيد ونحن معك. - نصحه باغ مزحج. ثم قال وهو يتوجه إلى الأفندي: - اسمع أيها الكبير الذي أدعو الله أن يبارك له في معرفه، أريد أن أسألك إن سمحت لي.

- وهل يمكن ألا أسمع لك وقد أنجزت صلاتك، من أي أسرة أنت؛ قدّم نفسك!

- أيتها الجماعة أنا من أسرة باغ. - خاطب مزحج الآن الجماعة التي هو بينها دون أن يلتفت إلى الإمام. - إذا كنتم تعرفون جدي الأكبر باغ إبراهيم وجدي أسلانج فقد كنا نسكن قرية بُرج¹ التي لم يبق لها الآن وجود. وهي القرية التي كانت تضم مقر زعامة الأبراخ. حياكم الله على أنكم لم تنسوا القرية التي سمعتم باسمها، والناس المسنين فيها. قال للرجال الذين شهدوا على صحة كلامه بأصواتهم من هنا وهناك.

- نسمعك، نسمعك... - ابتسم في قلبه الأفندي أحمد ذو الوجه النحيف متسائلاً عما يريد أن يقول مزحج لهم.

¹ ورد ذكرها كثيراً في رواية "المطردون" للكاتب نفسه، والتي تسبق أحداثها أحداث هذه الرواية.

- أنا لم أسأل من أجل أن أعترفكم بنفسي - استأنف مزحبه كلامه - بل لأني قلق لما قد يحدث غداً وفي الأيام التالية، ولا أظنكم بعيدين عن قلقي أنا.

- صحيح يا مزحبه، ما تقوله صحيح. - قال برقت زوال الواقف في الصف الأمامي من المصلين متظاهراً بموافقة ابن قريته - إن قضيتم ليلكم مرتاحين في الأرض التي اختاروها لكم فسئري ما سيقدره مضيفوكم غداً.

- ماذا ستري يا برقت؟ - ألا ترى الناس الذين خيموا هنا قبلنا بشهر ما يزالون دون أرض ودون أي مكان مسقوف! - ثم أكمل باغ بلهجة ألطف: - اليوم صحو غير أن الغد قد يكون صحوّاً أو ممطراً.

- ندفن ثلثنا، أعني المطرودين، هنا. - وافق برانت حاتام باغ مزحبه - ربما سبب إصرار مستقبلينا من أبناء قومنا على أن نخترس هو كثرة حوادث السلب وخطف النساء.

الكلام الذي قاله مزحبه باغ وبرانت حاتام بصراحة وعبراً به عما في أعماق الجميع أثار المصلين فجأة وجعلهم يتبادلون النظرات، وشرعوا يصرخون من هنا وهناك. وغيرهم ممن يهمله شخصه فحسب شرعوا ينسلّون من بينهم.

- نعم، صحيح. الله الرحيم سيتفهّمنا وسيُنظر إلينا بعين العطف أيتها الجماعة. - استعجل أحمد أفندي الذي فهم ما يعتمل في قلوب المصلين - نحن لو قضينا الليل بكامله معاً لما انتهينا من الكلام. آلامكم ليست بلا جذور، وهذه من جريرة الكفار الذين طردونا من بلادنا، هؤلاء يُفنون أقواماً بكاملها. والإسلام الديّن العزیز الذي أنزله الله العليّ من سماء مشمسة مقمرة على طريق فضي سيبقي ديننا يُظلّنا إلى الأبد. ونحن، موفدي الإسلام الطاهر، سنتداول في تحسين أموركم، وفي تسهيل مشقات حياتكم، ثم نتباحث وقلوبنا

منفتحة على بعضنا أكثر من ذي قبل. تصبحون على خير أيتها الجماعة، ولا تفوتوا صلاة العشاء.

- أين أنت يا داريجان؟! - حين لم ير ابنته تحت شجرتها نادى مزحج بوجه ملهوف.

- ليست بعيدة من هنا يا كبير. - قال حاتام مطمئناً - حين كنت ماضياً إلى الصلاة رأيت داريجان وحيدة فأوصلتها إلى جاراتنا، وها هي عائدة.

- حياك الله يا حاتام. لم نعد نعرف ما نقول وما نفعل، تبين أنك أدكى مني. - لن يسمح لك الرجال اليائسون الذين تكلمت باسمهم أن تقول هذا وإن لم أبلغك أنا.

- وأنت قلت كلاماً أشد صراحة من كلامي، ويسرني أنك أيدتني.

- مهلاً يا حاتام، مهلاً، إلى أين أنت منصرف؟.. - سألت داريجان التي جاورتهما، واحتتمت: - سأسقيكم ولو شيئاً من الشاي.

الفصل الثاني

بعض الناس تُفنيهم الإهانة، تُحرقهم، تكون فيها نهايتهم. وغيرهم يعيشون دون شعور بها ودون شرف. والبعض الثالث لا يدري إن وُجدت الإهانة، ويعيش عمره وهو لا يريد أن يعرفها. يقولون "من يتلقَّ إهانة يجد الوقت للانتقام" وليسوا قليلين من يظنون أن هذا القول ينطبق عليهم.

يقضي باغ مزحج ليلته الأولى في بلاد الغربة وهو يفكر في هذه الأمور كلها. ومع أن القمر الذي لم يدرك سرّه ولم يفهمه طوال سني طفولته وحتى بلغ الخمسين كان يسكب أشعته على الأرض، ومع أن النجوم المحيطة به تلتمع،

فهو غير مهتم إن كان بعضها يهوي شُهباً. وإذا كان جسده في بلاد الغربة فقلبه ما يزال في أرض الأديغة - الأبراخ التي طُرد منها، ولا يزال في مراعيها، يُنصت إلى الأنهار التي تندفع إلى البحر الأسود، ويراقب بعض الجوارح المدوّمة في السماء. تنتصب أمام مخيلته مراعي "لاغوه ناقة"، وقمم "فِشْت" و"أوفتين" البيضاء، ومرتفع "حاكوف" وطوابسه، وشجّه، ومفاؤست، وبزه مز، وأنابه، ومضائق تيمرقوه. ولا تزال طلقات المدافع تدوي في قلب مزحّب فيتأوه منها. وداريخان التي كانت نائمة إلى يساره غير بعيدة انقلبت على جنبها حين سمعت تأوّه فنظر إليها من طرف عينه، ولطفها في قلبه: "نامي يا ابنتي، ماذا بيدنا، أنتِ واحدةٌ ممن بقينا نعتدّ بأنفسنا ونتصنع الرجولة حتى جلبنا المأساة لهم. هل أهاننا من لم نستطع الانتصار عليهم أم أهنا أنفسنا بأنفسنا؟ هذان السؤالان، كما يراها مزحّب في سريره، يمكن أن يكون لهما جوابان. إذا حدث لنا ما حدث وانتهى الأمر، وإذا فعل بنا الظالمون ما فعلوا فالجوابان عندي سيّان. أيمن لمن تحاجبوا بالسيوف أن يلجمهم ظلمهم؟.. من الطرفین ستكون نهايته على إشهار السلاح؟ ولكننا نحن لم نشهر السلاح على أحد بل هم أشهروه علينا. حمينا أرضنا ما دمنا قادرين. والآن يبدو أن من هاجمونا يتهمونا بأننا نحن المهاجمون. أهذه مبكاة أم مضحكة؟ انظر كيف تحترق الشهب في سماء تركيا... ربما كان أحد هذه الشهب هو شهاب الأديغة المنحوسين..."

حين قفز مزحّب المعتاد على الحرص طوال حياته مرتعباً بعدما نام ساعة ونصفاً على الأكثر، وجد كل شيء على حاله: الهدوء يعم كل مكان، ولا صوت في كل الأجمة لولا بعض أصوات متفرقة لديكة تصيح، وكلاب تنبح، وأطفال ييكون. والهلّال غادر منتصف السماء. وبضع نجوم من الآلاف التي كانت تتغنج له، والتي بقيت في السماء الحمرة التي تنوي الاستيقاظ تنطفئ كأنها

تموت خجلاً من العار الذي لحق بها. والنسيم اللطيف العاجز عن تسلق الأشجار يصطدم بأعالي الحشائش اليابسة، فيجتاز الأرض التي رطّبتها السماء كسولاً.

- ما حياتي؟ - ينهض مزحج هامساً لنفسه، لائماً إياها. وحين عاد فارتدى الصّدار الذي يغطي صدره استرجع مجموعة أسلحته من سيف وخنجر ومسدس، والتي كانت مربوطة إلى معصمه خلال نومه كمن يعتزم ركوب طريق غزو طويل، فارتداها. وأصلح وضع ظروف الطلقات على صدر الكساء.. - والآن ماذا عليّ أن أفعل؟.. - عليّ التوجه إلى الساقية قبل أن تزدهم. ها هي راوية الماء المصنوعة من جلد الماعز، والأخرى المصنوعة من جلد الخروف (لم يكن عندنا نحن أمثالها)¹ والجرة النحاسية، والقدر الكبيرة، كلها ملأى... يا ابنتي الملهوفة دائماً متى ملأتها؟... إذن سأشعل النار قبل أن تفيقي يا سندي وأملي الوحيد. وها هي حزمة حطب يابس هنا.

- ما الأمر تات، لماذا أفقت مبكراً؟ - سألت داربخان ملاطفة والدها الذي كان يشعل النار.

- هذه أنت يا ابنتي! لماذا لا تستمرين في النوم؟

- وكيف أنام يا تات وقد بدأ الفجر يرسل أنواره... وماء وضوئك جاهز.

- اليوم سأكفّ عن الصلاة!

- نعم؟ استغربت داربخان.

- ما الفائدة من أن تصلي لمن ابتهلنا إليه كل هذه الأيام ولم يفهمنا، بل سمح

لهم أن يُجلّونا من أرضنا الخصبة إلى هذه الأرض الجرداء...

¹ القوسان من المؤلف.

- تات، لا تدغ أحداً يسمع منك هذا!

- اطمئني يا داربخان. لا فرق بين ما أقوله لنفسي وما أقوله لك. لا يخرج من بيننا.

- ولكن ألا يسمعك من تقول بحقه هذا الكلام؟ والأتراك الذين سيشكون بأمرك لن يغفروا لك.

- ما الفائدة من أن يفتح أذنيه من كانت أذناه مسدودتين إلى الآن؟... -
تمتم مزحج متوجهاً إلى من لم يعد يُكَنّ له الود ولا يصدق حبه له، ثم أضاف بلهجة أنعم لابنته: - أوافقك على أن من رموا بنا إلى أرضهم بعدما ظلوا يقولون لنا إنهم يفتحون لنا باب الجنة الذهبي لن يقبلوا مني هذا الموقف. ولماذا أكاشف هؤلاء الضالين المساكين بما في قلبي؟ ولكن إن كنت تريد هذا، وماء وضوئي جاهزاً، فلن أفوت صلاة الصبح التي اعتدتُ عليها. والآن إن كنت أرضيتك يا ابنة آل باغ داربخان فأنا أريد أن أعرف مصدر الماء وحزمة الحطب. أظنك استعبدت، ولو أننا الأبخاخ لا عبيد لنا، برانت حاتام.

- لا أعرف بمَ علّق على ما عبّرت عنه بالعبودية يا تات. جاء حاتام بكيس الحبوب هذا، ويقطعة الجبن اليباس، وبالزنازين الفضيين اللذين تركهما أبوه وأمه، وبالقدر الكبيرة كي نحفظ له بها، قائلاً إن ظاهرة السرقة بدأت تنتشر في الموقع. لم أذكر لك موضوعها لأنك رجعت مساء أمس متعباً. إن كان تصرفي غير صحيح أعدتها إليه.

- حسنٌ أن برانت وثق بنا. - ابتسم مزحج خفية، ومازح داربخان - ولكن ألن يتعقّن الجبن والحبوب...

- لن أدعها تتعفن! الحبوب سأعرضها للهواء، والجبن، الجبن الأديغي، يمكن تخزينه لثلاث سنوات، ألم تكن جدتي تقول لنا هذا.

- نعم، جدتك والكبار الآخرون كانوا يقولون هذا. وأنا شاهد عليه. ولكن لا اعتراض لدي على جبهة آل برانت لو عايشتها مئة سنة. - قال مزحج بلهجة لا تعرف منها إن كان يمزح أم لا، ثم أكّد على ابنته بصوت حازم: - سرُّنا نحن الثلاثة: القليل من الذهب والفضة الذي عندنا، انتهاء بمدخراتنا من الحبن والحبوب، لا يجوز أن يعرف به أحد. اليأس من الغد يغيّر سلوك الإنسان. وكما كانت تقول المرحومة جدتك التي لم تجد قبراً على قَدَرِ جسدها: سننتظر ما سيحدث. والآن سأتوجه إلى الصلاة وأسمع آخر الأخبار وتداول في أمورنا. إلى متى سنسكن الأجمة هكذا؟ وسنسأل من صرنا في ضيافتهم عما سيقدمون لنا. إذا كانت آمالنا محدودة فلماذا، من يعرف؟ والأفضل أن نُجهّز مجموعة من الرجال المسلحين تحمي الموقع، وأن نعيّن المختار الذي سيصرّف أعمالنا.

رأت الجماعة خلافاً لما توقّع مزحج أن الموضوعين اللذين كانا في ذهنه أتيا في الزمان المناسب. ورأسوا برانت حاتام على الرجال الواحد والعشرين المسلحين. غير أن تعيين المختار كان أعقد، وكان السبب في هذا هو باغ مزحج.

- أيتها الجماعة سأعلن اسم مختار ساكني الغابة الذين يرعاهم الله العلي الذي يتهل إليه الجميع ولا يتهل هو إلى أحد. - قال أحمد أفندي واثقاً من نفسه - إنه برقت زوال، إنسان صالح، حسن الطباع، وافر العقل، أدعو الله أن يشملته بعطفه ويحصّنه من الخطأ. وكلامه وفعله متلازمان. وكله رجولة. هو ممن سبقكم إلى تركيا - قال الأفندي بصوت حاد لا يتناسب مع عمره المتقدم، منصتاً إلى صوته، وأنهى باختصار: - ومن ذكرت اسمه يعلم به يوسف الضابط التركي.

- نعم، نعم - وافق يوسف الذي يعرف شيئاً من لغة الأديغة الأفندي. والولاية في طرابزون أيضاً تعلم بالأمر.

"اسمع ماذا يقول هذا! ألم يبق شاغل للسلطة في طرابزون إلا مسألة مختار الأديعة المشتتين في الغابة؟ - التفت باغ مزحج إلى كوبل هارون وابتسم - هؤلاء يحكون مسألة فيها مكسب لهم. وبرقت مناسب جداً لمثل هذه المسألة... هذا الرجل لم يعد إنساناً في نظري، ولا في نظر أقرانه، ولا أبناء قريته، بعدما ركب السفينة التي ما اتسعت لنا، عابراً على ظهور الناس.

- ما رأيكم أيتها الجماعة في الموضوع المفروغ منه؟ - سأل أحمد أفندي الآن بجسد وصوت متصلبين.

- أيتها الجماعة، لا أظن أن بيننا من لا يعرف حقيقة برقت زوال - خرج باغ مزحج بجسده الضخم من بين من معه - حين كنا نقاوم من طردونا من بلادنا، ونحمي أنفسنا، لا أقول إنه لم يُبدِ رجولة، ولا إنه سَلِمَ من الجراح، وربما لا يخلو من بعض المناقب التي وُصِفَ بها، غير أنكم رأيتم بأعينكم طريقة خروجه من البلاد إلى تركيا. هل رأيتموه بين أبناء جلدتنا الذين هبّوا ملهوفين لاستقبالنا قبل أيام حين خرجنا من السفينة ونحن على شفا الموت؟ إذن كيف نقدّم إنساناً عديم الرحمة مختاراً لنا؟

أحمد أفندي الذي كان واقفاً كمن لا يبالي بالموضوع، واثقاً أن الخطاب الديني الذي يبعث الرهبة في القلوب يمكنه أن يخرق العقول والقلوب، جعله كلام مزحج يتأني:

- أنت على حق يا مزحج.

- لا يُسَلَّم منصب المختار إلى مثل هذا الشخص.

- إن كان هذا رأيكم يا جماعة - غير الأفندي موقفه مقتنعاً أن خطته لن تنجح - سنفكر في حلٍّ آخر، وسنخبركم في أحد الأيام بمن اعتمدناه.

- لماذا أيها الأفندي، وأنت أيها الضابط تصدعان رأسكما إذا كنا نحن من سنختار حسب النظام - قال ناؤرز زَغاشت - ها قد اجتمعنا اليوم فلنقرر مختارنا دون ملاحظة. وإن وافقتموني فأنا أرشح باغ مزحِب، سيكون مختاراً جيداً. هو من أسرة عريقة، من منكم لا يعرف جده إبراهيم ووالده أسلانج؟

- لا يا زغاشت، لا يا جماعة - استعجل مزحِب - لا أريد أن تفهموا أنني تكلمت من أجل شخصي. إن وافقتموني فأنا أرشح كُوبل هارون.

- معك حق، هو رجل صالح، ووالده جرمت عجوز حكيم، أحسن الاختيار - بعدما اتفقت الجماعة لم يبق للأفندي وللضابط يوسف وبرقت زوال، وبضعة الأشخاص الآخرين المحضرين للكلام، ما يقولونه. فافترقوا بالدعاء وكلٌّ محتفظ برأيه.

الفصل الثالث

الأسر التي منوها بجل مشكلاتها في خلال أسبوع ما تزال تقطن الغابة وتعدادها ينقص كل ساعة. وبالمقياس إلى الأيام الماضية فقد نقصت مناحاتهم. ولم يكن السبب أن الأمراض السارية كَفَّت عن الفتك بهم، أو أن تغذيتهم تحسنت بل لأنهم كانوا اعتادوا على الموت وعلى دفن أمواتهم، فكانوا، وقد رضخوا للأمر الواقع، يدفنون موتاهم بأنفسهم. كانوا وهم اليائسون الذين لا بارقة أمل أمامهم يدفنون، كلٌّ في مكانه، موتاهم. ويجدون مكاناً لموتاهم مقابل حفنة من الذرة أو كسرة خبز.

- من حسن حظنا أن النهار دافئ وإن كان الليل بارداً، ولا مطر - قال المختار هارون لبرانت حاتام المسؤول عن الحراسة الذي لا يعرف الكلل والملل. ثم أضاف وهو يَمُرُّ بإصبعه النحيفة على شفثيه الجافتين - لا أعرف ماذا

سيحدث لنا إذا أضيفت البرودة الرطبة إلى مآسينا. أقول هذا ولكن ماذا سيحدث لنا أسوأ مما حدث!

- تمام يا هارون، تمام. يُخَيَّل لي أحياناً أننا خدعنا أنفسنا بأنفسنا... - تنهد حاتام بطريقة تدرك منها ثقل ما في أعماقه على جسده الضخم. من كان يعرف أن تركيا التي أتينا إليها فقيرة إلى هذا الحد؟

- وأنت ترى هذا؟ - سأل هارون بتثاقل، ثم أصلح بصوت أحزم كلام زميله الأصغر - لم نأت بل طردنا إليها.

- صحيح، أظن أنه تعبير أدق.

- لا تظنّ، بل آمن به! - ثم سأله بطريقة ألطف: - أ تكون فكرت أنت أيضاً بالعودة؟!

- ربما كان الإنسان الذي أجبر على هجر بيته وأرضه الخاصين به، ولم يعد يرغب فيهما، هو من فقد الذاكرة والأمل... تخطر لي العودة التي تسأل عنها، ولكن ما أُملي وأنا من سحيث والديّ في السفينة الغريبة، ودفنتهما في هذه الأرض الغريبة. وأختي الصغرى صارت طعاماً للأسماك على الطريق!

- وما العمل؛ جرت لنا مآسٍ كثيرة. والأرض التي لم نستطع حمايتها نحن وأهلونا وأصدقائنا وأقربانا بالرجولة والسيف وحدهما تركنا فيها أنقاض قرانا المحروقة ومقابرنا. ونحن، وإن أشفقنا عليها واشتقنا إليها، سنغنى بين من وجدنا أنفسنا بينهم مرغمين نتوسل إليهم، ونتذلل. - أعاد كوبل هارون الذي كان قاعداً لا تجري ابتسامه على وجهه، إلى الماء، قطعة الحجر التي استخرجها من الساقية بعد أن قلبها حتى أدفأها. ثم ابتسم ابتسامه خفيفة كأنه تذكر شيئاً كان قد نسيه: - نعم، نعم، وهؤلاء الأتراك أقوياء محاربون مثلنا، حساسون للإهانة، يتمتعون بالحمية. إن عرفوا أنك يمكن أن تتساهل معهم فسيذلّونك.

منذ أن استلمت منصب المختار لم يدعني الضابط يوسف أحداثه بذرائع مختلفة. واليوم الوحيد الذي اجتمعنا فيه قال لي حاملاً برقت بشاريه المخلوقين على الطريقة التركية، على السخرية مني: ما كان عليك أن تقبل بالمنصب الذي لا تستطيع النهوض بأعبائه.

- ربما لا يعترف بأنه سمين من منصبه... - قال حاتام والأحزان التي تمر أمام عينيه كل يوم تهيج - ما نراه نحن من عذابات لا نهاية لها يكاد يغيّر كل ما في دواخلنا... لا أفهم سلوك برقت معك ومع مزحّب، وأنتم الذين حارثتم معاً أعواماً. نسي سريعاً ما عانيتم معاً.

- لا أعرف بمَ أعلّق على هذا. أعيدُ التفكير: ما الفائدة الآن من أن تلوم من فقد شرفه فأسرع إلى هنا دون أن يدفن زوجته التي هلكت على الشاطئ... ولكنني أستغرب أنه لم ينضمّ إلى من هزمونا كما فعل "نقج". وهو الذي، إن كنت تتذكر، كان يحلم طوال عمره حتى بمنصب المختار أو الخادم.

- ربما لم تسنح له الفرصة...

- ربما. لا يا حاتام، لا. تستطيع أن تعرف من التكوين الجسدي للإنسان صفاته الخارجية، ولكن من الصعب معرفة ما في دخليته. - استرعى انتباه هارون صوتُ عربة الركاب الصادرُ من أعلى الساقية، وغمغم حين رأى الضابط يوسف وبرقت الذي عمل سائساً عنده: - ها هما قادمان، على مبدأ: من تأت على ذكره تجده أمامك.

¹ هو اسم لَمَزْ بمعنى الأعشى، ضعيف البصر جداً. واسمه الحقيقي جامبج، رجل من قرية برج نفسها، ورد ذكره في رواية المطرودون. انضم إلى الروس وقاد كتيبة من الفرسان القبرتاي، وقُتل على يد أخي زوجته.

- انظر إلى هذين! - قال برقت زوال وهو يقفز من العربة مُسمِعاً الضابط - يتناسيان الناس الذين يموتون من الجوع والبرد فيبتدران بالماء. - ثم أضاف معبراً عما في نفس الضابط التركي: - هيا حياً الضابط الذي صار في حضرتكما بما يليق به!

- إن كنت يا برقت "تغني أغنية من تركب عربته" فلا تحاول أن تعلمنا. - ردّ برانت حاتام على من أهاهما، ثم استقبل الضابط التركي على طريقة الأديغة وكأنه لم يسمع شيئاً: - تفضّل أيها الزعيم!

- سنفعل إن كان ماء الساقية بارداً ونظيفاً - هيا يا زوال اسقي من قدحي الخاص، هذا ماء طاهر، ولذيذ - امتدح ما شربه بعدما أمر زوال أن يصبّ له على يده ما تبقى من الكأس. ثم أمر أبناء غير قومه، بمن فيهم سائسُهُ: - يجب حراسة هذه الساقية. لا تدعوا المرضى وغير المرضى يلوّثونها. وأفضل طريقة لحمايتها هي أن تفرضوا رسماً، ولو غير كثير، على كل من يرتادها.

- يطلبون منا أن ندفع ثمن ما تخرجه الأرض من تلقاء نفسها في حين لا ندفع ثمن الخبز؟ - سأل هارون واستياؤه مما سمع أكبر من استغرابه.

- الخبز يمنحكم إياه سلطاننا المعظم عبد العزيز باسم الدولة، جازاه الله على إحسانه! والأرض التي تنبع منها هذه الساقية، والأجمة المقيمون فيها، والأمكنة الأخرى، حتى اللسان البحري، كلها ملك لقائد الجيش مصطفى باشا الذي يحارب في البلقان الكفار أقرباء القوم الذين طردوكم من بلادكم.

- وزعيمنا الضابط يوسف ابن أخته - أضاف برقت زوال إلى كلام من يركب عربته.

- وتلك السماء؟

- أيّ سماء؟ - أعاد برقت السؤال.

- وهل السماء التي تُظَلُّنا له أيضاً؟!

- يا كوبل، لا تدع برانت يتفوه بمثل هذا الكلام. نَقِّدُوا ما أمركم به الضابط يوسف في موضوع الساقية.

- تمام، تمام، لا غبار على هذا الكلام. - وافقه التركيّ - تدفع ثمن كل شيء تشتريه.

وفي اللحظة نفسها سُمِعَتْ أصوات المنادين من جهة الأجمة:

- وصل الخبز، تعالوا إلى الشاطئ!

الأجمة محاطة بالجنود الأتراك خوفاً من انتشار عدوى الأمراض. ومن يَمْنَح الإذن بالدخول بينهم والخروج هو الضابط يوسف. وكانت هذه المهمة أكثر المهام فائدةً في هذا المكان. وعلى ما يبدو فإن مصائب بعضهم فوائد عند غيرهم، ومصدر دخل لهم.

الناس يخرجون من الغابة من أماكن متعددة: مَنْ عنده العزم يَحْتَ الخطأ، ومن لا حول له لا يكاد يتحرك. والمرضى القادرون على تحريك أرجلهم يأتون بهم. ومن له حصة من الخبز بين الأطفال تحملهم أمهاتهم. والأطفال القادرون على السير يتدافعون نحو الشاطئ. وما يزيد على المئة ممن جاؤوهم بالخبز على المراكب ينتظرون دون صوت، قلقين إن كان ما يُعْطَوْنه منه سيكفيهم أم لا، كما حدث أمس. والجنود المكّمون يسمحون بالمرور واحداً واحداً لمن سيرمون إليهم بالخبز من بين الصفين. يمتحنون إن كان الرُّضْع المحمولون على صدور الأمهات أحياء.

والضابط يوسف وأحمد أفندي وبرقت الذي لا يمكن أن تعرف أنه هو السائس وعدد من الجنود المسلحين يتنحون مكاناً غير قريب. ومقابلهم يقف باغ مزحج وكوبل هارون وناورز زغاشت وبرانت حاتام وكوبل جرمت العجوز.

ومرة أخرى بقي زهاء عشرين شخصاً بلا خبز بعدما انتهى توزيع الخبز الذي جيء به في مركبين. ومن بينهم صرخت امرأة خارت قواها وهي ترى المركب يبتعد:

- واليوم كالبارحة بقيت بلا خبز! كيف سأعود خالية الوفاض إلى أُمي المسكينة؟!

- هذه الطريقة في توزيع الخبز غير صحيحة - قال جرمت العجوز - يجب البحث عن حلٍّ ما - نحن أدیغة. لیحرص بعضنا على بعض إذ نحن في وضع صعب! لِنتناسم خبزنا مع من لم یصل إلیهم خبزهم! قد یحدث لأحدنا غداً ما حدث لهذه المرأة الیوم. یا هارون ورّع حصتي أنا على هؤلاء!

- مهلاً، لا تفعلوا هذا، - خرج یوسف الضابط موجهاً كلامه على نحو أخص إلى دارینخان - یا زوال عندي في العربة شيء من الخبز ورّعه على من بقي بلا حصة. تمام، وأنا لا أرى هذه الطريقة في التوزيع مناسبة. لو استطعنا أن نُفهم من هم فوقنا خطأ هذه الطريقة لكان حسناً.

- إن كان الخبز يُشحن لأجلنا - ردّ باغ مزحج على الضابط - فلْيُكَلّفونا نحن بهذه المهمة! سنوكل إلى عدد من الأشخاص توزيعه ونوصله بالتساوي إلى كل الناس. ولكن أيها الزعيم یسألنا الناس: إلى متى سَتُبْقون علينا في هذه الغابة؟

- لا شأن لي بهذا، هذا من شأن الله - حسم الضابط یوسف، ثم اختتم بلهجة ألطف: - حين یلتفت إلیکم الله بعین الشفقة فتتخلصون من الأمراض التي نقلتموها عن الكفار. یقال إن هذا یحتاج إلى شهر، أفهم وضعكم - ثم توجه إلى الرجال الذین دبّ فیهم الشغب فاجتمعوا: - رئیس في طرابزون، ورئیسه السلطان الكبير مهمومون بقضیتکم. وبما أن البلاد الإسلامية التي

تحسين إليكم تتصرف بأمر السلطان فإنه يتأمل منكم أنتم أيضاً أن تتحللوا بالصبر، وتأتمروا بأوامره. الله أكبر!

كان ما يُقلق الرجال الذين ردّدوا مع الضابط بأصوات متنافرة: "الله أكبر" هو ما سيحدث غداً وبعد غد:

- ما العمل؟ سأل باغ مزحج، وأجاب دون أن ينتظر أحداً: - لو اجتمعنا بسلطان هؤلاء لكان أمراً مستحسنًا. ولكن لن يُسمح لنا. يقال إن مرزخوي محمد متنقّد في إستانبول... عجيب أنه لا يُخالطنا...

الفصل الرابع

الجو اليوم معكّر. والوقت وقت صلاة الظهر. وأصوات المؤذنين التي تُذكر المسلمين بأصوات تبعث على اليأس تتجاوب في أرجاء إستانبول. والشمس التي فقدت لمعانها في كبد السماء تزحف ببطء إلى ميعاد الهاجرة. والهواء الحار الذي تعب في هذا اليوم الضائق بحرّه يختبئ في الأماكن المنعشة. والغربان التي أجبرها حرُّ النهار على الاستراحة تنظر من خلال أوراق الأشجار الفاقدة لحيويتها، وتتنازع على آثار المياه فاغرة أفواهها، عاجزة عن الخفقان بأجنحتها. والحمير التي لم تنس موعد الظهيرة تنهق بأصوات عطشى.

الباب العالي للسلطان التركي^١ الذي يضم الحي بأكمله بجدار حجري عال كأنه فارغ في هذه اللحظة. ويُحْيَل إليك أن الجنود الذين يحرسون البوابة الكبرى من الأمام ومن الخلف مزروعون في أماكنهم.

^١ بالتركية طوب قابي كما يكتب إسحق، ويعني بوابة المدفع، أكبر قصور إستانبول، ومركز الحكم.

يذرع السلطان عبد العزيز أرض القاعة الكبيرة الباردة بعدما صلى صلاة الظهر، وييده السُّبحة الزرقاء. يقترب من النوافذ التي تمتع أشعة الشمس الحارقة، ويتتعد. يفكر في مشكلات الأديغة. ليس اليوم أو هذا العام يفكر في الموضوع، بل منذ بُوؤوه منصب السلطان عام ١٨٦١. صحيح أن الحرب القفقاسية انتهت بانتصار الروس ولكن مشكلة الأديغة المطرودين لم تنته بانتهاؤها. وتركيا التي كانت تظن أن إحسانها إليهم يفيدها ورّطت نفسها في مشكلة. وعبد العزيز بالقياس إلى أخيه الأكبر عبد المجيد شخص آخر تماماً: إنه ظالم نزيق ينقصه التهذيب.

عندما حان موعد طعام السلطان دخل إلى غرفة الطعام المجاورة التي فيها طاولة وحيدة محدودة الأبعاد ومقعد وحيد. غسل يده بالكأس الذهبية على الطاولة الأخرى غير البعيدة عن الأولى، والتي يلعب عليها ماءً فضي. ثم تناول دون شهية لقمة من كل طبق، وشرب ماءً نقيراً، ونهض. وأمام الموعد المحدد لوزير خارجيته علي باشا ساعة ونصف. وحين تذكر الاجتماع الذي تحدثوا فيه في شأن الأديغة قبل أيام نظر برأس منتصب ووجه نحيف نحو النافذة المتجهة إلى البحر الأسود، وأنصت، ثم تابع تمشّيه على أرض القاعة: "لو أطاعنا الأديغة وصاروا جزءاً من دولتنا الكبيرة لما حدث لهم ما حدث الآن. وابنة هؤلاء جدّتنا ماذا تقول؟ تذكر القول الأديغي المأثور: تقول بما نعبّر عنه بلغتنا التركية "من لا يسمع الكلمة يخطئ" — إذا أطلقت العنان للإنسان أصبح ضبطه صعباً، ولذا يوقعك في مثل هذه المآسي... ظل الروس يحاربوننا دون انقطاع من أجل البحر الأسود الذي يحتاجون إليه حتى التجأ إلينا الأديغة الذين لم نشاركهم في حماية بلادهم الممتازة، وهم غير رغبين البتة فينا... البلقان التي يعيش فيها شعب من المسيحيين من عرق الروس ليست أوضاعها على ما يرام

من طرفنا. الروس الذين يسمون أنفسهم بالسلافيين يتألفون من أعراق كثيرة كالعرب، ما شأهم بنا... وهؤلاء العرب لا تمر سنة دون أن يثوروا. العرب الذين صاروا جزءاً من إمبراطوريتنا العثمانية حين شتت جدُّنا سليم المماليك في مصر ينظرون إلينا شزراً وإن كانوا هادئين الآن. ولكننا يمكن أن نتفاهم معهم بطريقة ما لأنهم مسلمون. المشكلة الأخطر علينا الآن هم أهل البلقان الذين يؤلبهم الروس ضدنا. والجنود المحافظون على الهدوء هناك يجب تشديد الروح القتالية فيهم. والقائد الذي وجهته إلى تلك الأنحاء مصطفى باشا لا ينفكَّ يُلح على هذه الفكرة..."

قال السلطان عبد العزيز مستاءً للضابط ممد الذي جاءه بملفٍّ أعماله اليوم إذ قطع عليه أفكاره:

- أسمعك.

- جدتك بيكا يا سلطان السلاطين المنير عبد العزيز...

- هل دعوتُ جدتي اليوم؟

- لا يا بديل الشمس، هي من تريد رؤيتك.

- الجميع يحتاجني. أنا مدين للجميع... - غمغم السلطان وأجاب دون أن

يفارق النافذة: - دُعها تدخل ما دامت جاءت.

مع أن اليوم كان معكراً وباعثاً على الضيق فالسيدة الكبرى ذات الثمانين عاماً التي تنتعل صندلاً تغلب الزخرفة عليه وثوباً أسود واسعاً، وتعصب جبينها بمنديل أبيض، وتغطي رأسها بغطاء حريري رقيق، وصلت متكئة على عصاها الفضية وقالت للسلطان:

- يا سلطان الترك! لم آت إليك لأرى ظهرك المخني، كم مرة تبهتكَ منذ صغرك أن تقوِّم ظهرك!

سأل السلطان الذي استقام راضحاً للصوت القوي غير المنتظر، غير عارفٍ تفسير ما يرى:

- لماذا يا سيدة الترك الكبرى ترتدين هذا الثوب الأسود في هذا الجو الحار؟ هل حدثت مصيبة ما في القصر؟

- ارتديت الثوب الأسود حداداً على أبناء قومي. ما الأمر؛ ألا تراه مناسباً؟ أم أفعُل ما لا حاجة لي إليه؟ هيا قَرِّب إليّ المقعد واجلس أمامي. سأسمعُك ما لم أكاشف به والدك وأخاك الأكبر المتوفيين، وأنت أيضاً. ربما كتب الله عليك هذا. إن فهمتني كان هذا من دواعي سروري، وإن لم تسمعني فأنت سلطان الدولة العظمى وأنا لستُ صاحبة القرار. سأتحملُ كما تحمِلُ غيرها من القضايا الأخرى.

- ما أشد ما فقدتِ أملك يا جدة الترك الكبرى!

- أنا يائسة، والإهانة تُحرقني.

- أسمعُك يا جدتنا. - قال عبد العزيز دون أن ينسى أنه سلطان، ضاغطاً بكل قوته ظهره المحني الذي عيّته به الجدة إلى مسند العرش.

- لا يكفي أن تسمعني، يجب أن تلبي طلبي.

- لا أتذكر أنني أخلفت بطلب من طلباتك يا جدتنا.

- الوقت الذي لم تكن تخالفني فيه هو زمن طفولتك.

- أهو حين كانت عصاك تصيب ظهري أحياناً- ابتسم السلطان ببراءة - فأرضخ. كنت ولداً شقيماً مشاكساً.

- هل تتذكرين حين رماني الحمار من على ظهره فأمرت بقطع ذيله؟

- لا تهمني بما لم أحن. حين لم يستطيعوا إسكاتك تصرف جدُّك هكذا لتتشفّى من الحمار. كفى، ارتكبت أخطاءً كثيرة. ولم يبق لي عقل يتذكر كل

هذه الأحداث... أسمعني أخبار الأديغة الذين يجري شيء من دمهم في عروقك! أقصد ما عليك نحوهم ولم تفعله أيها السلطان. ما جرى لهم يتحمل الترك قسطاً من مسؤوليته. ولم يكن جدك ولا والدك بريئين. كانا يؤلِّبَانهم تحت ستار من الوعود الخالابة.

- هؤلاء البؤساء، فتحنا لهم أبواب إمبراطوريتنا لأنهم من ديننا، وأنت تعرفين هذا يا جدتنا.

- لا تعلّمني ما أعلم! - حسمت بيكا السيدة الكبرى الموضوع باختصار، وأضافت بنبرة العتاب والنصيحة: - لا تتخلّ عن الناس الذين فتحت لهم بابك دون طعام ودون ضرورات الحياة. ولا تنس واجبك بصفتك مضيفاً. إن كانت أموالك لا تكفي فيها هي أملاك التي جمعتها لأيام الحاجة. - وضعت السيدة الكبرى صندوقاً غير كبير على حافة عرش السلطان. وخلعت خواتمها وأساورها وقلادتها وقرطيفها ووضعتها بجانب الصندوق، غير أنها استرجعت أحد الخواتم - هذا الخاتم كان أول هدية تذكارية من جدك؛ لأحتفظ به في القليل المتبقي من عمري!

- نان، يا جدة الأتراك، ما تفعلينه عيب! - هوى عبد العزيز على ركبته أمام جدته وقبّل يديها، ومسح على خديها - ليست تركيا فقيرة. - نحن، جدنا ووالدنا وأنا، مدينون لك بما قدّمت لها.

- أنا فعلت ما عليّ يا عزيزي - قالت السيدة الكبرى، واختتمت بصوت منكسر: - لن أنسى أبناء قومي أبداً ولو عشتُ والذهب يغمرني. والآن يفنى هؤلاء البؤساء على شاطئ طرابزون، يموتون في الغابات المحاصرة. نخضت بيكا السيدة الكبرى بسرعة كما جلست بما لا يتناسب مع عمرها. وفعل مثلاًها السلطان الذي كان جالساً حريصاً على استقامة ظهره. وقالت السيدة الكبرى

وهي منصرفة بقوامها الرشيق دون اعتماد على عصاها: - لا حاجة إلى أن يرافقني أحد في طريق عودتي. أعرف طريقي. وما قلته لك ليس رجاء؛ نفّذه!

قال السلطان عبد العزيز لنفسه وهو يتابع بنظراته جدته: "لا تسمعُ ما نقول لها بل ما تقوله هي!... ولسنا نحن من كان يجب أن يضطلع بأعباء السلطنة كما كان عبد المجيد يقول، بل هذه التي انصرفت تاركَةً لي ما تملك، متأمرَةً عليّ. نعم، لا أصفهم بما لا يجوز، غير أنهم، ولو كانت نساؤهم جميلاتٍ عاقلات متنفّذات كجدتنا، ورجالهم محاربين شجعاناً، لم يتصرفوا معنا، ولا مع الروس والإنجليز، بحكمة. ما الفائدة الآن من إدانة من سلبوهم أرضهم وطردوهم منها؟ ولكن ما الكلمات التي كانت جدتنا تسخر منا بها في طفولتنا "المغلوب لا يشبع من النزال"... أنا أعرف ما سأفعل معهم ويعيد إليهم وعيهم... حين أتحدث إلى الوزير علي باشا سنتطرق إلى موضوعهم وموضوعات أخرى..."

حين تنتصب أمام عبد العزيز قضايا صعبة الحل كان يستمر في ذرع أرض الغرفة كما كان يفعل والده عبد الحميد. وبعدهما قضى بعض الوقت يتمشى تمثّل له صندوقُ جدته كمن يراه أول مرة فتوقف. وبعد ما تردد لأياً لا يرى من اللائق تفقّد ما فيه، وضعه بحرص على الصندوق الكبير الذي بجانب عرشه دون أن ينظر إلى محتواه. خلع من إصبعه الوسطى الخاتم الذهبي المرصع بقطعة كبيرة من الأحجار الكريمة، الذي جاؤوه به العام الماضي من البلقان، ثم أعاده قائلاً في نفسه "لو قدّمتِ لأبناء قومك والذين يجري شيء من دمهم في عروقي، المطرودين من أرضهم، ألفاً من هذه الخواتم لما نفعَتهم، ولكننا نستطيع الاستفادة من شباهم في محاربة أقارب الروس البلقانيين المشاكسين العنيدين. وليُعرفوا أن أهل البلقان هم أقرباء أولئك الذين هجّروهم من بلادهم. وليُفعلوا

بهم ما فعله الروس بهم!... ما لم يستطع والدنا عبد الحميد أن يفعله في سلطنته. لا أقصد انتقاده ولكنه لم يتصرف على نحو صحيح بحق الأديغة في معاهدة سلام أدريانابول^١. أخطأ في القبول بشروط الروس الكفار في التنازل عن أراضي وبلاد لا يملكها... هؤلاء إن استحلّيت ماءهم "الأبيض المر"^٢ حدثت لك أمثال هذه الخطيئة... والآن دارت الأيام فرست على رقابنا مسؤولية مأساة الأديغة الذين ليسوا منا. ومن يفعل الشر يرتدّ عليه..."

دخل الضابط الحاجب على باب السلطان وأبلغه:

- وصل الوزير علي باشا.

- ليتفضّل! احمل هذا الصندوق حالاً إلى الجدة الكبرى بيكا - قال للضابط دون أن يُخفي عنه أنه وضع مفتاح الصُنديق في جيبه - وأبلغني بتسليمه لها.

حين توقف الوزير علي باشا، الرجل النحيف حليق الشاربين الذي لا يحمل أي سمات تركية، عند الباب استقبله السلطان مرحّباً وإن لم يضافحه:

- يسرني يا علي باشا أن نجتمع. اجلس هنا، ولنبدأ جلستنا بأحسن ما لديك من أخبار.

- لا أحمل اليوم يا بديل الشمس أخباراً سيئة إلا الأخبار المألوفة اليومية. سأطلّعك على نتائج اجتماعي بعدما تكلمنا في قضايا الأديغة قبل أيام بسفير روسيا في دولتكم نوفيكوف كما رأيْتُ بعينيك وبعقلك.

^١ معاهدة عُقدت عام ١٨٢٩ بين الدولة العثمانية وروسيا، ومن أهم بنودها هنا بند تنازل بموجبه تركيا عن الأديغة وتمنحهم لروسيا! مما سبب سخطاً بين الأديغة إذ كيف تنازل دولة عما لا تملكه. وتردد ذكرُ المعاهدة في روايات إسحاق ماشباش التاريخية بدءاً من رواية "خان جري".

^٢ الأهلّة من المؤلف.

- هل هم مسرورون لأنهم أنهوا حرب القفقاس لصالحهم، وحصلوا على نصف البحر الأسود؟! - ابتسم السلطان ابتسامة من خارج قلبه، وأجاب الوزير لأنه يعرف الجواب: - أسمعك يا علي باشا، أسمعك. ماذا تقول روسيا التي نقدنا لها ما تريد؟

- يُبلغك السفير نوفيكونوف رضا القيصر عنك لأنك تصرفت مع الأديغة، أبناء دينك، بحكمة، وفتحت لهم أبواب دولتك، وأبنت هكذا عن رحمة وشفقة. ويدعو لك بطول العمر. ويتأمل منك أن يكون موقفك منه كموقفه منك.

- يا علي باشا، يا من رعاك الله، لو أقمت جسراً من الذهب بينك وبين روسيا التي شنت علينا حروباً كثيرة لما استقر الجسر. الكفار أعداء الله العلي العظيم سيقولون الكثير. غير أن مهمة التدقيق في كل كلمة مما يقولون، بل في كل حرف، مهمتنا نحن. وهذا الخيث نوفيكونوف ألم يلمح لك بأي خبر يتعلق بالبلقان؟

- لا يا بديل الشمس، لم يفعل.

- عجيب، عجيب... جاءني من طرف الإنجليز خبرٌ مفاده أن الروس، بعدما انتهوا من مشكلة الأديغة، سيعضدون السلافيين أبناء جلدتهم في البلقان... أسمعك يا علي باشا، أسمعك. ثم ماذا تحدثتم في شأن الأديغة؟ هل سألت نوفيكونوف عن عدد الأديغة الذين نقدّم لهم العون؟

- ذكر لي رقماً يدور حول الخمسين ألفاً، غير أنني لم أصدق.

- ألا أنك وجدته قليلاً؟

- لا، وجدته كثيراً يا بديل الشمس.

- لا يبدو عليك أنك تراه كثيراً! - حين نهض السلطان ففر الوزير من مقعده. - نحن محتاجون إلى أناس، ولا سيما الذكور الشباب.

— ما أعداد الذكور الذين يأتوننا؟

— يقال إن في كل أسرة رجلاً، وعدداً من الصبية الذين سيصبحون قريباً رجالاً. غير أن الأمراض تُبيدهم.

— أخبروني بأن المرض فاشٍ فيهم فأكدت على سُلطاننا أن يحجروا عليهم في أماكنهم من الشاطئ قرابة شهر ريثما تختفي الأمراض. ما العمل؟ كل جماعة تهاجر مُرغمة تصاحبها الأمراض. الأقوياء سينجون والضعفاء سيقضون لأن الله قرر أن يمتحننا بهذه المصيبة... حان موعد صلاة العصر فلنُنهِ حديثنا القصير اليوم! وسنجتمع بعد أسبوع لبحث قضايا الأديغة. سنوطئهم في البلقان على حدود كل قرية كما فعل الروس بالقوزاق إذ وطئوهم بجوار الأديغة وعلى أرضهم، وسيكونون خير حاجزٍ بيننا وبين الأعداء... وسؤلف جيوشاً من الشراكسة لمحاربة الكفار. ليبقَ هذا الكلام بيننا، وفكرَ أنت أيضاً فيه.

ما إن خرج الوزير علي باشا من الغرفة حتى امتدح السلطان عبد العزيز نفسه: "أظنني أفلحت في ابتكار هذا الحل لهم" وحين مدَّ يده إلى جيبه لا يعرف لماذا فَعَثَرَتْ على المفتاح استدعى الضابط الحاجب على بابه:
— أعدْ هذا المفتاح إلى بيكا، السيدة الكبرى.

الفصل الخامس

تلبدت السماء فجأة فوق الغابة التي تؤوي الأديغة بمزيج من البرد والمطر والرعد. يتنادى الناس الذين بدؤوا يقفون على أرجلهم نوعاً ما، يختبئون في ما يشبه الخيام، وفي أقبائهم. والذين لم يتسنَّ لهم تجهيز مثل هذه الملاجئ يُهرَّعون إلى جيرانهم، والرجال الذين دفعوا الأطفال والمرضى والنساء والمسنين إلى أماكن جافة، والجالسون إلى موتاهم لم يجدوا الوقت لدفنهم، يجلسون

مجمعين، مغطّين رؤوسهم بفرائهم، يدعون إلى الله أن يفرج عنهم هذه الغمة المفاجئة، ويتواسّون.

كما يحدث أحياناً في الصيف انحسرت موجة الرعد والبرق التي تحمل المطر المصحوب بالبرد الناعم عن الأديغة اليائسين كما أتت فجأة، وضاعت تحت سماء طرابزون. والناس المعتادون سنوات طويلة على مآسي الحرب تابعوا أعمالهم التي تُنسيهم حياتهم القاسية ولو قليلاً: الرجال يتابعون أعمال دفن الموتى التي عوّقها المطر، والنساء يعلّقن السترات والملابس المبلولة بأغصان الأشجار. والمسنون القادرون على الحركة يعملون في إشعال النار. والأطفال يركلون بقايا البرد على الأرض، أو يجمعونها ويتراشقون بها. والفتيان يعيدون ترميم الأسقف التي عبثت بها الريح. ومن أعالي الغابة يُسمع صوت عدد من المسنين يغنون مع الربابة، ومن أسافلها أصوات نساء يندبن أحد الذين التحقوا برهم حديثاً. والشمس الباهتة غيرُ العابثة بما يحدث على الأرض تلسع من سمائها.

سأل باغ مزحج رفاقه غير متحمّل صوت الربابة وهو عائد من المقبرة معهم، وهو الذي شهد بعينه هذه التفاصيل كلها:

- أتسمعون صوت الربابة؟ وأصلح كلامه بسرعة دون انتظار الجواب: - ما العمل، وهذا جزء من الحياة. حياة الإنسان مزيج من الفرح والحزن. غير أنك لا تلاحظ في صوت الربابة ولا في أصوات المرددين فرحاً أو حزنًا.

- صحيح - وافق كوبل صديقه - كان جدك إبراهيم يقول: إنك لو عبثت حياتك مئة حياة لما فهمت المسألة. من أين كان لنا أن ندري أن هذه المأساة ستصيبنا فنجد أنفسنا لاحقين في الغابة؟!

- لم يحدث لنا إلا ما نستحق وما لم نفعله لأنفسنا بأيدينا - لم يوافق ناورز زغاشت رفيقه على شكواه.

- لسنا هذه الساعة في موقف يسمح لنا أن نتجادل مسوِّغين مصيبتنا بذنوبنا - قال باغ نادماً على كلامه الذي هيَّج رفاقه، واحتتم بأمل ما -سنُطلع الجماعة على الأخبار التي جاءتنا من طرابزون، والتي لم يسمح لنا المطر بإذاعتها بعد أن نعزي الأسرة التي قمنا بإجراءات دفن ميتها، ونتناقش في ما يجب علينا فعله.

الرجال الذين نسوا المطر الصيفي واقفون في مجموعات حسب قُراهم السابقة يتداولون في همومهم الحياتية. والنساء مجتمعات لا يتحدثن في موضوعات ذات بال بانتظار الاجتماع الذي سيُفتتح، يهدئن الأطفال والمشايخين، ويضممنهم إليهنّ، والأكبر منهم يصرفنهم إلى حيث يقف آباؤهم وأجدادهم.

قال باغ مزحج للمختار كوبل هارون:

- ربما أربك المطر المفاجئ الضابط يوسف. لن ننتظره، افتتح الاجتماع، لن ندع القرية تنتظرنا.

- سنمثل إذن، نحن الثلاثة الذين كنا موفدين إلى طرابزون، أمام الاجتماع. - وقف كوبل بصحبة باغ وناورز أمام المجتمعين، ثم نادى مُسمِعاً الجميع: - أيتها الجماعة التي أدعو الله أن يرأف بها، اقتربوا أكثر إليّ! سنُطلِعكم على الخبر الذي جئناكم به من طرابزون. وبما أنك يا مزحج من كان وراء زيارتنا إلى طرابزون فارو لهم!

- أنت يا هارون زعيم القرية، وأنت من يجب أن يروي الخبر، ولكن إن كان هذا رأيك فسأعمل بما رأيتم بقدر ما أستطيع. لن أطيل الكلام في ما قاله لنا حاكم طرابزون، أنقل إليكم إذ أن الناس يجب أن يعرفوا إحسان المحسن:

بالقياس إلى طريقة استقبالهم لنا في أجقاله فقد احترمونا في طرابزون. ولاحظنا فيهم اهتمامهم بأمورنا. أخبرونا أنهم سيمنحوننا بأمرٍ من السلطان قطعة أرض خلال أسبوع، وإلى حينها ستتضح الأمور، وأملونا في مساعدتنا على نفقات الانتقال.

- أين هذا المكان الجديد الذي تتحدث عنه يا باغ؟ - سأل رجلٌ يقف على رجلٍ خشبية مثبتة إلى ركبته.

- ليست في هذه المنطقة حسب كلام حاكم طرابزون.

- لتذهب هذه المنطقة إلى الجحيم! - صاح رجلٌ آخرٌ من بين المجتمعين متشفياً بمن يوجه إليه هذا الدعاء.

- والغابة التي اعتدنا عليها ليست مكاناً سيئاً... - قال آخرٌ - كان الأفضل ألا نبتعد عن الأرض التي تضمّ موتانا.

- وهل كانت البلاد التي أرغمنا على هجرها دون مقابر؟! تتم برانت حاتام الذي يحاول جاهداً أن ينسى أنه يترك في مقبرة الغابة قريبين له، ثم جلس.

كان ما يشغل بال سكان الغابة الآن هو خبر التهجير الذي أتى للتو من طرابزون مع أنهم ما زالوا يحتفظون بآلام البلاد التي خسروها. بعضهم كان يختار الترحيل فأَيّ مكان أفضل قطعاً من هذه الغابة. وآخرون كانوا يفضلون أرضاً على ساحل البحر، وما أكثر الأراضي هناك، إذ ستكون قريبة من وطنهم الأم يعودون إليه إن تغيرت الظروف. وليسوا قليلين من كانوا يقولون: لنعيش في أي مكان شريطة أن نكون بين المسلمين ولا نرى وجوه القوزاق الكفار. وكذلك القانطون الذين لم يعودوا يريدون أي شيء ليسوا قليلين.

- مهلاً أيتها الجماعة - قال باغ دون أن يدين أيّاً من الأطراف المتجادلة، وأجاب الرجل الذي فقد ساقه: - الحقُّ أيها الكبير لم أحفظ في ذهني اسم

المكان المقترح. ليس إستانبول. سمعت اسم بلقان، ولا أدري إن نطق باسم بلغار، والمقرر أن ينقلونا إلى ذلك المكان بالبحر.

- أيّ بحر مرة أخرى؟!

- أيمكن أن يُعيدونا إلى بلادنا؟

- لا، لا. المكان الذي سينقلونا إليه هو ما نطق مزحج باسمه - استعجل كوبل هارون - هل سمعتم: سيساعدونا في أجرة الركوب وفي الطعام، هذا ما فهمناه نحن من الموضوع.

- رجعتم، ثلاثتكم، من حيث أوفدناكم بعمل غير منجز - لم يستسلم الرجل ذو الساق الخشبية - لماذا أتوا بنا إلى هنا إن لم تكن إستانبول مدينة الله المقدسة مقصدنا؟ هل دفعتم ساقبي وفقدت أسرتي في حرب الكفار دون فائدة؟

- ساجني يا كبير - أجب مزحج الذي كان يكظم غيظه بصعوبة على الكلام الجارح الموجّه إليه - نعم، صحيح يا زاوريج، لا تؤاخذني، فُقدانُ إحدى رجلتيك مأساة، غير أن فقدان وطنك الذي لم تستطع حمايته أقسى المآسي. ونعرف أنك بقيت أبتر بلا أسرة. تحليت بالشجاعة وعبرت معنا البحر. ولا يخلو ما لُمتنا لأجله من الصحة. ولكن جهلك بلغة من قابلتهم يجعل استجداءهم صعباً، ما العمل؟ أطلعناكم على ما ينوون لنا ولو لم نفهم تماماً ما بلغوه لنا. وبما أن الخبر بشؤوننا هو الضابط يوسف فحين نجتمع به، وها هي عربته قادمة، سيُفهمكم موضوع هجرتنا على نحو أفضل. لنصبر، ولا ننسَ التصرف معه بما تمليه علينا خصالنا الأديغية!

من خرج من العربة المتوقفة هو برقت زوال. وقف إلى جانب المختار كويل هارون معتداً بنفسه، مصلحاً وضع سلاحه الفردي على الزنار العريض الذي يشبه ما يرتديه الضابط التركي. وقال دون أن يستأذن أحداً:

- يوسف الضابط المسؤول عنا بعد الله العلي العظيم توعّكت صحته في طرابزون فلم يستطع مقابلتكم اليوم. ولما أوفدني إليكم بعلم الله الأحد فهو يبلغكم ضرورة أن تستعدوا خلال عشرة أيام للرحلة إلى موطننا الجديد. ومن كُلف بتنفيذ أمور الرحلة هما باغ مزحّب وأنا. وإلى أين ستكون الرحلة يا زاوريج؛ أليست إلى البلقان!... إن كنت سمعت فماذا تريد أن تعرف أيضاً؟ وإن كان عقلك سيستوعب أكثر فإلى بلغاريا. وما شأنك بمكانها؟ سترها متى وصلت إليها. يكفي يا كوداي، تشغل نفسك بكل شيء، وتساهم برأيك في كل نقاش. كفك، كفّ عن مسلكك هذا، لست تعيل أسرة. ما الغريب إن كنت فقدت ساقك، نفّذ ما يأمرؤك به! مصيرك مصير أبناء قريتك... - ولما كان باغ مزحّب قلقاً بشأن الكلام المعبى الذي يخاطب به الرجل فقد اعترضه: - وما شأنك أنت أيضاً يا باغ؟ ما العجيب إن كان فقد رجله؟ أنتم تدللونه بأن تنفذوا له كل ما يطلب. من منّا، ابتداءً مني وانتهاءً بك، لا يحمل عاهة من الحرب أو ندبة؟!

- أهنتني يا برقت! - خرج كوداي زاوريج من بين الجمهور بخنجر مسلول ووقف مقابل برقت - أسرتي أحرقتها في قريتي السابقة ولم أتركها على الشاطئ كما فعلت أنت. إن كنت رجلاً فاسحب خنجر!

- يا زاوريج، ستجد فرصة للثأر! - اعترض باغ وهارون طريق كوداي. وأسرع رئيس الحرس برانت حاتام، ووقف أمام برقت الذي كان يتظاهر بالإسراع إلى خنجره.

- إذن إن كان هذا رأيكم، والمُهان يجد فرصة للتأثر فسأطيعكم... - أدار كوداي زوريج رجله المعطوبة بصعوبة ولم يعد إلى من خرج من بينهم، بل توجه إلى عريشته التي نصبها له المتطوعون. وما إن اختفى بين الأشجار الكثيفة حتى استدارت الرؤوس نحو مصدر طلقة المسدس. ركض الشاب إلى مصدر الصوت، وأسرع الرجال الذين كانوا يتوجسون الشر.

كان كوداي زوريك الذي تحمل كل هذه المشاق ولم يتحمل إهانة واحدة صريعاً على الحشيش اليابس.

الفصل السادس

مرة أخرى ها هم الأديغة على شاطئ البحر الأسود، ولكنهم يُعاملون بإنسانية أفضل من تلك التي لقوها على الجانب القفقاسي من البحر. حُملت في سفينتين الجماعة المؤلفة من أربعمئة شخص في طريق البحر نحو أوربا، وستكون محطة هؤلاء ميناء فارنا. وسيصلون بهم إليها بعد مسير ١٥٠ فيرستاً^١ تقريباً. وسيوطّنوهم في جبال ولاية ترغوفيشث مقابل عدد من القرى البلغارية.

الشهر الأخير من صيف تركيا يمضي منحدرًا إلى غايته. وبفضل الرطوبة التي تحملها الرياح الخفيفة لا تحرق أشعة شمس الهاجرة. وكلما ابتعدت السفينتان المتتابعتان زاد قلق الناس الذين لا يعرفون ما ينتظرهم. ويتذكرون الغابة التي فقدوا فيها نصف تعدادهم. ولا تفارق خيالهم المقبرة المزدحمة بموتاهم.

الفتى حَجَرَتْ ذو الخمسة عشر عاماً الذي تنباه باغ مزحج بعدما دُفن في الغابة أمه وأباه وجدّه فبقي وحيداً، يجلس إلى جانب دارينخان. وحين رأى الفتى

^١ الفيرست وحدة قياس روسية قديمة تساوي تقريباً ١٦٦٨ متراً.

برانت حاتمَ الجالسَ مقابلهم يمسح السرج الذي جاء به من البلاد ابتسم
فهمست داربخان في أذنه:

- لا تضحك؛ هذا سرج حصان والد حاتم!

- نعم يا حجرت، هذا سرج والدي - قال حاتم وهو ما يزال يمسح براحه
كفه السرج - من يعرف، ألن نجد حصاناً في البلاد التي يسوقونها إليها؟
حصاني الممتاز لم يسمحوا لي أن أصطحبه من الوطن. ربما هو الآن بيد قوزاقي
لعين... ماذا يجري في نواحيننا يا تُرى؟ من يستطيع أن يُخبرك بهذا؟..

- هذه الشمس تأتي من ناحيتنا، لو كانت تعرف الكلام لسألناها. - تبادل
حاتم وداربخان النظرات عاجزين عن تفسير ما قاله حجرت.

- صحيح، عبرت بلادنا - أيد حاتم الفتى - ولكنها خرساء معنا.

- ألن يأخذنا إليها ربان السفينة إن توصلتم إليه؟ وإن لم يقبل ألا يمكن
إجباره؟

- اسكت! - قاطعت داربخان كلام الفتى - لا تدع أحداً يسمعك. ألا ترى
هؤلاء الجنود الأتراك المدحجين بالسلاح؟!

- اجلسوا أنتم إذن! - نهض حجرت وقال وهو يُصلح وضع الخنجر الذي
ورثه من والده - أنا يا مزحِب سأخالط ذاك الجمع من الرجال وأستمع إلى ما
يقولون.

اقترب الفتى وهو يمشي مشية الرجال من الرجال المنتحين زاويةً من السفينة،
ووقف إلى يسار مزحِب فمزح معه ناورز زغاشت:

- أهذا أنت يا حجرت من لم أتعرفه، أراك ترتدي زياً كاملاً.

- إن كنت تقصد كسائي يا كبير فقد خرجتُ به من الوطن. أعطاني إياه والدي في اليوم الذي فارقَ فيه الحياة، وأنت يا مزحِب شاهدي، وهذا الخنجر قائلاً: "احتفظْ به، قد تحتاجه يوماً من الأيام." وكذلك حزامُ الجلد.

- نعم يا حِجرت، هذه قصة خنجرك - شهد مزحِب على صحة كلام الفتى، وأضاف ما لم يذكره: - وحزام الجلد أيضاً.

- نعم، يا مزحِب، نعم، كلامك صحيح. لم تُنسيني حزام والدي. والخف الجلدي الذي ألبسُهُ صنعته لي دارينخان من خُفِّ والدي.

- إذن دارينخان ماهرة ولا أعرف! - ما يزال ناورز الذي ليس على فمه أيّ تفكير بالابتسام يتأمل الفتى قائلاً في نفسه: سيكون هذا الفتى رجلاً!

- نعم، ماهرة! وإن لم تعرف إلى الآن يا زغاشت فما أنا أخبرك؛ أليس صحيحاً يا حاتام؟

- ما تقديرِك لمسافة المكان الذي يأخذوننا إليه؟ - تجاوز حاتام بسرعة السؤال الموجّه إليه، وأجاب على السؤال الذي طرحه هو: - حسب كلام برقت نحتاج إلى ثلاثة أيام لبلياليها.

- وماذا يعرف برقت من الموضوع؟ - اعترض كوبل هارون على ما سمع.

- نعم، وأنا سمعتُ الرُثان يقول هذا. - شهد باغ على صحة كلام برقت، وأضاف إليه: - إن كنا محظوظين فلن يداھمنا مطر البحر على الطريق. هذه

سفينة كبيرة مجهزة جيداً بالقياس إلى المركب الصغير الذي جاء بنا من الوطن. ولكن البحر متى هاج لا يميز كبيراً من صغير، الجميع متساوون.

- كان الأفضل لو حملتُنا هذه السفينة إلى بلادنا... - نظر حِجرت إلى حاتام وكأنه يحدث نفسه.

- ليس مستغرباً أن نشهد مثل هذا في ما تبقى من عمرنا - قال ناووز
زغاشت بين الواثق من كلامه وغير الواثق وإن كان ما سمعه سائراً له، واختتم:
- لو كان المكان الذي يأخذوننا إليه قريباً من بلادنا لكان أمراً حسناً. أفكر
في الأمر فأقول: ما أوسع تركيا هذه!

- ولماذا لا تكون دولة كبيرة مادامت تحتل بلاداً كثيرة من الشرق ومن
الغرب... - كرر حاتام ما كان سمعه - والمكان الذي يأخذوننا إليه يقال إن
اسمه بلغاريا، وهي بلاد سكانها من أقرباء الروس المسيحيين. ولكن لا أعرف ما
سيكلفوننا به هناك... نعم يا زغاشت كنت أخبرتي أن هؤلاء قوم كفار،
والمطلوب منا إخضاعهم لتركيا. أتمنى لو أدركت في حياتي هذا الوضع. إن
كنت لا أستطيع الانتقام ممن دمروا حياتنا فلا بأس أن أنتقم من أقربائهم.

- برقت آتٍ - قال كوبل، وأشار بيده إلى الأفق حيث يلتقي البحر والسماء
حتى جعل الناس يلتفتون - انظروا ما أشد حمرة الشمس الغاربة!

- لماذا أنتم كباركم وصغاركم واقفون؟ أنسيتم صلاة المغرب؟ - اقترب منهم
برقت الذي يسبقه دائماً لومته - سيعتب عليكم الترك الذين تركبون سفينتهم.
ليقف ورأي المتوضئون منكم فأصلي بكم!

- أنا بلا وضوء - قال باغ.

- وأنا أيضاً - وافق كوبل صديقه.

- أما أنا فمتوضئ - قال ناووز وسأل برقت: - ولكن متى صرت أفندياً لتؤمّ
صلاتنا؟!

- لن نقف يا زغاشت أمام الله الذي بيده الملك، يبتهل إليه الجميع ولا يحتاج
إلى أحد، بعد هذه الكلمات النابية. ولما كنت سألت فسأذكرُك: أحمد أفندي

وهو يفارق الحياة قبل أيام كلّفني بالإمامة من بعده. ولكن ما الفائدة من أن نتجادل إذا كان هؤلاء بلا وضوء؟ تعال نقف مع المصلين الأتراك!

- إن كنت ترى هذا فلا بأس. ولكن مهلاً مهلاً، أظني نقضت وضوئي...

- إن أسرعتم بالوضوء وجدتم وقتاً. تعالوا - انصرف برقت الذي لاحظ خُبثَ ناورز والآخرين.

- تعال - قال باغ الذي تمثّل لعينيهِ مرزخوي محمد الأفندي متابعاً المنصرف - لا تدعونا نقف هنا فيلاحظ من يرانا أننا لا نصلي. لنعدّ إلى أماكننا!

جرى توزيع الشاي في السفينة بعد صلاة المغرب. وبعدها بحوالي ساعتين أعلن مؤذن السفينة عن صلاة العشاء. نادى بعض الوقت بصوت يرقق القلوب، ثم تبدّد فجأة، كما بدأ، في البحر الذي يحرسه الهلال. ولم يكن حجرت نائماً وإن فرضوا عليه النوم. وتداخلته الهواجس وهو يفكر في السبب في أن مزحِب وحاثام لم يصليا المغرب والعشاء. وبؤدّه أن يسأل من صار بديل والده ولكنه لا يجد السؤال مناسباً. ومع ذلك لم يُطق صبراً على ما يشغل باله:

- يا مزحِب، أمن الصواب أن تفوّت صلاتي المغرب والعشاء؟ ماذا إن عتب علينا الله...

- لا تقل ما لا معنى له يا حجرت، عد إلى نومك! - نصحت داربخان الفتى دون انتظار ما سيجيب به والدها.

- لم يُخطئ أخوك الأصغر في ما قاله يا داربخان - قال مزحِب لابنته - يريد أن يجد جواباً لِمَا يشغل باله - نحن يا حجرت لم نُسئ إلى أحدٍ فيعتب علينا. ولكن إن أردت الحق فكثيرون اقترفوا بحقنا ما نعتب لأجله عليهم. أنا الوحيد الذي بقي حياً من آل باغ. - تنهّد بقوة وأضاف إلى آلامه: - أنا من كان الله غائباً عن قلبه، ولم يكن مخلصاً لكلامه، وقصّر في الدعاء إليه!.. لم أسمع

من مُسْتَيْنَا أَنْ أَحَدًا مِنَّا لَمْ يَتَقَبَّلِ الْإِسْلَامَ مِنْذَ انْتَقَلَ إِلَيْنَا. لَا أَعْرِفُ إِنْ كَانَ اللَّهُ سَخَطَ عَلَى أَحَدِ أَفْرَادِ أَسْرَتِنَا لِسَبَبٍ لَا نَعْرِفُهُ؟ إِنْ كَانَ هَذَا الْإِفْتِرَاضُ صَحِيحًا فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِأَسْرَتِنَا فَمَا ذَنْبُكَ أَنْتَ حَتَّى تَكْفُرَ عَنْهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُولَدَ؟ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ عِرْقُ الْأَدِيغَةِ بِكَامِلِهِ مَذْنِبًا؟ نَعَمْ يَا دَارِيخَانُ لَا تَجْزَعِي، أَفْهَمُ، مَقْصِدِي هُوَ أَنْ أُسْمِعَ اللَّهَ شِكْوَايَ. لَا أُرِيدُ أَنْ تَحْتَفِظَا فِي قَلْبَيْكُمَا بِكُلِّ مَا سَمِعْتُمَا. إِنْ كَانَ لَكُمَا رَأْيٌ آخَرُ فَلَا تَقْصُرَا فِي دَعَائِكُمَا. أَنَا سَأُرِيحُ ضَمِيرِي بِأَنْ أَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَكُونَ غَدِي مِثْلَ يَوْمِي. تَصْبِحَانِ عَلَى خَيْرٍ!

لَمْ يَشْرِقِ الْيَوْمَ الْمَرِيحُ الَّذِي تَوَسَّلَهُ مَرْحَبٌ مِنَ اللَّهِ. كَانَتْ الشَّمْسُ تَكَادُ تُشْرِقُ حِينَ سَمِعَ بَكَاءَ نِسْوَةٍ. وَفِي اللَّحْظَةِ نَفْسَهَا دَعَا رِبَانَ السَّفِينَةِ مَرْحَبًا وَبَرَقَتْ وَأَخْبِرَهُمَا:

- هَلْ تَسْمَعَانِ أَصْوَاتَ الْبَكَاءِ؟ فِي السَّفِينَةِ جِثَّتَانِ. وَحَسَبَ قَوَانِينِ الْمَلَاخَةِ يَجِبُ رَمِيَهُمَا فِي الْبَحْرِ. لَا يَجُوزُ أَنْ تَتَسَبَّبَ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ فِي مُشْكَلَةٍ. أَفْهَمُوا أَهَالِي الْمَيْتِينَ بِالْأَمْرِ. سَنَسَاعِدُهُمَا فِي الْكَفْنِ بِقِمَاشِ الْأَشْرَعَةِ إِنْ لَمْ تَعْتَرِضَا عَلَى خَشَوْنَتِهِ. لَا حَاجَةَ لِمَزِيدٍ مِنَ الْوَقْتِ لِلتَّنْفِيزِ.

الْأَدِيغَةُ الَّتِي اعْتَادُوا أَنْ يَكُونَ الْبَحْرُ قَبْرَهُمْ لَقُوا، دُونَ اعْتِرَاضِ الْجِثْمَانَيْنِ بِالْكَتْنِ الْمَتِينِ. وَحِينَ أَدْلَى بِهَمَا عَدَدٌ مِنَ الرِّجَالِ إِلَى جَانِبِ السَّفِينَةِ بِوَسْطَةِ الْحَبْلِ سَحَبْتَهُمَا الْأَحْجَارَ الْمَرْبُوطَةَ إِلَيْهِمَا إِلَى الْقَاعِ. وَلَمْ يَظَلْ الْأَمْرُ بِالنِّسَاءِ الْمُسْنَاتِ أَنْ نَصَحْنَ الْأَسْرَتَيْنِ أَنْ تَكْفَأَا عَنِ النَّوَاحِ.

مَضَى الْيَوْمَ الثَّانِي وَالثَّلَاثُ، بَعْدَ إِيدَاعِ الْجِثْمَانَيْنِ فِي الْبَحْرِ، دُونَ أَحْدَاثٍ خَطِيرَةٍ بِاسْتِثْنَاءِ بَعْضِ الْمَشَاحِنَاتِ. وَفِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ عَمَّ السَّفِينَةَ فَرْحٌ مَفَاجِئٌ.

- انْظُرُوا، هَا هِيَ الْجِبَالُ! - مَا إِنْ صَرَخَ حَاتَامٌ بِالْبُشْرَى حَتَّى ازْدَحَمَ طَرَفُ السَّفِينَةِ الَّتِي جَاءَ مِنْهَا الْخَبَرُ.

- هذه جبالنا! - قال غيره في غمرة الفرح، وأضاف: - وها هو جبلنا "أوشحه مافه" ^١ يُظَلُّها.

- يرحلون بنا إلى بلادنا، إلى وطننا - ساد الفرحُ النساءَ أيضاً.
وصل معاون الريان جزعاً يصحبه عدد من الجنود المسلحين، وهدد الناس الذين لا يسعهم فرحهم:
- لا تتجمعوا في جانب السفينة، ستقلبونها! - ثم أعلن أشد الأخبار مدعاة للحزن: - هذه ليست جبال الأديغة. بل جبال البلقان. غداً ستنتهي رحلتكم البحرية في ميناء فارنا.

الفصل السابع

استقبلت جبال بلغاريا الأديغة البائسين بقطرات مطر لا حارة ولا باردة. وأينما نظرت، إلى الأمام أو إلى وراء، وأينما أنصت إلى اليمين أو اليسار، لم تر شيئاً من خلال السحاب الخريفى المهيم على الأرض. ولا تسمع في الجوار إلا أصوات الأنهار غير القريبة وغير البعيدة. وهذا الصوت يعطي بعض الأمل وإن كان يبعث في النفس شيئاً من الحزن. ومن أصوات الكلاب المنبعثة من هنا وهناك تعرف أن الجبال مأهولة بالناس. ولكن المهاجرين يحرسون مكان استراحتهم في الظهيرة غير متناسين أن كل مكان في البلاد الغريبة خطير، وأن الخطر قريب كائناً من كان مصدره. ويتنظرون الخبر الذي سيأتي به رجالهم.
- يا حجرت! - نادت داريخان ملهوفة من اتخذته أحياناً أصغر لها؟

^١ جبل البروز الشهير. ويعني الاسم الأديعي: الجبل المبارك أو جبل الخير.

- يا لمصبيتي وأين ابني قاسم أيضاً؟ - جاوبتها آسيث زوجة ناورز زغاشت.
كانا قبل لحظات معاً. يا قاسم وبيا حجرت أين أنتما؟ أيمن أن يكون الكفار
الأجلاف اختطفوكما؟

استنفرت النساء. وتوجّه إليهن العجوز جرمت وهو يصلح وضع خنجره وسيفه
المتدليين من حزامه:

- إهدأ! وأين سيكونان؟ أتردّ أن يبقى أولادكن متعلّقات بأطراف
أثوابكن؟! ربما يقومان بأعمال الرجال كغيرهما... ألسنّ من طلب منكن
الصبر! - الآن نهر جرمت النساء اللواتي زاد هياجهن. - هذان سيعودان أينما
كانا إلى هنا. اليوم قلوبنا هي أراضينا وبيوتنا ولو كنا دون أرض ودون بيوت.
ستبقى بلادنا الأم في قلوبنا مادامنا أحياء ولو أهانونا بسلبنا إياها، وأينما عشنا
في بلاد غريبة رغماً عنا... وهؤلاء البلغار الذين نصفهم بأنهم أجلاف قساة
ليسوا أحراراً في أرضهم. لا تعتبوا عليهم إن نظروا إليكم شراً. وتذكروا القوزاق
الذين كانوا يوطّونهم في أرضنا... نحن قد نكون مثلهم هنا... - ها هما
الفتيان - ظهر حجرت وقاسم اللذان يحمل كل منهما على كتفه كيساً من
جلد الماعز في المرعى. - ها هما عائدان بخير، تفضّلاً أيها الولدان. ولكن لا
تقوما بعد الآن بمثل هذه الرحلة دون استشارة أقربائكما. هذه بلاد غريبة لنا.
- نحن لم نذهب بعيداً. كنا نستقي من الماء فحسب - قال حجرت، وألقى
نظرة اعتذار إلى داربخان.

- من رجاكما أن تذهبا إلى الماء تحت المطر؟ - سألت آسيث وعتائها يغلب
غضبها، ثم أكّدت لهما: - هيّا تدقّاً على النار، الماء يقطر منكما.

- وجدنا شلالاً لا ترتوي منه مهما شربت. أليس كذلك يا حجرت؟ - سأل قاسم ذو الأعوام الثلاثة عشر صديقه الأكبر حجرت وكأنه لم يسمع ما قالت أمه.

- نعم، أنصتوا، هو مصدر الصوت الذي تسمعونه، ليس بعيداً، أقرب حتى من غلوة حصان^١.

- أخطأنا على ما يبدو في تحديد صوت النهر... من هؤلاء يا تُرى؟ - تساءل جرمت وهو ينظر إلى الفرسان الثلاثة الخارجين من ضباب الظهيرة المثقل بالمطر، وأنهى بصوت يسمعه الجميع: - اصبروا، هؤلاء بشرٌ أيّاً كانوا.

- سلام عليكم - ألقى رجل أسمر جهماً من الثلاثة السلام. - وعليكم السلام - قال جرمت في نفسه: "من هؤلاء؟ ليس عندهم نية الترجّل، يبدو أنهم أجلاف". ثم أضاف جرمت بلغة الأديغة: - تفضلوا! يمكن أن نكون مضيفين لكم. لماذا ما تزالون واقفين يا من بارك الله في نسلكم. قدّموا لهم شربة ماء على الأقل. - قال للناس الواقفين وراءه.

حين حملت داربخان وعاء الماء قال لها حجرت: - هاتيه، أنا من سيقدمه لهم. - قدّم حجرت الماء للرجل الجهم، فلم يأخذه منه بل أشار إلى داربخان بطرف السوط يريد أن يقول: لتقدّمه هي. فأشار حجرت بيده إشارة الرفض، معلناً أنه أهانها بهذه الإشارة، وقال: - هذه أختي! تظاهر التركي بأنه لا يعرف أن من هم واقفون أمامه هم من الأديغة، وسأل: - هل أنتم شراكسة؟ هل أنتم مسلمون؟

^١ الغلوة: كما سيلبي حوالي أربعمئة متر إذا قدّرنا الإنسان يقطع أربعة كيلومترات في الساعة. وفي المعجم رمية سهم أو أربعمئة ذراع، والذراع خمسة وأربعون سنتيمتراً تقريباً.

- شراكسة ومسلمون. - أجاب جرمت وقد فهم مغزى السؤالين - ونحن لا نعرف مستقبلنا في هذه البلاد. نقلونا إليها لنعيش فيها.

- سكان هذه البلاد من دين الروس الكفار الذين طردوكم من أرضكم. - قال التركي الجهم فجأة بالأديغية، وقال لمن وراءه وهو يتتعد بصاحبيه: - يا شراكسة وجدتم أنفسكم في أرض يمكنكم فيها أن تتأروا لأنفسكم.

- مهلاً، توقّف لحظة أيها البائس ما دمت تعرف الأديغية! - صاح العجوز جرمت وراء المنصرف، وهو لا يعرف ما حدث لهم.

- في وقت آخر، نحن في سفر الآن... - قال التركي دون أن يلتفت.

- انظروا ماذا فعل بنا هؤلاء! - أنطقت الإهانة التي ألحقوها بهم جرمت وهو يتابع بنظرة الرجال الذين يضيع أثرهم في الضباب الرقيق. - لا أظنهم أناساً صالحين. دانونا بلغتنا التي كتموا عنا معرفتهم بها وانصرفوا. ولكن لا يمكن أن نصفهم بالأقايين المحرمين... أريد الأتراك الذين أحسنوا إلينا فجاءوا بنا إلى هنا أن نحارب؟! يالمصيرنا نحن الأديغة؛ أصبحنا لعبة بيد الآخرين!... مهلاً؛ أسمعون صوت الأذان؟ ويسمع أيضاً جرس كنيسة. يبدو أنه يعيش في هذا المضيق مسلمون ومسيحيون... ولا أعرف سبب تأخّر جماعة مزحج. وما هو الجوّ يصحو وإن كان المكان الذي ساقونا إليه خطيراً.

كانت الشمس تنحدر من كبد السماء في بلاد البلغار الغربية إليهم حين صحا الجو. مع أن الوادي بين الجبلين يبعث على الضيق بعد المطر فقد كانت بعض الغيوم البيضاء التي تحجب الشمس أحياناً الدليل لهم على أن خريفاً معتدلاً يحيم عليهم. أشجار البلوط والبطم في السهل والخور تغلب على أوراقها الصفرة المشربة بالحمرة كما يحدث في كل مضيق جبلي رغم أن بعض الأشجار الجبلية

ما تزال خضراء. ويصدر منها نعيق الغربان. ويدو في مضاحي الشمس المرتفعة
كسِف الثلج شبه الذائب.

- أتكُون أختك داريخان خصَّتكَ ببيعُ الشاي يا حجرت؟ - قال العجوز
جرمت وقد انتزع من حزامه الخنجر والمسدس - تعال تُلقِ نظرة على شلالك!
- ليس هذا مُلكاً لحجرت وحده. وأنا سآتي أيضاً - أسرع قاسم بالقول شاعراً
بالإهانة من إغفال اسمه.

- وأنت ستكون خير رفيق إن صحبَتنا، غير أنني أتوسم فيك الخير فأوكلُ إليك
مهمة رعاية المسنين والأطفال مكاني.

- هكذا؟ - توقف قاسم مسروراً لما سمع. - إن كان هذا رأيك يا جرمت
فلن أخالفك، اطمئن! ثم أكد على صديقه متكلفاً الرجولة: - يا حجرت
جانبوا قرية الكفار!

سأل العجوز جرمت رفيقه حجرت بعدما خرجا من المرعى ودخلا معبر الغابة
في المنخفض:

- أيّ قرية كفار يتكلم عليها ناورز الصغير؟

- هي في قلب الغابة، ربما ليست أكثر من خمسين أسرة - قال حجرت،
وأخفى بما لا يُطيقه: - ماذا نفعل في قرية الكفار التي تُسمع فيها لغة شبيهة
بلغة القوزاق إن لم نتصرف مع أهلها بمثل ما تصرفوا معنا نحن؟ تنهّد حجرت
وهو يتذكر ما عاناه.

- ما يجري عجيب، وما يجري لنا آيةٌ في الغابة... - خاطب العجوز جرمت
نفسه كأنه هو المقصود بالكلام، ثم سأل رفيقه: - وأنت تقول هذا يا
حجرت؟ إذن لنجلس هنا، ولنستريح قليلاً. وشلالكم لن يهرب منا. ستدليني
عليه.

- إن كان الطريق الجبلي صعباً عليك يا كبير فسنعود، لا يزال الشلال بعيداً جداً.

- إن كنت تظن أنني تعبت قبل أن نغادر ظاهر القرية فأنت مخطئ يا حجرت. أقول هذا لأن ما أراه في هذا المكان الذي ساقطنا إليه الأقدار يذكرني بكثير من الأمور يا ولدي... انظر هل ترى تلك الشجرة الوحيدة على الرهوة الصخرية؟ إن كنت تتذكر فالشجرة التي كانت تبدو من بعيد من أعالي قريتنا كانت تشبه هذه التي هنا.

- نعم، أتذكر. كنا نرى طوال النهار فُشَّتْ ووُفَّتْين ومَشاق. ولم يكن مرعى لاغوه - ناقة بعيداً عنا.

- وكيف لا تتذكر! كان عمري ست سنين أو سبعا حين رأيتُ ما ذكرتَ أول مرة... ما كان علينا أن نخرج من وطننا؛ كنا نشفي جرحنا بطريقة ما حتى لو عضنا الكلب ونحن على ظهر جمل... نعم، نعم يا حجرت. طردونا ولكن كان الأفضل ألا نقبل الخروج. ما الفائدة الآن من الجري وراء ذنب الحصان بعدما فوّتنا الرأس، كما كان جدي يقول. لن أدرك هذا وقد مضى من عمري ثمانون عاماً ولكن عليكم أنتم أن تعملوا للعودة إلى وطنكم بأي طريقة، احفظوا هذه النصيحة في قلوبكم... أقول هذا الكلام للابن الوحيد الذي بقي لي وهو المختار كوبل هارون فيتظاهر أنه لا يسمعي. إذا لم تبُحْ بمكنون قلبك من الآلام لإنسان ما، إن لم تنقّس عن همومك، فقدت صوابك... - تحامل العجوز جرمت على أوجاعه وإن كانت عيناه بدأتا تغورقان بالدموع: - كنت أودّ يا حجرت أن تفهم ما يُقلقني. والآن أتأمل منك خدمة: لا أريد أن يعرف أحد الضعف الذي اعتراني نتيجة شيخوختي وشهدته أنت. إن كان رأيك هكذا فالشكر لك. ولكن الحق أقول: الشلال الذي نقصده كلانا لا

حاجة لنا به. لن يكون كشلالات الأبراخ وإن لم أره. ولكنك ستفهم أكثر إن قست حلاوة ما لك إلى حلاوة ما ليس لك. انظر ها هو قطع غنم يرعى في المرتفع! - ما رآه جرمت جعل قلبه ينتفض. كان الأفضل أن نتجنب الراعي.

- إن أردت يا كبير تعرّفنا عليه. ولكنه راعٍ كافر.

- سنسلّم عليه كائناً من كان، هو إنسان.

- وكيف نتكلم إلى من لا نعرف لغته؟

- لا يعدم من كانت نواياهم حسنة أن يجدوا وسيلة للتفاهم يا حجرت. قيل لنا إن هؤلاء من سلالة الروس ولذا سأتفاهم معه بما لدي من القليل من خليط الروسية والقوزاقية.

حين استقبلهما الكلب العملاق وكأنه سيلتفهما قال جرمت لحجرت ويده على مقبض خنجره:

- لتتوقف ولنمتنع عن أي حركة! ولا تنظر في عيني الكلب.

نادى الراعي كلبه الذي كان يمزق شذقيه نابحاً فابتعد مع كثير من الامتعاض.

- مرحباً يا بيترو - حيا جرمت الراعي الأصغر منه ببضع سنوات على الطريقة القوزاقية، وامتدحه بالأديغية: - عندك كلب نشيط، لا يخالف أمرك.

- تَفَضُّلاً إن كانت نيتكما خيراً - أجابه الراعي بالبلغارية، وأفهمه وهو يربت على صدره مفتخراً أن اسمه هو ستيفان.

- حسنٌ أن يكون اسمك ستيفان، وأنا اسمي جرمت. وهذا حجرت، ونحن شراكسة. كنا نعيش في القفقاس، أنت تعرفها. والآن جاؤوا بنا إلى بلادكم... توقفنا في مرعى مرتفعكم.

- شركس... قفقاس... - هزّ الراعي العجوز رأسه معرباً عن تفهمه للمأساة التي حدثت لهم. - أخبرني حفيدي بوريس بنقلكم إلى هنا. اجلسا، وشارِكاني

غداي الذي لم أجد له الوقت إلى الآن. هذا خبز، وهذا لحم خروف، وهذا جبن خروف. وهذا شاي مجَهَّز حديثاً. وإن شئتما عندي من الخمر. لا، لا، أنتما مسلمان، لاتشربان منها. وهذا بوركا راجعُ. — أراهم الفارس الذي استقبله الكلب فرحاً.

حيّا بوريس ذو الخمسة والعشرين عاماً ضيفي جده بحزة رأس، وتجاوزهما. وبعدما شرب ماء بارداً انصرف وقد أدرك بحدسه هوية ضيفي جده إلى تقطيع الحطب.

— لم تُعجب هذا الذي عاد — قال حجرت متظاهراً بأنه يأكل.

— لا تهتم، ليس من شأننا تربية من لا إنسانية عنده.

— بوريس! — نادى الجد غير مرتاح لسلوك حفيده — توقّف عن تقطيع الحطب، وتعرّف إلى ضيفينا. هذان جاءا من مكان بعيد.

— أهذه أول مرة أرى فيها الشراكسة المسلمين! — أجاب بوريس دون أن يوقف فأسه، وغمغم: — وهؤلاء ليسوا أفضل من الترك الذين جاؤوك بهم.

— اسكثْ يا قليل التربية، ما تقوله عيب!

وفي اللحظة نفسها امتطى بوريس الحصان بعدما غرز الفأس في الحطب، وابتعد عن مستراح الخراف متبوعاً بالكلب.

— حفيدك لم يُطق رؤيتنا، تصرف معنا بنزق... — قال جرمت بلغته الخليط من الأديغية والروسية، وعينه على الفارس الذي كان يجمع الخراف على الراية، ثم نظر إلى الراعي الجدّ نظرة رضا، وابتسم له: — لم نستطع تجاوزَ مستراح أغنامكم لأننا نحن أيضاً رعاة غنم. إن كان أحدنا أساء لحفيدك — من يدري — فلن أسامحه.

- لا تؤاخذوا بوريس - انخفض صوت ستيفان وتنهد - والده، ابني، قتله الأتراك في العام الماضي ولذا لا يُطيقهم، وأنتم يشملكم معهم... - وأضاف بسرعة: - ووالدي أنا، وعمي، ووالد زوجتي، وكثيرون من أهل قريتنا قضوا على يد الأتراك. وكم من القرى البلغارية أنشؤوا حذاءها قرى تركية. والآن هل نتعارك نحن أبناء الأعراق المختلفة ونتذابح!

كان حجرت الذي لا يفهم خليط لغة الراعي من البلغارية والروسية يتظاهر بالإصغاء إليه، ولكن ما كان يفكر فيه هذه اللحظة هو سلوك بوريس الذي يكبره ببضع سنوات. "أهاننا بسلوكه وإن لم يُهِنَّا بالكلام، لسنا وحدنا من أهين بل جده أيضاً".

- ماذا يقول لك يا كبير من لم يستطع تربية حفيده؟

- حسب ما فهمت لم يقل مُضيفنا ما لا يليق. وهؤلاء أيضاً يعيشون مأساة مثلنا... - ثم قال للعجوز البلغاري وهو ينهض: - حقاً عالمنا كبير تضيع فيه، وصغير حتى لتعرف نفسك فيه. نعم يا ستيفان حياك الله على مائدتك وإنسانيته. ضاعف الله كل خروف من خرافكم مئة. لا داعي لليأس. ونحن إن حصلنا على قرية على ذاك المرتفع الصخري زادت لقاءاتنا وتوطدت علاقتنا. بالسلامة يا صديق. وتحياتنا إلى ذلك الشاب.

- مهلاً يا جرم، مهلاً! - ناداه الراعي العجوز - خذا معكما هذا الكيس. فيه من الخبز ولحم الغنم المجفف والجبن والملح. حقاً ليست كمية كبيرة غير أنها لا تخلو من الفائدة.

كان الوقت قريباً من العصر حين غادر جرم ورفيقه مُستراح الأغنام. ومع أن المطر الخريفى هطل اليوم والبارحة متقطعاً فالأرض جافة. والنهار يمضي إلى

نхайته معتدلاً. والهواء الخفيف يهب على أصابع قدميه، ويهمس في آذان أوراق الأشجار الملونة. ويهرب منها دون قصد.

- انظر كيف يراقبنا هذا! - يقول حجرت لجرمت - كأنه ينوي إطلاق كلبه علينا.

- ما أشد ما عاندتَ هذا الرجل!... انظر ما أجمل الطبيعة... - تابع جرمت كلامه دون انتظار ما سيقول حجرت: - وهذا الشاب ليس دون أحزان، سمعتَ كيف فارق أبوه الحياة.

- هذا له جد... وأنا من بقي في الدنيا غصناً مقطوعاً... شكراً لمزحِب، ولك أيضاً يا جرمت، ضممتاني إليكما. غير أنني حزين لكون بوريس لا يسمع كلام جده ولا يحترمه. لم يشنه عن عزمه توسُّله إليه أو تخوُّه إياه. والعجوز ستيفان عجوز حكيم. يبدو حازماً. ولكني لم أفهمه. يخيل إلي أنه رَحِب بنا من خارج قلبه. وهذا الكيس ما كان علينا أن نأخذه كأنه صدقة... كان الأفضل لو سَخَتَ نفسه فأعطانا خروفاً...

- أكنت تستطيع حملَه؟ - سأل العجوز غير راضٍ عما سمع، كاظماً انفعاله.
- ما كنت أدعه يتحرك! - أسرع حجرت بالردِّ - أتعرف ماذا كنت فعلتُ به لو لم أستطع حملَه؟ كنا ذبحناه فسهل علينا حملُ اللحم. كنا في طريقنا إلى الشلال فوجدنا مورد رزق سهل المنال يا كبير. إن سرقنا من قطيع العجوز البلغاري خروفاً أو اثنين فلن ينقص. وأنت تقول إن هؤلاء من قوم الكفار الذين طردونا من أرضنا. ويوافقك مزحِب وحاتام وزغاشت.

- اجلس هنا! - قال العجوز جرمت باختصار وهو يجلس على الحجر.

- هل تعبتَ يا كبير؟

- لا، أريد أن أحقق في عينيك. لا يجوز يا مبارك النسل أن تفعل هذا بمن ذقت من طعامهم. ما كنا نعرف أن هؤلاء من قوم من حرمونا من الوطن. الترك هم من أخبرونا. إن وافقناهم في كل ما يقولون كانت نهايتنا.

- رضاي عن نفسي يتحقق حين أثار لجدي وجدتي ووالدي ووالدي وأخي وأختي، وكل من سقط على أرض وطننا. ساحني إن كانت كلماتي عنيفة أكثر مما ينبغي يا كبير. الآن فقط صرت أفهم معنى الإهانة. وأستغرب كيف تتحملونها أنتم.

مع أن العجوز جرمت الذي طلب من حجرت بصوت حازم الجلوس مقابله كان لا يزال يكلم الفتى بوصفه شاباً متحمساً فكأنه يعبر عما في أعماق العجوز. "ونحن حين كنا شباباً كانت أعيننا مرخاة، لم نكن نتجاوز سرعة الأديغة التي تركها لنا أسلافنا. كنا نحسب ألف حساب لرأي الناس في سلوكنا. والآن، وقد وقعنا في مأزق، لا نتفق... ليتنا رجعنا إلى بلادنا ولم نذنب في عالم الترك الذي قُذِفْنَا إليه، ومهما جرى لنا فيه اعتبرنا أنفسنا محظوظين... متى سيتحقق هذا؟ وهذا البلد الغريب الذي وجدنا أنفسنا فيه عالم آخر..." - وفجأة خرج جرمت من أفكاره المتلاطمة، وقال لحجرت:

- إنس يا ولد ما تسميه ثأراً! - ثم غمغم وهو يُصلح وضع خنجره: - ألا يكفي ما خسرننا من حياتنا ونحن نكظم أنفسنا؟ نعم يا حجرت لا تستغرب ما سمعت، تعال نعد - وبعدما مشيا قليلاً أضاف إلى كلامه: - سأقول لك ما أفكر فيه في هذه اللحظة: لا فرق كبيراً بينك وبين بوريس.

- وسأقول لك الفرق بيننا - أجاب حجرت بسرعة كمن كان ينتظر السؤال - هو بلغاري وأنا أديغي، هو كافر وأنا مسلم.

- كفى يا عديم الإيمان! لا تدع مثل هذه الأفكار تغزو رأسك!

الفصل الثامن

الأديغة الأربعمئة الذين أنزلتهم السفينة الأولى وطّوهم في مضيق جبل ترغوفيشت في ثلاث قرى مقابل القرى البلغارية فيه. وجرى تنفيذ مثل هذا المخطط للأديغة النازلين من السفينة التالية. غير أن هؤلاء كانوا بعيدين عن الأوائل مسافة خمسين فيرستاً تقريباً.

كانت القرى البلغارية والتركية والأديغية بما فيها المدينة الصغيرة شومليه مرتبطة إدارياً بـ "ترغوفيشت". وهي بعيدة مئة فيرست أو أكثر. إن كنت راجلاً فخرجت مع الفجر احتجت أن تمشي النهار كله. وإن كنت فارساً، ولم يعوّك أحد، احتجت إلى نصف نهار. وإن لم يسمعوا رجاءك أو شكواك في ترغوفيشت وجب عليك التوجه إلى فارنا. وإن لم تُحلّ مشكلتك فيها تركت وراءك عن طريق البر أو البحر بورغاس وسوزوبول فقصدت إستانبول التي يقيم فيها السلطان التركي الذي يستعبد بلغاريا منذ خمسة قرون. وعلى فرض أنك وصلت إليها فستعود صفر اليدين والأمل. ولم يكن البلغار المستعبدون وحدهم من تحدث لهم هذه المأساة، فباستثناء الترك القائمين على أمرهم، أمكنك أن تضيف الأديغة الذين أتوا بهم إلى هذه الأرض الغريبة، والذين لا يعرفون نوايا تركيا نحوهم ، ولا كيف سيعيشون على هذه الأرض.

ولم يكن الأمر أن الأديغة لا يعرفون الحياة في الجبال أو ليسوا مهتئين لها، ولا رأوا قبل أمثال هذه القمم البيضاء المكلفة بالثلوج، ولا كانوا نسوا سماءهم أو شمسهم، ولا مراعيهم، ولا الغربان ولا الحشرات والزواحف. طبعاً يمكنك إن تمتعت بصحتك، وأعملت عقلك وحسك، أن تعيش في أي أرض تجد نفسك فيها، ولكن كل هذه الأمور كانت غريبة على الأديغة الذين أُجبروا على ترك بلادهم في ظروف مأساوية. كانت طريقة طيران غربان الغربة،

ونعيقها، وعواء ذئابها، ونباح كلاب البلغار والترك، وصياح ديكهم، حتى خرب سواقيهم، شيئاً آخر. ولكن الأرض، وإن اختلف جماها وخصبها من مكان إلى آخر، كريمة مع كل إنسان، إن أحسنت إليها حسنةً جازتك بمئة. وإذا كانت أغلبية البلغار لا يثقون بالأديغة، ولا يودّوهم استقبلوهم بهذه الطريقة فإن أرضهم رحبت بالأديغة اليائسين. وهم بالمقابل لم يدّخوا جهداً يستطيعونه: بنوا، مستغلّين صخو الخريف، بيوتاً من الطين والحجر، للأرامل أولاً، تحسباً للشقاء القادم الذي لا يعرفون طبيعته، وجهزوا أنفسهم بحطب التدفئة. وهكذا نشأت القرية الأديغية الصغيرة في مرعى الغابة غُفلاً من الاسم.

- أتعرف ما لا أفهمه يا مزحّب؟ - غرز العجوز جرمت فأسه في قطعة الخشب التي كان ينحّرها، وقال لباغ: - ألسنا مثلهم نحمل اسم عرق وإن كنا نجهل لغتهم؟ ألسنا بشراً؟ أستغرب أن أحداً من سكان القرى التركية أو البلغارية لم يخالطنا، سواءً ضالاً طريقه أم قصداً. نعم، لا ألوم البلغار الذين لا يدينون بديننا، ولا الراعي العجوز ستيفان الذي تعرّفته قبل أيام، ولا حفيده الجلف. غير أنني لا أعرف تفسيراً لسلوك إخواننا في الدين الأتراك الذين يصمّون آذانهم عنا حابسين أنفسهم في بيوتهم وراء أبواب حديدية وجدران حجرية.

- ربما كانوا يراقبوننا... - قال ناورز زغاشت بدلاً من باغ، واختتم: - ألم تروا كيف تصرفوا معنا قبل أيام، حين كنا نجتاز قراهم ونحن ذاهبون إلى حاكم ترغوفيشت لأجل بعض قضايانا؟ كانوا يغلقون أبوابهم، ويهرعون إلى بيوتهم.

- ولماذا؟ هل نحن لنصوص قتلة؟ - أجاب العجوز جرمت على سؤاله وهو يهزّ رأسه: - نعم، لأنهم أشاعوا عنا مثل هذه النعوت. يبدو أن من لا ندخل بيته ندفع كلبه إلى النباح.

- هل نسيت يا كبير - قال فجأة حجرت الذي كان يسرّ الودد - كيف تصرف معنا بوريس؟ بل كان يفكر في إفلات كلبه العملاق علينا.
- لست صادقاً في موضوع كلبه. لا تتهم أحداً بما لم يُجنّه لأنك لا تحبه.
- وهل يصبح الكافر إنساناً؟!
- يا حجرت! - نطق العجوز جرمت اسم حجرت بصوت حازم، واختتم بصوت أنعم: - لا علاقة للإنسانية بالدين، كافرأ كنت أم مسلماً!
- هل سمعت؟ - لام قاسم مطرقاً بصوت خفيض صديقه - كم مرة نصحوك ألا تتدخل في حديث الكبار!
- لأني لم أستشرك! - انصرف حجرت بعدما رمى بصوت لفت انتباه الجميع الودد الذي لم يكتمل تسنيته.
- ارجع! - صاح مزحج وراء الفتى - هيا نفذوا أعمالكم!
- سنكمل عملنا يا مزحج، ولكن لا أريد أن يعلمني قاسم... وأنت يا جرمت ساحخي، لم تقل لي ما لا يقال.
- ما العمل إذن يا ولدي، فوّتنا الصالح وسمحنا للطالح أن ينخر فينا. لا نسمح لأنفسنا أن ننسى أينما حللنا أديغيتنا. بذريعة أننا بدأنا نصحو شيئاً فشيئاً والمأساة ماثلة أمام عيوننا فلم يتحقق ما تأملناه وجرى لنا ما كنا نتوحيس منه. وإذا كان دولا ب الدنيا يدور متمهلاً فستأتينا الفرصة لنضع قدمنا في ركابها. ولا ننس الدافع لما جعل أجدادنا يقولون: "من أمامه بناء أسرة يكتف كلبه بالحشيش، ومن أمامه دماز أسرة تُطاوّل كتّبه السقف" ولا تقولوا لي "كثرة الأوامر تُهرّم الإنسان، ومن يهرم يتحول إلى راوي حكايات" فإن ما سأذكره وإن لم يكن بصيغة أمرٍ صادرٍ مني يجب أن نعرفه جميعنا معاً. ولئسّم قريتنا الصغيرة التي احتزناها لأنفسنا لأن من عادة البشر أن يسّموا الإنسان

حين يولد. وأستبق الكلام فأقول: لا تسألوني عما ستسمّون به القرية بصفتي كبيرها بل تشاوروا في ما بينكم. وتبادلوا الحكمة! يمّ تفكر يا باغ؟ وأنتم يا ناورز وكوبل لماذا يصعب فهّمكما؟ ألستم من استشاروكم في تسمية القرية حين دعوكم إلى ترغوفشت؟

- نعم، نحن. - لم يدع باغ العمال المتطوعين ينتظرونه - الحق أنهم لم يقصّروا في شيء. كانوا شرعوا في تسمية قريتنا حين رأونا غير جاهزين لما سألونا عنه. ولولا ناورز لكننا وقعنا في موقع لا رجعة منه في الشأن الذي نتكلم فيه. أيّ اسم كانوا يريدون تسمية قريتنا به يا زغاشت؟ سأل كأنه نسي.

- أسألوا هارون لأنه أكثر من اهتم بالموضوع. - قال ناورز باختصار راعباً في معرفة إن كان قد أطلع الأخيّر والدّه على الخبر، واختتم: غير أننا كلينا وافقنا مختارنا، واعتبرناه حكماً منه. أما ظننتك عارفاً بالخبر يا طويل العمر؟

- أهذا هو؟ - نظر جرمّت نحو ابنه كأنه غير عابئ به وسأل، ثم عاد فامتدحه: - طوبى له إن تحلى بمثل هذه الرجولة؛ لم أعرف. لماذا أنتم الثلاثة تماطلون في رواية خبركم تاركين القرية تنتظركم؟ إن كانت شربة الماء التي شوّقتمونا إليها لا تستطيعون متّحها من بئركم ساعدتكم: ربما تقترحون "حجرت".

- نعم يا كبير، أما قلتَ إنك غيرُ مطّلع على الموضوع؟ - سأل حاتام الجالس على حائط البيت.

- يا برانت، يا من لم تفهم أساس كلامي، لا تنضمّ أنت أيضاً إلى من يريدون أن يعلموني. قلت ربما يكون الاسم "حجرت"^١ ولم أقصد أنه تقرر نهائياً. لسنا

^١ لا يخفى أن الاسم منقول من "هجرة" العربية، غير أنه أيضاً اسم رجلٍ قاوم الجيوش الروسية وحده خلال الحرب القفقاسية.

يا مبارك النسل من المهاجرين الذين هبّوا لينقذوا أنفسهم بالهجرة، نحن أديغة
أبراخ ممن أهينوا بما لا يستحقون. لماذا لا نسمي قريتنا باسم أبراخ؟
توافق العمال المتطوعون دون أن يدخلوا في المناحرات الأبراخية المألوفة:

- أنت على حق يا كبير!

- اسم جيد يا جرم.

- إن كان هذا رأيكم يا جماعة فلن نلجأ إلى اجتماع وما شابه - قال كوبل
العجوز بدلاً من ابنه المختار. - سنسمي قريتنا: "أبراخ". وإذا اتفقنا على هذا
فسنستأنف عملنا التطوعي لأن نهار الخريف قصير. ماذا قلت يا حجرت؟

- وأنا كنت أريد التخلص من اسمي حجرت يا كبير.

- لا يا حجرت، ما سمّاك به والداك لا يجوز لنا ولا لغيرنا أن نغيّره. ليس مهماً
ما يناديك به الناس إن لم تنس أديغيتك ورجولتك الأبراخية.

صدر صوت الأذان من ناحية القرية التركية القائمة على الضفة اليمنى لنهر
لفارنا. ومع أن المؤذن في القرية التركية الأقرب إلى ما سموها مؤخراً بقرية أبراخ
كان يعلن أيضاً قيام صلاة الظهر داعياً المسلمين إليها، فقد تظاهر العجوز
جرمت بعدم سماعه أيضاً مما استرعى استغراب العمال المتطوعين.

"هؤلاء ينتظرونني" - قال العجوز لنفسه معتبراً سلوكه غير لائق - ما الأمر؛
هل أنا أفندي؟ أفضل المرحوم مولى غُمشت الذي أظهر شجاعة مع بُرج
حسن على الأفندي مرزخوي محمد الذي هو واحدٌ ممن خدعونا^١. هذه هي
الحقيقة. لن أجني على هؤلاء وإن لم يكن ما في قلبي على لساني..."

^١ مرزخوي محمد، وبرج حسن، وغُمشت مولى، من شخصيات رواية المطرودون للكاتب
نفسه، وترجمة المترجم نفسه. وكما يدل عنوانها فالرواية تتحدث عن السنوات القليلة السابقة

- أتساءل أين هو مؤذننا؟ - سأل جرمت وإن كان يعرف أن المؤذن جامبت مريض، ثم أجاب نفسه بنفسه: - نعم، نعم، هو متوعلك. ألم تسمع يا حاتام برانت مؤذني الترك؟ إن كنت متوضئاً فادع أنت أيضاً إلى الصلاة، ولا تدعنا نرتبك. وأسمعوا جيراننا أننا مسلمون.

كان كل جوار القرية الجديدة التي لم يسمع باسمها الناس بعد هادئاً باستثناء الهواء الخفيف الذي يعثر بأوراق الأشجار الخريفية المتساقطة، والسحب الباهتة التي تعبر السماء بلامبالاة. ولم يكن يصدر من القرية التي لم تجد بعد الوقت لبناء جامع خاص بها إلا تلاوة حرمت الذي أخذ موقع الأفندي للفتحة، وأصوات ركوع الرجال المصلين وسجودهم وقيامهم.

- أيها الأبراخ تقبل الله صلاتكم! - قال العجوز كوبل بعد أداء الصلاة - ليسمع الله سلامكم الإسلامي، وليغمركم برحمته، ولتصل إليكم رحمته! ولكني أظن أني جعلتكم تخطئون أيتها القرية. وسأعترف بخطئي أمام الله وأمامكم. أتكلم على انصرافنا إلى أعمالنا قبل بناء بيت لله. وليس السبب أني خرفت في آخر عمري. وإن كان هذا هو السبب فقد فات الأوان. ومع ذلك فلا ضير أن نبي بعد أن ننتهي من هذا البناء الذي نبنيه للأرملة المسكينة وأولادها جامعاً للقرية والله في قلوبنا ما دمت عشتم إلى الآن لا تخالفون تعاليمه.

كان حجرت يساعد الرجال الذين ينصبون الدعامات الخشبية للسقف فقال لحاتام:

- انظر إلى هذه القمم البيضاء والغابات الملونة ما أجملها!

- وماذا إن كانت جميلة؟!

لحجرة الأبراخ والشابسوغ والويخ والأبازلة الساز عام ١٨٦٤. وهي الرواية الثالثة تاريخياً للحرب القفقاسية بعد خان جري، وحجر الرحي. وتليها هذه الرواية.

- ألا تُذكرُك بشيء؟

- احذر أن تقع من السقالة... من هذان الفارسان؟ يأتينا ضيوف يا جرمت.

- من يأتينا يا تُرى؟ - سأل العجوز جرمت، وحين عرف أن أحد الفارسين

هو الراعي ستيفان قال لمن هم أصغر منه: - أنزلوهما بالترحيب بمسكين بعناني

حصانيهما. - تفضلاً يا ستيفان، تفضلاً. هذا صاحبي ستيفان راعي الغنم

أيها الأبخاخ، وسنسأل عن اسم صاحبه الشاب.

- اسمي أنا أيها العجوز الطيب وصاحب الكلام الجميل، تودور. - نطق على

طريقة الأبخاخ الشاب الممشوق القوام المتين البنية وصاحب العينين الزرقاوين،

وأضاف بسرعة: أنا بلغاري من جهة الأب، أديغي من جهة الأم.

- حقاً أمك أديغية؟! - جعلت المعلومة المفاجئة ناورز زغاشت يسأل،

وأضاف: - وهل يحدث مثل هذا حقاً؟

- هذا ممكن يا زغاشت حسب ما قال ضيفنا الذي يحمل من دمنا. وتحدث

في العالم أمور أعجب منها. - قال جرمت مهدئاً زغاشت، ناصحاً إياه، ثم

توجه إلى صاحبه الراعي: - اغفر لي يا ستيفان، أفرحتنا لغه صاحبك الأديغية

المفاجئة فغفلنا عنك.

- صحيح أن والدته تودور أديغية - شهد على كلام تودور ستيفان الذي

لاحظ عدم تصديق ناورز للخبر - توفيت المرحومة فاطمة مشتاقة إلى الأديغة.

ووالده أيضاً متوفى... ما العمل، هذا ما جرى لنا... - مضى يا جرمت بعض

الوقت على رغبتني في زيارتك وتفقد حالك. - قال ستيفان الذي ترجم تودور

كلامه لكويل - بقيت أوجل زيارتي إلى الآن. غير أننا جئنا إليكم كما يقول

البلغار متجاوزين مسألة الوقت المناسب وغير المناسب. وجئناكم بهذه الخراف

مع حملانها عسى أن تكون بداية قطع لكم. وأرفقناها بجرو سينفعكم لأن الأمن غير مستتب تماماً في المضيق الذي وطّوكم فيه.

- حيّاكما الله يا ستيفان. وأنت أيضاً أيها الأخ الأصغر الذي أشعرتنا بالقرب منا وأحزنتنا معاً. ليعوضكم الله ما جادت به نفوسكم مئة ضعف. ولنردّ نحن جميلكم بمثله. - نادى جرمت الرجال الأصغر منه قائلاً في نفسه: "ونحن نشك في أمان الوادي الذي قذفونا إليه:" - لا تدعوا ضيوفنا يقعدون دون ضيافة. - قال العجوز جرمت، واستأنف موضوع الأمان الذي كان يزعجه: - كيف يكون هذا الوادي في سلام إذا لم يكن في العالم سلام؟! كل عرق إنساني يفقد شيئاً من إنسانيته ولا تزيد. ونحن لم نأت إلى هنا نخدع أنفسنا بأن حظاً سعيداً ينتظرنا.

همس حجرت لحاتام:

- انظر إلى نصف الأديغي هذا كيف تغير لونه!
- ألم تلده أم أديغية؟ ربما يتألم قلبه من أجلنا.
- لا يعجبني... ألا ترى كيف يتفحصنا؟ لا يرفع عينيه الزرقاوين عن داربخان.
- كفى. أرجوك. ألا تتق بأحد؟

- كنت وثقت بهم لو أرفقوا بالجرو قطة صغيرة... - قال حجرت مازحاً.

الفصل التاسع

كانت شمس الخريف المتعبة تغرب حين وصل ستيفان وصاحبه بحصان واحد إلى مستراح الأغنام. وبوريس الذي ليس عنده تفسير للموقف سألهما:
- ماذا جرى لكما؟

- وماذا سيجري لنا؟ الشراكسة استقبلونا استقبالاً حسناً. وسألوا عنك، وأرسلوا إليك تحياتهم. - وضع العجوز ستيفانوف طرف اللجام بيد حفيده

وهو يتسّم في سره، وأتبع لمن وراءه وطرفاً قائمتي الباب في يديه، وعيناه على مستراح الأغنام: - هل نقص عدد الأغنام؟

- كان العدد صحيحاً لو لم تحملوا إلى الشراكسة الخروفين والحَمَلَيْن... ولم تكفِ هذه فأضفتم إليها حصاناً مسرجاً.

- هل تسمع يا تودور ما يقول صديقك؟ أظنك أنت أيضاً توافقه... - كم قلتُ لكما ألا تعلّمان ما يجب أن أقول وأن أفعل! ألا تعرفان أن الكلب يهدأ متى رميت له عظمة؟ لم يأتنا الترك بالشركس ليكونوا أصحابنا. وأنت يا تودور قلت لك حين شيعنا أقباءك من جهة أمك الذين يسمعون ما على ألسنتنا ولا يعرفون ما في قلوبنا، وأكرر كلامي: إن الشراكسة أتباع ديانة الترك الذين قُتل والدك على يدهم ليسوا أفضل منهم. وهم يعرفون أن الروس الذين طردوهم من أرضهم، أقباءنا في النسب والدين، يقفون معنا في نضالنا من أجل أرضنا وحريتنا. لا تؤاخذني على تشجيعي لك أن تهب حصانك للعجوز جرمت. ستحصل منهم غداً على حصان أفضل.

- من حسن حظك أن جدي أردفك فأعادك، وإلا كان "شراكستك" أعادوك على رجليك... - ابتسم بوريس.

- يا ستيفانوف! - التمعت عينا تودور الزرقاوان. - لا تعيّري بكوني شركسياً من جهة أمي. أرض والدك البلغاري كانت لي كما كانت لك.

- لم أقصد حقيقة ما قلت يا تود، ليس في قلبي لك إلا الخير. - غيّر بوريس موقفه بسرعة.

- حسناً إن كان الأمر هكذا. غير أنني سأجيبك بكلام مأثور كانت أمي تقولها لي: "انظر إلى مكان جلوسك جيداً واجلس، وفكر جيداً قبل أن تتكلم!"

حين ترجم تودور ديمتروف ما قاله بالأديغية إلى البلغارية نظر العجوز ستيفان بطرف عينه إلى حفيده وقال:

- كانت المرحومة فاطمة امرأة حكيمة. ماتت في الأرض التي لم تولد فيها وهي تشتهي أن تتكلم إلى أحد أبناء قومها بلغتها. كانت المرحومة التي أدعو الله أن يفتح لها باب اللجنة تتكلم الشركسية والتركية والبلغارية. وعلى روايتها اختطفوها وهي طفلة. غير أن الكثيرين، وأنا منهم، تعجبوا من عدم نسيان لغتها الأم، ومن تعليمها لك.

- ظلت أُمي تغني لي بالشركسية، ثم لما كبرتُ تكلمني بها، فلم تنسها، وعلمتني إياها معاً. لا يضرك أن تعرف لغاتٍ أخرى. وها هي اليوم نفعتنا حين خالطنا الشركاسة.

- والتركية؟ - سأل بوريس.

- وما التركية؟ - فهم تودور ماذا يقصد صديقه بالسؤال ولكنه أجاب: - ومعرفتي بالتركية ليست أقل من معرفتك، غير أنني لا أريد التحدث بها.

- وإن وجدتَ نفسك في مثل موقف اليوم؟ - لم يقتنع بوريس.

- إن وقفت هذا الموقف استغدت منها لقضيتنا البلغارية.

- الآن أقنعتني - قال بوريس وحول نظره إلى جده.

- مهلاً، أسمع وقع حوافر حصان - قال ستيفان العجوز بعدما رأى الكلب المقعي أمامه يقفز برأسه، وأنصت ناظراً من خللِ الظلام - أظن الضيف الذي أنتظره في هذه الأيام أتى، سأستقبله.

حين تجاوز العجوز ستيفان مستراح الأغنام قال تودور الذي نسي الجدال الذي ثار بين الصديقين لبوريس:

- اليوم رأيت بين الشركاسة فتاة جميلة... لا أعرف كيف أصف لك جمالها...

- إن كنت لا تعرف فلا ضرورة؛ ما أكثر الفتيات الجميلات في العالم. ولا تنس أن بناتنا البلغاريات جميلات أيضاً. ما اسم العجوز الذي زرتموه؟ الشراكسة والأتراك لهم أسماء يصعب نُطقُها.

- جرمت! - نطق تودور الاسم بالأديغية الصحيحة نظراً إلى بوريس من طرف عينه، مثيراً إياه. - وبالبلغارية تنطقه شيرميت.

- نعم، شيرميت. دَكرتني جيداً. كان معه شاب ضخم من عمري لا أتذكر اسمه.

- أهو حاتام؟ - سأل تودور والناس الذين رأهم في القرية الشركسية يمرون أمام مخيلته، ثم أنهى الحديث: - هو أكبر منك ومني. أيكون قاسم؟ ولكنه ليس ضخماً.

أعد لي الاسم الأول، يشبهه.

- إذن هو حجرت. شاب واسع العينين، كبير الأنف.

- إذا كان كبير العينين والأنف فهو حجرت.

- وكان هذا بين من شيعونا.

- أستمع إليك يا تودور - لمَح بوريس لصديقه - ما أمهرك في نطق الأسماء الشركسية، لم تُضَيِّع أصلك!

- لا أحد في مضيق ترغوفيشت لا يعرف، إن كان بلغارياً أم تركياً، أنني أنتمي إليهم من جهة أمي - إن كنت تعيّرنني بهذا فأنت تخطئ تبعاً للقول المأثور الذي كانت تردده أمي "البيلسان يُزهر، وكلُّ يعود إلى أصله"، أنا أحكي بلغة أبي، وأنا بلغاري.

- قلت هذا يا صاحبي دون أن أقصد كل ما تعنيه... هيا لنرَحِّب بضيفنا!

- اليوم لا عمل لديكما، صحيح؟ - سألهما الضيف بعد التحية مازحاً، وتابع كلامه بسرعة: - أهنتكما على أن أبناء قومنا الروس - السلاف أنخوا الحرب بانتصار عظيم.

- نعرف هذا، هذا أمر حسنٌ - قال ستيفانوف بصوت واثق وكأنه غيرُ راعي الغنم العجوز، ثم أكمل بكلام فيه شيء من اليأس: - أتعجَّب كيف ظهرت للترك المحتلين للبلقان كلها قوةٌ تلجمهم، غير أني لا أعرف نوايا الترك في شأن الشراكسة الذين وطَّئوهم بيننا.

- هناك مثلُ هذه القوة - قال ضيف الليل. - وهم إخواننا الروس الذين سيأتوننا من جهة الشمال. هؤلاء صاروا أقرب إلينا أكثر من ذي قبل أرضاً وبحراً، أعني البحر الأسود.

- هذا الشاب يا بارفان - تذكّر العجوز - أعزّك عليه: اسمه تودور ديمتروف، بلغاري أباً، شركسي أمّاً. صديق بورييس.

- بارفان بارفانوف، - مدّ الضيف يده لتودور، وقدّم نفسه إليه - لم أعرف أنك شركسي.

- تودور ديمتروف، - نطق تودور اسمه ونسبه باختصار، وأنهى وقد لاحظ أن الضيف لا يكبره كثيراً في العمر: - أنا سمعت بسيرتك كثيراً.

أسمعتها بالخير أم بالشر؟ - سأل بارفانوف متمازحاً.

- إذا كان الخير والشر متلازمين في الحياة فلا أعرف أيّ مقارنة أجّد للسؤال. - ردّ بنوع من المزاح.

- ما أسهل مقاربتهم؛ يكفي أن تفصلهما!

- على طريقة تلازم بلغاريتي - شركسيّتي؟ - لن أسمح لأحدٍ ما عشت أن يفصلهما. تستطيع تغيير الدين، غير أن الدم لا يبدّل!

تبادل العجوز ستيفانوف وحفيده النظر بعد ما سمعاه من تودور. وابتسم بارفانوف ابتسامة خفيفة.

الفصل العاشر

الخبر الذي جاء به باغ وناورز دار القرية داخلاً بيتاً، خارجاً من غيره، حتى إذا حان موعد الصلاة استقر في الجامع المبني حديثاً، فَرَّقَ الرجالَ إلى ثلاثة مواقف: الأول يراه مناسباً، والثاني لا يقبله، والثالث يستمع إلى الطرفين الأولين المتجادلين. كويل جرمت وحده هو من لم يكن يتدخل بين المتجادلين بل ينتظر موعد الصلاة متشمساً على مقعده الخشبي.

لم يكن عدم استماع العجوز جرمت إلى الجدل الدائر نتيجة عدم اهتمامه به أو عدم قلقه من أجله. ولكن ما كان يفكر فيه لحظتها، ويمر شريطه أمام عينيه، شيء آخر: "هؤلاء بالقياس إليّ حديثو السنّ، أمامهم عمر كامل كيف سيكون؟ كيف سيكون ونحن اليوم في موقف لا يمكننا فيه التفكير في شيء سارّ؟!... أنا عشتُ ما لم يعيشه أقراني سواء كانت حياتي حسنة أم سيئة، غير أنهم محظوظون إذ لم يعيشوا المصيبة التي عشتها أنا. وهل يكون من كوهم نار الحرب وقضوا فيها محظوظين؟! أيّ سعادة في أن يرموا بجثثك في البحر أو يدفنوك في غير أرضك؟ وأنا أمشي إلى هذا المصير مدرّكاً نحائي. وهذه النهاية تنتظر هؤلاء المتجادلين الذين يدعون الرجولة. متى سيكون هذا؟ لو كنا نعرف لما سمحنا لما حدث لنا أن يحدث..."

- ما الأمر يا قاسم؛ أياكون نقاش هؤلاء ملأ نفسك باليأس؟ - سأل جرمت الصبي الواقف وحيداً إلى الجدار. - هذا مرضٌ أديعي يا ولدي. نحن على مبدأ "لا أحد يسمح لغيره أن...". وهذا سرّ نكبتنا هناك في أرض الوطن، وسيكون

سبباً في خراب بيوتنا هنا. مهلاً، لحظة! الجامع مكان للصلاة لا للمراء. -
حين نادى العجوز جرمت دون أن ينتظر اتفاقهم قال لمن التفتوا إليه مشيراً
بطرف عصاه التي جلبها من الوطن: - لماذا تعيدون النقاش في القرار الذي
اتخذناه في اجتماع القرية الذي لم يمض عليه الكثير؟ العدد الذي اتفقنا عليه
للانضمام إلى الجيش التركي من قريتنا أحد عشر شخصاً. وهذا أكثر من
اللازم، تعرفون ما يحدث في الجوار. لا يجوز إخلاء القرية من الرجال.

- أيمكن تأليف جيش فرسان من أحد عشر رجلاً؟ سأل قاسم.
- ونحن لا نملك إلا حصاناً واحداً. - ردّ جرمت بين الغاضب وغير الغاضب
على الفتى، وأضاف بنبرة ألطف: - ابن هذه التي اسمها فاطمة، ما اسمه؟ أليس
ميتود؟ نعم، ميتود تودور، - ردّ العجوز على ناووز زغاشت الذي صحح
الاسم - إن كنتم طامعين في الحصان الذي أهداني إياه فلن أحييكم،
سأعطيكم إياه. ولكن، مرة أخرى أقول لكم، لا يؤلف جيش من حصان
وحيد.

- حين تنتهي خدمة من يلتحق بالجيش - تدخل باغ مزحّب - سيعود ومعه
حصانه وتجهيزاته، وما يعيل به نفسه من النقود عاماً.
- وسيزيدون حصة أسرته من الأرض ديستاناً واحداً. وإن كان ضابطاً زادوا
في عطائه. - غير أنه سرعان ما غيّر وإن بدا أنه يوافق مزحّب، - وهذا لا
يتعلق بكونه ذا أسرة أم لا.

- لماذا إذن لا تقولون هكذا أيها المباركون؟ - لامهم جرمت ثم تظاهر بأنه
يصحح موقفه: - ولستُ جاهلاً تماماً بالموضوع إذ سمعت من هنا ومن هناك،
غير أن الموضوع يحتاج إلى تروؤ... لو كان كل من يخوض حرباً يعود سالماً لما
سميت حرباً...

- أي حرب تتكلم عليها تات والحال لا حرب؟ - سأل هارون والده بحذر.
- أليس هذا هو السبب أيها المنحوس في أني أريد سؤال الجماعة... أحتاج حماية المضيق الذي أسكنونا فيه إلى تأليف جيش؟ إن كنتم تظنون أنهم سيكونون حرساً خيالة، وسيكون ارتباطهم بترغوفيشت، فهذا موضوع آخر. ولكن ممن سيحمي هؤلاء مضيق الجبل؟ سكان هذا المضيق من البلغار أكثر منا، نحن والترك، بكثير. ترون ما أحسن معاملة قرية ستيفان القريبة لنا.
- ما أشد ما تحرص يا جرمت على البلغار! أنسيت ما فعل بنا أبناء جلدتهم من الروس والقوزاق الكفار؟ - سأل ناورز الذي لم تكن أقوال العجوز كوبل تروق له، ثم عاتبه: - لم تندمل جراحنا بعدُ يا كبيرنا!
- نعم يا زغاشت لم تندمل جراحنا إلى الآن. أفهم حزنك... ولكن ما لا أفهمه هو أن نجعل هؤلاء الذين لا ذنب لهم يدفعون الثمن بذريعة أن أبناء قومهم ودينهم فعلوا بنا ما فعلوا. وهؤلاء البلغار الذين جلبونا من أجل إخضاعهم ألا ترون أنهم يشبهوننا لولا أنهم يعيشون على أرضهم؟ - سأل العجوز جرمت، ثم قال مدركاً أنه خاشعٌ ناورز في الكلام: هيا عجلوا، حان وقت صلاة الظهر. وبعد الصلاة تعالوا يا باغ وناورز وكوبل إلى مكان اجتماعنا في المرعى نداول في بعض الأمور.
- كان الذين أدوا صلاة الظهر يتفرقون إلى بيوتهم فرادى ومثنى وثلاث دون أن يتوقفوا عند الجامع. ولم يتمالك حجرت الذي كان مع قاسم وحاتام يتابعون العجوز أمامهم، إلا أن يقول:
- سواء وافقنا أم لم نوافق فسلوك العجوز جرمت يدعو إلى النفور، يبالغ في استغلال تقدمه في العمر.

- وهذا صحيح. - وافق قاسمٌ حجرتَ بسرعة - يدس أنفه في ما لا يعنيه.
أعجيب إن كان ابنه مختاراً للقرية؟!

- بعد أن انتزع جرمت الزعامة من هارون كفَّ الأخير عن مهمة المختار منذ زمن طويل. - لم يكن حجرت يتوقف عن مهاجمة جرمت. - لم يكفه الجامع، ولا الجماعة، حتى صار يتحكم في رجال القرية الثلاثة، بمن فيهم والدك.

- ألم تسمع ما ردَّ به والدي على جرمت؟ أسرع قاسم بالقول.
- سمعت، ولكن ها هو يتبعه!... - ردَّ حجرت على صديقه، ثم أردف يحاول استمالة الآخرين: - إن أردتم فلن أتركه يقول شيئاً، سأُنصت إليهم وأنقل إليكم ما سمعت.

- اسكت يا حجرت! - ارتفع صوت حاتام - كم مرة نبهتُك ألا تُسمِعني مثل هذا الكلام! لو لم يكن كبيرنا مهموماً بأمرٍ ما لما جمع رجالات القرية الثلاثة. ثم اعرفا أنتما كلاكما: الجامع كما يقول كبيرنا جرمت مكان للصلاة وليس للجدال. ألا تتذكران المكان الجميل الذي كانت تُعقد فيه الاجتماعات وسط قريتنا بُرج حبله؟ وذلك المكان كان في مقابل الجامع، ومقابل مكان إدارة المختار لأعماله كالمكان الذي يقصده جرمت ورفاقه الآن. وكانت وُفتين وفيشت ولاغوه - ناق، قرية منه.

- وكيف لا نتذكر؟... - قال قاسم ومنظر المكان استدّر دموعه - كنا نلعب فيه لعبة "الباي"^١.

^١ الباي هو الاسم الأديغي. وهي لعبة "دق الحاي" في بلاد الشام، وشعبياً في سورية: بُري، بياء مالة مثل ه في الفرنسية. وتُلعب بعضا اعتيادية الطول، وبعود مرقق الطرفين، يُضرب بالعصا الأولى...

- وكذلك لعبة غُر - غُر، وغُر الركوب^١... - وافق حجرت صاحبه وسأل: - هل تتذكر يا حاتام كيف كنت تُدير بيننا مباريات مصارعة في ذلك المكان؟ والآن كفّ صبيان قريتنا وصباياها عن اللعب في الساحة. كأن كلاً حبس نفسه في داره. لولا سهيل حصان جرمت، ونباح كلبه أحياناً لتوهمت أن لا أحد فيها.

- نعم، لا تسمع صوت إنسان فيها - هاجت أحزان قاسم وهو يوافق أقوال حجرت وكأنه يتكلم من قلبه - يصحب جرمت هؤلاء دون أن يقلق... كأنّ والدنا رجلٌ قاسٍ، لا أعرف ما حدث له.

- والدك وإن كان قاسياً نَحُوك - غمغم حجرت - فقد رجولته منذ زمن بعيد.

- يا ابن باغ أهنتَ والدي! - هبّ قاسم إلى مقبض خنجره - اسحب خنجرك إن كنت رجلاً!

- أيُّ ابن باغ! - هبّ حجرت أيضاً إلى خنجره شاعراً بالإهانة من نطق اسم الأسرة باغ. - بأيّ نسبٍ مهينٍ تناديني وأنت تعرف أن أجدادي تركوا لوالدي نسب "أبرج"^٢ إذا كان الأمر هكذا فسأقول أنا أيضاً: - بالقياس إلى النسب الذي تحمله فالنسب الذي تسخر مني بسببه هو نسبُ نبلاء. وأنت اسحب خنجرك!

- بما أنك أنت من بدأ بالإهانة فسأسحبها!

^١ لعبة لم يعرفها جيلنا في الجولان. عصا تُدفع بها كرة خشبية كما يشرح القاموس الشركسي.

^٢ يعني حجرت، وحجرت يعني "أبريك"، اسم محارب وقف وحده أمام الجيوش الروسية زمن الحرب القفقاسية .

- يا أولاد! - وقف حاتام بضخامته بين الفتيتين وهو الذي كان يبدو إلى الآن غيرٍ مبالٍ. - إن وصل الأمر بينكما إلى هنا فليتحرك الرجل منكما!
ركضت داربخان حين سمعت ضجيج الشجار وهي تكس أمام الغرفة المطلّة على الشارع:

- ما الذي جرى يا حاتام بين هذين؟
- هذان لا يستطيعان فك الاشتباك بين نسبيهما!
- هكذا؟ لأنهما لا يعرفان بَم يشغلان وقتهما. إن كنتما تشعران بالضجر كلّفْتُكما بنكش أرض البستان... تعالا، ها هو الغداء بانتظاركما. وما عند والدنا من العمل لا نهاية له، وغداؤه يبرد.
- إلى أين أنت ذاهب يا ناورز؟ - نادى حجر ت قاسم - ألم تسمع ما قالت لنا داربخان؟

- سأعود إذن - توقف قاسم مخفياً شعوره بالرضا لما قيل له - سأعمل معكما ما تتأمله داربخان منكما، غير أنني سأبلغ أحتك بما أهنتني به.
- قلْ لها، قُلْ، وأضف إلى كلامك عدم حقدك عليك!
- اسمعوا ما يقول هذا! أخوك الصغير يُهينني يا داربخان ثم يترجاني... نعم يا حجر، وأنا لا أدّعي البراءة. ألسن أكبر مني عمراً؛ يحق لك أن تُخاشنني أحياناً.

- إذن سأعدكما تصالحُما - التفتت داربخان إلى حاتام وابتسمت.
- تصالحنا يا داربخان، تصالحنا. وإن أردتِ استدعيْتُ مزحج لأني أعرف أَيْن هو.

- يا قاسم! - قطع حجر الطريق على صديقه.

- لماذا لا تقول هكذا يا حجرت، لانريد قطع أفكار كبارنا. - وأسرع بالاختتام على طريقة المسنين: - لا أظن كبيرنا جرمت - منحه الله شيخوخة مريحة - جمعهم دون سبب هام.

- سأقول لكم يا أبنائي لماذا جئت بكم إلى مكان الاجتماع، مكان التفكير، فاجلسوا - قال العجوز جرمت. - وأنت يا كوبل، مختار القرية، لا تقف في حضرتي، اجلس، لن يغتابنا من يرانا لجلوسك في حضرة والدك - ربما ليس الموضوع جديداً عليكم. ما كنا نتوَجَّس منه حين جاؤوا بنا إلى هنا اصطدمننا به اليوم في بلغاريا الأرض الغريبة.

- وهذه يا والدنا بلاد تركية. - صحح من كان يتكلّف مهمة المختار كلام والده.

- يا ولد! لسنا أربعتنا في مكان لا نتبادل فيه الثقة. ألا تفهم أيها البائس سبب استدعائكم من بين المصلين؟ تذكروا كيف وضعونا هناك في بلادنا في موقف حرج! والقليل الذي بقي في البلاد كيف نعرف طريقة عيشهم؟ مع أنكم ثلاثتكم عارضتموني اليوم وقبل أيام فأنا لا أفهم المهمة التي سيقوم بها الأحد عشر شخصاً المختارون من قريتنا. لا أراه مناسباً. ويقال إن القرى الأديغية الأخرى ألقت مثل هذه المجموعات للحراسة. من سيحمي هؤلاء؟ نحن؟ أظن أننا لسنا من سيحمونهم. أفصّل أن أكون في الجيش على هذه المهمة. في كل الأحوال، تتعهد هناك بمهمات تتعلق بالبلاد. وتعرف من ستحمي... انظروا من هم هؤلاء الفرسان الثلاثة؟

- عرفثُ أحدهم، - قال باغ - هو برقت زوال.

- لم تخطئ - شهد ناورز الذي مدّ قامة متينة - لا أعرف رفيقيه.

- منذ زمن بعيد انقطعت عنا أخبار برقت... - قال العجوز جرمت ممتعضاً،
وأكد على الثلاثة: - كائناً من كانوا، استقبلوا برقت ورفيقه كما يُستقبل
الضيوف. أين رأيت هذا الفارس الشخين الذي يتوسط رفيقيه؟ - توقفوا، وبعد
تبادل التحية مع المترجلين قال لهم جرمت معتدّاً: - تفضلوا أيها الضيوف
الذين أرجو أن يكون سلامهم خيراً لنا. هذا مكان اجتماعنا، وتلك قريننا
أبزاخ.

- ربما لم تتذكرني يا كبير - قال الرجل الغليظ العبوس ذو الطريقة التركية في
الكلام حال جلوسه - كنا التقينا في تخم الغابة.

- هذا أنت! - سأل جرمت من كان يتوقعه - الآن تذكرت؛ ألسنت من قال
لي: " صرتم الآن يا شراكسة في موقع يمكن أن تتأروا فيه لأنفسكم " والآن
التفت جرمت خفية نحو آل باغ - حين سألتك عن اسمك قلت لي: لاحقاً،
نحن على الطريق مسافرون. والآن التقينا، لا أعرف إن كان لقائنا سعداً أم
نحساً.

- يا كبيرنا الغالي - استعجل برقت زوال بسبب الكلام المفاجئ الذي لم
يتوقعه - سأقول لك الاسم الحقيقي للرجل التركي الأصيل الذي رافقني،
وسأطلعك على طبيعته. الأتراك المنتشرون في واديكم، غير المرتبطين بـ
"شوملي" وبـ "ترغوفيشت" يعرفونه جميعهم. هو إنسان متنفذ عندهم. وهو
معروف في إستانبول وطرايزون وبورغاس وفارن. ومهما احتجته في أي مطلب
كان في خدمتك. اسمه مراد بيه، واسم أسرته "وُشمن". ورفيقنا الآخر من ألبانيا
مسلم من ديننا، ويتقن التركية، ويتكلم الأديغية.

- عَرَفْتَنَا يا زوال، حسب كلامك، على رجلين ممتازين. ونحن قَدَّمْنَا إلى أصحابك كما تعرفنا. - وفيما يدعو جرمت الضيوف الطائرين إلى القرية سأل برقت: وأنت؛ ما وضعك الآن؟

- وأنا أين أذهب تاركاً الأديغة؟ أعيش كما أنتم مهموماً بقضاياهم. أفكر أن أذهب إلى إستانبول اليوم أو غداً. وعدوني أن يقدّموني إلى جدة سلطان الترك الأديغة بيكا.

- ويقال إن مرزخوي محمد الأفندي له كلمته في إستانبول. لو قابلت هذا الرجل الضئيل الذي هو "السفرُ والسفرُ"،^١ واهلُتُ عليه بلعنتنا لمُتْ مرتاحاً.

- أنت على حق يا جرمت، على حق. هو واحد من تسبوا في نكبتنا. ظل متعلقاً بذيل حصان من أدعو الله أن يضيّق عليه قبره، النائب محمد، متحلاً صفة الأفندي. أنوي حين أذهب إلى إستانبول أن أبحث عنه في كل مكان حتى أحده، وأمد يدي إلى عينه، معرّفاً إياه أنه دون شرف.

- لا، لا تكتفِ بأن تمد يدك إلى عينه، بل اقتلِعْها! - توقف جرمت لحظة، وحسم الأمر.

- يا والدنا! - نادى هارون أباه.

- ما الأمر يا كويل؟ كأنك تحرص على صوتك. هل عجيب أن يكون عديم الإيمان مرزخوي متنفذاً في إستانبول؟ هل نتجّى عليه؟ جسره إلى جهنم مفتوح له هو أيضاً. اسمع يا ولد، أخبر الأسرة أن عندنا ضيوفاً. - بعدما أدخل الضيوف الغرفة واتخذ كلٌّ مكانه، استأنف جرمت حديثه: - نعم هذا هو

^١ الكلمتان في الأصل بالعربية، ويريد أن الرجل لا يكفّ عن السفر.

وضع الأديغة اليوم يا مراد بيه. نحن ندين أنفسنا بما حدث لنا، ولا ننتهم أحداً، ولا نُقاضي أحداً.

- العالم كله يعرف المأساة التي جرت لكم، أيها الكبير المحترم. غير أن أحداً لم يفتح لكم بابه، ولم يفهمكم إلا بلادنا. الأتراك شفقون، صادقوا النوايا. لا تظن أنني أمتدح قومي! حين صرتم على شفا الهلاك مدّ هؤلاء أيديهم إليكم. وأطعموكم من خبزهم، وسقّوكم من مائهم.

حين كان الضيف التركي يأتي على دُكُر الخبز والماء رأى برقت زوال تغير لون ناورز زغاشت. وتذكر العجوز حرمت وهو ينظر بطرف عينه إلى مزحّب، وهارون القائم على خدمة المائدة، كيف لم يقبلوا قراره بيع ماء ساقية الغابة.

- هل قلتُ شيئاً غير صحيح؟ - سأل مراد بيه الذي لاحظ الموقف.

- لا يا ضيف، أيمكن أن تقول مثل هذا؟ - التفت جرمت نحو برقت - نسمعك أيها الضيف.

- يسرني يا كبير أنني صرْتُ موضع ثقتك - تابع مراد بيه كلامه - أنتم الشراكسة لن أقول بحقكم ما يسيء إليكم. ويحزّ في نفسي ما فعله بكم الروس الكفّار. ولستُ وحدي، بل كل العرق التركي. أما سلطاننا العزيز فقد استقبلكم في بلاده، وفي ذهنه دائماً أن جدته منكم، وخصّكم بأحسن موطن. ولكن احذروا من البلغار الذين ليسوا من دينكم. هؤلاء ليسوا أفضل من الروس الذين سلبوكم بلادكم. - واختتم الضيف التركي بصوت أحزم: - ولذلك يا كبيرنا هنا، حيث سكنتم، من يمكنكم أن تدينوه وأن تُقاضوه.

- نعم، نعم. لا يجوز أن ننسى ما فعلوا بنا ولو نسينا وطننا. - قال برقت زوال، ونظر نحو مراد بيه.

جعل الكلام الذي صدر من برقت زوال ومراد وسمّن بيه ، كلاً من المسنين على المائدة والشباب في الخارج يتبادلون النظرات.

- ماذا تقول يا برقت؛ أنسيّت بلادك البتة؟! - لم يُطق ناورز صبراً.

- والله أنت إنسان عجيب يا زغاشت! إن بقيت تنظر دائماً عبّر المخاضة فقدت بصرك يا صديقي العتيق.

- سيبقى عندي ما أرى به بلادي من قريب ومن بعيد حتى لو عميت. وإن حانت منيتي متٌ وهي في قلبي.

- يا ناورز! - نتأت كتفا برقت زوال من الكلام الموجّه إليه.

- أنتما الاثنان اهدأ! - دعونا نتكلم. - قال جرمت، واستدار نحو الضيف التركي. - شكراً على قلقك من أجلنا يا مراد بيه. و نحن راضون عن سلطانكم سبطنا. ولكن بعدما سحّقنا الروس فالكساء الغريب الذي لبسناه مكرهين، حتى لو فصلّناه على أجسادنا، يبقى غريباً، إذ ما يزال مرض الأرض التي تركنا فيها جذورنا يؤلمنا. ماذا بيدنا؟ حتى لو لم نرضخ لمصيّتنا فسنرضى، مادامت الروح غالية، أن نعيش بين الناس الذين وقعنا بينهم دون اعتبار لإسلام أو مسيحية.

- يا جرمت، يا كبيرنا، - قلق برقت - حتى لو كان هذا رأيك، فليس البلغار - كما قال مراد بيه - أقرباء الروس الكفار الذين طردونا راضين عن توطيننا بينهم.

- قل هكذا إذن يا مبارك النسل - ابتسم العجوز جرمت - أوافقك على أنهم لن يرتاحوا إلينا، غير أن من تعرّفنا عليهم من البلغار لم نلاحظ عليهم شعوراً بالاحتقار. خالطناهم وخالطونا. وتفضلوا علينا ببعض الماشية. والكلب الذي نبخ عليكم هو من عطايهم.

- أظنك تتكلم على الراعي العجوز ستيفانوف؟ - سأل مراد بيه كمن لا يبالي.

- نعم أيها الضيف نعم، ستيفان راعي الغنم - ابتسم جرمت مرتاحاً لذكر اسم صاحبه الراعي - والله وأنت تعرفه جيداً. وسأقول لك ما هو أعجب: عرفنا ستيفان على شاب رائع أمه من بنات قومنا اسمه تودور، ويتكلم لغتنا. - بارفان بارفانوف؟ - سأل مراد بيه بنبرة تشف عن عدم ارتياحه لمن ذكر اسمه.

- من هو؟ - سأل جرمت وعينه على مزحِب إن كان يعرفه. - لا تحتاج أن تعرفه، ولا أن تدعه يقترب منك. - قال مراد بيه مسرعاً لباغ الذي يزمّ كتفيه، ثم صارحه: - أمثال بارفان هم من يُعادوننا، وليسوا راضين عن توطينكم بيننا... وقريبكم تودور ديمتروف والعجوز ستيفانوف وحفيده بوريس ليسوا أهلاً للثقة. وليس هؤلاء وحدهم، - البلغار الكفار جميعهم. - الحقُّ أنّ هذا لا يمكن - ارتفع صوت ناورز.

- هذه حالنا يا زغاشت وإن لم يكن ممكناً. - شهد برقت على صحة كلام رفيقه، واختتم بكلام أقسى: - الكافر يظل أبداً كافراً. نحن نمتدح من اقتلعنا من جذورنا. ولا نقاضيههم ولا نهاجهم. ونعامل شاباً ولدته امرأة منا عديمة الشرف من بلغاري كافر على أنه قريبنا.

- برقت! - نهض مزحِب غير متحملٍ كلامَ برقت - اسحب كلامك السخيف من أمام مسنيننا!

- اضبط أعصابك يا مزحِب - قال جرمت الذي تظاهر بأنه لم يسمع شيئاً عن المرأة، ثم لاهمه: - ما الذي جرى لك حتى تقفز من مكانك؟ المضيف جالسٌ حيث يجلس الضيف. أمن هذا اليوم تعرفون برقت؟ ما في قلبه أفلت

منه فجرى على لسانه... وأنت يا ألبان أراك لا تقول شيئاً؟ - سأل جرمت ضيفهم الثالث لتغيير موضوع الحديث السخيف الذي طفا فجأة على سطح اللقاء، ثم أردف له دون انتظار الجواب: - لو لم يقدموك إلينا على أنك ألباني لظننت أنك شابٌ أديغي.

- حقاً، الأتراك يظنوني تركياً، والشراكسة شركسياً. - ابتسم ألبان وقال بالأديغية، ثم أضاف: - غير أنني لا أريد أن تكون معاملتي للبلغار حسنة. - وي، وي، هذا عجيب! يا مراد بيه، وأنت أيضاً يا ألبان. يا زوال ماذا فعل البلغار لكم ولم يفعلوه بنا؟ - سأل جرمت متظاهراً بالمزاح، واختتم متردداً: - إن كان الأمر هكذا فسنكون نحن أيضاً حريصين في تعاملنا معهم.

- نعم، لا تتخذوا منهم ثقاتٍ، والأفضل ألا ترفعوا الكلفة معهم. - وافق مراد بيه المضيف العجوز، وصحح موقفه مبرئاً نفسه: - نحن لا نعاديهم، بل هم من يعادوننا. وأنتم ستفهمون سريعاً طبيعة هؤلاء البلغار المجرمين. لا تدعونا نضع انصراف الضيف بيد المضيف، بل بيده هو كما قُدموه، فنحن سنرى طريقنا كما قمتم بواجبكم نحونا خير قيام. وسنلتقي مرات أخرى بإذن الله وبعلمه، وتبادل شكاويننا. وسامحنا يا كبير إن بدر منا ما لا يليق، سيفهمنا الله أنتم ونحن، وسينظر إلينا بعين الرضا ويبعدنا عن الخطأ. - حين وصل إلى حاتام ذي الجثة الضخمة على الباب قال له وهو يضافحه: - أنظر إليك فأجد زياً الضابط التركي سيناسبك جداً. ولست وحدك بل زغاشت ومزحج وهارون. وقال لحجرت وقاسم وهو يريت على كتفيهما: وسيصلكما هذا قريباً. ثم سأل برقت: أليس صحيحاً يا زوال؟ - وقال زوال للفرسان الثلاثة الخارجين من قرية أبزاخ: - هذه هي الفتاة المقصودة.

- إن كنت تتكلم على داربخان فهي جميلة... - أجاب مراد بيه مستغرباً:
اسمعوا ما خطر لبرقت، وأضاف باختصار: - كثيرون من يرغبون فيها
ويغازلوها، وعندها حماة أقوياء.

- أعجيب إن كان لها مغازلون وحماة؟ - قال ألبان لأنه يعرف الموضوع الذي
يتحدثان فيه، ثم أنهى بصوت أكثر جدية: - ولكن لا تُدرج بينهم مراد بيه.
- لماذا؟ - مع حرص زوال على نفسه فقد جعله ما سمع يهّب - لماذا تقول يا
ألبان ما لا معنى له مع علمك أنني لا أساوي أحداً بمراد بيه؟ أنتما لا تعرفان
الأبزاخ كما أعرفهم... - ردّ على الاثنين، وامثلت أمامه صورة داربخان وكأهم
يسلبونها منه، قائلاً لنفسه: اتركها هذا الموضوع، لا تهتما به!

- إذا كنا يا زوال لم نفهم طبيعتك إلى الآن فكيف بالأبزاخ؟! - احتدّ ألبان
إذ فهم أن الكلام موجّه إليه مع أنه كان موجّهاً إلى الاثنين. ولم يتوقف عند
هذا الحد: - كل النساء، وإن كنا لا نعرف طبيعة رجال الأبزاخ، سواء كنّ
ألبانيات أم شركسيات أم بلغاريات أم تركيات، هن في النهاية نساء.

- ألبان! - شد زوال لجام الحصان فسمّره في مكانه - من أنت حتى تتكلم
علينا نحن الأبزاخ وتهيننا؟!

- مهلاً، على رسلكما - لجم مراد بيه حصانه - ما الذي حدث لكما؟ هل
هيّجتكما الباخسمة الشركسية^١؟

- لم يجر لنا شيء يا مراد بيه. لم أقصد بكلامي كل هذا - صحح ألبان الذي
يعرف نزق التركي موقفه، وغمغم بحجة أخرى: - وهل كان المضيف العجوز

^١ هو في الأصل شراب روحي أقوى من الباخسمة المألوفة.

الثرثار ليعطيكم المجال للشرب حتى لو كنت تريد. ثم إن الباخسمة الشركسية ليست بقوة المقابل البلغاري، هي ألطف؛ أليس كذلك يا زوال؟

- نعم، أوافقك في شأن الباخسمة. غير أن نظرتك إلى النساء لا تعجبني. هنّ من تتعلق بهنّ أفراحنا وأتراحننا. وهنّ من يُخصّبن حياتنا. - غير زوال موقفه بالمزاح، وأنهى كلامه: - ولكن إن كان رأيك في العجوز جرمت صحيحاً فلن أسمح لك أن تتكلم عليه بسوء؛ ألسنّ أبنائنا؟ هذا لا يتفق مع أخلاق الأديغة.

- هل تسمع يا مراد بيه ما يقول صديقنا العزيز زوال؟ - مع أن ألبان كان في قلبه هذا السؤال: "إن كانت هذه طبيعتكم الشركسية فلماذا سمحتم لهم أن يطردوكم من بلادكم، وتنافروا أرائكم مرضكم" فقد كنتم غيظه وابتسم لمن سأله.

- لم أسمع. لا تصدعنا رأسيكما بما ليس مفيداً. لا تدعونا نحرف الحديث عن الفتاة التي ذكرتها...

- إن كنت تريد الفتاة عروساً يا مراد بيه فما من مشكلة، سنأتي بها إلى رجب بيه. أليس هكذا يا زوال؟ - فاجأهما ألبان بالاقترح.

- لا مشكلة! - ابتسم زوال - إن كنت قادراً على مجابهة من كانا على الباب حاتام وحجرت... وربما خرج لك من لم تتوقع.

تبادل مراد بيه وألبان النظر، وحثّا حصانيهما. وبعدما قطعوا مسافة سأل مراد بيه فجأة:

- لماذا أنت عازب يا زوال؟

وحثّ زوال حصانه.

الفصل الحادي عشر

في بدايات عام ١٨٦٦، وفي ظهيرة يوم معكر منها، وصل برقت زوال إلى إستانبول.

وبالقياس إلى رحلتيه السابقتين كانت الرحلة الأخيرة ثقيلة جداً على برقت زوال. اختار الطريق الجبلي من البلقان مع أنه يعرف أن طريق البحر من بلغاريا أسهل. والسبب رغبته في رؤية الأهل الذين كان بعيداً عنهم سنوات طويلة، ووجد في الوقت نفسه رفيقاً من كوسوفو يعرف الألبانية والتركية. غير أن سفره دون خنجره الأديغي الذي خرج به من الوطن كان يحزنه أكثر من مصاعب الطريق الطويل، ومن النقود الكثيرة التي أنفقها.

"أستحق ما جرى لي. والكلام الأديغي المأثور "من لا يرتدع يقع أخيراً" صحيح. - قال زوال لنفسه وهو يتابع بعينه العربة التي حملت ثمن الخنجر الذي دفعه أجرة آخر طريق. - حين قلت للسائس التركي سردار الذي كان يروي لي أخبار تركيا، ويغني، ويمتدح الأديغة: زد على ثمن الخنجر قليلاً لأحصل به ولو على طعام يومي، ردّ عليّ: إفرح لأني لن آخذ منك قبعتك أيضاً. ولم يكف هذا بل إن ابن الكلب قال لي كنت سأرمي بك في السجن عقاباً على الجهد الذي بذلته لأجلك دون مقابل طوال النهار، وسحب عليّ سوطه. وهل ألبان الذي دفعت له أجرة الطريق، وأجرة المبيت، وثن الطعام، وبقيت أسايره كي لا ينظر إليّ كلاجئ فقير بلا وطن أحسن من هذا السائس؟! ماذا أريد أكثر مما يريده الأديغة الآخرون الذين رموهم في تركيا ثم في البلقان، وإلام أطمح؟ ربما كان من يقول فيه والدي المرحوم "من يتكلّف ما ليس من شأنه يجد نفسه في مأزق" شخصاً يشبهني. ولكن أأست يا والدنا من كان يقول: "لا أحد يقدم لك ما لا تقدمه لنفسك؟..."

مع أن برقت زوال كان خاوي البطن، خالي اليدين، فقد خلع قبعته المصنوعة من جلد الخروف، والتي تُضفي على وجهه الراحة والمهابة، ونفضها. ثم عاد وارتداها وهو يضم أذنيه تحتها. والحزام الذي لم يبق له خنجر ربطه بالكساء القديم اللائق للقامة الرشيقة الطويلة. وبما أن مقصده كان جامع أيا صوفيا الذي كان كنيسة مسيحية حين كانت إستانبول مدينة بيزنطية اسمها القسطنطينية، فقد أسرع إلى هدفه غير عابئ بقربه أو بعده، غاضباً على العربات التي تمر بجانبه، مهتدياً بالمآذن المدببة.

توضاً زوال في صحن الجامع، وسأل، وهو يجفف يديه ورجليه، جاره الملتحي، معتدلاً بتركيبته المحدودة، غير آملٍ منه الكثير:

- أسمعت يا عبد الله، على سبيل المصادفة، من يأتي على سيرة محمد الأفندي الشركسي؟

- أنا لا علاقة لي بالشراكسة... - قال الملتحي بطريقة تفهم منها أنه لا يُكرِّن الود للأديغة، واختتم بكلمات أكثر حميمية، بعدما تذكّر أنه سيقف أمام الله في صلاة الجمعة. - غير أن مقرئاً ممتازاً يحمل اسم النبي محمد يتلو علينا يوم الجمعة.

- وكم عمره تقريباً؟ - سأل زوال وصورة مرزخوي محمد تنتصب أمام ناظره. - ومن أين لي أن أعرف؟ ربما من عمرك أو أكبر منك... ها هو من سألت عنه. يترجل من العربة بمساعدة الشيوخ. قابله، وإن كنت لا أعرف إن كانت حاشيته ستسمح لك.

- أظنه هو! - ارتدى زوال بسرعة، وأسرع إل محمد المعمم بالأبيض. وهنّاه بسلامة الوصول باللغة الأديغية التي يتأمل منها أن يتذكره الأفندي.: نهارك سعيد يا محمد.

حين تجاوز الأفندي محمد المتبوع باثنين من تابعيه كأنه لم يسمع الكلام الأديغي توقف قليلاً والتفت إلى من خاطبه بلغته.

- أنا يا محمد، أنا. ألا تتذكرني؟ أنا برقت زوال.

- هذا أنت يا زوال؟ - تلاقى الأبراحيان اللذان جمعتهما مأساة الأديغة في أكبر جامع في إستانبول. - والله صحيح ما يقال من أن القلب والروح يتعارفان. خطرت لي اليوم يا زوال، لا أعرف كيف جرى هذا. نعم عرفتك، كان الضابط يوسف في أبحاله، معاون قائد الجيش، هو من ذكرك لي. وكان أخبرني أنك في بلغاريا.

- أين مقر الضابط يوسف يا محمد؟ - أسرع زوال بالسؤال وإن كان يعرف الجواب.

- وسنجدّه، ليس بعيداً من هنا... - قال محمد أفندي دون حماسة، وأضاف بنبرة أشد فتوراً: - نحن الاثنين يعرف أحدهما الآخر، ولكن حين تنطق اسمي لا تنس أن تضيف إليه اللقب الغالي: الأفندي.

- نعم، نعم، وكيف أنسى أنك الأفندي الكبير للأبراخ!

- ليس الأبراخ وحدهم - قاطع مرزخوي محمد الأفندي كلام برقت زوال - بل الأتراك أيضاً. سنلتقي بعد الصلاة إذ لا وقت عندي الآن.

- نعم، يا محمد أفندي، نعم - أتبع زوال الأفندي المنصرف بهذه العبارة. وسنجد الضابط يوسف. وعنوانه في الورقة التي أرسلوها له معي.

- أي ورقة؟ - توقف مرزخوي محمد وسأل.

- الورقة التي أرسلها قائد الجيش مصطفى باشا.

- إن كنت تقول هذا يا عبد الله - عبارة "قائد الجيش" التي سمعها محمد أفندي جعلته يغير قراره بسرعة. - لماذا لم تخبرني بأنك موفد القائد العسكري

الكبير للبلقان؟!... ستقف إلى جانبي في الصف الأول من أجل أن يسهل علينا التقاؤنا بعدها. وأنت تعرف أن الأتراك فضوليون نحو الناس الوجهاء، بمن فيهم شخصي، لذا سنخبرهم إن سألوا عنك أنك آتٍ من البلقان، وأنتك موفد من مصطفى باشا.

اصطف المصلون صفوفاً في الجامع الكبير الذي يتسع للمئات. وفي الصف الأول منهم وقف، على نحو بارز، برقت زوال إلى يسار مرزخوي محمد أفندي بقبعته المائلة للحمرة وكسائه الأديغي الأغبر المزتر بحزام رفيع. وبدأ المفتي العجوز الذي خرج من مقصورة جانبية حريصاً على أطراف عباءته الفضفاضة بإمامة المصلين. وبعد أن انتهى المصلون الذين لم يكن يصدر منهم إلا نداء "الله أكبر" و"الفاتحة" من المفتي، وقيامهم وجلوسهم، وقف محمد أفندي أمامهم وبدأ تلاوته بصوت جميل محبب. وبعدها انتهى الوقت المخصص له وهو نصف ساعة، اختتم المفتي بدعاء يلتمس من الله أن يتقبل ثواب الإصغاء.

وحين دخلا مقصورته شبه المظلمة من الجامع، قال محمد أفندي الذي لم يكن قد خرج بعدُ من مكان التلاوة وهو يمسح بمنديله الأبيض العرق عن جبينه الضيق وعن شفتيه الرقيقتين:

- ها أنت يا زوال، يا من أدعو له برعاية الله، شهدت بعينيك وضع مرزخوي محمد أفندي في إستانبول.

- نعم رأيت، بعيني رأيت - امتدح زوال برقت من أعماق قلبه محمد أفندي، وهو الذي لم يكن يعجبه يوماً ما في بلاد الأبراخ، وشهد على ما أراه إياه. - الأتراك لا يكتفون بالاستماع إليك، بل يصغون حتى بأفواههم.

- لا يا زوال، لا. القرآن العزيز الذي أنزله الله سبحانه من علياء سمائه حرام أن تستمع إليه بأذنيك. ربما كنت تريد أن تقول إني جعلتهم يُصغون بقلوبهم.

- نعم، هذا هو. جعلتنا نصغي دون أن تصدر منا نأمة. ورققت قلوبنا. غير
أني يحزنني أن الأبراخ الأجلاف لم يفهموك.

- لا تدعنا نعتب على هؤلاء المساكين. وأنت لا تُفني نفسك من أجلهم يا
زوال... من أعتب عليه هم من لم يفهموني من أمثال تسي وبرج وزانه قوه
الابن^١. ظلوا يتكلفون الرجولة، ويدعون الحكمة حتى تسبوا في هلاك
مرؤوسيههم.

- وشامل الذي أرسل إلينا النائب محمد أمين الداغستاني لم يكن أفضل
منهم. - قال زوال وأنهى باختصار: - حين وجد نفسه في مأزق استسلم لهم
أسيراً بدلاً من أن ينتحر، فلوث سمعته.

- صحيح زوال. - الشيخ شامل والنائب محمد أمين لم يتحليا بما يتناسب مع
مكانتهما من رجولة... - قال محمد أفندي، ثم غيّر الموضوع: - أتساءل ألن
يأتينا تلاميذي بكأس شاي - صفق لهم بيديه - ما الأخبار في بلغاريا
والبلقان التي جئت منها؟ وكيف تدبرون أموركهم؟ هؤلاء من يجب أن نقلق
لمصيرهم أكثر من غيرهم. ما الفائدة في الكلام على الخونة الذين مضى
عهدهم؟ - أمسك محمد أفندي بصحن الحلويات الصغير المرافق لكأسي
الشاي اللتين جلبهما المولى، وغيّر موضوع الحديث. - هذا الشاي يا زوال،
قيل لي، ولا أعرف مدى صحة الخبر، أننا نحن الأديغة من جاؤوا به إلى
الأتراك. وأياً كان من جاء به فهو من أرزاق الله الطاهرة. لنفتتح باسم الله!

^١ الثلاثة من شخصيات رواية "المطرودون" للكاتب نفسه، وترجمة المترجم نفسه. والأولان
زعيم الأبراخ بعد رحيل النائب محمد أمين. الأول انتحر مع نهاية الحرب بأن قفز بحصانه في
الوادي، والثاني قُتل وهو يحارب القوزاق في معركة معروفة النتيجة سلفاً. والثالث من
الشاباغ، وهاجر إلى تركيا. وكان محمد أفندي على صلة وثيقة بهم.

و"لقمة" مسلمينا تناسب الشاي جداً. والآن يا زوال الذي أدعو له أن يشملهم الله بعطفه هل لك أن تُطلعني على مضمون كتاب مصطفى باشا قائد الجيش... إن لم يكن سرّاً!

- الورقة مختومة. وحتى لو لم تكن مختومة فمن أين لي أن أعرف ما فيها، وأنا لا أعرف القراءة، ولا أعرف الكثير من التركية. ولكن إن أمكنني أن أوصولها إلى صاحب المنصب الكبير في جيش المشاة الضابط يوسف فسأتصرف بما يأمر به.

- نعم، نعم. الله أنعم بالحظ على أمثال الضابط يوسف الذين لهم من يسندهم. بديهي أن تتصرف كما يأمر. وأنا لما كان الله العلي العزيز سندي أعيش كما يملي عليّ. وأنت يا زوال ليكن في قلبك دائماً يحقق لك ما تريد. - اختتم محمد أفندي كلامه دون خاتمة - يسرّون أخباراً بأني أحد المرشحين لخلافة هذا المفتي العجوز الذي أمّ بنا صلاة الجمعة، والذي ينوء بمرضه وشيخوخته، فلنر ما سيحدث!

- هذا خبر ساوّر يا أخي العزيز محمد أفندي. ومع ذلك لما كان الترك لا يقدّمون من ليس من قومهم فلا أستطيع إلا أن أتعجب مما سمعت. ثم أعود وأفكر في الأمر ملياً فأعدّك فُزت بالمنصب لأن جدّة السلطان التركي أديعية. وسيكون هذا مصدر فرح للأديعة المساكين الذين لا يجدون مستقراً لهم هنا، وستكون لهم مصدر دعم وثقة.

- مهلاً زوال، مهلاً - همس محمد أمين إلى ابن قومه حذراً وعينه نحو الباب - لا تقل ما لا يعجب مضيفينا - ثم أضاف بصوت أعلى: - نعم، حقاً يا زوال، ما تقوله صحيح. الترك بالقياس إلى الروس الكفار الذين سلبونا أرضنا وطرّدونا أناس صالحون، أناس يقاسمونك لقماتهم، قلوبهم طاهرة. رأيت كيف

استقبلونا في بلادهم حين وقع الأديغة المسلمون في ضيق. والآن سأقول لك أيضاً أمراً آخر يتعلق بالترك: هم مقاتلون لا يُعلى عليهم. الصرب والبُلغار العنيدون الذين يعيشون في البلقان التركية هم أقرباء الروس الكفار الذين سلبونا أرضنا عرقاً وديناً. لا تسمحوا لهم أن يفتحوا أعينهم، ليروا إن كان هذا خيراً لهم!

- وهذا رأيي أيضاً يا محمد أفندي. وإن كنت تتذكر فهذا رأي باغ مزحِب، وناورز هارون.

- وكيف لا أتذكر من ذكرتَ أسماءهم؟ - تنهَّد مرزخوي محمد أفندي - كنا معاً في مواطن الخطر والموت. وتحملنا معاً كثيراً من المصائب. يسرني أن هؤلاء الرجال الممتازين معك. وبلغهم سلامي إن لم يكونوا نسوي. يا ربي ألا يزال جرمت والدكوبل هارون حياً؟

- حي، حي... - قال زوال لا يستطيع إخفاء عدم مودته له. - يتدخل فينا قولاً وفعلاً. ويدفعنا إلى أن نفعل ما نريد وما لا نريد.

- ما تقوله عجيب، ألا يزال حياً؛ ليرأف به الله! وليعيش شيخوخة هادئة في بلاد الإسلام تركيا. هذا عجوز عايش مأساة الأديغة في صميمها. ارعوا حرمة شيخوخته، لا تسيئوا إليه. وأطلِّعه على ما صار بوسعي أن أفعله هنا، وعلى نفوذي. وبلغه سلامي الحار.

لم يحصل زوال برقت من محمد أفندي الذي قابله ما كان يتأمله منه. اكتفى زوال الذي وصلت إلى معدته كأس الشاي الممزوج بالمديح واللُقمة المبلولة به، وصرفه دون "تفضُّل" على الطريقة الجدية للأديغة، بل اكتفى بدعوته إلى اجتماع، فخرج من صحن الجامع خالي الوفاض، وضحك من نفسه بنفسه: "الدنيا التي يمتحننا فيها الله حيث يصبح مرزخوي محمد أفندياً، متجاوزاً ما قبل

هذا اللقب دنيا عجيبة. الكذاب يمتطي الحصان والصادق راجل بجذاء مهترئ. ألم يكتشف حقاً أنه ليس في جيبي فلس، وأني دون مأوى؟ غير أنه اهتم بالورقة التي كلفني بها مصطفى باشا قائد الجيش. هذا المقرئ الذي لا يعرف معنى ما يقرؤه من القرآن كان سيغريني بفتح الورقة المختومة لو استطاع. أيكلفونك بمنصب المفتي لأنك تقرأ القرآن بصوت جميل رنان؟! وأنا وافقته بكل غباء. أقول هذا ولكن هل من السهولة أن تتركب هذه العربة، ويكون لك كل هؤلاء الأتباع، ويستمتع إليك كل هؤلاء المصلين؟ ما يدلك على سعادته الجبّة التي خرجت للتو من يد الخياط، والخدان المتوردان، والخاتم الفضيّ الضخم الملتف على إصبعه الصغرى. لا أعرف بم أعلق على هذه المظاهر... يا برقت ماذا تقول؟ لن تكون أنت أيضاً بلا خنجر كما اليوم، لا تعرف كيف ستنحل أمورك غداً" — لطم زوال فخذه ناهراً نفسه، ناصحاً إياها، فوجد في جيبه القطعة الفضية الوحيدة عنده. أوقف عربة وطلب من سائسها أن يوصله إلى حيث يجب أن يذهب.

انحلّ موضوع برقت زوال بسرعة في قيادة الجيش: كان الأمر السري المتعلق بتأليف كوكبة الفرسان المكلفة بحماية قرى الأديغة جاهزاً فأعادوا إليه الورقة المختومة دون تعقيدات. واستهلكت الأوراق المصاحبة المتعلقة باسم الضابط وبالنقود الوقت الأطول. ولولا الضابط يوسف لربما استهلكت هذه الأمور الغد كله. ولم يتطلب اختيار بزة الضابط كثيراً من الوقت. تفحص الموظف المسؤول قائمة زوال فأعطاه البزة مصحوبة بالخذاء العالي، وقال له بالأديغة:

— ستناسبك هذه البزة كأنها فُصِّلَت على قياسك. وإن لم يكن الخذاء على مقاسك بدّلته لك.

— هل أنت أديغي؟ — فاجأ الكلام الأديغي زوال.

- عدم كونك تركياً مثلُ عدم كوني شركسياً... أقمْتُ في شركيسيا ثلاث سنوات. لم تسمعوا كلامنا. سمحتم للكفار أن يغلبوكم معتدين برجولتكم.

- هل تعني أننا تصرفنا بجبن؟

- ما الذي جاء بكم إلى بلادنا لو كنتم شجعاناً؟

- لأنكم خدعتمونا! - ردّ زوال ضابطاً أعصابه بصعوبة، ثم تصلب في

التعامل معه معتداً بكونه ضابطاً: - لا تنس من كتابياتك أنك دوبي رتبة!

- سأعرف هذا حين تمارس بطولة لصالح تركيا من خلال ربتك.

- ليس مستبعداً أن أفعل مثل هذا... هيا كفاك ثثرة؛ هيّئي لي بزّي واصرفني عن وجهك!

"مهما قالوا لنا أو فعلوا فنحن نستحق. لا يمارسون ضدنا ما ليس ذنبنا..."

- خرج زوال برقت والإهانة تحرقه من مستودع الأسلحة، ودخل إلى مستودع

السلاح المجاور. ولما لم يكن فيه إلا المسؤولان عن تسليم السلاح فقد وضعاً

أمامه إيصالاً بالمسدس وطلقاته والسيف لتوقيعه. لم يُظهر زوال على نفسه أنه

لا يعرف الكتابة، فرسم علامة سرج أسرة برقت بجانب الاسم.

- ما هذا الذي أراه؟

- هذا - قال زوال بالأديغية مشيراً إلى نفسه بإصبعه: - هذا خاتم آل برقت.

وترجم له بالتركية: "شركس دامغا". ياكشي، جميل!

- ياكشي، ياكشي - وأراه أيضاً إصبعه الكبيرة.

- ياكشي إن كنت فهمت... - وضع برقت قرشاً مما أُعطي من راتب الضابط

في يد الموظف، وبشّر في وجهه: لا يؤخذ السلاح دون مقابل.

رجع زوال إلى الفندق الذي كان ينتظره فيه الضابط يوسف، وهو يقول لنفسه:

"من أجل هذا يقولون: إن الناس، من أي عرق كانوا، مختلفون " هذا أساء إليّ

والآخر رفع من مشاعري. وذاك - موظف الملابس - كنت أود أن أدسّ في جيبه مثل ما منحت للتالي قطعة نقدية، غير أنه استضعفني، وهو الإنسان التافه، لكوني أديغياً فحسب. وجدت نفسي في موقف فرض عليّ، وأنا الأديغي، أن أصبح تركياً، غير أن أحداً لم يجبرك أنت على أن تُبدي كونك شركسياً... أنتم من كانوا ينوون التوغل في بلادنا بحجة الإسلام دون أن يدعوكم أحد. وكنتم ستخدعون أمثال مرزخوي محمد وأمثالي... ألا يكفي أنكم ما نفعتمونا هناك في أرضنا حتى تنكؤوا هنا جرحنا الذي لم يندمل بعد؟! أقول هذا غير أي لا أعرف أين ستظهر شعاعتنا ونُظهر استقامتنا..."

مرزخوي محمد الأفندي الجالس في الغرفة مع الضابط يوسف لم يُجهل زوال الداخل إلى الغرفة حتى يلقي التحية بل بادر الضيف غير المنتظر بعتاب ودي سائلاً:

- يا زوال الذي أدعو له بعطف الله لماذا لا تلبس زيّ الضابط الذي نعتدّ به أنت ونحن؟ أطلعني على أخبارك السعيدة الضابط يوسف أدعو الله أن يثيبه على معرفه. هيا دغنا نر زي الضابط التركي الجميل عليك!

- لولا أن أكمم الصدر وأطراف البنطال طويلة قليلاً للبسته يا محمد أفندي... - وجد زوال لنفسه ذريعة حيال الأفندي محمد دون أن يُبدي ضيقه به.

- وهل يمكن أن يحدث هذا؟ أهنأك زيّ لا يتناسب مع قوام الأديغي! ارتفع الصوت المرائي لمحمد أفندي، ثم خفضه وسأل: - والقبعة؟ أليست القبعة على قياس رأسك؟

- القبعة والحزمة على قياسي.

- ولماذا لا تكون على قياسك! - لم يكن محمد أفندي يكفّ عن الكلام - إصلاح الأكمام والبنطال لا يستغرق أكثر من ساعة. أهمُّ ما في الأمر يا ابن قومي الغالي أن إخواننا أبناء ديننا الأتراك بمعرفة سلطاننا المعظم أؤكلوا إليك مهمة عظيمة، وأنا والضابط يوسف واثقان أنك على قدر المسؤولية. أليس صحيحاً أيها الضابط يوسف، يا من بدّل الله رتبته إلى رتبة البكباشي؟^١

- نحن يا أفندي لا نوكل إليه مهمة دون أن يكون موضع ثقتنا.
- هل سمعت أيها الضابط التركي، نحن واثقون منك. استأصل بعون الله جذور أعدائنا الكفار! وأفهم رفاقك أن هذه ستكون أول مهمة لك. - فتح محمد أفندي ساعته الفضية ونظر: - لا تزال أمامنا ساعة على موعد صلاة العصر إن لم تكونوا بحاجة إلّٰي فيها عدتُ إلى الجامع. ربما احتاج إلّٰي الموالي قراء القرآن. وإن أردتم صحبتكم إذ أن عربي على باب الفندق. وإن كنتم تفضلون الصلاة في مسجد الفندق نجتمع غداً وعندني وقت أكثر من اليوم. وعندني صديق خياط متهاود الأسعار فإن شئت طلبت منه إصلاح ملابسك يا زوال.
- حياك الله، لا أريد إشغالك بأمور ثانوية. - أجاب زوال على من كان مشغولاً به - أنا سأصرف مع خياط الفندق.

- هكذا؟ وهل في الفندق محل للخياطة؟.. هذا أفضل شيء. اسمع ما أقوله لك إذن يا عبد الله الصالح: تعال مبكراً إلى صلاة الظهر غداً بزّيك العسكري وكل من يراك يغبطك عليه، سأقدّمك للمفتي الذي يؤمّننا في الصلاة لأنّي كنت أتيت له على ذكرك. إنه عجوز رائع متقن لعمله. وأنت يا يوسف سيسرني أن تكون معه.

^١ الاسم مركب من "بين" وتعني في التركية الألف، وتُلفظ النون كافاً، وباشي: قائد، أي قائد الألف، وتقابل في مصطلحاتنا اليوم رتبة المقدم.

- ماذا يريد ابن قومك الأفندي؟ - سأل الضابط يوسف بعدما خرج محمد أفندي من الغرفة.

- من الصعب معرفة ما يريد... وفي بلادنا كان كذلك.

- سأقول لك إذن ما يريد، بل يتوسّل من أجله: يريد أن يكون أفندياً للجيش الشرکسي إن جرى تأليف مثل هذا الجيش.

- هكذا؟ - ابتسم زوال - وأنا أريد، لا أعرف إن كان سيتحقّق، أن أصبح سلطاناً على البلغار!

- لا تدع أحداً يسمعك - حفل الضابط التركي - تقول مثل هذا، ولا أنا سمعْتُ. نحن عندنا سلطان واحد فحسب. أريد أن أسألك فتُسنيني... - قال الضابط يوسف مصطنعاً ابتسامة - أحد أبناء قومك الذين استوطنوا غابة أجي، لا أذكر اسمه، حسناً تذكرت الآن... هو مزحج، عنده بنت جميلة، ما أخبرها؟

- تقصد داربخان... هي في عزّ الشباب. والخطاب كثيرون على بابها.

- عجيب أن تُترك عازبة إلى الآن، ألا يختطفها أحد.

- لأن عندها حراساً أشداء... - قال برقت، وابتسم في وجه الضابط يوسف مغمماً في نفسه: "وأنت ألا تنساها!"

الفصل الثاني عشر

ركب برقت زوال الطريق إلى البلقان مصحوباً بالمال، وبالأوراق التي تفيد بأنه ضابط تركي مخوّل بتأليف كوكبة من الحراس الفرسان، وفي وقت مناسب يتحول الحراس هؤلاء إلى جيش شرکسي، جاهزاً من أعماقه لهذه المهمة. وبعدما قطع مسافة سأل سائس العربة الذي يبلغ الثلاثين تقريباً:

- أتعرف السائس سردار؟
- أقلت لي سردار؟ أعرف جيداً سردار اللص الأوزيكي جيداً. ما الأمر؛ ألا تعجبك عربتي؟
- لا اعتراض لي على عربتك، مريحة، وخيولك نشيطة، غير أن هذا الأوزيكي المجرم مدينٌ لي. أين سأجده يا تُرى؟
- لا مشكلة إن زدت قليلاً في الأجرة. كنت رأيته منذ لحظات في موقف عربات الركاب. وها هو، ما يزال واقفاً.
- حين رأى سردارُ الضابطَ التركي يقترب منه استقبله والخنجر الذي لا يليق بالكرش الضخمة يتدلى من وسطه:
- تفضّل يا ضابط، تفضّل! سأوصلك بنصف الأجرة إلى حيث تذهب.
- هل تتذكرني؟
- أنا أنقل ضباطاً كثيرين فذكّرني!
- أنا من أعطاك هذا الخنجر إلى جانبك زيادةً على الأجرة.
- هذا أنت! لو عرّفتني أنك ضابط لما أخذت منك فلساً واحداً... أنت أعطيتني من عندك... والآن تطالب بالخنجر؟ إن كنت تريده أعدته إليك، ولكن أجرة الركوب...
- لو كنتُ دفعْتُ أقل من الأجرة لدفعت.
- لماذا لا تقول هذا من البداية يا ضابطنا الغالي؟ أنتم أملنا وسندنا... - انتزع سردار ملهوفاً الخنجر، وأعادته إليه بعدما مسحه - إذا كنت جئت من أجله فلا بد أنه خنجر ممتاز... ظننته غير ذي قيمة لأنك تنازلت عنه بسهولة، ولم أَسْتَلِّه من غمده البتّة...

مع أن زوال تحقق له ما أراد في إستانبول، ومع أنه استعاد خنجره، فهو جالس دون أي شعور بالفرح، غارقاً في ما مر به في السنوات الأخيرة. والطبيعة التي تجري فيها العربة المجهزة في تركيا تريد أن تتلج ولا تستطيع، قبيحة ثقيلة كما قلبه. والنافذتان الضيقتان على جانبي العربة تتلقيان الثلج المبلول فلا ترى شيئاً من خالهما. بركة فارغة من كل شيء، من شجرة تائهة أو تل وحيد. والبيوت الطينية المنخفضة المحيطة بالمآذن المديبة لا تكاد تعلو عن الأرض. وتظهر قطعان من الغنم لا تعرف ما ترعى في هذا القفر. والحمير المحملة بأكياس على الجانبين، والبغال ذات الآذان الضخمة التي تجر أحمالاً من الحطب على الطريق. والفرسان قلائل.

"ما أفقر هذه البلاد التي صرنا فيها، والتي ألبسوني زيّ محاربها!... - قال لنفسه برقت زوال وتنهّد. أألبسوك إياه أم لبسته من تلقاء نفسك؟ لا أعرف، لا أعرف الجواب. ومن يعرفه فليُفهمني إياه! وإن كان الأفندي مرزخوي الذي يتمنى أن يرى زيّ، وأن يصبح أفندياً للأديغة الذين سيرتدون مثله... مهلاً، مهلاً، ما الفرق بيني وبين مرزخوي؟ هو يفعل ما يريد باسم الله، وأنا أجمع متطوعاً من نفسي لا يترجاني أحدٌ جيشاً من الفرسان الحرس للثأر لنفسي. ومرة أخرى أسأل نفسي: أأنا أجمعهم أم دم العرق الغالي عليّ من يجمعهم؟ ولكن حسب ما كان قال لي مصطفى باشا، وكما أكّدوا عليّ في إستانبول، لا علاقة لتركيا بتأليف جيش الأديغة، ولا تموّله. سنجمع من تلقاء أنفسنا هؤلاء الفرسان من أموالنا، وحسب قرانا، ثم ننتظر ما يحدث... وهذا الزي لن ألبسه طويلاً. سأستفيد منه مادمت على طريق البلقان. أما كان مفخرة لو خالطت جماعة باغ وناورز وكوبل بهذا الزي؟ وكان أفضل شيء لو رأيتي من يموت عليها كل لابس القبعات، داربخان. ماذا بيدي؟ إن قررت أن يكون لجيشكم زيّ

كهذا لبسته! واليوم الذي سأرتديه فيه سيأتي كأنه هذا اليوم... الأترك أذكياً ومخادعون، سمحوا لحماة قريتنا أن يلبسوا زينا غير أنهم يريدون أن نضع هلالهم على أكمام القمصان وياقاتها. والأعجب أنهم وافقوا على رفع علمنا إلى جانب علمهم. وهذا حسن... ما العمل؟ دم العرق نارٌ حاميةٌ سهلٌ إذكاؤها... " - أفاق برقت من أفكاره المتلاطمة وهو يعصر بين يديه الخنجر الذي استعاده.

- ما اسمك؟ - سأل سائس العربية - عرّفني إذ كيف سنسافر معاً دون أن أعرفك؟ أنا اسمي زوال وتعرف أني شركسي.

- نعم، فهمت هذا وأنت تسترد الخنجر من سردار. وأنا اسمي أيوب، وإذا كانوا يعدّون كل من يعيش في تركيا أتراكاً فأنا أخبرك أني كردي لأنني أعرف أنك شركسي. وذاك الذي سميت أوزيكياً لا ينسب نفسه إلى الأوزيك بل يقول: أنا تركي. وسيشملكم هذا الوضع. وسيأتي يوم يمنعونكم فيه من التحدث بلغتكم. وإن كنتم محظوظين حماكم السلطان ابن ابنتكم.

- هذا غير ممكن...! - صرخ زوال مما سمع.

- هذه حالنا وإن لم يكن ممكناً... لا تبالغ في الاغترار بزيّ الضباط! البلغار الذين نشروكم بينهم مثلكم ومثلنا وإن كان لهم دينٌ آخر، عرقٌ مستقل. أسرع، أسرع يا حصانيّ المحجّلين، لا يزال أمامنا طريق طويل!

كان برقت زوال جالساً كأنه مسرّر مما كان يتوجس منه وشهدوا عليه. مرة أخرى خلع القبة التي لم يعتد عليها ثم ارتداها. وحلّ زنار صدره، وحرك أطراف أصابعه في الحذاء الذي كان أكبر من رجله قليلاً. وقال وهو يعصر أطراف أصابعه التي لم تكن تشعر بالبرد:

- هذا هو العالم الذي نعيش فيه؛ ما العمل؟... حتى لو تظاهر الحبيث سردار بأن هذا الخنجر لم يعجبه فهو من إرث جدي. كان أنقذني من مهالك كثيرة في القفقاس. وحين كنت في نواحي أحيي يقتلني المسحل لم أسمع لأحد أن يطمع فيه. ساعني يا خنجري الغالي أن تركتك على حزام رجل غريب يوماً وليلة... ربما فقدت عقلي في المدينة المزدهمة لأني كنت وحيداً ودون مال... - استل زوال الخنجر وتفحصه ثم أعاده. - ثم ما أخبارك يا أيوب؟ وأحوال خيلك، أأكون سببت لك الكآبة؟ لا داعي لليأس!

- ونحن الأكراد نعيش على هذه الأرض دون يأس، مرددين هذا الكلام.
- نعم، نعم. لا داعي لليأس - كرر زوال كلامه. وأضاف إلى ماكان يرويه من أخبار الأقوام: تبعاً لكلامك يا أيوب فالبلغار، وإن كانوا مسيحيين، هم عرق آخر مثلنا.

- وهل من حاجة للسؤال! هؤلاء يمتلكون قلوباً وأرواحاً، ويتكلمون لغة خاصة بهم. وعندهم بنات جميلات وشباب متناسقو القوام. - اسمع يا حصاني لن تفهما ما نقول ولو أنصتُما فاستعجلا! - هزّ السائس مازحاً طرف السوط للحصانين، ثم أعاد السؤال إلى من سيودعه ثقته: - هل تثق في يا ضابط؟
- هل هناك ما يُريبك مني؟ - أعاد زوال السؤال سريعاً، وشرح له ما قاله على سبيل المزاح: - إن لم يكن حصانك شاهدين فأنا أثق بك. ولكن لا تنس أن الله يسمعنا.

- وكيف ننسى الله وهو في قلوبنا! الناس الذين خلقهم الله في أرضه الواسعة، ومنحهم لغات متنوعة، وألبس كل قوم لباسه المناسب، متساوون في نظره. وهم موضع اختبار في دنياه العارية. ينصح من يُخطئ، ويعيد إليه وعيه بالآخرة التي تنتظره. ويُقصّر طريق جهنم لمن يخرج عن طوره وعن طاعته.

- أسمعك يا أيوب فأفهم منك أن كل من على الدنيا متساوون عند الله.

- نعم، نعم، كلهم أناسه وأمته.

- والمسيحيون أيضاً؟ - لم يدع زوال سائس العربة يكمل حديثه - يقال إن في العالم أناساً يدينون بديانات مختلفة.

لا بد أن يكون على الأرض أصحاب ديانات مختلفة إذا كان الله يختبرهم من خلال أديانهم... ها هم العرب الذين خرج منهم الإسلام، يقال إن بينهم مسيحيين. والصرب في كوسوفو يدينون بالإسلام.

- وعندنا نحن في "مَزْدَع" مسيحيون من الأديغة؛ هل هم كفّار كالصرب؟

- من يعادي دين الله الإسلام كافراً أياً كان. - اختتم أيوب حديثه بصوت حازم.

- إن كان هذا رأيك فأنا أوافقك. - قال زوال، وأنهى بنبرة ألطف من سابقتها: - ثم تقول إن البلغار الكفار مثلنا!

- أقول لأن الترك فعلوا بأهل البلقان مثل ما فعل الروس بكم.

- ماذا تقول؟ - سأل زوال وإن كان قد فهم ما سمعه.

إن تبادلنا الثقة فما قلته أنا وسمعتَه أنت يا أخي الشركسي... وأضف أراضينا نحن الأكراد إليهم. وكذلك الأرمن... ولكن لم أقل شيئاً ولم تسمع شيئاً... أسرعا يا حصانيّ المحجّلين، أسرعا. الضابط الشركسي يعود إلى البلغار، غير وطنه!

"اسمع ماذا يقول هذا، ماذا يقول عني... - جعل الحديث الذي لم يسمع برقت زوال مثله في تركيا خلال الستين اللتين عاشهما فيها يعيد التفكير - ما يقوله هذا الرجل صحيح... لا علم لي بمعيشة الكُرد والأرمن والروم في تركيا، ولكن في كلامه علينا وعلى أهل البلقان شيئاً من الصحة. القيصر الروسي

سلبنا بلادنا وطرَدنا منها، والسلطان العثماني، حسب ما يقال، يحتل البلقان منذ قرون. ونحن، دون أن نعرف شيئاً من لغاتهم وعاداتهم وطرائق عيشتهم، نشرنا بينهم. يطلبون منا أن نحمي أنفسنا بأنفسنا من أقرباء الروس الكفار الذين طردونا. وإن احتاج الأمر زودونا بجيش من الفرسان الشراكسة. كان علينا أن نرفض الخروج من أرضنا... أظن أن قيصر الروس وسلطان الترك تحالفا فخدعانا دون أن ينتبه زعمائنا إلى الخديعة... وأنا كنت ضحيتهم، ودمرت نفسي بنفسي مدعياً الشجاعة، وضحيت بأسرتي اللطيفة من أجلهم. يا ربي أتكون ابنتي الصغيرة عُشماف التي فقدتها ونحن نركب السفينة ما تزال حية؟ ما أسوأ الحظ الذي جئت به إلى العالم! كانت هي الوحيدة التي بقيت لي فبأي ذنبٍ اقترفته فزقتها عني؟ بحثت في السفينة التي كان من نصيبي أن أركبها وصرخت فلم أجدها. ولم تكن في أي سفينة من السفن التي انتظرتها ثلاثة أشهر... لا يقول لي إحساسي إنها ماتت لأن صبيّة الثامنة عشرة الواعية كان معها من الحليّ ما تعيش به..." - حين تألم قلب زوال بعد هذه المناجاة خرج من أفكاره الثقيلة وعاد إلى ما كان لمّح له مع أيوب:

- ما كنت لأعتب عليك يا أيوب لو قلت لي إن العالم كله أرض غريبة عليّ، لا بلغاريا وحدها. - ابتسم وأضاف: - وليس جنة لك أيضاً.

- لو كانت الدنيا جنة لما سميها دنيا عاريةً. - قال أيوب، وأتبع كلامه بضحكة. ثم تظاهر بأنه يعاتب الحصانين اللذين يجريان جنباً إلى جنب متسقين، وأضاف إلى كلامه سؤالاً ناعماً: - أتعرف أيها الطبيب الذي واثقته الفرق بيني وبين حصاني؟ هذان مربوطان إلى عربتي، ويجنيان لي ما أعمل به أسرتي، ولا أحرمهما مما يجنيان. وأعتني بهما، أترجاهما. وكما ترى ألوح لهما

بطرف سوطي ولا أستعمله معهما... وإن لم يكن ما قلته صريحاً تماماً فقد فهمته...

- فهمتُ عنايتك بالخیل، فهمت.

- إذا كان هذا الوحيد الذي فهمته أيها الضابط المحترم فأنت تضحك عليّ... ولكني، ولو أنك ضابط تركي، وثقت بك. وأقول لك السبب: لأنني كردي وأنت شركسي. وأمامكم أيام ستفهمون فيها هذا الأمر... ما قلت إنك فهمته يا صديق الخير أضيف إليه القول الكردي المأثور: "يقفون إلى جانب الملهوف، ولا يمشون فوق رأسه"

- مثلاً هذا القول المأثور، - انتظر زوال قليلاً، وأضاف - عندنا أيضاً نحن الشراكسة.

- إن كان عندكم فهذا هو المقصود...

- لا معرفة عندي بعرق الكرد، في أي منطقة يعيش هؤلاء؟ - سأل زوال دون مزاح، وبشيء من الشفقة.

- وهل هناك مكان ليس فيه أكراد؟ يعيشون مع العرب، ومع الأرمن، ومع الفرس. غير أنهم يعيشون بالملايين في شمال العراق وتركيا دون حرية ودون وطن. ونحن من هؤلاء نعيش في إستانبول، نسمي أنفسنا أكراداً، ولا حرية لنا في شيء، ومنا من يعيش في البلقان.

- وهل من يسمّون بالبدو من العرق الكردي؟

- هؤلاء عرب من سكان الصحراء.

- نعم، سمعتُ حجاجنا يقولون هذا. - تنهد برقت عميقاً، ناسياً أنه يركب عربة سائس كردي، ولام دنياه: - إيه يا دنيا، يا دنيانا المنحوسة، ما أكثر

أعراقك وأديانك المتعارضة!... — ثم قال لنفسه هازلاً رأسه لها: "الرعد يدوي في طوابسه البعيدة، والأديعة يفنون في أرض تركيا^١..."

رحل برقت زوال بقلبه كما اعتاد أمس وأول من أمس، وفي الأسابيع الماضية، بل في آخر سنتين، إلى ساحل البحر الأسود حيث فقد ابنته الوحيدة. وأمام عينيه طلقات المدافع التي تفوح منها رائحة البارود، والطرقات الجبلية التي على أطرافها جثث لم تجد من يدفنها، وبكاء الأطفال، ومراثي النساء، وتهديدات الرجال الذين لا يتحملون الإهانة، والجوارح التي تحوم فوق الجثث، والوحوش التي تجذبها رائحة الدم. والناس الذين أرغموا أن يهجرُوا قراهم، ومراعي جبالهم، ومواشيهم، لا يتسع لهم ساحل البحر من طوابسه إلى أنابه.

البحر الذي يتظاهر بأنه غير معنيٍّ بمأساة الأديعة غيرُ مبالٍ: يتموج خفيفاً، يلعب مع الشاطئ بحصاه التي تصلّ. والناس الذين فقدوا كل أمل لهم ينتظرون السفن. ومن عنده القدرة يركب السفينة الواصلة، ومن ليس عنده ينتظر التي بعدها. وحين تصل السفينة يركب فيها ضعفاً حملها بالتراحم. والبقية ينتظرون عن حلٍّ غيره بآخِر ما تبقي لهم من مدخرات. والناس الذين تذكروا أن ما يفعلونه بغيرهم، وما يفعل به غيرهم غير صحيح، ليس لهم الحرية في مغادرة الشاطئ. — جنود السلطان المدججون بالسلاح من ورائهم. وفي تدافعٍ من هذا النوع على الركوب افترق برقت زوال وابنته عُشماف.

"ما الذي أسعى وراءه وأنا لا أعرف ما حلّ بابنتي الوحيدة! وأي أعمال أتابعها؟ — غضب زوال على نفسه وهو يسترجع هذه الذكرى عائداً إلى الشاطئ التركي. ويبدأ سريعاً بالكلمات التي تعطيه الأمل، موسياً نفسه، معاتباً

^١ سبقت الأغنية في رواية المطرودون للكاتب نفسه ص ٣١٧ من النص الأصلي.

إياها: - لا أصدّق أن ابنتي لم تلحق بي في سفينة أخرى حتى لو لم تركب في السفينة المشؤومة التي ركبُها... ولكنها لم تخرج من أي سفينة مما انتظرت في خلال شهر كامل. أأتكون عادت إلى قريتنا وبيتنا؟ وكيف؟ وهل كان حملة الرياح وراءنا يسمحون لنا بالرجوع؟ وكيف لي أن أعرف؟ وعلى قول أيوب الكردي فهؤلاء عندهم أرواح وقلوب. ولا يُستبعد أن يكون فيهم من عنده شيء من الشفقة... لا، لا. لا أريد بعد المصيبة التي حلت بنا أن أرى هذا. أفضل الموت عليه!... " - الفكرة التي نبتت في ذهن زوال فجأة جعلت رأسه ينتفض.

أيوب الذي انتبه إلى هذه الحركة سأل:

- أخاف أن تكون العربة تتقاذفك أيها الضابط الذي أحترمه.

- لا، بل لأني خرجت من خاطر ثقيل... وصلاة الظهر قريبة، والأفضل ألا نفوتنا.

- وأنا أنوي هذا. إن كنت ترى هذا اتجهنا إلى الجامع الذي يصدر الأذان منه. في قرية بازار جامع مجهز جيداً. ومن بنّته هي جدة سلطاننا المعظم السيدة الكبرى بيكا. يقال، إن كان الخبر صحيحاً، إنهما جيء بها وهي صبية صغيرة من شركيسيا.

- لم تخطئ لأنهم لا يروون ما لم يُقل. وأنا سمعت باسم بيكا السيدة الكبيرة. ويقال إنهما لم تنس أصلها فهي تساعد أبناء قومها. - ابتسم زوال من فوق شفتيه، وأضاف إلى كلامه: - ولكن كيف يصل معروفها إليك وإلى؟ نحن معاً في العربة التي تنن عجلاتها وتتقاذفنا. وهي في الباب العالي الدافئ. وهل يلتقي الشبعان والجامع؟

- أسرع يا حصانيّ المحجلين، أسرع! لا تحرمانا من صلاة الظهر!... - غمغم الضابط التركي الشرکسي من تحت شاربیه الكثيفين متظاهراً بعدم سماع كلمات أيوب الأخيرة إلى الحصانين المحافظين على سرعتهما: - وراكب الحصان راجل، والراجل ليس راکباً.

المسجد المبني من الحجر الأبيض يبدو في هذا الجو المعكر من المطر والضباب وكأنه يقف على رؤوس أصابعه وسط ركام من البيوت الطينية التي تظهر من الأرض بصعوبة في قرية بلا شوارع. والدار التي فيها مِيضأة تبدو متطاولة. والأشجار القليلة التي مرّ عليها الخريف ضاحكاً بالأوراق الملونة تستقبلك بأغصانها التي عانت من البرد. بعدما توضأ زوال وأيوب، وتركوا لفافات سوقهما في ممر الدار، ودخلا بالجوارب إلى الجامع المضاء بالشموع، اتجهت أنظار المصلين المكبّين على وجوههم إلى الضابط الذي لا يعرفانه قبل الآن. وربما لم تكن أنظار المصلين اتجهت إلى زوال لو لم يضع أسلحته، على عادة الأديغة، إلى يساره: المسدس والخنجر والسيف.

سأل الإمام الذي أمّهم بصوت محبّب والذي لا يتجاوز الخامسة والعشرين الضابط الذي كان يُعيد متمهلاً أسلحته إلى جنبه:

- أظنك على ما أرى من خلال وضعك سلاحك إلى يسارك من الشراكسة الذين أرغموا على ترك وطنهم القفقاس.

- نعم، أنا ممن أُجبروا على ترك القفقاس. ولكني اليوم ضابط لدولة تركيا. - قال زوال مسروراً لسماع لغته في القرية التركية الصغيرة، واضعاً النبرة على كلمة الضابط، مستغنياً مرتاحاً، وامتدح الأفندي: - تعرف الشرکسية جيداً!

- أعرّفها لأنّ عندي أمّا علّمتني إياها منذ صغري. - قال الأفندي مرتاحاً إلى الضابط، ثمّ امتدحه: - يسرني أن تكون ضابطاً لتركيا العظمى ولسلطانها المعظم عبد العزيز.

- نعم يا أفندي، نعم - وافق زوال من صار محدّثه - أفْتَخر بأني تحت أمر السلطان ابن ابتنا. وأنا على الطريق إلى البلقان لتنفيذ مهمامي فلا تؤاخذني، العربة تنتظري.

- رافقتك السلامة، برعاية الله. ولكن كان بودّي أن أعرف اسمك ونسبك. - ما الأمر يا أفندي؟ - توقف الضابط لحظة بعدما همّ بالانصراف، وقال: - لماذا تريد معرفة اسمي ونسبي، رأييت مني ما لا يجوز؟

- لا يخطرُ لك مثلهُ هذا نحوي - استعجل الأفندي - أنا اسمي سعيد. أسأل لأني أشبّه تقاطيع وجهك بإحدى الفتيات.

- الشخص الوحيد الذي كان يشبهني، ابنتي، فقدتها على شاطئ البحر أيها الأفندي قبل أكثر من سنتين... - جعله الخاطر الذي غزا رأسه فجأة يتوقف: - ما الأمر؟

- هذه البنت التي فقدتها أكان اسمها عُشماف؟ - نعم يا أفندي، نعم، اسمها عُشماف. أين هي، أين يمكن أن أراها؟ - ليست بعيدة من هنا. هي في إستانبول. تعيش في الباب العالي وصيفةً لبيكا السيدة الكبرى. أنا عائد توّاً إلى إستانبول فإذا كان لمهامك العسكرية أن تنتظرك - نظر سعيد أفندي بعين المودة إلى زوال - فسنكون رفاق خير. سرّخ عربتك، وسأخذ البشارة من عُشماف التي أدللها باسم " غُل " .

- أنا المسؤول عن مهامى العسكرية. لا أصدّق. لا يستوعب عقلى ما حدث لى. - حين خرجا عدوّاً من القرية راكبين العربى سأل زوال سعيد أفندى: - أئى حطّ لابنتى أوصلها إلى السيدة الكبرى؟ - أتركّ هذه التفاصيل لعلّ تروىها لك! - وهذا صحيح. - ثم سأل زوال الأفندى عما كان يشغل باله: - ما العلاقة بينكما، أنت وابنتى؟ أريد أن أعرف. - سأقول لك: أنا ناديت غل بأختى، وهى ترانى أحياناً لها. - هكذا؟.. إن كنتما على هذه العلاقة فأنت مثله ابنى يا سعيد.

الفصل الثالث عشر

فى اليوم نفسه، حين عاد برقت زوال فرحاً إلى إستانبول، حدثت مأساة لداريخان لم يتوقعها أحدٌ فى القرية التى تعيش فى مضيق جبل بريشتينا، حيث يكون العجوز كوبل جرمّت الذى رحل عن الدنيا، وجلبت معها مصيبة أخرى.

رجال القرية واقفون فى صحن الدار المفتوح بأجماً بمناسبة رحيل كوبل جرمّت. والمسنون نسبياً من أمثال باغ مزحّب وناورز زغاشت، والمسنون القادمون من القريتين المجاورتين جالسون حول الجثمان المغطى بقماش أزرق. ومن الغرفة الأخرى تصدر أصوات بكاء النساء. وكل من يدخل الدار يعزى أهل المرحوم الذى توفى فى أرض الغربة، ابتداءً من ابنه كوبل هارون وانتهاءً بأصغر أهله. والرجال الواقفون فى مجموعات يسترجعون سيرة العجوز الطيب، الحكيم، الكريم، الحساس. عاش حياته من أجل الصدق والاستقامة والإنسانية. ولا يندر أن يتطرق الحديث إلى المشكلات الطارئة التى تشغل بالهم وتقلقهم،

ويتناقشوا فيها. ومهما قالوا فلا بد أن يتسلل إلى الحديث موضوعُ الوطن الذي جعله الأعداء وراء البحر.

والمسنون الجالسون إلى الجثمان الذين لا يسمحون لأنفسهم أن ينسوا أنهم "حراس" للجثمان، يتحدثون بالخير عليه كالواقفين في أرض الدار، يستطردون شيئاً فشيئاً إلى رواية بعض الأخبار. هذا يبدأ الحديث وذاك يكمله، وثالثٌ يتعمق فيه. وفيما ينهيه الرابع يصل الخبرُ إلى الكثير.

- ما العمل إذن، من المسؤول؟ - قال باغ مزحج الجالس إلى الجثمان الذي على صدره الخنجر وهو يهز رأسه - من كان يعرف أن هذه المصائب الكثيرة تنتظرنا، وأن جرمت سيدفن في بلاد لم نكن نعرف بوجودها... ويا ليتَه دُفن في تركيا البلد المسلم!

- في المضيق الذي نسكنه يا مزحج قرى تركية أيضاً - قال الأفندي مخوش حزرت القادم من قرية مجاورة، والذي يتكلف الرجولة خلافاً لعمره - وما ذنهم تتجارب، ولا يفوتون صلاة ولا صياماً ولا أضحية ولا زكاة - واختتم بصوت أشد حزمًا وهو ينقر بطرف عصاه الفضية الأرض بين خُفَّيه الجلديين: - وحسب معرفتي فهذا الركن الخصب الذي اختاروه لنا جزء من تركيا التي هي من أمة محمد. ولا تدعوننا ننسى من تكرم علينا بهذه الأرض السلطان عبد العزيز، وجدته بيكا، ورعايتهم لنا. يجب أن نحتفظ في قلوبنا بهم بعد الله سبحانه وبعد نبيه المرسل.

- نعم يا حزرت أفندي نعم. القرى الأديغية المقيمة في المضيق الجميل الذي منّا به علينا بعلم الله العلي العزيز يا حزرت أفندي - وافق مغسّل الأموات شحائم الأجرد من اللحية، ذو الوجه المتطاول والجسد النحيل الأفندي حزرت - لا يجوز أن ننسى طقوس الإسلام ما دمنا مسلمين. سنعيش في هذا

الوادي، كيفما وجهنا الله العلي الذي خلق الكون، وكما قال نبيه المنير محمد وأنت، نطيعك ونقوم بما على علمك. وإذا كانت دنيانا فانية فلا مانع أن يدفنونا في أي مكان.

- على رسلك يا شحام. لا يعجبني قولك هذا إنه يجوز أن يدفنونا أينما كان.
- احتاج ناورز لما سمع، لا تدع شبابنا يسمعون هذا الكلام.

- ما الأمر يا زغاشت؟ - حملت الكلمات غير المنتظرة حزرت على السؤال، وبنفس الطريقة من السؤال، ولكن على نحو يزيد به من استمتاعه، أضاف إلى كلام غاسل الأموات، مرافقه: - ألن يُدفن جرمات الذي نقوم الآن بمراسم دفنه في مقبرتكم؟

- طبعاً في مقبرتنا، أندفنه في مقبرة قرية ستيفان الكافرة؟! - غمغم زغاشت كأنه يحدث نفسه، ثم توجه إلى محادثته: - وأنت يا أفندي سأقول لك شيئاً لا أوافقك فيه.

- قل لي إن كان الله العلي العزيز سيقبل منك - ابتسم الآن الأفندي المعتمد براحتيه على رأس عصاه الفضية.

- يا زغاشت! - ناداه صديقه مزحج الذي يعرف أنه إنسان حامي الطبع.
- قل يا زغاشت، قل! أفصل أن تقول في وجهي على أن تقول في غيابي.
- ما لا أوافقك فيه يا أفندي هو قولك إن المكان الذي أتوا بنا إليه هو جزء من تركيا.

- أهذا ما لا توافقني فيه؟ ظننتك ستدينني بأمر آخر، وإن كان هذا فلا مشكلة. ما على لساني وما في قلبي واحد أيتها الجماعة. ولولا أنني إنسان واضح لما أُتيح لي أن أكون أفنديه الموفد منه، ولا أن أحج إلى الكعبة وأدرس في القاهرة. والآن أقدم نفسي لمن لا يعرفوني: إن كنتم تتذكرونني، ربما لا

يعرفني الشباب، ولكن الكبار يعرفوني، كنت أفندياً لجيران الأبراخ: المخوش والبسلي. كان عليّ أن أترك البلاد لأني وقفت في وجهه من كان يريد أن يكون سلطاننا النائب محمد أمين، ليأخذَه الله إلى حيث لا رجعة! ولم أجد تأييداً من برّج وتسي. هذا ما رأيته وما مررت به. غير أنني لما كنت من عباد الله العلي العظيم المخلصين للإسلام لم أياس يوماً واحداً، بل ساعة واحدة. وإذا لم يكن داعٍ لليأس فلا تياسوا أنتم أيضاً. ولي بعض الحديث إن كنتم لا تملون مني: لم يمض على إرسالي من طرابزون إلى نواحيكم إلا بضعة أيام. واخترت قرية المخوش أعيش فيها لأني من المخوش ولا أريد أن يعتبروا عليّ. وجامعها منزلي، ومتى ما طلبتموني وجدتموني فيه. خالطوا القرى التركية التي في مضيقنا، وتعرفوا عليهم! صاهروهم من جهة بناتكم وأولادكم. هؤلاء مسلمون مثلنا. — منح حزرت لمستمعيه فرصة يستريحون فيها ويفهمون، وأضاف بصوت أشد وثوقاً: — والآن يا أبناء قومي إذا خسرنا بلادنا وخرجت من يدنا بعلم الله فلا تدعونا ننسى أصلنا ورجولتنا وشرفنا في تركيا التي جاء بنا الله إليها، وبمحننا فيها، حتى نعود إلى وعينا فلا نسمح للكفار الذين وطّنونا مقابلهم والذين ذهب الثأر بعقولهم أن يرفعوا رؤوسهم. وكلما أسقطنا كافرًا من بين هؤلاء أرضينا الله العلي العظيم الذي نحن من أمته. صحيح أنه لا يتحقق كل مانريد كما نريد في دنيانا العارية، هذه إرادة إلهية. ولكن حدث لنا هنا ما كان يحدث في بلادنا التي تركناها للكفار من أمور سلبية. لا أتكلم على جانب سلمي مما تسبب في نكبتنا، أعني عدم الاتفاق؛ قبل أيام دُعيت إلى مأتم في قرية من قرى البجدوغ في الوادي الآخر، ما اسم هذه القرية الصغيرة يا شحام؟ نعم، ذكّرني جيداً اسمها ششّنيه. فاستمعت إلى مسنيهم وشباهم فلم يعجبوني. لا يتناسون أنهم

كانوا يوماً ما يعيشون بجوار الكفار. واستنتجت أن لهم هذه النظرة نحو البلغار المسيحيين.

- ألم أكن معك يا حزرت أفندي حين زرنا شَشْنِيه، وأنا كان عندي الانطباع نفسه. وافق شحام رفيقه الأكبر، وتمتم لنفسه - ما لا أعرفه هو لماذا خرجوا من أرضهم الجنة.

- خرجوا لأنهم طُردوا من أرضهم - قال حزرت أفندي دون مبالاة..، ثم أنهى بصوت أحزم: - ما فعله قيصر الروس الذي شقّ الحرب علينا بسلطان خان جري^١ الذي حالفه وصالح قومه بالروس، فعله هذا اللئيم بالجدوغ مرة أخرى. لا يجوز الوثوق بالكفار أينما كنتم يا جماعة. سمعتُ أن هناك مثل بعض هذه الآراء في قريتكم، لا أعرف إن كان صحيحاً.

"اسمع ماذا يقول هذا دون مراعاة لحرمة الجثمان... - قال باغ مزحج لنفسه، ونظر نحو ناورز، وأفهمه ضمناً: بمن تذكّرني طريقة كلام هذا الأفندي؟... ما أشبهه بمرزخوي محمد الأفندي لولا فارق العمر. بقينا نستمع إلى مايقول هؤلاء سواء كانوا يعرفون ما يقولون أم لا يعرفون حتى خربنا بيوتنا بأيدينا. الآن تذكرت: هذا الأفندي هو من أتى برقت زوال على ذكره. أسأله عن برقت؟ لا، سأسأله إن كان يعرف مرزخوي محمد..."

^١ خان جري شخصية مشهورة كتب عنها إسحاق رواية طويلة تحمل العنوان نفسه، وترجمها مترجم هذه الرواية وصدرت في مايكوب عام ٢٠١٦. وكانت أسرته من الأب والجد تعمل على إقرار سلام مع الروس. وكلفه القيصر مهمة في القفقاس تهدف إلى المصالحة، غير أن الأمور خرجت عن سيطرة خان جري، واحتلّت أرض الجدوغ أيضاً، ومات خان جري في عزٍّ شبابه قهراً من القيصر الذي غدر به ومن قومه الذين لم يفهموه.

- هل سمعت يا أفندي بشخص اسمه مرزخوي محمد أفندي؟ - سأل ناورز وكأنه عرف ما في قلب باغ.

- ماذا تقول؟.. - تظاهر بأنه لم يسمع الاسم وسأل. وأجاب إجابة ساخرة: -أتقصد من كان خادم أسيال النائب مرزخوي محمد المولى؟ كنتُ أعرف أخاه الأكبر بكر، فتح الله له باب جنته! سمعت أن المولى الذي سألت عنه يجمع الصدقات في أحد جوامع إستانبول. سنسأل برقت زوال الذي أرسلناه في مهمة إلى إستانبول الذي طلبنا منه أن يقابله.

- حان موعدُ صلاة العصر يا موفد الله - قال شحام ما إن سمع الأذان. دخل حجرت الغرفة لحظة أنهى حزرت أفندي كلامه. وقال لمزحِب:

- جاء العجوز ستيفان وابن ابنتنا تودور للعزاء.

- هذا لا يجوز يا جماعة، لا يُسمح لكافر أن يلقي نظرة على جثمان مسلم. هيا يا شحام، لا نريد أن نشهد على مثل هذا! - نهض حزرت أفندي ملوِّحاً بطرف عصاه الفضية، وخرج من الغرفة كأنه يريد أن يصرع في طريقه ستيفان وتودور.

وقف ستيفان وتودور جنباً إلى جنب، وقال العجوز:

- حزناً جداً لسماع نبأ انتقال صاحبنا بالخير جرمت إلى جوار ربه. وجاء بنا حزننا إليكم لنواسيكم. ندعو له أن يرتاح حيث رحل ،، وأن يُجازى على معروفه في الدنيا، وأن تعيش أسرته وقرينته في سلام، وألا ينسوا كبيرهم، ويعيشوا على هديهِ. وأن نعيش أنتم ونحن خيرَ جيرانٍ.

- حياكما الله، تفضلاً يا ستيفان وتودور. - قال لهم مزحِب مشيراً إلى المقعدين - كان جرمت يذكركما دائماً بالخير، ويسأل عنكما.

- ونحن كنا نأتي على ذكر جرمت الكبير بالخير. ولم نكن ننساه. - قال تودور بالأديغية - ليكون مقامه الأخير مقام خير.

- أتساءل ماذا يقول الكفار؟ - حين خرج حرزت أفندي من الغرفة محتجاً قال للرجال الذين كانوا يفسحون له الطريق: - أيها المسلمون الذين أدعو أن يُثيبهم الله خيراً. تعالوا إلى المسجد نصلّ العصر معاً دون أن نتخدعوا بالسلوك المنافق لهؤلاء المسيحيين الكفار... - وفي اللحظة نفسها سُمع صراخ امرأة يتردد في أرجاء القرية من حيّ باغ. وكسائر المعزين انتفض الأفندي برأسه.

- هذا صوت داربخان! - صرخ حجرت وخرج عدواً من الدار. وتبعه حاتام ومن في عمره. ودفع خبر داربخان مزحج أباهما إلى الخروج، وركب أحد الأحصنة المربوطة أمام الدار. ولحقه راكباً ديمتروف تودور. ومن على أرجلهم ركضوا وراء الفارسين اللذين يتجهان إلى الغابة.

- همس شحام في أذن الأفندي لا يجد من اللائق ما يراه: - انظر؛ حصان الكافر الأجرب يجري مع حصاننا يلوّثه.

- اسكت! فكّر في ما تقول! - جفل الأفندي حرزت مما سمع، ثم عاتبه بصوت ألطف: - ألسنت أنت من سلب الصرب الكفار هذين الحصانين؟ لا تُشهر نفسك من بين من حضرت عزاءهم. افعَل كما يفعلون؛ ألسنت أديغياً! افعَل معهم، ولا ترهق نفسك بلا جدوى.

- خطفوا داربخان!.. - أسرع ناورز قاسم إلى الدار التي لم يبق فيها إلا القليل من الرجال.

- ومن خطفها؟ - استقبل كوبل هارون الذي وجد نفسه في موقف ينسى فيه مآثمه، قاسماً.

- لا أعرف... هم ثلاثة فرسان تقريباً. كانوا ملثمين. قذفوا داربخان إلى صهوة حصان وجروا بها إلى عمق الغابة.

- من هؤلاء الذين ارتكبوا هذه الجريمة حسب لباسهم ومن طريقة كلامهم يا ولدي؟ - سألت حزرت أفندي وأجاب نفسه بنفسه: - وكيف لك أن تعرفهم وهم ملثمون... تصرفوا بسرعة الخاطفين... أياً كانوا فلن يقبل الله إجرامهم، سيدينهم ، وسينصر الله ملاحقيهم ويعودون بخير طيب لأنه لا يحدث في الدنيا التي خلقها ما ليس له علم به، ولأنه لا خير في قلوبهم. لا تيأسوا يا جماعة. لا داعي للقلق. ولكن لا أعرف ماذا أقول بشأن المسيحي البلغاري الكافر الجالس إلى الجثمان، والمسيحي الكافر الآخر نصف الأديغي الذي يلاحق الخاطفين مع الأديغة لأن ما للكفار يد فيه، وأنتم شهود اليوم، لا بد أن يتضمن مأساة... ليرحمنا الله العلي العزيز الذي نحن من أمته، وليخمننا. مهما تصرّف معنا فلن نسمح لأنفسنا أن نخطئ في حق الكفار. وسنمثل أمامه مع الدعاء إليه. وندعو إليه أن يضاعف حسناته ويتجاوز عن سيئاته إن وجدت. وأن يجد أهل الفتاة المخطوفة ابنتهم سليمة. وسنصلي العصر الذي حان وقته في المسجد، قولوا "آمين!"

الفصل الرابع عشر

حانت نهاية الشهر الأخير من الشتاء المعتدل فبدت الغابة الجبلية العارية المائلة إلى السواد منتصبه كأنها تتحرك ولا تتحرك تحت السماء التي تحترق فيها شمس حمراء - صفراء. والنهار المتعب الذي يحلم بوقت نومه القريب البعيد هادئ يبعث في النفس نوعاً من الخوف. ويضاف إلى هذه المخافة نعيق البوم البعيد

الذي يمزق نياط القلب. وعلى الطريق يُسمع وقع حوافر الحصانين القادمين من العزاء المتأخر.

- بعد أن عاد من شيعوكم يا تودور - قال العجوز ستيفان الذي لم ينبس ببنت شفة منذ خرجا من قرية أبزاخ إلى أن خرجا من عمق الغابة - شغلتم بالنا بانتظاركم الذي لا نعرف سببه.

- لم أستطع أن أترك مزحج وحده.

- هذا الذي ذكرت اسمه هل تعرفه ويعرفك جيداً حتى تشفق عليه؟

- يعرف أحدنا الآخر منذ صرنا أنت وأنا صاحبين. ما الأمر يا ستيفان؟

- وأنا لا أعرف.

- ألا أنك لا تثق بي؟ - لجم تودور حصانه فأوقفه.

- هيا، نمش، سيفاجئنا الليل في الغابة! - قال العجوز ستيفانوف لمن وراءه.

حين رأى تودور كاهل ستيفان ستيفانوف المتين فهم أنه ليس عجوزاً جداً بعد. وانتصب أمام عينيه الموقف الذي رفع فيه العربة حتى يبدلوا العجلة المتهرئة، والموقف الذي صرع فيه بارافانوف الأصغر منه بعدة أعوام. - قال تودور الذي

لم يعجبه سؤال ستيفانوف لنفسه "متى صرت تخاف من الغابة ومن الظلام؟ -

تجاوز سؤاله وبدأ كأنه لا يعيرني اهتماماً. لم يعد ستيفان كما كنت أعرفه. أما

كنت تعرف أن في عروقي دمأ أدغيغاً ولو أن قلبي لا يود الأتراك كما قلبك لا

يودهم؟ هؤلاء الذين ذهبنا نعزيهم نشروهم بيننا رغماً عنهم نتيجة يؤسهم ولم

يدخلوا بلادنا بالحرب كما دخلها الأتراك. ولم نر منهم أي سلوك سيء منذ

أصبحوا جيراننا. يعيشون حياة الكفاف بما يعملون به أنفسهم. لا مشاكل

منهم، ولا يتصرفون معنا كما يتصرف الأتراك والألبان..." - وفي هذه اللحظة

تذكر ماقال ستيفان لبارافان: - "الشراكسة الذين حاربوا الروس عشرات

السنين لم يأت بهم الترك لخيرنا. سيحرضونهم ضدنا قائلين لهم إنهم من دين الذين طردوكم من أرضكم، ومن قومهم... ستري، لن يستغرق الأمر طويلاً... إذا كنا محظوظين ساعدنا أقرباؤنا في الدين والعرق لنحظى بحريتنا على حد السيف..."

وقف تودور إلى يسار ستيفان غير ناسٍ ما علمته أمه فاطمة في صغره من العلاقات بين الكبار والصغار. وبعدما مشيا مدة أفضى لستيفان بعتابه عليه، ولكن بطريقة لطيفة:

- سألتك فلم تجبني يا ستيفان.

- إذا كانت الدنيا مركبة من أسئلة لا تنتهي فأني سؤال يا تودور تقصد؟ -
تظاهر ستيفان بالمزاح مع تودور.

- إذا كان هذا رأيك فافرض أنني لم أسألك عن شيء.

- ولماذا سأفترض؟ إن كان حدسي وحدسك ينبعان من الأمر الذي لا نعرف به كلانا... سيظهر من سرق الفتاة بين عشية وضحاها. ومن لن يرجع هو جرمته الذي فارق الدنيا. ولكن أخطر ما في الموضوع هو ما قاله الأفندي الذي خرج من الغرفة وكأنه سيصرعنا في طريقه. ومن سمعوه تظاهروا بالصمم ولم يُصارحوه بعدم صحة موقفه. وعلى كل حال هم مشكورون إذ لم يساندوه... وما أدراك كيف كانوا سيتصرفون معنا لو لم يطرأ على المأتم خطف الفتاة.

- قد تكون محقاً في موقفك من الأفندي، غير أنني لا أعرف تفسيراً لموقفك من الآخرين.

- لا تعرف لأنك تؤيد أقرباءك الشراكسة.

- لا عتب لي عليك لأنك أجبت الآن على سؤالٍ جواباً لا يليق بك.

- ليس هذا جوابي - قال ستيفانوف، وخصّ: - بل سؤال كونك شركسياً. لماذا ندخل في جدال لا ضرورة له... - وأضاف بعد قليل: - كما يقول الرجل الحكيم بارفانوف أسألك في الوقت الذي أسأل فيه نفسي وأجيبك ما إن أفهمُ السؤال. هل يؤلف الشراكسة وحدات من الفرسان لحماية قراهم؟ نعم، يؤلفون. ولماذا يؤلفونها؟ لحماية أنفسهم. من يهاجم قرى الشراكسة؟ لم نسمع عن البلغار والترك أنهم فعلوا مثل هذا. وإن شئت بعبارة أوضح: من أجل من تُؤلف هذه الجيوش؟ ضدّ من يجمعون هذه الجيوش التي ستصبح يوماً ما جزءاً من الجيش التركي متى احتاجوا؟ بداهةً ضدّ البلغار.

- هل للشراكسة مثل هذه الحرية؟ - سأل تودور، وأجاب بالجواب الذي يعرفه - هناك أمر بالآبلا يُسمح للشراكسة أن يخدموا في الجيش التركي إلى ما بعد عشرين عاماً.

- هذا أمر السلطان العثماني. أما الأمر الآخر، أعني تأليف مجموعات من الفرسان الشراكسة لحماية قراهم، فيقال إنه جرى برغبة الشراكسة أنفسهم.

هل سمعت بشخص اسمه برقت زوال الشرکسي؟

- ليس سمعتُ فحسب، هو من جماعة مراد بيه.

- برقت هذا ومراد هما من يديران مسألة الفرسان الشراكسة. - والآن سأل

ستيفان سؤالاً لا علاقة له بشيء: - وهل الويخ جزء من الشراكسة؟

- حسب ما سمعتُ من أمي هم فرع من الشراكسة، مثْلهم مثلُ الأيزاخ

والشابسغ والجدوغ والجمكوي والبسلني والقيرتاي.

- والمخوش؟

- وهم أيضاً.

- والأبخاز؟

- رغم أن الأبخاز والشراكسة من أرومة واحدة فلغتهما مختلفتان.
- مع أنك يا تودور تعتب عليّ متى قلت لك إنك تمالي الشراكسة - قال العجوز ستيفان بحيث لا تعرف أيعاتبه أم يمتدحه - فعندك معلومات جيدة عن أحوالك الشراكسة وكأنك لم تولد في بلغاريا.
- كانت عندي أمٌ حكيمة لم تتركني جاهلاً بهم.
- نعم، كانت أمك امرأة حكيمة، وما كانت تميز بين البلغار والشراكسة. حسب معلوماتك فالويخ شراكسة... وهذه معلومات بارفان بارفانوف الذي كان جندياً في الجيش الروسي الذي أحرق البرلمان الشركسي. لا تستغرب سؤالي عن الويخ يا تودور، فواحد من زعمائهم الحاج برزج يؤلب علينا الشراكسة بذريعة أننا البلغار من عرق من طردوهم من أرضهم ومن دينهم.
- وهل يقبل السلطان منهم مسلّكهم؟
- كيف أشرح لك الأمر؟ لولم يكن للسلطان مصلحة لما سمح للشراكسة الأشرار أن يقيموا عنده ساعة واحدة... مهلاً، أسمع وقّع حوافر خيل - قال لمن ظهرا من وراء المنعطف بارفان بارفانوفيتش وستيفانوف بورييس: لا مشكلة إن كنتما القادمين.
- المهم أن تنجوا أنتما من هياج الشراكسة... - قال بارفانوف، وسألهما: - ما الذي جرى للشراكسة؟ هل أهانوكما؟
- جرت حادثة مزعجة في القرية الشركسية المجاورة التي ذهبنا إليها لتقديم العزاء. إن كنت تتذكر يا بارفان فقد خُطفت ابنة من تكلمتُ معك بشأنه مرة، باغ مزحّب. ومن خطفها لا يعرف به أحد.
- نحن نعرف من خطفها - قال بورييس بلامبالاة.
- من؟ قفز تودور واقفاً.

- جماعة مراد بيه - أجاب بارافان بدلاً من بوريس - مروا بنا قبل قليل على الطريق الآخر.

أسرع في هذه اللحظة تودور ديمتروف إلى المكان الذي كانا عائدَين منه.

- توقّف يا تودور! - لم يلتفت من صاح وراءه العجوز ستيفان.

- لا تُناده، لن يسمعك! - قال بارافان باسمّاً وأردف - التّرك عملوا عملهم، والبلغار لم يكتموا ما رأوا، وعلى الشراكسة تصفية الخلاف بينهم وبين من على دينهم. ما كنْتُ سمعته عند الشراكسة جرى لنا الآن نحن البلغار على أرضنا: "مهما لاعبت الصبي عاد إلى أمه متى نادته".

- هذا لا يجوز يا رجل - هزّ العجوز ستيفان الذي كان ما يزال يتابع الفارس البلغاري المبتعد.

- وإن لم يجوز فهذا ما جرى لنا... لماذا نحن واقفون، أنا من لا يعرف الشراكسة؟ هيا نعدّ - اختتم بارافان كلامه.

دخل تودور متلهفاً إلى بيت مزحّب وقال للجالسين:

- عرفْتُ من خطف داربخان. هو رجب بيه ابن مراد بيه.

- ومن أين عرفت؟ - نهض حاتام.

- رأيهم بارافان.

اهتاج المسنون الجالسون في الغرفة، والأحدث سنّاً الذين على الباب، والشباب في أرض الدار. وشمّع نباح كلاب قريبة.

- توقفوا: أين انطلقتم دون أن تسألوا أو تستشيروا؟! - صرخ مزحّب في إثر

من كانوا ينطلقون من البيت راكضين، وتبعاهم هو وناورز زغاشت إذ لم يردوا

عليهما. وركب الجيران الذين سمعوا الخبر. وهذّاً باغ حصانه وسأل ناورز: -

هل تصرّفنا صحيحٌ إذ استنفرنا القرية ونهاجم القرية التركية؟ إن ظنوا أننا ذاهبون لقتالهم...

- لا أعرف ماذا تقول يا باغ؛ كأنك قلقٌ على من خطفوا ابنتك الوحيدة! - غضب ناورز من كلام باغ غير أنه سرعان ما عاد إلى وعيه: - لا أقصد أن ما يُقلقك عارٌ من الصحة... كان الأفضل أن نقابل أولاً من تصرفوا معنا بما لا يليق ونحادثهم. وكما يقال: ليسوا دون قرية ينتسبون إليها، ولا دون أسرة؛ ألن نجد عندهم شيئاً من الإنسانية؟

- نعم، إن تصرفنا هكذا فهو أفضل. - وافقه مزحّب الذي كان يفكر بهذه الطريقة أيضاً - وغمغم بينه وبين نفسه - كيف تعامل من ليس إنساناً بالإنسانية؟ ولكننا لن نفتحم القرية التركية بهذا الحشد من الأبرّاح المسلحين. لو خرج من بينكم بعضكم لاستقصينا حقيقة المصيبة التي جرت لنا محتملين بأديغيتنا.

- أيّ حقيقة تتكلم عليها يا مزحّب بعد أن أهانونا في شأن داربخان؟! - انفجر حاتام غضباً مما يعدّه إهانة له، ولكنه قال للأب منطلقاً مما ليس من واجب الأب في مثل هذه المناسبة حسب شرعة الأديغة... - إذا كان لداربخان حجرت وأنا فلا حاجة لوجودك هناك. سنصحب زغاشت باسم القرية، وباسم آل باغ، وسنصحب تودور الذي يتقن التركية.

- ليس مراد بيه سليل الكلاب، الخالي من الشرف جاهلاً بالأديغة - قال من بين رفاقه شاب جسيم يستند إلى الباب.

- الأديغة التي تلجم حاتام فيها شيء من الصحة - قال زغاشت - ولكن بما أن من خطف ابنة آل باغ محروم من الإنسانية فلا بأس عندي أن يتابع

الأب موضوع ابنته. تعالوا يا مزحب وحاتام وحجرت، وأنت أيضاً يا تودور. والآخرين انتظرونا هنا محتفظين بأدبكم.

- كان الأفضل أن تصاحب امرأة ما هؤلاء المتوجهين لسؤال العروس^١. - قال من لا يزال يعبث بالعمود بكتفيه.

- كفى يا "حبّاط". تظل تقول ما لا فائدة فيه. - نهر شخص آخر الشاب. - تغضبون إذا قيل لكم ما في صالحكم. إذا كان يكفي، فليكن!

بعدما صلّوا العصر دخل خمسة من الفرسان الذين يتزعمهم ناورز زغاشت قرية مافليود التركية. وقال تودور لأول رجلين لاقوهما:

- نحن قادمون من قرية أبزاخ في الوادي الآخر. يسرنا أن تدلّونا على بيت مراد بيه.

- بيت مراد بيه - قال أحد التركيين - سترونه في طرف هذا الزقاق، أول بيت.

- يا مراد بيه - نادى زغاشت وهو ينظر من فوق السور الحجري الذي تتوسطه بوابة خشبية لا مجال للنظر من خلالها.

قال أحد الرجلين المسلحين اللذين فتحا الباب وكأتهما في انتظارهم: - نعم، نسمعك.

- من نريد رؤيته هو مراد بيه.

- إن عرفنا نيتكما أمكنكما مقابلته.

- أبلغوه أننا قادمون من قرية أبزاخ.

- القرية التي ذكرتها لا تعني شيئاً لنا.

^١ العادة أن تسأل هذه المرأة الفتاة المخطوفة أجراءت مع الخاطفين بإرادتها أم أُجبرت.

- أليست من قيل له هذه اللحظة: أخبره - لم يُطق حاتام صبراً.

- أي ضحيج أثرتما على ضيوفنا الجيران؟ - خرج مراد من الباب وهو يلوم حراسه. - تفضلوا مهما كان مطلبكم! مضافتي مفتوحة لكم - وأرسل الكذبة التي خطرت له لحظتها: - أظنكم لم تلتقوا على الطريق بموفدينا^١.

- لا نية أن نتفضل إلى بيت من أهانونا من جهة ابتنا. - حسم مزحّب الموضوع.

- هذا أنت يا مزحّب من لا أتعرفه؟ - قال مراد بيه وكأنه يعرفه طوال عمره، وابتسم في سره. واختتم بنبرة ألطف: - يا قربي ما كنت أسمح لك أن تقول هذا في الوقت الذي نصبح فيه أقرباء من جهة العروس.

- أيّ "عروس" وأيّ "قريب"؟ - نظر مزحّب إلى زغاشت لا يعرف تفسيراً لما سمع؟

- هيا يا مزحّب، وأنت يا تودور - قال زغاشت وهو يترجل من الحصان - ما معنى وقوفنا على باب هؤلاء؟ تعال نقابل ابتنا، ونعرف حقيقة ما حدث. وأنت يا حاتام وحجرت قفا هنا دون أن تترجلا. أخبرنا إن قالوا لكما، من يعرف، كلاماً مهيناً، الفرسان المنتظرين على حدود القرية.

حين أدخل مراد بيه الرجال الثلاثة إلى الغرفة، قال بالتركية للرجلين اللذين استقبلاه وسط الدار، ثم وقفا إلى دفتي الباب:

- أنتما عودا إلى عملكما. ونحن نتكلم في موضوعنا. ثم تكلم بالأديغة غير عابئ بتودور الذي كان يترجم كلامه: - والآن بعدما صرنا وحدنا وجهاً لوجه لم نعد بحاجة إلى مترجمكم هذا نصف الشرکسي. ستتکلم في الموضوع الذي

^١ العادة أن يرسل أهل الشاب الخاطف فوراً وفداً يُخبر أهل الفتاة أن ابنتهم ضيفة عليهم.

جرى بعلم الله بقلوب مفتوحة. أسمعكم يا من أدعو الله أن يحسن إليكم. ولكن الأفضل ألا تخطئوا في شأن ابنتكم التي صارت عروساً لابني الوحيد الذي أحبته، وكنةً مباركة لأسرتنا.

- لا أفهم... - قال مزحج متوهجاً مما سمع.

نظر زغاشت إلى تودور، وشرح ما لم يفهمه مزحج:

- نحن سمعنا أن مراد بيه خطف ابنتنا.

- أنا متهم بأمور كثيرة. - ابتسم مراد بيه. وما ليس صحيحاً منها أكثر من الصحيح. ولكن مهما جرى فأنا راضٍ عن الفتاة التي صارت كنتي. وأما أم رجب بيه فالدنيا لا تسعها من الفرح، ولا تجهلون الأسرة التي جاءت إليها. هي أسرة مباركة...

- يا مراد بيه! - قطع مزحج ثرثرة التركي - لا معنى لما تقوله، يجب أن نقابل ابنتنا حالاً.

- لا أعرف بيم أجيبك على هذا يا قربي، كيف أفهمك؟... ربما يتفق هذا مع عاداتكم الشركسية. ولكن حسب عادات أسرتنا، وعاداتنا التركية، لا يُسمح لرجل أن يدخل غرفة العروس. لو كانت معكم ذات غطاء لقبلت نساؤنا بما بصفة موفدة منكم. ولكن لما كان الموضوع الذي يُقلقكم غير ما تتصورون فسنلي رغبتكم. أقترح أن يقابلها أخوها الأصغر بدلاً منكم لأنك والدها وستحجل منك.

حين أدخل حجرته إلى الغرفة أكد مزحج باختصار:

- ستقابل أختك، وتتعرف حقيقة الوضع.

لم يطل غياب حجرته. دخل الغرفة وقال مخفياً ما يثقل على قلبه:

- داريجان راغبة في الأسرة التي جاءت إليها.

- كنت أفضل أن يقطعوا رأسي على أن تفعل بي البنت التي استنفرت القرية ما فعلت... - نهض باغ مزحج. وحين خرج الفرسان الأبراخ من القرية قال مزحج لزغاشت وقد زاد هوانه مما فعلت به ابنته:

- هذا ما جرى لنا كما ترى... لم أتخيل البتة أن تفعل بي الصبية التي أخرجتها بشق النفس من الوطن... بأي عين سأقابل الجماعة التي تنتظرنا؟ وكيف سأعود إلى القرية.

- ماذا بيدنا إن كانت هي راضية. اعتبر هذه الحادثة حُسنَ حظٍّ بالقياس إلى المصائب التي مررنا بها، ولا تهتم بالناس الذين في انتظارنا. سيفهمونك وستفهمك القرية. - نصح زغاشت صديقه.

- لا يا زغاشت. يجري في هذا الموضوع شيء لا نعرفه... ليست داربخان بالفتاة التي يمكن أن تفعل ما لا يليق... - قال مزحج ما هو متردد فيه، وسأل حجرت من ورائه بصوت هادئ: - هل ما قالته أختك لك صحيح؟ - ثم غضب على من كان يماطل في الإجابة على السؤال غير المنتظر: - أأنت يا ولد من أسأله؟!

جعل السؤال حاتام الذي كانت تغلبه هواجسه يرفع رأسه، وجعل تودور يخرج من بين أفكاره المتضاربة. وكان زغاشت وقلبه في القرية تحرقه نار الإهانة كاتماً شعوره. وأجاب حجرت الذي بين نارين إجابة ناقصة:

- بلَغْتُكَ ما قالوا لي، ما الأمر؟

- وأنا لأن "ما الأمر" هذا يُفنيها أيها البائس... لأجل هذا يقولون: أرسل الولد في مهمة واتبعه... اذهب بصحبة تودور وأخبر من ينتظرنا على الرابية، واصرفوهم مع الشكر... - حين بقي الفارسان الأسّان وحدهما قال مزحج لزغاشت مرة أخرى: - يجري في هذا الموضوع شيء لا نعرفه...

الفصل الخامس عشر

حين توقفت عربة سعيد أفندي أمام الباب العالي حيث تعيش بيكا السيدة الكبرى رأى برقت زوال الرجل الجسيم ذا اللحية البيضاء الكثيفة الذي كان يركب عربته.

- من هذا؟ كأني أعرفه... - سأل كأنه لم يتعرفه.

- هذا رجل نافذ جاء من شريكسيا. - قال سعيد أفندي وظاهرٌ من صوته تقديره للشخص موضوع السؤال. وأضاف اسمه مُظهراً اهتمامه به: - هذا برزج أمير الوبيخ^١.

- نعم، نعم، دُكِّرْتَنِي به... ألم يكن في نواحي طرابزون؟ أيُّ موضوعٍ يلاحقه هنا أيضاً...

- يقلق لقضايا الشراكسة، يقال إنه قابل سلطاننا ولكن لا أعرف مدى صحة الخبر.

- عالمُ الأديعة، كما يقول صديقي العجوز جرمت، متشابك بطريقة عجيبة، لا يمكن أن تفهمه حتى لو كنت منجماً! - قال زوال قبل أن ينتصب أمام عينيه قصر السلطان الذي سيلجّه، وغمغم: - من هذا الزعيم الذي هو أحد الزعماء الأديعة الذين تسببوا في نكبتهم، والذي ما يزال يجعل من نفسه أميراً في تركيا... - ثم عاد إلى وعيه بسرعة: - سامحني يا إلهي على نسياني الفرح

^١ برزج جراندوقه أحد زعيمين من زعماء التحالف القائم قبيل الهجرة بين الأبراخ والشابسوغ والوبيخ، هاجرا إلى تركيا، والثاني هو زان قره باتر زعيم الشابسوغ. أما زعيما الأبراخ فقد قفز تسي إبراهيم بحصانه في الوادي، فقضى، وخاض برج حسن وحيداً معركة غير متكافئة مع القوزاق فقضى على أيديهم.

— الأمل الذي جلبته لي من وراء الكلام الذي لا معنى له! وحقق لي الخير الذي فيه علمك، والذي حملة إلي سعيد أفندي صاحب الفم الحير.

— حقيقة يا زوال، حقيقة. — نطق سعيد أفندي اسم زوال كأن صداقتهما تمتد إلى أبعد من هذا اليوم. — ألم أقل لك إن سُحنتك من أول نظرة إليك ذكّرني بسحنة عُشماف؟! — أدخله إلى غرفة متوسطة المساحة خالية من الناس، وقال له وهو يُجلّسه على الكرسي المريح القائم إلى جانب حائط مزين بمختلف أصناف السلاح: — سل نفسك، لن أغيب طويلاً.

حين بقي برقت زوال وحيداً في الغرفة النظيفة قال لنفسه، وكل ما رآه من جمال في القاعة الكبرى في الباب العالي إلى أن صحبوه إلى هنا، ينتصب أمام عينيهِ: "ربما كان هذا ما يسميه المراءون من أمثال مرزخوي محمد "جنة الآخرة"، ويعجزون عن وصفها... "نحس زوال وأفكاره القلقة، وما ينتظره، تمنعه من الجلوس. ووقف يتأمل المناظر بعض الوقت. ثم مشى على رؤوس أصابعه فوق أرض الغرفة المزخرفة بما يتناسب مع زخرفة الجدران، واقترب من المصحف المفتوح على طاولة. ولما اقترب من النافذة المفتوحة على أرض الدار أعاده القلق الذي يعيشه، عاجزاً عن رؤية جمال القصر، إلى مجلسه تغمره أسئلة لا جواب لها، مستبطلًا عودة الأفندي، ولو أنه لم يمض الكثير على غيابه.

مرة أخرى تفحص زوال الغرفة متعجباً مما يرى "ليس فيها ما يمكن وصفه بأنه زائد عن الحاجة: الطاولة المنخفضة التي عليها المصحف، والطاولة التي يجلس إليها. والصندوق العالي إلى جانب الحائط، والمقاعد في الزوايا الأربع، حتى الرفوف، كلها مُشربة بماء الفضة — الذهب. والسقف العالي مزين بما يشبه زخارف المخطوطات. من يحيا هذه الحياة بما لا يتناسب مع سلوكه وطبيعته لا بد أنه شخص ليس اعتيادياً. ليتني جعلت مرزخوي محمد المقرئ الذي من

عليّ في الجامع بكأس الشاي كأنها صدقة، يلقي نظرة بعين واحدة على ما تفضلوا به عليّ هنا... - نظر زوال نحو الباب وكأنه يسمع وَقَعَ أقدامٍ. - لا شيء... أتكون الفتاة التي جاؤوا بي إلى هنا من أجلها فتاةً أخرى غير ابنتي التي حرّيت وراءها أبحث بكل ما آتاني الله من عزم في الريح الساحلية العاتية؟ إن كان هذا فسأجد للمأساة الجديدة مكاناً بين المآسي التي مررتُ بها. إن لم أياس إلى الآن، فكما يقول مُسنّونا، وما دام الخير والشر متلازمين، فسأعدّ ما رأيته في قصر السلطان سعادة لي... مهلاً مهلاً يا برقت أي سعادة تأتي عليّ ذكرها وأسرّتك مشتتة في كل مكان... "

أخرج زوال من أفكاره صوْث الأذان الآتي من جهة صحن القصر، من مكان قريب جداً. وبعده دخل سعيد أفندي بوجه طلق إلى الغرفة وقال:

- كل شيء تمام يا زوال. اطمئن! لم أخطئ في شأن غُل.

- هل ذكرتني لها؟ ألم تخبرها أنني هنا؟

- لا، أطلعتُ بيكا الجدة، السيدة الكبرى، على الأمر فاقتَرحتُ أن تقابلك أولاً وتحدّثك.

- ومتى؟

- على ما فهمت من جدتنا الكبرى فالموعد بعد صلاة العصر.

- أيمن أن تراجع بيكا الجدة الكبرى؟ أنا خائف، من يعرف؟ - قال زوال وقد تحرك في قلبه الشك البارد الذي كان يتوجس منه، وعاد إلى وعيه بسرعة:

- ما مضى كثيره فسيمضي قليله لأن بيكا الجدة الكبرى امرأة صالحة، فلننتظر، ولنعمل بما تأمر به! وما هي صلاة العصر أتت، ولنقف أمام الله بقلوب مفتوحة على حبه !

- نعم، نعم، سنذهب إلى مسجدي الآخر لنقف أمام الله الذي نحن من أمته، راضين بدنينا التي يتلينا فيها الله، وقلوبنا وأرواحنا منفتحة عليه. لا تقلق هناك ميضأة في المسجد.

"وي، وي، ها قد وقعتُ في الجنة وإن لم أتعجب! قال برقت زوال لنفسه وهو يتبع الأفندي ناسياً سبب استقدامه إلى هنا. - جنة الأرض، لا جنة الآخرة! - أضاف لنفسه بصوتٍ أخفّ وقد مرّ أمام ناظره ما شاهده من مآسٍ في سنوات عمره التي تقل عن الخمسين: قل لي الآن كيف سأعيش بعد الذي شهدته! كيف ستفهمني الفتاة التي تعيش في هذه الجنة الأرضية إن أخبرتها أنني والدها؟ أيمكن أن تفعل هذا؛ أليست من صلي؟..."

رجعا بعد صلاة العصر إلى غرفة الانتظار الكبيرة، وفيما هما جالسان يحتسيان الشاي سأل زوال عما كان يقلقه:

- أيمكن أن لا تتعرف عليّ ابنتي؟ كان الأفضل لو جعلتني أقابلها أولاً... بيكا السيدة الكبرى لا تردّ.

- بيكا الجدة الكبرى تعرف، بعد الله العلي العظيم، ما يجري هنا، وتنفذ ما وعدت به - قال سعيد أفندي بصوت ناعم حازم، وأنهى: - لا تسمح لمثل هذه الأفكار أن تتسلل إلى رأسك!

- نعم، نعم، وافق زوال مضيفه الأفندي قائلاً في نفسه "ما يُدريكم أنتم ما يعتمل في قلبي" - من العيب أن تخطر لك هواجس سيئة في مثل هذه الجنة. بعد الرجل الذي قدم الشاي لهما، قال الرجل الآخر بعدما حياهما بإيماءة من رأسه:

- أيها الأفندي خادمُ الله، السيدة الكبرى بيكا تدعوكما إليها.

وصل سعيد أفندي وزوال إلى جناح الحرم بعد ما اجتازا عدة ممرات. تجاوزا الحارسين المسمّرين إلى جانبي الباب، وفتح لهما باب الغرفة المضاء بعدة شموع. وحين حاول زوال الانحناء للجدّة الكبرى التي نهضت لاستقبالهما اعترضت بصوت أمر:

- لا تفعل هذا، أي عيبٍ أراه، ألسنّ أديعياً! لم أسمع، وقلبي في بلادي، لأي تركي وأنا التي همرمت بينهم، أن يفعل هذا. تفضل واجلس مقابلي هنا ليروى أحدنا الآخر. وأنت أيضاً يا سعيد. أنا حين روى لي قصتك بلغتي الأديعية لم أندم على لقائي بك وإن كنتُ بائسة... - وقالت لنفسها "ما أشد شبهه بعُشماف ولو جفلك وقتها". ثم غيّرت الموضوع: - أنظر إليك فأرى أمورك جيدة في تركيا. أنت ضابط وعندي شيء من الاطلاع على المهمات التي أكلوها إليك وإن لم تكن واضحة.

- نعم يا سيدتنا الكبرى، أنا ضابط تركي بعلمكم وعلم الله. كنت عائداً إلى البلقان لتنفيذ المهمات الموكلة إليّ حين التقيتُ بفضل رحمته تعالى بسعيد أفندي، على نية الخير، فحاء بي إليك.

- أمورنا في البلقان ليست حسنة - مرة أخرى خرجت بيكا عن موضوع زوال - يهيج الروس الذين سلبونا أرضنا أهل البلقان ضدنا. ولا يألو السلطان عبد العزيز جهداً، ومن معه ومن ليس معه ينصحونه بعدم تجنيد الأديعية في الجيش وعدم تسليحهم. وقيصر روسيا تجرّ بعلم الله إذ لم يعترضه أحد. - ما يحتاج إليه هؤلاء هو غزوة^١ حربية.

^١ غزوة في الأصل بالعربية.

- كان في داغستان من يقول بهذا - قال سعيد أفندي الذي تكلم أول مرة، وشرح: - ولكنه ضحك علينا.

- الدنيا التي يمتحنوننا فيها دنيا أكاذيب وخداع. - جزمت بيكا السيدة الكبرى، وسألت زوال: - ما رأيك في برزج الأمير الكبير للوبيخ؟

- اليوم رأيته هنا... - وأنهى بعدما نظر بطرف عينه إلى سعيد بما يعني أنكم تماطلون في ما جئتم بي من أجله - إن كنت لن تعاتبيني أيتها السيدة الكبرى لا أريد أن أتكلم بخير أو شرٍّ على من سمعت باسمه.

- لن أعتب عليك. - قالت كأنها كانت تنتظر هذا الكلام - وهذا ما قالت له لي عُشماف حين سألتها. لماذا يا سعيد جالسان تُذنب في حق المسكين برقت زوال؟ اذهب ونادِ أختك لنرى إن كانت تتعرف على والدها.

ما إن تجاوزت عُشماف التي ترتدي ثوباً خمياً وسروالاً مائلاً إلى الحمرة مزموماً أسفله، وخفّاً ذهبياً - فضياً، الباب، ولا فكرة لها عن سبب استدعائها حتى تسمرت في مكانها:

- تات؛ هذا أنت! - هُرعت إليه بذراعين مفتوحتين كما كانت تفعل في طفولتها.

- نعم، عُشماف، أنا يا صغيرتي - وضّم زوال ابنته شارداً عن حاله.

الفصل السادس عشر

تجاوزت المصيبة التي حلت بآل باغ في شأن ابنتهم قريتها وانتشرت في القرى الأبراحية الأخرى، يضيف إليها وينقص كلُّ كما يشاء. بعضهم يتحدث عن اختطاف داربخان من قبل الترك الأغراب، ورفضها العودة مع الرجال، بمن فيهم والدها، الذين تابعوا أثرها على الفور. وبعضهم يرى أن زواج ابنتك من أسرة

ميسورة، أياً كان أصلها، مدعاةً للفرح. وآخرون يظنون أنه جرى في هذه القضية شيء غير معروف كما كان والدها يظن.

وفي الليلة التي تركوا فيها قرية مافليود، وقبل أن يدخلوا قرية أبزخ، تناقل الناس عن حاتام أقاويل كثيرة كلٌ منها أعجب من الآخر. وكانوا يُبرزون في هذه الإشاعات اسمي ديمتروف وتودور وباغ حجرت. وكانت الأقاويل تصل إلى حجرت ولو أن تودور وحاتام لم يكونا مطلّعين عليها. ولم تكن هذه سبب شعوره بالإهانة: كان السبب وعده إياها ألا يخبر حاتام وتودور بسبب بقائها في الأسرة التركية كي لا تتسبب في جريان الدم.

لم يكن باغ مزحج يقبل بالأمر الواقع مع أن الفرسان الأتراك تركوا في بيته مهراً كبيراً، ومع أن أصدقاءه ينصحونه كل يوم. واليوم صرخ من قلبه إشفاقاً على حاتام الذي كان هرثه يسبب المشكلات دائماً: "ماكان عليك أن تفعل هذا أيها البائس!"

هذا الحزن الأخرس أخرج مزحج من أفكاره، ونادى حجرت الذي كان يُذكي النار، ناسياً أنه في الغرفة:

- أين أنت يا حجرت؟

- ما الأمر، ها أنا جالس هنا.

- هكذا، قل لي إذن إنك هنا أيها المنحوس، أنا ظننتك خارج البيت. حسنٌ أن توقد النار. ما يشغل بالي هو اختفاء حاتام... يا حجرت يا ولدي أنت تُخفي عني شيئاً في شأن أختك داربخان. تحلّ بالشجاعة وأطلعني على ما جرى لنا. يجب أن نعرف إن كانت أُجبرت. ليس لتلك البائسة غيرك وغيري.

- وحاتام؟! نطق حجرت فجأة.

- وهذا أيضاً، ثم أين نذهب بحاتام... حاتام التعيس أخذ مني نصف المتبقي مني... لم يحدث لنا في شأن ابنتنا وشأن حاتام ما يسرّ. صرنا مُضغّة في أفواه الناس. لا عتب لي على حاتام، ولكن إذا كان ما قالته لك أختك صحيحاً فلا أعرف حينها...

- ولا تعتب على داربخان... - قال حجرت ووضع أمام والده الخبز الذي مضى عليه يومان وبضع قطع من الجبن اليبس.

- وكيف لا أعتب على أختك؟ ما كنت لأقول شيئاً لو لم تسمح لهم أن يخطفوها، ودون أن تثير ضجة من حولها، بل خرجت من البيت مرفوعة الرأس. - وانتظر قليلاً، ثم قال لحجرت بصوت عال وكأنه عارف بالموضوع الذي هما فيه: - يا ولد، قل لي الآن حالاً ما قالته لك أختك بالضبط! - ومع أن الصوت العالي الحازم أفزع حجرت فقد نهر مزحج بكلمات قاسية مختصرة الولد الذي لا يثق به حين حاول تغيير الحديث: - لا تغيّر موضوع الحديث!

- وكيف أغيّر وأنا لا أعرف غير ما أبلغتكم إياه.

- ما سَتُبْلَغني إياه هو ما قالته لك أختك بالتحديد!

- لا أعرف ما تُجِبرني عليه، رجاء داربخان...

- أيّ رجاء؟ - سأل مزحج حجرت عن الكلمة التي نطق بها دون أن يسمح له بإكمال حديثه.

- الحقيقة ليس رجاء... - سحب حجرت سريعاً كلامه - بل "أريده" التي نقلتها إليكم.

- ولماذا لا تقول هكذا، لا تدعني أخطئ النظر يا مبارك! - وبعد قليل أبعاد مزحج كأس الشاي التي لم يذق منها شيئاً، واختتم كلامه: - هذا الموضوع

يجري فيه شيء لا علم لنا به... ربما كان حاتم الحساس للإهانة يعرفه. من يعرف، ربما كان مناسباً أن نلتقي بتودور.

- وأنا أرى هذا - قال حجرت راضياً.

- إن كنت ترى هذا فلا تتركني أجادلك! أنتم يمكنكم أن تتصارحوا، ولكن لا تُخالط البالغار وحيداً. اصحب قاسم!

- ماذا؟ - التفت حجرت إلى والده - ألا تثق بقرينا تودور؟

- وكيف يكون سليل البالغار من قومك؟ غمغم مزح.

- لا أعرف لماذا تقول هذا... ألم تر كيف كان تودور مهموماً بقضية داربخان؟. وقبل أيام جاء قلقاً يسأل إن كان عندنا أخبار جديدة.

- لا تعلمني! - نهر مزح ابنه، واختتم بصوت ناعم: - نَقَدْ ما قيل لك. ليس ما حدث لنا يهم الجميع. ولا تجعل من نفسك قريباً متحدثاً عن ستيفان وبارفان وغيرهما. توقف لحظة، سأذهب معك.

- مزح! - نطق حجرت اسم والده فجأة بما لا يتناسب ومنزلة الأسن. - وحين صحا عاتبه بالكلمات التي أعادته إلى وعيه: - ماذا ستفعل يا والدنا في القرية التي ترسلني إليها كما فعلت بذهابك إلى القرية التركية؟ ارتح، لن أتابع ما ليس من شأننا.

- هذا حسن يا ولدي؛ سأطيعك هذه المرة - قال مزح وقلبه يرقّ لولده، وأنهى كلامه: - إذن، وإذا كنا لن نتدخل في ما لا شأن لنا به، فلا تُتعب قاسم بلا فائدة.

لم يكتفِ مزح بمتابعة كتفي حجرت المتينتين وهو يخرج من الغرفة بل تابعه من النافذة إلى أن خرج من الدار. وحين رأى سرعة ركوبه غادر مكانه ولم يعد إلى المائدة بل جلس مقابل نار الموقد التي تنطفئ. ولما قلبها بالملقط ذي القبضة

الخشبية نهر الجمرات^١ التي قفزت منها: "وأنتنّ تقفزن عبثاً واعداتٍ وعوداً كاذبة" والآن مرة أخرى بقيت وحيداً، لا أنتمي إلى هنا، ولا إلى هناك. ولم يلتفت حاتام إليّ. وهذا الولد الذي ركب مسترجلاً من يدري ماذا سألاحظ عليه غداً. وإذا كان ما فعلته داربخان بنا صحيحاً فلا أدري كيف سأنظر في وجهها مستقبلاً. والأتراك الذين أرسلتُ إليها المهر معهم استهلوني إلى أن انتهى حفل الزفاف وقعدوا لم يخبروني بشيء^٢. بديهي أن هذا ما سيحدث لك إذا كنت ضعيفاً يائساً لا أهل لك. ماذا أقول؟ لماذا ليس لي أهل؟! - رمى مزحج الملقط وراء الموقد، ونهر نفسه: هل أتيتُ من السماء؟ أم سقطت من أعلى شجرة؟ أنا من آل باغ؛ أنا أدغي. - وفي اللحظة نفسها خطر له من لم يودّه يوماً برقت زوال. وبرقت لا أعرف لماذا لم يرجع من إستانبول التي أرسلوه إليها في مهمة. وماذا إن رجع؟ هو من حاشية مراد بيه، ولذا ليس من تستفيد منه بشيء... ولكن أليس برقت من عرقنا؟ أليس أدغيّاً؟ ها هو تودور رغم أنه نصف أدغي يقلق لأجلنا. إذا كانت ابنتي تصرفت معي هكذا، ولم تساواني بالترك، لولم تكن تهدئتها لنا صحيحة، وكانت في وضع سيء لأرسلت لنا خبراً بطريقة ما. وإذا كنت أشكّ عبثاً بالولد المسكين الذي قلبت له رأسه في البيت؟... لا أعرف حينها، لا أعرف. إن كنت ترى أنك محترم في القرية، وتراهم يثمنونك أنتظن الجميع على هذا الموقف منك؟ كيف ستقيم في القرية ومن يشفق عليك يواسيك، ومن لا يودّك يبتسم في وجهك، وآخرون يرونك بائساً؟.. يجب التفكير في مخرج ما. أنضم إلى الجيش الذي سيجمعه برقت أم

^١ الجمرة القافزة بالأصل: تَب، تعني الجمر، وشَس: الراكب، وتنبئ بقدوم ضيف.

^٢ العادة أن يرسل أهل العريس إلى أهل العروس بعض الهدايا من حفلة العرس كخروف وأنواع من الحلوى.

أعود إلى الوطن بطريقة ما؟.. أي عيب تقول يا باغ مزحِب؟ أترك البنت الوحيدة التي لا تعرف حقيقة وضعها، ولم يبق لك في الدنيا غيرها بين الترك والبلغار؟! — نهض مزحِب وهو ينادي نفسه باسمه واسم نسبه، وينهرها، وخرج من البيت كأنه ترك شيئاً في أرض الدار. غير أنه لما دخل إلى الإسطبل الذي لا شغل له فيه خائفاً أن يطلع الجيران على حاله قال لنفسه قلقاً على حجرت الذي أرسله قبل وقت ليس ببعيد: "يا ربي أيمكن للولد أن يأتي بخبر يبعث على الأمل من الناس الذين أوفدته إليهم؟.. ماذا أنتظرُ وقد حدث ما حدث؟.. إذا كنا أصبحنا صعباً تفاهمنا فليحلّ مسألة أخته!"

كان يبدو أن مزحِب يخرج شيئاً فشيئاً من أفكاره المتماوجة، ومع ذلك نهض بينها مرة أخرى حجرت الذي لم يكن يصبح شريك أسرارهِ غير مصدّق الخبر الذي أرسلته ابنته، غير أنه سرعان ما انتبه إلى نفسه: "لماذا أعتب على الوحيد الذي تبقي لي حجرت؟ من يجب أن أدينه هو من أغدّ السير بحصانه وهرب، حاتام. وأين هو الآن؟ وأي قضية يلاحقها؟.. — ظهر له فجأة موضوع عتاب يُنسيه أسئلته. — كان عليّ ألا أسمح لحجرت أن يركب وحيداً في هذه الدنيا المضطربة!.."

لحظة ترك حجرت وراءه ظاهر قرية أبراخ ودخل في عمق الغابة، أوقف سريعاً حصانه كأنه سمع عتاب والده، وعاتب نفسه: "ماذا أحاول بعدما كذبت على والدنا بشأن أحتي وكذبتُ على نفسي؟ أَدّعي الرجولة وأنا محروم منها؟ كان عليّ في تلك الليلة أن أخبر أهلي الذين تبوّني حقيقة الموضوع دون أن أؤيد داربخان التي خضعت لهم بالتهديد. والآن كيف سأنظر في عيني والدنا؟.. ليس حاتام من كان عليه أن يهرب بجلده، — بل أنا. خيرٌ لك أن يقتلوك من أجل الحقيقة على أن تموت بسبب الكذب... — ترجل حجرت من الحصان عاجزاً

عن الاستمرار في ركوبه. وبعدها وقف لأياً ممسكاً بطرف السرج، مسنداً رأسه إليه، ركب وسأل نفسه: - ماذا أفعل؟ أأرجع وأطلع والدنا على حقيقة خبر داريجان؟.."

كان الفجر، وقت الإفطار، معتدلاً، ولكن قلب حجرت يعاني من نوبة برد. ولا يُسمع في الغابة العارية غير وقع حوافر حصانه. ومع أن الوقت هو وقت إطلال الشمس من أعالي أوراق الأشجار من جهة الشرق، لا يصدر صوت الغربان التي تتقاذف في العادة فرحة به، لا من قريب ولا من بعيد. غير أنك تعرف من أغصان الأشجار العارية أن الشتاء أدار ظهره للربيع المنتصر. ويُشعرك عبر النسيم الرقيق الناعم به.

أخطأ حجرت في الطيور: سُمع من جهة رأس الحصان صوت ضعيف يصعب تمييزه لطائر. وأُجيب بالصوت نفسه وبغيره. حين سمع الحصان بصوت نقّار الحشب رفع طرفي أذنيه الرفيعتين. ومن الجهة الأخرى، جهة المستنقع، ارتفع صوت أحد طيور البركة. وزقزق طائر تائه من على شجرة على جانب الطريق. "يسرني أنكن أفقن أخيراً". - عاتب حجرت من سمع أصواتهن من الطيور، وتابع أفكاره: - "ما الفائدة من رجوعي؟ مهما أخبرته، ومهما عاتبت نفسي أو برأتها فلن يسمعي والدنا. ماذا كان جرمت يقول؟ من يسمح لله أن يسد أذنيه فلن يسمعك مهما قلت له. وإن سمعك دانك بما قلت. كان يقول إن أفضل دواء هو قدوم الأجل الذي لا يعرف وقته إلا الله. كان الأفضل من كل هذا أن ألتقي بأختي التي بقيت مع الترك ولا تعرف لغتهم. وكيف؟ إن وقفت على باب دارهم بحجة أنني اشتقت إلى أختي وأريد أن أراها، أيطردوني؟ أليسوا بشراً؟.. إن فعلت هذا دون استشارة والدنا... إن فعلت فقد فعلت وانتهى. وهل نتخلى عن التعيسة داريجان؟ ما المنكر الذي فعلته؟ ألا أنها استقرت بين

الناس الذي وقعت بينهم بعدما خوّفوها منا؟ والدنا وأنا لم نتصرف على نحوٍ صحيح. نُفني أنفسنا كمن غضب داخل جَرَّتِهِ. ونشك في أنفسنا شكوكاً لا صحة لها. ولا نصدّق أي شخص مهما قال لنا. وناورز وكوبل وكُلُّ من يعتدّ بنفسه من رجال القرية أصدقاء لوالدنا دون فائدة... لو كان جرمت الذي يُجبر القرية كلها على الامتثال لأوامره حياً لوجدنا مخرجاً من أزمئتنا..."

حين لاحظت حجرت الذي كان يبحث عن إجابات لأسئلته التي لا نهاية لها أنه انحرف عن طريق آل ستيفان، واتجه إلى طريق مافليود أوقف حصانه: "أين أنت متّجه أيها المنحوس كما يقول والدنا؟ أتذهب أنت أيضاً إلى حيث ليس قلبي فيه؟ أتأخذني إلى من اتّخذونا أقباء بالإكراه؟ لا تُضللّني! يا "تخوجي" نحن ذاهبان حالاً إلى تودور، إلى حيث أبصرت النور، حيث قضيت طفولتك، إلى بيت ستيفانوف. أنسيته؟ وبعدما نسمع أخبارهم، وحسب الوضع، سنتصرف مع مشوارنا إلى داربخان أختي."

أزيز عجالات العربة الذي صدر لحظة استدارة الحصان تَبّه حجرت. ورأى الثيران المفردة التي تجر الحطب اليابس: المرأة المكسّوة بالأسود الكامل ممسكة برأس الثور، والرجل الضخم ذو الوجه الممتلئ، المرتدي ملابس رثة، فوق الحِمْل. وما إن رأى الرجلُ الفارسَ حتى قفز من أعلى العربة ممسكاً بالفأس سلاحاً ووقف أمام المرأة.

- سلام عليكم. - قال حجرت الذي عرف أنهما تركيان. وعرّف بنفسه بالأديغية، قارعاً صدره بيده: - أنا شركسي، من أبزاخ كوي^٢.

^١ اسم الحصان نسبة إلى اللون الأصفر المحروق.

^٢ كوي بالتركية: قرية.

- عليكم السلام - رد الرجل الذي عاد النور إلى وجهه، وسأله بالتركية: -
شركسي - مسلم؟

- نعم شركسي مسلم. أجاب حجر.

قال التركي أشياء دون توقّف، غير أن حجر لم يفهم منها إلا "مافليود"
و"بلغار - جاور"^١ ولكي يقدّم التركي نفسه ناسياً امرأته، قال قارعاً بيده على
صدره:

- أنا إسلام، تُرك إسلام. وأنت من؟ - وبدأ يذكر الأسماء التي تخطر له أولاً:
أنت أحمد أم محمد أم إبراهيم؟

- أنا اسمي حجر. ونسبي باغ. ووالدي إن سمعت بالمصادفة اسمه هو باغ
مزحج.

- حجر! - كرر إسلام بصوت قوي هادئ ما سمعه، ونطق ثانية الاسم
مفسّراً بأصابعه معنى هذا الاسم الخطير: - حجر شرّكس! - ثم سأل مرتعباً:
- هل قلت باغ مزحج؟ هل الفتاة الجميلة التي خطفوها لرجب بيه الثرثار، ابن
مراد بيه ابنته، وهل هي أختك؟ لا، لا. ألسنت أنت من قلت لها أمسكي رأس
الثور! - تابع إسلام طريقه إلى قريته مافليود بحجة توبيخه لامرأته.

وقف حجر بعض الوقت غير عارف تفسيراً للطريقة المفاجئة لانصراف
الأسرة التركية، قائلاً لنفسه: ولماذا أعتب على هؤلاء المساكين، ووجه رأس
حصانه نحو ستيفانوف. التفت نحو الزوجين التركيّين وقد استعاد انصرافهما
المرتعب. إسلام الآن ليس على سطح العربة بل يمشي وراءها بكل قوته.

^١ جاور: كافر

"هذا الرجل ما إن سمع اسم والدنا حتى ظهر من عبوسه ومن صوته أن مراد بيه الذي أتى على ذكره سريعاً لا يحب والدنا. - التفت ثانية وهو يوجّه هذا الكلام إلى العربة التي احتفت، وامثلت لعينيه صورة المرأة الملفوفة بالسواد - لماذا ترتدي هذا اللباس؟ أأتكون في حالة حداد؟ وزوجها ليس في عينيه أثر لفرح. إذا كان تكلم لي على داربخان فقد يكون مطّلعاً على أخبارها. كان عليّ سؤالهما... وكيف كنت سأسأله وأنا لا أتكلم التركية. لو كان معي تودور المتقن للتركية لتكلمنا معه بمزيد من الوضوح. أي نوع من العجائز هذا؟ هو من جيل والدنا لولا أنه يبدو عجوزاً من الحزن الذي في عينيه. وحين تردد اسم ستيفان في كلامي ظهر استيائه من البلغار، وضّم قبضته قائلاً "بلغار - جاور". أأكون أحد هؤلاء آذاه؟ الترك والبلغار لا يتسع لهم وادي ترغوفيش، وكلّ يوم تحدث بينهم مشكلة ما. ونحن نقيم بينهم لا نعرف أين نذهب بأنفسنا. وليس البلغار وحدهم، بل كل البلقان التي يحتلها الترك برُمّتها باستثناء الألبان والصرب المسلمين، هكذا كما يقول العارفون. ولكن ألا يجب أن يعضد المسلم المسلم؟ وها نحن، كما يقول والدنا وزغاشت، وكان حاتام يؤيدهما، دمّرنا حياتنا بأنفسنا بين المسلمين والمسيحيين ونحن نقول إننا مسلمون. أين هم أمثال مرزخوي محمد نصف الأفندي؟ وأضيف إلى هؤلاء من يسمي نفسه بلهجة المحوش "خزرات" بدلاً من الاسم الأديغي "خزرت"، ومغسل الأموات شحام... "أعاد حجرث بضحكته المقتضبة الحصان الشارد إلى يقظته.

بالقياس إلى الصباح الذي خرج فيه حجرث من القرية فالغابة التي تُظللها الشمس التي تحمل رائحة الربيع تتغير على نحو محسوس كلما قطع النهار شوطاً من مسيره. لم تعد أصوات الغربان الآن جديدة على الآذان، وتبدو أغصان

الأشجار المائلة للسواد باهتة. والبراعم التي تُحسن إليها أشعة الشمس الدافئة تراها على أغصان الأشجار المتنوعة مستعدةً للتفتح بين عشية وضحاها. ومحاري قطرات الندى الضئيلة المتجمعة على جوانب الطريق تتكاثر. ولم تعد ترى أنفاس الخيل المتكاثفة البيضاء في الهواء.

دفعت مناظر الطبيعة في الغابة حجرت إلى القول: "هذه هي الطبيعة تُغيّر جلدها شيئاً فشيئاً وتتجدد" ثم أضاف لنفسه مستصعباً: "ما لا يتغير هو موضوع داربخان التي لا نعرف أخبارها" أنا مذنبٌ بحق أختي، مذنب! كان عليّ ألا أطيع داربخان في تلك الليلة. لو احتججنا على جماعة مراد بيه كنا انتزعنا داربخان المسكينة من الذين خطفوها وعُدنّا. وربما ما وقعنا في المشكلة التي وقعنا فيها. ولكن إذا استُرجعت البنت المخطوفة... ها هي ابنة آل "حَبَائِه" حين اختطفوها إلى قرية البجدوغ "شَشْنِيه" المجاورة في العام الماضي، لا تزال في بيتها لا يلتفت إليها خاطب، مع أنهم لحقوا بها لحظتها وأعادوها. ما أعجبنا نحن الأديغة، ما أعجبنا! كما كان جرمت يقول، مع أن حظنا جاء بنا إلى بلاد غريبة والكل يعدّنا مطية سهلة ويتجاوزنا، نلجم أنفسنا بحسابات كثيرة: نحسب حساب العيب، وماذا سيقول الناس عنا... يحملوننا على أن نتخلى عن قوميتنا العظيمة لحساب الدين الذي أُجبرنا على اعتناقه، واحتقار أصحاب الأديان الأخرى المعتبرين "كفّاراً"، ومحاربتهم. ما ذنب البلغار الذين رمونا إلى أرضهم؟ أهو حُبُّهم لأرضهم وحمائتهم لشرفهم؟ ونحن كنا نجب أرضنا وبلادنا ولكننا سمحنا لهم بطردنا منها بعدما عجزنا عن حمايتها... لا يكفي حبك لأرضك وبلادك وحده. وعلى رأي مزحِب وزغاشت يجب أن تكون عندك قيادة حكيمة تجمع الناس. أكثر زعماء قبائلنا الاثني عشرة، عاشوا يسيّدون أنفسهم في ديارهم، وينظرون من خلل أسوارهم، ولم يكن عندهم نظر

إلى بعيد يربي العرق. كلٌّ، وتركيا قلبه المؤدي إلى الجنة، عاش من أجل مصلحته الشخصية. وبرقت زوال الذي يتمسح بمراد بيه يلاحق هنا تشكيل جيش من الأديغة مع أن زعماء بلاده الأم لم يكونوا يسمحون بأن يقترب منهم. ووييح برزج، ولحيته تصل إلى خصره، يقال إنه يدور في أرجاء البلقان...

خيّم صوت أذان الظهر فوق قرية مافليود المنتثرة فوق مرتفع الشلال، وجاوبه أذان آخرٌ يصدر من قرية "مزخس"¹ الشابسغ. ولم يتأخر عنهم مؤذن قرية شَشْنِيه. وبعد قليل تعرّف حجرت على صوت كوبل هارون الذي يؤدّن بدلاً من حاتام فقال لنفسه غاضباً متشفياً، ربما بتأثير أفكاره الدينية: "إذا كانت قضايانا القومية على هذا النحو فلا يجوز أن تصلي صلاة الظهر فحسب بل أيّ صلاة". - حثّ حجرت حصانه بضع غلوات، ثم أوقفه: - "ما أفعله غير جائز. أليس الله يسمعي وإن لم يسمعي أحد؟! ألم يفارق والدي ووالديتي الحياة على دين الإسلام؟ أو ليس مزحّب أيضاً على هذا الدين؟!" - قفز من على ظهر الحصان واقترب من الساقية على جانب الطريق واللجام بيده.

توضّأ حجرت، ووقف على فروته السجادة. وفي منتصف صلاته سمع أصوات الفرسان الآتين من خلفه فأخفى دعاءه دون أن يلتفت إليهم، فعرف الفارسين اللذين ينتظرانه على جانب الطريق.

- هذا أنت يا جركس؟ مع أن بوريس ستيفانوف كان تعرّف المصلي من ظهره فقد سأل، وأضاف: - كدنا نقتلك.

¹ يعني ساكني الغابة.

لما كان ما فهمه حجرت من كلام حفيد ستيفان بالبلغارية هو كلمة "جركس" فقط فقد نظر إلى من سألته وإلى من يقف إلى جانبه بارافان بكتفين مزمومتين، قائلاً لنفسه: من أين أتاني هذان؟

- ما سمعته هو أن بوريس ظن أنك تركي فكاد يقتلك على سجادة الصلاة.
- قال فجأة بارافانوف بالأديغية. واختتم بسرعة: - لا تستغرب لغتي الشركسية المتقطعة، ألم أبق عندكم أسيراً سنتين!

- كيف لم تُطلع مسنيننا إلى الآن على هذا الموضوع؟ - سأل حجرت مستغرباً
الخبر الذي سمعه الآن، أكثر من كلامه بالأديغية.

- وهل دعوتكم إلى بلادي من أجل أن أُطلعكم على معرفتي بلغتكم الشركسية؟ - أجاب بارافانوف إجابة قاسية على سؤال حجرت العاتب،
الحالي من الخبث.

- وكيف لي أن أعرف... - مع أن حجرت اعتبر الجواب القاسي غير المنتظر مهيناً فقد أجابه في نفسه "وأنت جئت إلى بلادنا محارباً ولم ندعك"، وقال لبارافانوف: - أقول هذا لأن معرفتك بلغتنا يسرني أكثر من كونك أسيراً في بلادنا.

- ماذا يقول لك هذا المسلم الذي لم أزهق روحه؟ - سأل بوريس الذي يكظم غيظه واحتقاره بصعوبة.
- يستغرب معرفتك باللغة الشركسية.

- وليتعلم هو أيضاً لغتنا، ومُره بحزم ألا يدنس أرضنا مع الأتراك المحتلين!
يركبون حصان جدي ومع ذلك يؤلفون جيشاً من الفرسان الشراكسة. -
غمغم بوريس، وردّ على حجرت ملوّحاً له بطرف السوط: - سنُرِيكم نحن كيف تؤلفون جيشاً!

- رفيقك هذا ليس لأول مرة يستفزني يا بارافان. غير أنني لا أريد معاداته إكراماً لجده. - قال حجرت الذي لم يُن أي نوع من الرعب، وهو يركب - أنا مشغول، عليّ مقابلة تودور.
- ماذا يثرثر هذا المسلم، وأيّ "تودور" يتكلم عليه؟ - اعترض بوريس برأس حصانه حجرت وهو يتمتم: أين مضيت دون أن تستأذنا؟
- أفسيح للشركسي طريقه، أنا أمنحه الحرية! - نهر بارافانوف رفيقه، وأكّد على حجرت: - لا تطرق الغابة بعد الآن وحيداً!

الفصل السابع عشر

لا شيء تتورع عن فعله حين يُضاف الذنب إلى الإهانة. مع أن حاتام دفعته الإهانة التي تحرقه، أعني عدم قدرته على حماية أخته، إلى الهيام على وجهه، فإنه لم يفارق طوال شهرين ظاهر قرية أبزاخ التي جرت له فيها الإهانة، وظاهر قرية مافليود التي استقبلت داربخان عروساً. وإن فارقهما فإلى أين كان سيذهب؟ أكان له مكان يُنسيه حزنه؟!

"هل بقي في الدنيا إنسان يفهمك، ولا يُهينك؟.. - أزاح حاتام قطعة اللحم المشوي من حصانه الذي نحره حين بقي بلا زاد، وخرج من كهفه في الغابة. نظر ولحيته المتداخلة بشاريه تنشر السواد حوله، دون وُدٍّ إلى الشمس التي ملأت سماء الربيع، وجلس على أرومة شجرة. - كلّ إنسان يبحث عن مصلحته وعن مورد رزقه، - أضاف إلى أفكاره المتقطعة. إن لم يؤلمه جسده فلن يعرف إن كان هناك وجعٌ. مهلاً، كيف أسمح لهذه الأفكار السيئة أن تغزو رأسي بوجود أمثال مزحِب الشفوق؟ لولا المسكين مزحِب كنا أنا وحجرت، وحتى داربخان التعيسة الحظ، فارقنا الحياة منذ زمن بعيد حين رمونا على

الساحل التركي. ما فائدة حياتي إلا إن قلت: كأني أعيش؟ ماذا رأيت في بلاد الغربة مما يبعث في نفسي الأمل؟ ولكن ألسْتُ حياً. وإن قلتُ هذا ألا تشرق هذه الشمس عليّ؟ لا أريد أن أظلم أحداً. لن أسمح لأحد أن ينظر إليّ نظرتَه إلى فقير ومتمرد وإن كنتُ وضعتُ نفسي بنفسي في موقف حرج! ولكن أقول لنفسي اليوم، كما أمسٍ وأول من أمس: إني لستُ مُحَقَّقا. لماذا أنا مقيم هنا كدبٍّ غاضب كأني اقتزفت ذنباً، مُفسحاً المجال للناس لأن يذكروني بالسوء؟!..."

لفت غصن الشجرة الذي اهتز انتباه حاتام سريعاً. وحين رأى العصفور الصغير الذي اعتاد أن يراه ساعة دفء كل صباح ابتسم له. وحين شرع يلتقط حبات الذرة التي أعدها له من الحشيش قال حاتام لنفسه: "هنيئاً أيها العصفور، هذا ما أستطيع تقديمه لك اليوم ولآخر مرة" إن لم ترني غداً هنا فلا تؤاخذني. أنا فهمت أن الوحدة ليست حسنة، وافهم أنت هذا أيضاً. احرص على نفسك! أظن عيشتكم أيها العصافير وحيثتنا متشابهتين. ولا تغترّ بمن يغني لك. ولا تعادٍ من لا يغني لك. وافتقارك إلى أعداء سبب للشعور بالوحشة..."

وفجأة انقض غراب من الشجرة أجبر العصفور على الرحيل. فعاتبه حاتام:

- أيها المنحوس، أما أخبرتك ما يجري لكم ولنا؟!

رجع حاتام إلى الكهف ولبث فيه بعض الوقت. وحين خرج أغلق باب القصب، ثم قال لنفسه "أنا راضٍ عنك، أدفأني وأبقيت على حياتي، من يعرف، قد يحتاج إليك غيري من أمثالي؟".

عندما خرج حاتام من الدغل الذي يضم الكهف توقف بعض الوقت لا يعرف أين يتجه. ثم استأنف السير وهو يصلح وضع الفأس المعلقة بزناره. وبعدها سار مدة توقف مرة أخرى وسأل نفسه: "إلى أين أنا ذاهبٌ؟.. وهل ما يمكن

أن تقصده قليل أيها البائس! - نهر نفسه - العالم أربعة أطراف، والشمس تشرق في كل مكان... وها هي فوق رأسي الآن، غير أنني لا أحس بدفئها. لا أحس بها لأن الإهانة الكاذبة تخيم على رأسي! ألا يكفي أنني أقمت في الغابة أكل من لحم حصاني معللاً نفسي بالقول المأثور: "من يُهَن يجد وقتاً للانتقام؟" إذا كان جرى لداريخان ما جرى وانتهى الأمر، وتزوجت بإرادتها كما كانت أخبرت حجرت فما الفائدة من أن أتابعها؟ أكبر مشكلة الآن هو المسكين مزحج الذي أئتمت بحقه. تصرّف حجرت نحو مزحج برجولة أكبر مما تصرفت أنا. تشاركاً في تحمّل مصيتهما. ربما أسأتُ إليهما وسببت لهما الإهانة... لا ألومهما. أستحق كل ما يقولون عني. وإن قلت هذا فلا أعني أنني لا أحملُهما أي ذنب. من يضغُ كلبه يقول كلبى ضاع... هل قلقاً لأجلي؟.."

اختبأ حاتام وراء شجرة لما سمع وقع حوافر حصان. عرف الفارس، وصاح في إثره وكأن اختبائه منه يتبدد من أمام ناظريه:

- حجرت!

حمل الصوت المألوف حجرت على الترحل. وصاح من كان ينتظره:

- حاتام، هذا أنت!

- أنا هو يا حجرت، أنا.

- أين كنتَ إلى الآن؟ ولماذا لا تركب؟

- الغابة التي لا تعرفها كبيرة... - تتم حاتام، وسأل: - ألم يعد الحصان؟

كنتُ أفلته لأن الركوب في الغابة، حتى المشي على القدمين خطير... إذن افترست الوحوش المسكين. أذنبتُ بحقه.

- وهل الحصان مشكلة يا حاتام؟ المهم أنا وجدناك سليماً.

- وهل بحثتم عني؟.. - سأل حاتام يغلبه عتابه، لا يحمل نفسه الذنب، ولو أن ما سمعه أَرْضاه.

- بحثنا عنك حتى اليوم لا نعرف أين اختفيت. ومزحِب، ألا تعرف طبيعة والدنا، صار ما جرى لك هماً له.

- وماذا سيجري لي؟ حين ركضنا وراء أختنا إلى الترك الذين حلّت بينهم، اعتبرْتُ بقاءها بينهم برضاها إهانة لي. وما أخبارها؟

- وماذا ستكون أخبارها! على ما تعرف. يقال إنها اندمجت فيهم. - لا أُصدّق.

- هذا هو وإن لم تصدّق... تعال، لماذا نحن واقفان؟ اركب الحصان إلى القرية. - وأنت؟

- وأنا ماذا؟ أَلستُ الأصغر؟ سأركب وراءك.

يصدر الوقْع الأخرس لقوائم حصان حاتام وحجرت من غابة بداية الربيع الخالي من كل صوت. والأشعة المنيرة للشمس التي توسّطت قبة السماء تلمع من بين الأغصان. والنسيم ينثر عفن بقايا أوراق العام الماضي. وبقايا بُقع الثلج تبدو في الزوايا الباردة على شكل أقدام الكلاب.

مع أن أفكارَ الأخوين اللذين يشتركان في ركب الحصان من أُمّين وأبوين مختلفين متجهةً إلى داربخان فإن لكل منهما وجهةً نظره. سأل حاتام الذي كره حياة الوحدة والتشرد رديقه، غير متحمل الصبر بعدما انتظروا لأياً لا يعرفان من سيبدأ الحديث:

- ما الأخبار في القرية وفي العالم يا حجرت؟

- لا شك أن في العالم أخباراً كثيرة يا حاتام، ولكن لن أكتمك ما دمت سألت: القرية لم تتقبل طريقة اختفائك.

- ما الأمر؟ شد حاتام اللجام فارتفع الحصان.
- وكيف لي أن أعرف؟
- وكيف لا تعرف؟ هل ما تجهله هو أن داربخان أختنا كلينا؟
- وكيف لا أعرف أن داربخان أختنا!
- إن كنت تعرف فهذا هو... لا تُذنب بحق المسكين مزحـب... - وبعدما أقـلـع بالحصان ومشى مسافة غمغم لنفسه: - لا يجوز أن تضع قدمك في مثل هذه القرية.
- لا تُقن نفسك يا حاتام باللوم. أنا مذنب أكثر منك بكثير.
- حين رأى حاتام قريته من المرتفع في ظاهرها فرح ناسياً كلمات حجرت الأخيرة:
- انظر ها هي قريتنا الصغيرة تظهر!.. - وفي اللحظة نفسها سأل ووجهه يُمتنع: - مهلاً يا أخي أيُّ ذنب لك تتحدث عنه؟
- لا أعرف كيف سأروي لك هذا يا حاتام... أتـكـلم على ذنبي من جهة داربخان.
- وأيُّ ذنب بحق داربخان؟! - حين ألقى حاتام نفسه بلا وعي من السرج سحب معه حجرت.
- في تلك الليلة، حين أوفدوني إلى داربخان توّسّلت المسكينة إليّ ألا أقول لكم الحقيقة فكذبْتُ عليكم.
- وأيُّ توّسُّل؟
- هددوها إن لم تنفذ ما يطلب خاطفوها فسيُـلـحـقون الأذى بأسرتنا وقريتنا فادّعت أنها تريدنهم.

- ما الذي فعلته بنا يا حجرت!.. ظننتك أشجع من هذا... - ترك حاتام اللجام وجلس إلى جذع شجرة، ثم سأل: هل يعرف والدنا بما قلت لي؟
- لا أحد غيرك يعرف.
- هذا هو... لو كنت تعرف متى سينقطع حزام سرجك... وقد يكون قولهم "الكذب يتركك عارياً" صحيحاً. ما الفائدة من جلوسنا هنا بعدما حدث ما حدث؟ هيا إلى البيت!
- حين رأى مزحب حاتام وحجرت يدخلان الدار استقبلهما، وقال للأكبر:
- الحمد لله على السلامة يا حاتام؛ أطلت غيابك!
- طال غيابي يا والدنا لأني إنسان طالح... من العيب أن تعود راجلاً إلى الدار التي خرجت منها راكباً.
- يحدث مثلاً هذا... - استدار مزحب ودخل البيت.
- بدأ حجرت يقوم بمتطلبات الحصان العائد وهو يعرف أن والده مكدر المزاج من طريقة كلامه ومن دخوله المفاجئ إلى البيت. وفيما هو يحلّ حزام الحصان قال لحاتام وراءه:
- والدنا ينتظرك.
- لندخل معاً إليه!
- ألا ترى ماذا أفعل؟
- أنت تتأخر عن قصد... انظر، ها هما زغاشت وهارون قادمان... -
- استقبل حاتام الرجلين كأنه لم يفارق الدار قط وقال لهما: - تفضّلاً يا كبيرينا الطيبين، والدنا في البيت.
- تفضل أنت يا حاتام. - قال زغاشت باختصار دون أن يشرع في المصافحة، وعاد فلامه: - تركتُنا ننتظرك طويلاً؛ لا نعرف أين كنت غائباً.

- لم أكن بعيداً... ولكني أستحق أيّ كلام توجهونه إليّ... لا تقف يا حجرت، ادعُ الكبار إلى الداخل.
- إن كنا مهتئين أو معاتبين يا مزحج - بدأ زغاشت كلامه مناوراً - سمعنا أن حاتام رجع إليك فجئنا إليك.
- وهذا بالضبط ما في قلبي نحو هذا. - وأشار مزحج إلى حاتام الواقف إلى جانب قائمة الباب. - اسألوه إن كان عنده ما يقول. وأنا سأستمع إليه.
- كان حاتام تاه في الغابة، وكان متوعكاً...
- لا تتكلم يا حجرت على ما لا تعرف! - كسر حاتام سلسلة حجرت - أفضل من هذا أن تروي لنا خطأك.
- جعل الكلام مزحج يقفز برأسه. ونظر زغاشت وهارون نظرات تساؤل في وجه حجرت.
- أيّ ذنب؟ - سأل مزحج حاتام.
- ليقُل لنا من كذب علينا!
- وماذا؟ أأكون خدعتكم إذ بلّغتمكم رجاء داربخان؟ - انفجر حجرت باكياً على غير ما يُتوقَّع منه. ثم عاد إلى وعيه وأكمل: - لو لم ترضخ داربخان لمطالب الترك...
- اسكت! - زجر مزحج وهو يهز رأسه - كنت أتوجس من هذا... - بعدما ذرع مزحج أرض الغرفة بضع مرات ولم يعد يرى من في البيت قال لهارون وهو يجلس: - هذا ما تفعله بنا أمّة برقت زوال ومخوش حزرت... أيمكن أن يفهمنا الله يوماً ما يا تُرى؟ نعم يا زغاشت، لن أسمح لما لا يجوز أن يتسلل إلى قلبي وقد حدث ما حدث. وأنتم أيضاً أيها الشباب سنتحلى بالصبر.

حين خرج ناورز زغاشت وكوبل هارون من البيت، وبعدما انصرف مهتئون آخرون من الجيران، قال مزحِب للشابين:

- هيا أغلقا مصاريع النوافذ. وكذلك الباب!

أجفل صوت البكاء الأخرس الصادر من الغرفة حاتامَ ونظر في وجه حجرت لا يعرف تأويلاً لِمَا يسمع.

- أَيْكون والدنا هو من يبكي؟! هذا لا يمكن البتة!

- لا تؤاخذاني، ليس ما أبكيه ما جرى لأختكم. - قال مزحِب للشابين اللذين اقتحما الغرفة - ما أبكي لأجله هو ما سيتبع هذه الحادثة.

الفصل الثامن عشر

لا أسهل من زرع اليأس أو الأمل في قلب الإنسان: كلام جارج أو كلام حلو. خبر مزعج أو خبر سار. اتهامه بما ليس ذنبه أو تشمينه.

برقت زوال جالس في العربة التي تنقله إلى البلقان لا يسعه فرحُ عثوره على ابنته عُشماف الذي لا يساويه فرح باستثناء بعض أفراح طفولته، والذي أنساه أحد الأحزان التي لا تمنحه الراحة، والتي يحملها معه حتى في الغربة. يتأمل بلاد الترك الغربية فيجد ما يراه جميلاً، قريباً من القلب. يرى في الجبال غير العالية التي تلتف حولها العربة الربيع المتفتح في الغابة. وأجناب الطرقات مزهوة بالاحضرار. ويأتيه الأذان من البعيد فيقع على قلبه مرققاً للقلوب، مطيئاً لها. ولا يُحس بالريح التي تصدم جانب العربة.

"ما أسهل أن يضيع منك الحظ، وما أسهل أن يعود إليك!.. - قال زوال لنفسه وهو يستعرض الأحداث التي مرت به. - بقينا نحارب مأخوذِين بالشجاعة الفارغة من العقل فيما نحن نعيش على الأرض التي ورثها لنا

أسلافنا، دون أن نتعلم درساً من الحرب الظالمة التي شتّوها علينا حتى خربنا حياتنا بأنفسنا. والآن ندعهم يورطونا سرّاً في القضية العالمية التي تجري في البلقان. أليس في المسألة إرادتنا؟ نعم. ألا يجب أن نشأر لما فعل الكفار بنا في بلادنا، حتى لو لم يكن إلا ما جرى لأسرتي، بما ينسجم مع حمايتنا لأنفسنا من القوم الكفار الذين وطنّونا بينهم، كما يقول مصطفى باشا؟! - نادى زوال فجأة السائس: - دعني أترجل من العربة وأمشي على قدمي بعض الوقت - عاد زوال إلى وعيه وهو يتمشى على جانب الطريق - مهما قلت، ومهما غضبت على نفسي، أو برّأتها، فقد أنساني عثوري على ابنتي كل الإهانات التي تعرّضت لها في حياتي. مهما مرّ عليّ من مآسٍ فإن ابنتي التي لم تغب عن بالي لحظةً سليمةً وفي صحة جيدة. وهذا يستدعي الشكر لله. وجدتُ عُشماً حتى لو كانت دَفنت على الساحل الآخر أمها وأختها وأخاها الصغير، وأنا بينهم، فقد أشرق حظها، فاختارتها بيكا السيدة الكبرى من بين البنات اللواتي اشتروهنّ لأجلها. تربيها كما تربيّ ابنه سلطان. وإكراماً لها كرّمتني أنا أيضاً. ورفعت من شأنِي. وها هي ترسل معي اليوم رسالة إلى مصطفى باشا تتعلق بي. وجعلتهم يبدلون الرتبة التي منحني إياها الضابط يوسف إلى رتبة أعلى. ولو سمع باغ وناورز وكوبل هذا الخبر لما صدّقوا. سنرى الآن كيف سيتعامل معي مراد بيه... وألبان؟ ألبان هو من سأقابله أولاً بزّي العسكري في فندق بلغراد. وفي اليوم التالي سأسلم رسالة بيكا السيدة الكبرى إلى مصطفى باشا. ثم أظن أن مصيري يتعلق بأمره..."

حين ركب زوال عربته ضحك من كلماته الأخيرة ولام نفسه: "أسمعك يا برقت فأقول: ما أعجبك! تتأمل أن تنحل أمورك كما يأمر مصطفى باشا دون أن

تفهم ثمن ما منحوك إياه. مَنْ مصطفى باشا هذا بالقياس إلى السيدة التركية الكبرى التي صارت سنداً كبيراً لك في قصر السلطان؟!..."

- ورائنا عربة رجل متنفذ... - قال السائس إلى من وراءه.

- كثير من العربات على طرق تركيا - قال بلامبالاة زوال الذي قُطعت أفكاره، وسأل السائس: - ومن أين تعرف أن مَنْ ورائنا رجل متنفذ؟

- أمام العربة ووراءها فارسان، ويشيرون إلينا.

- أن نتوقف؟

- لا، بل أن نفتح لها الطريق.

- هكذا؟ - تظاهر برقت بأنه يسأل نفسه وهمهم: - من هذا الذي لا يكفيه الطريق العريض حتى يتنمّر؟ أ تكون إحدى عربات السلطان؟ - أصلح موقفه بسرعة.

- الأرجح أن يكون في العربة التي ورائنا شركسي نافذ - قال السائس وأشهد - مرافقوه الفرسان يرتدون زياً شركسياً. يقال إنه نجّم من بين من التجؤوا إلينا في السنوات الأخيرة عدد من المتنفذين. إن لم أخطئ فقد رأيت هذه العربة أكثر من مرة في إستانبول. ومن النظرة الأولى عرفت راكبها. لا يزال في مخيلتي رجلاً متيناً جسيماً أبيض اللحية.

- ظهر في بلادكم من بين الشراكسة الذين لم يستطيعوا حماية أرضهم، بلادهم كثيرٌ من الوجهاء. وأنا شركسي، غير أنني لست من هؤلاء الوجهاء.

- هل أنت شركسي؟ وأنا ظننتك من لغتك التركية المكسرة ألبانياً. حتى لو لم تكن من الشراكسة الوجهاء فأنت تحمل رتبة تركية عالية.

- أحملها لأنهم رأوني أهلاً لها. - جزم زوال للسائس معرباً عن امتعاضه رغم أن ما يقوله له يبدو بريئاً - وعاد كأنه غيرُ مبالٍ إلى العربة التي حرفا الحديث عنها قبل قليل - الآن جعلتني أحمّن صاحب العربة، أظنه الحاج برزج. رجع برقت زوال في هذه اللحظة بقلبه إلى ساحل البحر. وامتثلت المشقات التي عبرها أمام مخيلته من جديد: "يديني أمثال باغ وناورز وغيرهم ممن لا يحملون لي المودة على طريقة مغادرتي للبلاد كأنهم لم يتركوا هم موتاهم هناك على الشاطئ... من منكم لم يركب السفينة متخطياً الجثة برجليه؟ وإن كان السبب اختيار الضابط يوسف لي ما إن وصلنا إلى الجانب التركي فهل الذنب ذنبي؟ وإن كنت أسايركم قليلاً فهل أنا من كان لا يغبط أصحاب الأسر والأطفال؟ وهل أنا من لم يقاس العذاب من ابنتي التي عثرت عليها قبل أيام؟ لستُ المدين بهذا ولا أنتم... أنا أعرف من هو... - وفي اللحظة نفسها ارتسمت صورة الحاج برزج ذي اللحية البيضاء، والذي كانت النساء يتوسّلن إليه أن يساعدنّ فينهرهنّ، ثم ركوبه هو وأسرته مركباً خاصاً استأجره. وسمع من جديد أصوات اللهفة يطلقها الناس المطرودون من أرضهم وبلادهم تحوم فوق الشاطئ. - مهما حصل لي فربما تصرفت لمصلحتي الفردية لأننا كنا في وضعٍ لا يعرف فيه المرء إلا نفسه، وإن كنت تصرفت بشيء من الاستعلاء عليكم فإنني لم أتخلّ عنكم. لم أضركم وإن لم أنفعكم. وها أنا اليوم ألاحق قضاياكم، قضايا الأديغة، كيف نحمي أنفسنا. ولا تظنوا أن الرتبة التركية التي وضعوها على كتفي لا تُثقلني، ولا تسيء إلى قلبي الأديغي. اعرفوا أن من لم يستطيعوا حماية أرضهم سيصبحون الآن حماة للبلاد الغريبة. ما العمل؟ لا يقدّم شيءٌ دون مقابل إلا الصدقة. ما يقدّمونه لكم يجب أن تكسبوه ليس بالدموع

وحدها بل بالدم أيضاً. وهذا أمرٌ لن نفهمه اليوم بل بعد وقت ليس بقصير..."

في اليوم التالي وصل برقت زوال إلى بلغراد مساءً. ونزل في الفندق المقرر. ولكنه لم يستطع النوم، وإن لجأ إلى الفراش، لأنه لم يستطع قضاء الصلوات التي فوّتها من العصر إلى العشاء بسبب تعبهِ الشديد. وتقلب في الفراش بضع مرات ثم قام يغمغم ويشكو: "النوم صرعي، وبعدها استغرقت فيه، ما الذي حدث؟ ربما لأنني فوّتت العصر والعشاء. وما فائدة هذه الصلوات وما ضررها لي إن فوّتها أم لم أفوّتها؟ ظللنا ندعو: يا رب ارحمنا واحمنا من الكفار، لا تدعهم يذهبونا. حتى طردونا من أرضنا. والبلد المسلم الذي طردونا إليه لم تتحسن حالتنا فيه. يشتنا دون أن يسفك دمنا. إن كان هذا رأيك يا برقت فماذا تلاحق الآن؟! - الآن غضب زوال على نفسه وسألهَا وعاتبها: - ليتني كنت أعرف ماذا أريد أو أتابع! ولماذا لا تعرف؟ ألا يجب أن تحمي نفسك ما دمت غريباً؟ وكيف؟ إن حققنا المشروع الذي نعمل عليه أمكننا أن نحمي أنفسنا من الكفار الذين لا يُضمرون لنا الخير. وأعداؤنا ليسوا البلغار وحدهم. بل الترك الذين يسميهم البلغار بالغرباء أيضاً... يا برقت هل عندك ما تعتب به على البلغار؟ أعجيب إن كانوا قوماً من الكفار؟ ونحن أيضاً، على رواية مسنيننا، كنا نعتنق الدين المسيحي. ما الكلام الذي كان يقوله رجلٌ صالحٌ من عامة الناس^١؟ "ليبلُ الله من انتزع من أفواهنا اللحم الأبيض!"^٢ لو بقينا مسيحيين لربما وجدنا لغة تفاهم مع المسيحيين. أجلس في الظلام بعينين لامعتين مادام النوم جافاني؟

^١ ترجمت كلمة فقولاً بعامة الناس، وهم الطبقة التي تقابل طبقة النبلاء، ويمكن أن تترجم

الكلمة بالفلاحين الأحرار كما في الموسوعة الفرنسية، مادة: tfkolt

^٢ يقصد باللحم الأبيض لحم الخنزير، أي من أخرجنا من الدين المسيحي كما سيرد.

سأقف أمام الله العلي العظيم الذي أدين له بصلواتي التي فوّتها، وأبتهل إليه كما كنت أفعل سابقاً..."

حين أنجز برقت زوال أدعيته باللغة العربية توسل إلى من يجثو أمامه على ركبتيه: "اغفر لي يا إلهي إن كنت سمحت للأفكار الخاطئة أن تغزو رأسي من اليأس. ارفع عن الأدبغة مصيبتهم القومية. وإن عتبت علينا، نحن الكبار عمراً، فارحم صغارنا. وأشعرهم بعدالتك. وامنحهم عمراً ولو كانت الغربة سوء حظ، ولا تدعهم ينسبون بلادهم، دُعهم يرونها وإن كنا نحن المسنين لن نراها ثانية".

ما إن عاد زوال إلى فراشه حتى حمله النوم، ربما لأنه نفّس عن ضيقه. لا يعرف إن نام كثيراً أم قليلاً حين أفزعه الحلم الذي زاره فجلس في الفراش. كان المؤذن يعلن من مكان غير قريب ولا بعيد قدوم صلاة الصبح.. "أي حلم كنت أراه؟ وأي عصفور صغير لاحقته في الغرفة لا أستطيع طرده؟ يقال إن دخول عصفور إلى داخل البيت فال شرّ. ثم إنه كان أسود فاحماً. ولم يكن سنونوة ولا زرزوراً. - فتح برقت النافذة وبحث في الغرفة شبه المظلمة التي بدأ يغلب عليها نور الفجر. - يا ربي هل طردت العصفور الذي راودني في الحلم من الغرفة؟ نعم، حقاً، حين فتحت النافذة كان طار من تلقاء نفسه. ألم يكن الأفضل أن أطرده لا أن يطير من نفسه..."

لما رأى برقتُ تَنَفُّ السحاب البيضاء التي يُخَيِّلُ إليك أنها تجمدت على الجبل الشرقي تتحول إلى الحمرة نهض في قلبه خوفٌ غامض لا يعرف مصدره. وفيما هو ينسى هذا الخوف مع ترجُّل مراد بيه وأفندي المخوش من العربة التي دخلت إلى باحة الفندق صرخ لنفسه: "انظر إليهما! أيّ قضية يلاحق هذان أيضاً؟ انظر إلى مراد بيه المرتدي زي الضباط! ورتبته ليست متواضعة. كنت أسمع أنه ضابط ولكن هذه أول مرة أراه فيها بهذا الزيّ. بالقياس إلى ما منحوني

في إستانبول فهي رتبة صغيرة... - ابتعد زوال عن النافذة وغطى كتفيه بالصدر. وحين عاد إلى النافذة رافعاً رتبته بحركة من كتفيه، لم ير العربة التي كانت أمام ناظره قبل قليل، ولا راكبيها اللذين له معرفة بمهما. - أيّ مهمة يلاحقها مراد بيه التركي وأفندي المخوش؟ ألم يبق في هذه المدينة فندقٌ غيرُ الفندق الذي نزلت فيه؟ لولا موعدي مع ألبان لحزمت أشياءي وتركت هذا الفندق. متى سنلتقي أنا وهو؟ إن كان سيتأخر عن الموعد المحدد فلا يزال أمامنا نهار كامل إلى المساء. لو عرفت أن أموري ستسير على هذا النحو لما اتخذته صاحباً يعطل أعمالي. قضايا غيرنا، قضايا القرية تصدع رؤوسنا. وهو سافر إلى كوسوفو لأنه لم ير أبويه منذ مدة. لا تعرف ماذا يخطر له لأنه كالطائر الحر. يمكن أن يعود وألا يعود، لا يعد إن شاء! ألا يمكن أن يكون هو العصفور الصغير الذي كنت ألاحقه في الغرفة؟ مراد بيه يعرف سبب سفري إلى إستانبول، والقليل من المال الذي قدمه إليّ نفعني بالإضافة إلى النقود الأخرى التي وصلتني. ولكن إذا قابلت مصطفى قائد الجيش فلن أدع مراد بيه ينظر إليّ حتى بعين واحدة. وصاحبهُ أفندي المخوش يردد أغنية من يركب عربته كمرزخوي أفندي..."

توضاً برقت زوال دون حماسة، وأدى فريضة الصبح. ولما دنا موعد سفره بعد استراحة أخرج من جيب صدره الساعة الفضية التي أهدته إياها عُشماف بعلمٍ من بيكا السيدة الكبرى، ونظر إليها طويلاً كأنه يرى فيها ابنته. كان لا يزال على مواعده مع مصطفى باشا ثلاث ساعات ونصف. شُمع طرقُ باب خفيفٍ جداً. وحين أخبر زوال بأن الباب مفتوح دخل إلى الغرفة الصبيان اللذان يتراوح عمرهما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، واللذان يدوران بالشاي في الفندق. وأخبره الأكبر أنهما جاءاه بشاي الصباح.

- أخبره أن الشاي دون سكر... - لام الأصغرُ منهما الأكبرَ بالأديغة.

- وهل يشرب الأتراك الشاي بالسكر؟

- هل أنتما أديغة؟ سأل زوال وقد فوجئ بلغتهما.

- نعم، وأبزاح - قال الأكبر، وأضاف بسرعة: - تقول لنا جدتنا: والأبزاح أديغة.

- تقول لكما جدتكما الصواب. الأديغة يتألفون من عدة أعراق. والأبزاح واحدٌ منها. - حدد زوال ما سمع، ثم قال لنفسه بسرعة: "كان الأفضل لنا أن نكون عرقاً واحداً متجانساً من أن نكون أعراقاً كثيرة"

- ولكن الأتراك والألبان والصرب يسموننا شراكسة.

- وهناك، في بلغاريا، حيث رحّلونا يدعوننا بالشراكسة... مهما نادونا به من أسماء يا ولديّ فلا تنسيا أننا أديغة، ولا تنسيا أرض قفقاسنا - نطق زوال "أرض بلهجة الأبزاح. - ولتحتفظا في قلوبكما أنكما سترجعان يوماً إليها! نعم، لا تتبادلا النظرات فأنا أبزاح، ومن أسرة برقت. واسمي زوال. وأنتما من أي أسرة؟

- هذا أخي الأصغر، نحن من أسرة "داور". اسمي أسلان، وهذا قبيلان^١. كنا في الوطن الأم نعيش في قرية "داور حَبْله"...

- وهل تتذكرانها؟

- وكيف لا نتذكر قريتنا الجميلة، وجبالنا وغبابتنا؟

- هذا هو - سأل زوال أسلان الذي داهمه الحزن - والآن أين تعيشان؟ هنا في هذه المدينة؟

^١ الأسد والنمر على التوالي.

- لا، بل في قرية داور حبله الواقعة في كوسوفو، قريباً من بريشتينا. ونحن ندور بالشاي في هذا الفندق لصاحبه التركي. ونعود يوم الجمعة إلى القرية رغم أنها بعيدة لأن جدتنا، وهي الوحيدة المتبقية لنا، تعيش فيها. وما يزيد على نفقتنا تدّخره لأجلنا بحجة أنه سينفعا في المستقبل. جدتنا تخدم نفسها بصعوبة، ونحن أملها... وبما أنك سألت عن والدنا سأقول لك كيف مات: قتله أحد الألبان في العام الماضي في سوق بريشتينا، وأمي ماتت في السفينة. وألقي بها في البحر كغيرها من الأموات كما تروي لنا جدتنا...

- هيه أيها البائسان! - نهض برقت زوال لا يستطيع الجلوس، وقال وهو يقترب من النافذة: - أيّ مأساة غرقنا فيها، أرى أشرتكما فنيث من جذرها. - وهل نحن وحدنا يا كبير، بل كل من يشبه وضعه وضعنا ممن جاء به حظه إلى تركيا. ولكن لا داعي لليأس. - قال داور أسلان بما لا يتناسب مع عمره، ثم استدرك: - أقصد الأبراخ الذين نجّوا من الطاعون^١. نعم سيكون مصيرنا مصير غيرنا من الأديغة. هذا ما تقوله لنا جدتنا. والآن سنعود إلى عملنا في توزيع الشاي. لن يسامحونا إن عرفوا أننا أطلنا البقاء هنا.

- لحظة، توقف - أخرج زوال من جيبه عدة قطع نقدية ورقية ومدها إليهما. - أوصيلاً هذه النقود إلى جدتكما.

- لا يساوي ما جئنا به من الشاي هذا المبلغ يا كبير - قال أسلان مستكثراً المال الممدود إليه، وأضاف بادياً عليه الاستياء: - نحن لا نروي لكل من نقابله قصة حياتنا.

^١ الطاعون هنا يعني المصيبة المثقنة عموماً. وأصل التعبير: نجّنا من الطاعون لثقلته الكوليرا. يعني من مصيبة إلى أخرى. وسبب اختيار الطاعون هو أنه قضى على آلاف الشراكسة في بدايات القرن التاسع عشر. انظر تاريخ الشراكسة لممدوح قوموق ص ٢٧٨ وما بعد.

- وأنا لا أحسن إلى كل من أقابل. هذه ليست صدقة. عليك أن تقبل ما تُعطى عن طيب خاطر.

- إن كان هذا رأيك فسامحني. سنأخذ ما نتفضل به. شكراً، وسأتيك لاحقاً بشاي الظهيرة وشاي المساء.

- أظني سأتابع سفري خلال بضع ساعات. لكن بما أن طرق الأديغة البائسة تلتقي وتفترق فرعاً، من يعرف، نلتقي مرة أخرى. لندم عليكما الصحة والسعادة! لا تيأسا، وبلغا جدتكما سلامي.

حين خرج برقت زوال من أفكاره الأديغية اللامتناهية لبس زيّه العسكري بسرعة، وخرج من الفندق وطلب من أول سائس عربة إيصاله إلى مصطفى باشا قائد الجيش. ولما خرج زوال من العربة لم يفهم سرّ اختياره عربة اليوم وعربة البارحة من بين العربات الأخرى الممتعة. ولكن صورتني صاحبيهما امثلتا لعينييه وهو يقترب من العربات: "هذه هي التي قابلناها أمس وأمامها فارسان، ووراءها كذلك. والأخرى هي التي رأيتها اليوم في صحن الفندق ومراد بيه وأفندي المخوش ينزلان منها. أيكون هؤلاء أيضاً في زيارة لمصطفى باشا؟! أجاؤوا هم بأنفسهم أم استدعاهم؟ والله ما يحدث في العالم عجيب..."

وضع الضابط التركي برقت زوال الذي أدخل إلى الغرفة مع شارات الاحترام الورقة التي عليها أختام بيكا السيدة الكبرى أمام الجالس على باب مصطفى باشا، دون أن يولي الحضور اهتماماً، فأوصلها الأخير بسرعة إلى مصطفى باشا لأنهم كانوا في انتظاره. لاحظ زوال الحاج برزج والجالس إلى جانبه مرزخوي الأفندي بين الجالسين جانباً، ولكن زوال لم ير مراد بيه وأفندي المخوش بين أي مجموعة من الجلوس.

- من هذا الضابط الذي يخدمه كل هؤلاء؟ - همس الحاج برزج في أذن مرزخوي أفندي.

- والله لا أعرف، يتكوننا ننتظر، ويهتمون به... أين رأيت هذا؟!.. أهو برقت زوال! - قبل أن يعود الأفندي إلى وعيه أُدخل زوال باسماء إلى مصطفى باشا قائد الجيش لا يلتفت إلى أحد. واستقبله الآخر بوجه طلق كأنه يعرفه طوال حياته.

- أنا مطلع على موضوعك، وأفهموني قرابتك إلى السيدة الكبرى بيكا وقرابتها بك. - لاحظ مصطفى باشا أن من يتحدث إليه لا يفهم التركية فاستدرك الموقف بسرعة: - صحيح أنت لا تزال تجهل لغتنا، حسنٌ لو كنت تعرفها. ولكننا لا ندينك. هيا استدعوا شركس أحمد! - قال لحاجبه الضابط.

- هذا الذي سميت به برقت زوال - سأل الحاج برزج دون أن يُبدي استياءه من استدعاء زوال قبله - أليس، إن لم أخطئ، من كان سائس الضابط يوسف؟ - نعم يا حاج، نعم أصبت - قال مرزخوي محمد، ثم أضاف له: - الضابط يوسف المقيم الآن في إستانبول هو قريب قائد الجيش الذي نجلس على بابه الآن.

- كيف لم أعرف بهذا الأمر إلى الآن... - لام الحاج الأفندي، وهمهم قائلاً في نفسه: "أصبحنا لا نُساوى بالسائس الذي خرج من بين الروث، نستحق كل ما يجري لنا" معنفاً إياها، مُسمِعاً جليسه: - يجري في قضيتنا شيء لا نعرفه... لا أعرف سبب تأخر مراد بيه... ها هما وصلا الآن - عاد إليه شيء من الأمل حين رآهما بين قائمتي الباب.

- مراد بيه من سحنته ومن لباسه ضابط ممتاز، غير أن صاحبه ليس شخصاً جديراً بالاحترام. - همس الأفندي مرزخوي في أذن الحاج.

- لا تقل ما لا فائدة فيه، ليس من شأننا تقييمهما - ردّ الحاج برزج على سلامهما، وعاتبهما: - تأخرتما!

- يا حاج نحن وصلنا قبلك إلى هنا - قال مراد بيه، وحدد - كَلّمونا في مكان آخر، ثم جاؤوا بنا إلى هنا. هم راضون عنا في المهمة التي نتابعها. ويؤمّلوننا... رفيقك هذا لا أعرفه.

- لا بد يا مراد بيه أن تكون سمعت باسمه ولو لم تعرفه بالوجه. هذا هو الأفندي مرزخوي.

- نعم، هو مرزخوي محمد المقرئ - قال أفندي المخوش مخفياً عدم اعتباره مرزخوي محمد جديراً بالأفندية، وقال لمراد بيه في نفسه "ما الفرق بين أن تعرف أو لا تعرف من لا يفهم ما في القرآن، وما فائدته". كان مصطفى باشا والضابط برقت يتكلمان في الغرفة الأخرى، في موضوعات تتعلق بالأديغة، ولكن تعاملهما وتحادثهما كانا مختلفين: - رتبنا الضابطين، من عريقين مختلفين، الجالسين متقابلين، مختلفتان ولكن يسمع أحدهما الآخر، ويتفقان. مايقوله أحدهما يُكمّله الآخر. وإن أردت حقيقة الموقف تماماً فإن برقت زوال الضابط التركي الناجم حديثاً من تحت الأرض، وإن كان لا يفهم الكثير من كلام الآخر، يوافق كلام مصطفى باشا بهزة رأس كأنه يفهم، أو ببعض الكلمات يلقيها من وقت لآخر. ويُترجم أحمد أفندي لمصطفى باشا كلمات ابن قومه برقت زوال القليلة مضيئاً آراءه هو إليها -: متى قال برقت هازراً رأسه ما يعني "نحن راضون عنكم، نفهمكم، نتفهّم معروفكم، لم تتخلّوا عنا، حميتونا ممن سلبونا أرضنا، ونرى رأي العين الإجراءات التي تتخذونها لتخفيف مصائبنا" أضاف إليها أفكاراً أخرى. وحين انتبه برقت إلى ما يفعل مترجمه لمّح إليه:

- لا أعرف إن كنت تقول له ما لم أقل...

- لا أقول له ما يتناقض مع مصلحتنا نحن الأديغة. - ردّ عليه شركس أحمد في أثناء تضاعيف الكلام، ثم توجه إلى قائد الجيش بالتركية: - برقت الضابط التركي قلق على حُسن ترجعتي يا قائد جيوش البلقان.

- أبلغ ضيفنا الكبير، موفد السيدة الكبرى، ثقتي فيك من هذه الناحية. أوفدني السلطان التركي الكبير عبد العزيز والسيدة بيكا السيدة الكبرى جدته إلى البلقان، حيث يؤلّب الروس أقرباءهم من جهة العرق ضد الترك، لحمايتها وتوطيد سلطتنا عليها. وأملّي أن يقف معي الشراكسة الذين أُجبروا على التخلي عن أرضهم. وسنساعدهم سراً على حماية أنفسهم وعلى تأليف جيش خاص بهم. وأنتم اعتبروا قضية الحفاظ على الشراكسة بصفتهم عرقاً أمراً منتهياً. إلى الآن لم يكن لي مع الشراكسة مهمة، كنت في الشرق على الحدود العربية التركية. ولكن ليس اليوم فحسبُ أسمع بشجاعتهم وصدقهم واستقامتهم. وقد اختبرتهم بنفسي من هذه النواحي في البلقان. وأنا، وفقاً لتعليمات بيكا السيدة، أنصّب برقت زوال الضابط الشركسي التركي زعيماً ومرجعاً شاملاً لكل الشراكسة الذين وطّناهم في البلقان.

- حياك الله - دفع الكلام المفاجئ لمصطفى باشا برقت زوال إلى القفز من مكانه. - سأكون موضع ثقتك! - واختتم بما كان يُقلقه: - ولكني رأيت على بابك أناساً من الشراكسة أرزن مني، وهو مستشار لهم في أمورهم. - أنت سبب استضافة هؤلاء، ولذا أدخلوهم!

أبلغ مصطفى باشا أمره باختصار إلى الأربعة الذين وقفوا بين قائمتي الباب: - ابتداءً من اليوم، المقدم برقت زوال الضابط الشركسي التركي هو زعيم الشراكسة المقيمين في البلقان. وسيكون معاوني. واجتمعوا في الغرفة التي

سيرشدكم إليها الضابط شرّكس أحمد للتداول في شؤونكم ومراجعتها. وليبقَ
عندي الضابط مراد بيه.

وفيما يترجم شرّكس أحمد كلام قائد الجيش مصطفى باشا، لاحظ مصطفى
باشا أن لون الحاج برزج الذي لا بأس بتركيبته قد امتثّق، فسأل:

- ألم يُترجم لكم كلامي على نحوٍ صحيح؟

- أنا لا أجهل التركية - أجاب الحاج برزج بالتركية، وأضاف كأن المهمة التي
لم يوكّلوها إليه تشغل باله: - أقول هذا لأنّي أشكّ في أن من نطقت اسمه جدير
بتأدية هذه المهمة.

- أمري نافذ، لا مجال لمناقشته - جزم مصطفى باشا باختصار للحاج.
لم يطل اجتماع الأديغة في الغرفة المحددة لهم. لم ينبس الحاج برزج بأي كلمة
خلال نصف الساعة، مدة الاجتماع. وفي نهاية الاجتماع وعدهم أن يطرح
عليهم خلال شهر مناقشة كيفية حلّ أمور الأديغة. وحين عاد إليهم مراد بيه
اتفقوا على ما قرره مصطفى باشا، وافترقوا عند صلاة الظهر.

الفصل التاسع عشر

- تعال، قال حاتام لحجرت الذي كان يكسّر الحطب.

- إلى أين؟

- متى ما قيل لك "تعال" لا تسأل إلى أين؛ أأست أديغياً - قال حاتام إلى
من وراءه وهو خارج من الدار.

"أنا أديغي، ولكن ألم يكن الأفضل أن أعرف إلى أين... - غرز حجرت
الفأس في الجذع الضخم، وتبع الشاب ذا الكاهل الضخم. - لن نذهب بعيداً

لأننا راجلان"... - وفيما هما يسيران في الغابة لأن بيته كان قريباً منها سألهما بنبرة سخرية ناورز قاسم الذي كان يحمل على كاهل الحصان خروفاً:

- ما الأمر؛ لماذا أيها الأخوان باغ تدخلان الغابة دون فأس ودون حبل؟

- وأنت خروفٌ مَنْ سرقْتَ يا ناورز قاسم؟ - قابل حجرت سؤال صديقه قاسم بسؤال مماثل.

- أنا لا أسرق ما ليس لنا. كُسرت قائمته فأعيده من المرعى.

- نعم، حقاً أرى دمغة أسرتكم على جبينه.

- دمغة الأسرة، أقول لك إن كنت لا تعرف، لا توضع على جبين الماشية.

- ما هذا الجدال الناشب بينكما... - قال حاتام دون أن يتوقف للصديقين

من خلفه، ولام حجرت: - أَلستَ من طلبوا منه الاستعجال؟!

- سأذهب معكما إلى أي مكان ما إن أوصل الخروف ولو لم تطلبا مني مرافقتكما.

- لا يتماشي راكب وراجل - قطع حجرت الطريق على قاسم جدياً.

- لست على حق في الكلمة القاسية التي وجهتها إلى صديقك يا أخي الأصغر.

- هكذا؟ وسخريته هو منا؟ - ما شأنه بنا إن كنا بدون فأس أو حبل؟ أعجيب إن كان راكباً حصان والده؟ ونحن لسنا نفتقر إلى حصان... ألا تعرف طبعه؟ يدس أنفه كوالده في كل شيء.

- حجرت! - توقف حاتام - لا تقل بحق ناورز زغاشت مثل هذا الكلام السخيف! هو من رجالات قريتنا والمضيق الذي نحن فيه. وهو صديق والدنا وسنّده. إن كنت ستسمع كلامي فلن أسمح لك أن توجّه لابنه مثل هذا

الكلام. نحن - القليل الباقي من الأديغة - إن لم يحرص أحدنا على غيره، ولم نتساند، فلن نجد في بلاد الغربه من يساندنا، ومن يخاف علينا.

- كما كان يقول المرحوم جرمت، ليجعل الله مثواه الجنة، أنت على حق في ما قلت عن ناورز زغاشت وابنه قاسم يا حاتام. - قال حجرت على طريقة المسنين ودان نفسه، - أخطأت، ساجني، ولكن مع ذلك يا حاتام أحب أن أعرف إلى أين ذاهبان.

- وإلى أين نذهب؟ إلى أختنا.

- ولماذا لم تخبرني يا حاتام؟ أسرع حجرت بالسؤال: - من دون علم والدنا، وخالتي الأيدي؟

- ليفرخ الأتراك الذين أختنا كنتهم، حتى من دون شيء.

- وهذا صحيح - مع أن حجرت لم يكن يرى السلوك المفاجئ لحاتام مناسباً فقد أنهى كلامه رافعاً رأسي كتفيه: - ليعرف هؤلاء أننا لم نقاطع أختنا. ولكن لو كنا نعرف، لو استأذناه، لو طلبنا منه أن يشير علينا فيما نقول ونفعل...

- اخرس! غضب حاتام الذي كان كمن سيثقب الطريق بضخامته - مللت من شكوكك. إن كنت تخاف على نفسك فعد إلى القرية، لا أحد يمنعك!

"بأي نظرة تراني حتى أذهب معك متى قلت: تعال، وأرجع متى قلت: ارجع؟! - ردّ حجرت على من أمامه، ثم نهر نفسه: - هل أنا من لا يودّ زيارة المسكينة داربخان مهما قلت لي ومهما فعلت معي. بل لأني أفكر في ما سيجعل زيارتنا أفضل... هم محرومون من الإنسانية ولكن نحن... هجموا علينا وجثمان جرمت لم يُدفن بعد فخطفوا أختنا. وورطونا في مشكلة لا مخرج لنا منها... نعم أنت على حق يا حاتام، ليفرحوا بزيارتنا لهم.."

في لحظة وصول حاتام إلى الطريق الموصل إلى حيث كان يختبئ تاركاً الطريق المعروف لقرية مافليود سأل وهو يخرج من ذكرياته الثقيلة:

- لماذا لا تقول شيئاً يا أخي الصغير؟

- وماذا أقول؟ قلت لك ما كان يقلقني وانتهيت - أجب كمن كان ينتظر السؤال.

- وهل لقلق الإنسان نهاية؟! لست أسأل عن هذا بل عن منظر الجبل في الربيع... ألا يُذكرك بشيء؟ - وفي اللحظة نفسها صدرت من بعيد، من جهة قرية مافليود، أصوات هرج ومرج. وتبعها وقع حوافر خيل. قال حاتام المنصت بكل حواسه: - في الجهة التي نذهب إليها يحدث مكروه ما... وها هم الفرسان يجرون... اختبئ وراء الشجرة، لا تدعهم يروننا!

توقف الفرسان الثلاثة القادمون ليس بعيداً عن حاتام وصاحبه. ورصدوا، وتنصّبوا. وخرج أحدهم عن الطريق ثم عاد إليه. وخرج ثانٍ إلى الجانب الآخر من الطريق، وعاد سريعاً. وقال ثالثهم بالتركية شيئاً لرفيقه، ثم هزّ طرف سوطه في الهواء، وعاد الثلاثة من حيث أتوا.

- حدث أمر ما لهؤلاء. - كرر حاتام، ثم اختتم: - ولكن لا نعرف ماذا حدث.

- استعجل حجر:

- لا تدعنا نذهب إلى القرية التركية... ألم تسمع الفرسان يرددون "شركس"، "شركس"؟

- كانوا يقولون لأن في المضيق الذي نقيم فيه قرى أديغية - قال حاتام كأنه غير مهتم بشيء، ثم خاف في اللحظة نفسها: - صحيح، لماذا يردد هؤلاء اسمنا، لماذا لا يقولون: "ألبان"، "صرب"، "بلغار"؟ إذن، إذا كان رأيك هكذا

يا أخي الصغير، وبما أننا لم نخبر والدنا، والوقت قارب الظهيرة، فلن نمضي إلى حيث توجهنا. لا تزال أمامنا أيام أخرى. وما حدث للترك أصحاب السراويل الفضفاضة شأنهم هم. ونحن سنعود إلى القرية.

حين رأى مزحِبُ حاتامَ وحجرتَ دخلا الدار، قال لهما متظاهراً باللامبالاة:
- أين أنتما تاركين الحصان دون سقاية، والخطب المقطَّع على أرضه؟ هيا نقذا ما سمعنا، وإذا وجدتما ما تأكلانه فسحقنا! أنا تغديت عند زغاشت. وأنت يا ولد - قال لمن وراءه وهو يدخل الغرفة - أفرانك أسسوا أسراً منذ زمن بعيد.
- يا داربخان! - هُرعَ حجرتَ صارخاً لاستقبال أخته التي كانت تدخل من الباب الضيق.

وفي اللحظة نفسها واسى مزحِبُ ابنته التي ارتقت على صدره وهو يمسح على ظهرها:

- هل رجعت يا ابنتي إلى بيت أبيك؟ وأنا وأخواك لم ننسك. ولا نستغرب كونك وحدك. الآن أنا مسؤول عن كل شيء...
- نعم يا والدنا، نعم. - كان حاتام الذي يعضد والده وحجرتَ وراء داربخان.

الفصل العشرون

بعد الظهر، وفيما يستعد برقت زوال لوضوء العصر، تذكر أن الحاج برزج صفعه بهذه الجملة "قد يكون من علامات الساعة أن زماننا هو زمان تنصيب الفلاحين زعماء على الأمراء".

قال زوال لنفسه وهو يضحك: "ألا يكفي ما أمضينا من العمر عراً؟ لنعيش نحن أيضاً ربحاً من الزمن أحراراً نجد عندنا ما نشتهي. لستُ مثلك يا حاج أعمل لأجل شخصي فحسب. لا أدور في بلاد الغربة بعربة فاخرة محاطة

بالحراس الفرسان. ولا أستأجر مرتزقة. أنا أتابع في عربة مستأجرة أمور الأديغة
المساكين الذي تسببتهم في نكبتهم. أنام في أرخص الفنادق، وأكل ما تيسر في
مطاعم العامة. لا أدخر جهداً إذا كلفوني بحلّ أمورهم، ولا أعرف النتائج. أفليل
من رُمي بهم في هذه البلاد من أمثال الصبيين ساعبي الشاي في الفندق
وجدّتهما التي تدّخر لهما ما تستطيع؟! أين هذان الصبيان يا ثرى؟ كنت
أخبرتهما بأيّ سأسافر ولكن تبين لي أن مهمتي مختلفة تماماً. ولا موعد لي مع
ألبان كما كان متوقعاً. ربما يسأل عني أسلان وقلان لأخما صبيان ذكيان..."

تبين أن من أسرع فاقتحم الباب هو أحد الصبيين:

- هذا أنت يا أسلان! ادخل؛ ما الأمر؟

- الرجل الذي قتل والدنا حلّ بالفندق... وتعرّف الغرفة التي أنت فيها عبر
سؤاله عن اسمك.

- أعتقد: قاتل أبيك!.. - شكّ زوال في الرجل الذي جرى ذكره، فسأل -
أهو رجل أسمر طويل؟

- نعم، تماماً... تركتُ قبلان يراقبه.

ابتسم زوال:

- وأنت من أين تعرف أنه قاتل والدك؟

- وكيف لا أعرف؟ كان والدي صبحني في ذلك اليوم إلى السوق.

- إن كنت تقول "ألبان" فسيجدني.

- أليس هذا ما أقول، أما قلتُ لك إن هذا المجرم سأل عنك...

هُرع قبلان إلى الغرفة:

- ألبان قادمٌ إلى هذه الناحية!

- حسناً، فليأت! - ابتسم زوال ثانية - سأعرّفكما عليه.

- أيعرف أحدكما الآخر؟

- لا أعرف إن كان أحدنا يعرف الآخر... ولكن لحظة: لا تجعلوا ألبان يعرف أننا أنا وأنتما يعرف أحدنا الآخر! هاتا بعد قليل الشاي دون أن تُبديا أي انفعال.

لام زوال ألبان الذي كان ينتظره دون أن يجد الأخير الوقت للجلوس:
- تأخرت!

- لو كانت الأمور تجري كما أريد لكنك زعيم الألبان... - قال ألبان دون مزاح، وأنهاى: - بصعوبة خرجت من بين الصرب الكفار الذين يقولون: كفاكم، أنتم مسلمون، سلبتمونا أرض كوسوفو المقدسة. أظن هؤلاء يستمدون العزم ممن العنيدون القساة الذين عندكم ثأر منهم... دعنا الآن من أخبار الصرب والبلغار، واسمح لي أن أهنيك على الخبر السار الذي سمعته للتو. قيل لي إن مصطفى باشا كلّفك بمهمة كبيرة.

- أيّا كان القائل فلم يخطئ. ولكن حدث في إستانبول ما هو مدعاة أكثر للفرح: وجدت ابنتي الوحيدة التي كنت أذكر خبرها لك. وكُرمى لها؛ ألسن أباهما، أنيطت بي مهام لم أتوقعها البتة.

- الآن فهمت ما لم يكن الحاج برزج ومراد بيه يستطيعان قوله... يجب أن تكون ابنتك التي عندها هذه الإمكانيّة متنفذة جداً.

- والله لا أعرف كيف أصف لك نوع نفوذها. ليست تربية جدة السلطان لك مزاحاً؛ صحيح؟.. - قال من كان زوال ينتظره والذي قطع حديثه: - الباب مفتوح.

- جننا بشاي العصر... - قال بسلان، وبنظرة صامتة جعل أخاه قبلان يرى الخنجر المعلق إلى جانب ألبان.

- حسنٌ أن جئتم به. شكراً لكما - خاف أن يقولاً لضيفه بالأديغية ما لا يجوز، فحدد بسرعة: - صاحبي هذا اسمه ألبان، ويعرف الأديغية.

سأل ألبان نفسه وهو يتابع بنظراته الصبيين الخارجين من الغرفة: "أين رأيت هذا الذي كان ينظر إليّ وكأنه يريد انتزاع خنجري مني؟ ومن ظل واقفاً إلى قائمة الباب لم يكن وجهه يوحي بالخير... تذكرت، أنا التقيت بهما اليوم في الممر، ولم تُعجبني نظراتهما آنذاك. سواء قبلنا أم لم نقبل فالأحسن ألا نتمثل أمام هؤلاء الشراكسة ذوي الطبع الحامي إذ ما أسهل أن يقتلوك! ومن أنا في حضرته واحد منهم. انظر ما أنيط من مهام بمن كان أمس فقيراً معدماً! تجاوزوا أميرهم الحاج برزج، ولم يتوقفوا عند من هو نافذٌ في وادي ترغوفيشت مراد بيه..."

- أهئك يا زوال، بؤؤوك منصباً مهماً.

- رأوني أهلاً له، وليس كرموني به! - حسم زوال الموضوع، والآن أفهم من تعرّف عليه مصادفة في الطريق قبل أيام، من هو.

- نعم، نعم، لأنك أهلك له بؤؤوك منصباً مهماً! - قال ألبان غير ما في قلبه، وأضاف متصاعراً: - ولكن لا أعرف ما ينتظرنا نحن.

- من "نحن"، أنت أم غيرك؟

- من يكون غيري؟ أظنهم آل مراد بيه، أم آل الحاج؟

- وأين هؤلاء الذين تأتي على ذكرهم؟

- شعروا بأنك تأخرت عند مصطفى باشا فأرسلوا إليك تحياتهم وركبوا طريقهم. ولكن ليس المهم شخصك. فما تلاحقه قضيةٌ قومية تستحق منهم أن ينتظروك لأجلها، أليست مهمة كبيرة تلك التي أسندوها إليك...

- وما حاجتي إليهم وإلى سلامهم!.. - غمغم زوال دون أن يُخفي أنه لا يودُّهم، وقد أذكت غضبه الكلمات القاسية التي رماه بها الحاج برزج، ثم فسّر الموضوع: - لم يفرحوا بالمهمة التي أُسندت إلي بل ازرقّت وجوههم منها. لم يكلموني بل لم ينظروا إليّ. كانوا يبحثون عن حجة ينصرفون بها عن وجهي... سأجمع الأوراق المتعلقة بعملتي خلال شهر، وسنرى الأعمال المنجزة التي وعدنا الحاج برزج بعرضها علينا.

- هل وعدك الحاج برزج هكذا؟

- ما الأمر؟ رفع يرفت زوال رأسه فجأة.

- لا أعرف، لأنّي رأيته غير مرتاح.

- وكيف ترى راحة في وجه من لم يتحقق ما يريد! - ضحك زوال مما سمع، وحمله ما تذكّره على السؤال: - كدث أنسى أن أهنيّ مراد بيه؛ أيّ مناسبة مُفرحة؟

- عنده كثة شركسية. تزوج ابنه رجب بيه.

- أليس هذا متزوجاً؟

- يحق للرجل تبعاً للقرآن أن يتزوج من أربع. وأنتم الشراكسة ستصلكم هذه الممارسة قريباً.

- لا، لن نفعل!

- ألسنّ مسلماً؟

- نحن مسلمون، غير أنه ليست عندنا مثل هذه العادة.

- ومع ذلك قبلت ابنة قريتكم درايجان بربج زوجاً.

- أيّ عيب تقوله؟! - أسرع زوال بالقول ما إن سمع اسم درايجان. - هذا لا يمكن!

- ومع ذلك فهذا هو الخبر!
- ذرع برقت زوال أرض الغرفة بضغ مرآت ناسياً من معه في الغرفة، ووقوف إلى جانب النافذة. وبعد وقفة قصيرة استدار وقال بصوت منكسر:
- إذن أليس التعيس مزحج في مشكلة؟
- والله لا أعرف مشكلته إذا كانت ابنته وقعت في أسرة ثرية.
- إخرس! نهر زوال ألبان، وعاد إلى النافذة.
- حسناً سأخرس... - تبرأ ألبان، ثم قال ما يهّم شخصه: - غير أنني لا أعرف ما ينتظرن من مستقبل... لو كنت أعرف أنك ستبقى هنا لسافرت مع المسافرين إلى ترغوفيشت...
- وغداً سيأتي يوم آخر... - قال برقت الآن إلى من وراه بصوت ألطف - ابتداء من اليوم سنفكر في الخدمة في جيشي. أأتخلى عنك دون سبب مهم وقد ترافقنا إلى الآن قولاً وفعلاً... غد الآن إلى غرفتك واسترح. ولا يخطر لك أيّ سوء نحو أيّ إنسان.

الفصل الحادي والعشرون

- حين أبلغ مراد بيه بعودة داربخان إلى أهلها تهاوى لا تحمله ساقاه. ثم نقر ركبتيه براحتيه، ونهر ابنه:
- ألسن رجلاً فتهرب منك امرأتك!
- استغلت الكلبة غيابي فهربت إلى أهلها.
- يا عديم الإيمان، لا يقال مثل هذا في المرأة التي لم تُطلق!
- يحق لي أن أصف المرأة التي طعنت كرامتي بأي صفة... - غمغم رجب من تحت شاربيه الأسودين خجلاً مما يقول.

- لست وحدك من أهين... - قال مراد بيه مطرقاً، وسأل رافعاً رأسه بسرعة:

- أتكون تصرفت معها تصرفاً مُهيناً؟

- إن لم أكن دَلَّتها...

- ماذا تقول يا عديم الحياء؟! اخرج لا أريد أن تقع عيناى عليك!... - ثم

صاح وراء ابنه مستعيداً الهدوء: - هيا استدع أمك!

دخلت المرأة الكهله المعتدة بنفسها ترتدي غطاء رأس حريراً أبيض رقيقاً، وثوباً أسود يتدلى عليه سروال مدور الطرفين، على حذاء عال أصفر.

- ما أشدَّ أناقتك! - قال لها بجلافة مع أنه استحلى زينة زوجته الأولى، وأضاف بسرعة: - كان عليك أن تصحي زوجاتي الثلاث الأخريات.

- يكفي أن تخبرهن حتى يُسرعن بزينة أجمل من زينتي.

- مثل ما ركضتِ أنت؟

- حدث لنا من جهة ابني ما يجعلني أركض. أهانتنا المرأة الشركسية التي بالغنا في تدليلها.

- أهانتنا لأنك الزوجة الأولى عمراً، ولكنها غيرُ الحكيمة. لا تقفي، اجلسي يا عائشة!

- حسناً سأجلس. غير أننا يجب أن نتصرف حيال ما حدث لنا.

- قولي إذا كنت تعرفين ماذا نفعل.

- وكيف أعرف؟ كيف تسعدك من اختطفتها!

- لا أعرف ما تقولين كأنك لم تُختطفي أنتِ أيضاً! ابتسم مراد بيه ابتسامة رقيقة.

- تزوجت عليّ ثلاث زوجات لأنك خطفتني... - قالت عائشة وأنعت

متألمة: - إيه؛ ما كان أحلى لو أن هذه الشركسية العنيدة وقعت في مأزق

فبادرت إلى التوسل إلينا... يا إلهي أرجوك أن تحرمها من كل أمل غيرنا فتتوسل إلينا!

نظر مراد بيه بطرف عينه إلى المرأة التي كانت تستمطر اللعنات، وقال لنفسه: "انتظري حتى يتوسل إليك الشراكسة!". وفي اللحظة نفسها ارتسم أمام عينيه باغ مزحج وبرانث حاتام وحجرت، وكلُّ منهم أضخم من الآخر، وأشد عبوساً. ووراءهم وقف كل أفراد قرية أبزاخ التي عادت إليها داريجان. وبرقت زوال الذي اتخذ مصطفي باشا معاوناً ثم اتخذوه هو معاوناً له، وألبان الذي ينتظره برقت. وكان بينهم الحاج برزج الذي يتخلص من امتعاضه بالإسراع بالعربة، قال مراد بيه لنفسه: "هؤلاء يفهمون أملك إن أفضيت لهم به. ولكن أعتقد أن أفندي المخوش حزرت سيكون أنفعهم لي إن قابلته. يجب أن نجد له ذريعة نحمي بها أنفسنا دون أن نقول إنها هجرت ابنه، ودون أن نتصاغر أمامه". وسأل زوجته بلا مبالاة:

- والأخريات ماذا يقلن؟

- من "الأخريات"؟

- ومن سيكن؟ ضرائك الثلاث... - ضحك مراد بيه في نفسه، وأخفى: - هؤلاء غير مهمات لمن ليس فيه دمه، ومن لم يخرج من أرحامهن؛ يعتبرنه ليس من دمه.

- إن فهمت هذا يوماً فهذا حسن - احمرت وجنتا عائشة المستقيمة القوام السمران الشاحبتان. وأضافت إلى ما قالت بنبرة غير واضحة: - أهو ذنبني إن ولدت كل منهن فتاة عجفاء، متطولة الرأس لا أصل لها؟

- اخرسي! أي عيب تقولين؟ - جعل الكلام غير المنتظر مراد بيه يصرخ في وجهها.

- اغفر لي إن قلت ما لا يجوز، ولكن إن كنت لا تريد تعريض ابننا للإهانة فما خرج من أفواه هؤلاء الثرثارات حجج ومماسك عليها جيدة. يكفيننا أن نقول إن هؤلاء الضرائر، تحاملن على عروستنا الذهبية حسداً لابننا وبغياً، فأغلقتن أمامهما كل السبل حتى نجت بجلدها.

- هل صارت من كنت تلعينها قبل لحظات "عروساً ذهبية"؟ - قال مراد بيه لنفسه وإن تظاهر بالسؤال "هذه حجة ممتازة".

- هناك ما يمكن أن أقوله بيني وبين نفسي... هذه التي ركضت إلى بيت أهلها أعرف عنها أمراً لا تعرفه هي عن نفسها... - نظرت عائشة في وجه الرجل وأدارت وجهها.

- وماذا تعرفين عنها؟

- أظنها حملت معها ابن آل وسمن.

- لم يُغمض مراد بيه عينيه طوال الليل: مرت أمام عينيه كل الأحداث التي شهدتها منذ شبابه وإلى الآن. كلما تذكر المواقف التي فعلها خلال خمسين عاماً قفز من الجنب الذي ينام عليه إلى الجنب الآخر. وحين لا يستقر عليه يجلس في الفراش ورجلاه تتدليان، أو يذرع أرض الغرفة. ليس لأنه نادم على أفعاله أو حجلٍ منها. فعل ما فعل، وما الفائدة من أن تبخع نفسك مادام الماضي لن يعود؟ أهم ما أمامه الآن هو الإهانة التي لحقت بأسرته.

"لا أتذكر إهانة لحقت بأسرتنا، أسرة وسمن إلى الآن! - غضب مراد بيه على نفسه - ليس ابني من أهين بل أنا، مراد بيه. ثم إني لم أكن أريد أن يحدث بيننا وبين الشراكسة مثل هذه المشكلات. من في قرية أبزاخ يفهمني وفي الوقت نفسه يحسب آل باغ حسابه إن حملت إليه مشكلتي؟ أقول ناووز وكوبل غير أنهما صديقاً مزحج الذي أعاد مهر ابنته إلينا. ووصلنا كلام مسيء قالاه

بحقنا. والعجوز جرمت الذي كانت القرية لا تعصي له أمراً رحل. وما جرى لحاتم الذي جعله الشعور بالإهانة يهيم على وجهه مُضحك. أما الآخر حجرت العنيد فالأفضل ألا تعترض من اتخذ من جماعة ديمتروف أصدقاء، لن تجني منه نفعاً. وإن رشوت ديمتروف الذي اتخذ من أهل أبزاخ أحوالاً له، فأرسلته وسيطاً إلى آل باغ فرما امثلوا لرأيه... ولكن سأقابل قبل الجميع الأفندي حزرت. فإن لم يشنهم كلامه بقي مخرج آخر: سأهمس في أذن مصطفى باشا بالرشوة التي يجبها، وسأجعل من أنا معاونه برقت زوال يكلم باسمه أبناء قومه... من أين جاءنا هؤلاء الشراكسة الذين جلبوا لنا هذه المصيبة؟! "

حين رأى مراد بيه صباح الربيع ينبلع على الجبل لبس بسرعة وخرج من البيت. ولما خرج من الدار بالحصان الجاهز دائماً سأل من لحقه بقسوة:

- هل أنت من تعلق بذيل حصاني؟!

- لأني رأيت ألا تسافر وحدك...

- والذئب وحيد، ولكن لا يخطفونه - ردّ مراد بيه على ابنه معتبراً ما سمعه مدعاة للضحك، ثم أضاف إليه بنبهة ألطف من سابقتها: - لا أسافر إلى مكان بعيد، أحب أن ألتقي بأفندي المخوش. ارجع، ما ألاحقه هو موضوعك فلا يجوز أن نترافق.

- إن رأيت هذا فسأعود... - عاد رجب الذي يعرف طبيعة والده النزقة بسرعة، ولم يعرج إلى بيته بل ركض تحركه آلامه المتلاطمة إلى ساقية الماء القريبة. وفجأة غير مراد بيه الذي تجاوز ظاهر قريته مافليود اتجاهه: قال في نفسه: "ماذا سيفيدني إن قابلت أفندي المخوش المرائي الذي لا يحب آل باغ؟ أعجيب إن كان يتلو الأدعية فلا تتجاوز فمه فيجعل من نفسه أفندياً؟ هل بقي الآن بين الشراكسة من ليس أفندياً؟ من الذي خطر له أن نتخذ من

هؤلاء الشراكسة أنسباء؟ كان الكفار المحيطون بنا من بلغار وصرب يرفعون رؤوسهم من جديد فقلت: الشراكسة مسلمون والتجؤوا إلينا لحماية أرواحهم، فاتخذتهم أصحاباً، ومجنوننا الآخر عشق ابنة شركس باغ، وهل عرفت أن الشراكسة سيثيرون حولنا هذا الشغب... والحق إن كانت الشركسية هربت فلتهرب!.. أقول لنفسي: هل قليلاً من في هذا الوادي من فتيات يشتهين الزواج، فلماذا أجعل من هروبها مشكلة؟ ولكنها تحمل جنيناً من هذا الوقح... أيكون شكٌ عائشة صحيحاً؟ إن صحَّ هذا فلن يقف شيء في وجهي، لن أسمح لأعدائي إن كانوا بلغاراً أم صرباً أم شراكسة أن يسخروا منا. أؤذي نفسي وأنا أتصور أنني أعمل للأفضل. وأي أذى!..." - حثَّ مراد بيه الحصان الذي كان يمشي بثقل مصدراً نحيراً. وبعدما سار مسافة ترجل عند الساقية التي رآها على اليسار. ربط الحصان إلى شجرة وتوضَّأ لصلاة الصبح، ووقف على جلد الماعز المعلق على جانب الحصان والمتَّخذ سجادة. ترجل عنده فارسان عرفهما ولكنه لم يقطع صلاته. وتوضَّأ الآخران ووقفوا إلى جانبه. أنهى مراد بيه صلاته، وكى لا يعرقل صلاة الآخرين ابتعد قليلاً وجلس منفرداً بعدما طوى السجادة، وأعادها إلى السرج.

من المستحيل أن تفهمَ إلى الآن حال الطبيعة مع بداية الربيع الوليد، ولكنك تحس بعبيره في أرجاء الغابة: الأشجار التي برعمت على ضفتي الساقية، والشمس التي صبغت بالأحمر السماء التي تغيَّر مظهرها البارد شرق الجبال، وأصوات عصافير الصباح، تُفهمك الآن بقدم الربيع. غير أن هذه المظاهر ما كانت لتمثل أمام عيني مراد بيه. أضيف إلى المصيبة التي تهيج الرأسَ الفارسان غيرُ المنتظرين. "ربما بعث الله لي هذين الصديقين، ولكن لا أعرف كيف أصارحهما بالعار الذي لحق بي... والله أنا إنسان غريب الأطوار، أليس من

الأفضل أن أروي لهما بدلاً من أن يصلهما الخيرُ وقد زيد فيه وغيّر وبُذِل؟ أتصدّق أنك إن رويت لهما وجعلك اهتما لك! رجع ألبان الذي لا مأوى له إلى نواحيها ولكن ماذا يريد برقت زوال التائه الذي لا بيت له ولا أسرة، والذي انفتحت له أبواب الحظ فجأة فأركبوه على ظهرنا أنا والحاج برزج الذي كان ينوي جمعنا خلال شهر لبحث قضايا الشراكسة. أريد استعراض مهمته أمام الشراكسة؟ نحن الأتراك سلوكنا عجيب: الغريب الذي لا نعرف أصله نعتبره ونحترمه في حين لا نغير انتباهنا إلى ابن قومنا الذي إلى جانبنا..."

- ما الأمر يا مراد بيه - سأل زوال ما إن أخفى صلاته - نحن مسافران، أما أنت فلماذا تصلي خارج بيتك؟ أعندك ما يشغل بالك؟

- إذا كنا نُختبَر في الدنيا الغانية يا زوال فلا بد أن يصلنا شيء من همومها... - تفضلاً، لم يخطر لي أن نلتقي هنا. ربما يكون الله العلي العزيز جمعنا روحاً وقلباً. أنا كنت في طريقي إلى حزرت أفندي في قرية المخوش فوجب عليّ أن أصلي صلاة الصبح هنا. يا ألبان اذهب وأعد سجادة الصلاة إلى حصان زوال. لا، لا، لا تقل هذا زوال، إن لم نحترم زعيمًا مثلك شرفونا به فمن نحترم إذن؟ تعال إلى القرية، ستفرح بك أسرة وثمان... والقضية التي أتابعها ليست ملحة. - والقضية التي تتابعها، إن كنت ترانا أهلاً لها، نرافقك إليها. يا مبارك النسل، ألهانا الحديث فنسيت الموضوع الأهم. - مع أن الموضوع كان يثقل على زوال فقد قال باش الوجه: - أهنتك على كنتك. كما نقول نحن الأديغة - الشرکس: لتدخل إلى بيتكم بقدم مباركة، ولتترك كعب خير حيث خرجت.

- حياك الله يا زوال - قال مراد بصوت كسير - غير أن أمورنا ليست كما تقول.

- ما الأمر؟ - سأل ألبان كمن يريد أن يستلّ خنجره.
- وهل نعرف... كُنّا غافِلَتنا وهربت إلى بيت أهلها... - أخفى مراد بيه أن داريجان حامل.
- توجه زوال إلى مراد بيه وسأله كأنه متأمّل لحاله مع أنه كان مرتاحاً للخبر:
- والله هذا لا يجوز. وباغ مزحّب ما رأيّه؟ هل أرسلت إليه أحداً؟
- وماذا سيكون رأيّه... منذ اليوم الأول لم يقبل قرابتنا مهما قلنا له وفعلنا.
- وكيف تصوّرُ الابنان اللذان تبتّاهما حاتام وحجرت؟ - سأل ألبان ثانية وقد زاد احتياجه.
- هذان لا فرق كبيراً بين لسانيهما وسيفيهما.
- هذان أنا سأريهما لسانيهما وسيفيهما!
- ألبان، لا تقل ما لا فائدة فيه! ردّ مراد بيه على صديقه المطواع.
- هل سنبقى نحن الرجال الثلاثة الكبار، مكتوفي الأيدي؟ - لم يكفّ ألبان
- لا بد من إجراء ما بشأن المصيبة التي حلّت بمراد بيه يا زوال. سأقول لك ما تفعله إن كنت ستسمع كلامي، بما أننا نحن أيضاً مررنا بتجارب في دنيانا: ترتدي زيك العسكري وتحالط أبناء جلدتك الشراكسة، مُشعراً إياهم أنك ذو سطوة، لن يخالفوك. ستجعل آل باغ وناورز وكوبل، ومَن أيضاً، يرضخون. بل ستعود كنهٌ مراد بيه الرجل الصالح بنفسها. هل تربّي سيدة تركيا الكبرى ابنتك عبثاً؟ ومن أنت معاونه في قضايا الشراكسة مصطفى باشا بيده وحده البلقان كلها.
- هل انتهيت؟ - سأل زوال مبتسماً. وارتسمت أمام عينيه صورة الطفلين اللذين تعرف عليهما في الفندق. وخنجرُ والدهما المعلق بخصر ألبان جَرَحَ عينه. وتذكر أن السلطان الذي جمع في القاهرة قبل عصر بعيد جداً بقايا المماليك

وقتلهم كان من أصل ألباني^١. - على ما يبدو يا ألبان أنت لا تعرف من هم الشراكسة. لن يسمحوا لك، وإن ارتديت زي ضابط أو كنت قائد جيش أو كنت السلطان نفسه، أن تحاسبهم على ما ليس من ذنبهم، مع أنهم أُجبروا على هجر بلادهم بالقوة. ولكن لن أدّخر جهداً في هذه المسألة إن لم يكن هناك عتبٌ بين الطرفين. أمن أجل هذه المسألة كنت تنوي الذهاب إلى الأفندي حزرت؟

- نعم لأننا في مأزق.

لا يصلح الأفندي حزرت وسيطاً في قرية أبزاخية، ولآل باغ. سيأتي يومٌ نفكر فيه كالיום. وسنلتقي بمن يجب أن نقابلهم. وسنحمل إليهم همونا وشكاوانا. - تفكر زوال سريعاً في الخبر الذي سمعته، وغير كلامه: - إذا كانت جرت لكم مشكلة بسبب عدم اتفاق أسرتكما فسأعرج على قرية أبزاخ متجاهلاً علمي بالموضوع إن كان السبب من طرفنا بدلاً من النزول في مضافتك، بشرط ألا تعتب عليّ. وفي جميع الأحوال فقد أطلعكم مصطفى باشا قائد الجيش على أمورنا، وكنت أمهلتكم شهراً للاجتماع من أجل التداول، أزور خلالها قريتي والقرى الكثيرة دون ضجيج، وكنت أنوي أن ألتقي بالرجال المختارين فيها.

- كيف أعتب على رجل دولة مثلك ، ليغمرك الله مرة أخرى بعطفه ورحمته يا زوال - قال مراد بيه الرجل المتنفذ الذي كان في وادي بريشتينا مُظهراً بجلاءٍ استعدادَه للتملق لمن هو أعلى منه - إن كنت تؤمّلنا أن تحل لنا بالخير المشكلة التي جلبت لنا الهم - وأضاف إلى كلامه قائلاً في نفسه: "ليت هذه الوقعة عادت فوقعت ثانية في بيتنا": - يا شريكنا في الدين، وحليفنا بالخير، يا من

^١ المقصود هو محمد علي باشا مؤسس الدولة المصرية المستقلة.

نقاسمهم حملهم، بغضّ النظر عن أي جعلتهم يخطفون ابنة آل باغ لابني، على عادة الشراكسة، ولا نخلو نحن من هذا أيضاً، فنحن راضون عن كُتتنا الجميلة. كل الأسرة كباراً وصغاراً مشتاقون إليها. ويتأملون، بل يشتهون، أن تعود إليهم وتستقر بينهم. ومن لم يستطع أن يكسب ودها، رجب الثرثار، لا يعرف أين يضعها من نفسه الآن.

- اطمئنوا يا مراد بيه وإن كان ما جرى لكم مقلقاً، سأخبركم أنا بما يجري.

- حياك الله مرة أخرى يا زوال، أملنا فيك!

- لن أدعك تدخل إلى قرية أبزاخ وحيداً هكذا دون رفقة، بعد المنصب الكبير الذي بوؤوك إياه - أسرع ألبان بالقول - أليس حقاً يا مراد بيه؟

- صحيح غير أن الأفضل أن تتصرف كما طلب منك زوال.

- حسنٌ إن كان هذا رأيكم... - همهم ألبان، وقال في إثر زوال بادِي الهياج:

- تتصاغر يا زوال وأنت تظن نفسك تُحسن إليها! - وحين وصلوا إلى

المنعطف سأل مراد بيه: - هل تثق في هذا؟

- لا أعرف عنه ما يحملني على عدم الثقة به - قال مراد بيه بلامبالاة، وسأل

بسرعة: - ما الذي يدفعك إلى هذا الكلام؟

- أكيد لا أعرف.

- اعتلى مراد بيه حصانه:

- لا تكلمني بالتلميحات؛ قل لي ما تعرف!

- لا يعجبني هذا الشرکسي منذ أن تعارفنا. ولا أثق به. كنت لمحت لك بهذا

غير أنك لم تسمعي...

- هذا كان أمراً آخر، مضى عليه زمن طويل. والآن ماذا جرى بينكما؟

- لم يجر بيننا أي سوء. ولكن لا أعرف إن كان السبب عدم تقبلي للشراكة الذين ألقوهم بيننا... ألا ترى كيف أمروا علينا هذا الصعلوك الذي ليس له أي رصيد من بين من لم يستطيعوا حماية بلادهم؟.. حين رجوته أن يُقيني فحسب إلى جانبه خادماً برتبتي المتواضعة لم يسمعي...

- هذه مشكلتك؟ - ابتسم مراد بيه وأجابه: - عند الشراكة الذين يشعرون بالإهانة ثأر. ألم تر كيف هتج الروس مداينهم من البلقان؟ ضمنوا القفقاس فاستداروا إلينا.

- وتركيا ليست بلا حليف ولو لم يبق إلا الإنجليز. إن صار اعتمادنا على الشراكة فصلّ العشاء وئم!.. ثم إن صاحب الخنجر الذي أحمله لا يكفي أنه دمر حياتي في صربيا، بل ظل يسألني عن سبب بقائي عازباً، لا أعرف إن كان على علم بقصتي؛ أتكون لمّحت إليه بشيء؟ جعلني أكره حياتي، يسخر مني قائلاً إنه سيجد لي عروساً شركسية دون أن يعرف من نفسه ترثله.

- لا أفهم تلميحاتك يا ألبان بعدما كنا نتبادل الثقة بيننا. إن كنت تنظر إليّ بمثل هذه العين فكل ما قلناه وفعلناه عبث في عبث... - وأنهي بصوت هادئ قاطع: - لست ممن يذيعون سرّ أحدٍ. وأطلب منك أن تكون مثلي... ما كنت أريد أن أصل إلى هنا ولكن هناك رجالاً كثيرين يخدمون في دور الحرم، وفي العالم. لم يكفهم أن مُرّقت أسافل بطونهم، بل جرى خصاؤهم بإرادتهم أم بغيرها. حقاً، لا أعرف الآن في أي موضوع نتكلم؟!

- لا بأس، ومع ذلك لا ثقة لي بهذا الشركسي زوال...

- كفى، لا تدع أحداً غييري يسمع منك هذا الكلام! سنقع في مشكلة تُنسبنا ابنتهم، الشراكة ممن لا ينسون الثأر.

الفصل الثاني والعشرون

ما كان يفكر فيه زوال الذي خفف من سرعة حصانه شيء آخر: "اسمع من يبرئ نفسه مراد بيه! من حملهم على فعل هذه الجريمة وهو يقول "... على عادة الشراكسة، ولا نخلو نحن من هذا أيضاً بغض النظر عن أي جعلتهم يخطفون ابنة آل باغ لابني" يبرئ نفسه منها الآن. ولا يكفي هذا بل يمنّهم بما يقدمون إليهم قائلاً: "الشراكسة الذين هم شركاؤنا في الدين ونقاسمهم حملهم". إن وصلتم إلى هنا فليس الروس وحدهم المذنبين في مأساة قومنا بل لكم أنتم أيضاً ضلعٌ فيه. حفرتم حولنا وتآمرتم، وخذعتمونا بعبارات من قبيل: نحن من دين واحد، ونحن جيران. تؤملونا وتزعّموننا حتى حرّضتمونا على قتال عدوّ لسنا مكافئين له، فجعلتموهم يطردوننا من أرضنا دون أن تهّبوا لنجدتنا. وحشدتمونا أمام من ليسوا من ديننا ولا من عرقكم أو عرقنا لنحمي لكم ما ليس لكم. وكما كان العجوز جرمت يقول: ما العمل؟ حين تكون غريباً يتوجب عليك من أجل أن تحمي نفسك أن تفعل ما ليس من شأنك..."

مرة أخرى، ودون أن يعرف السبب، حتّ زوال حصانه: وقّع الحوافر الأصم يصدر صوتاً على الطريق الضيق الرطب العابر للغابة التي نجت من الشتاء المعتدل. وأفكاره السيئة تتماوج في رأسه غير قريبة وغير بعيدة. حين يتذكر كلام مراد بيه الذي يبرئ به نفسه "بغض النظر عن أي جعلتهم يخطفون ابنة آل باغ لابني" يهمز الحصان بعقبه كأنه غريمه. ولا يكفي هذا بل يشد لجامه فيجبره على الوقوف على قائمته الخلفيتين. ثم يطلقه حالاً للسير. — يا من لا حياء ولا شرف له، ماذا تقول؟ بل يريد إقناعي بأن باغ مزحج مذنب... كيف سيقبل منك من تهين ابنته؟ لو أن أحداً، أيا كان، تصرف مع ابنتي

عُشماف هكذا لما أبقىته حياً! يا سليل الكلاب ألم يكن قد بقي في هذا الوادي ابنة تخطفونها غير داربخان ابنة الأرملة البائس باغ مزحج التي رباها بشق النفس؟ ثم إنها الزوجة الثانية... فعلت داربخان خيراً إذ أشاعت الفوضى في بيتكم وهجرتكم. ألبان الذي لم أفهم إلى الآن طبعه، يساير هؤلاء كما يقولون: "لا يرقص أحدٌ مع من لا يعرفه، ولا يلعب مع من ليس من شكله". ثم أتعهد لهؤلاء وأؤملهم أن أكون موفدهم وأحلّ مشكلتهم تاركاً مهمتي! تعلّم أن تفكر قبل أن تتكلم يا برقت ولا تنهوّز، ولا تنحرف عن الطريق! ألا يكفي ما عشت وحيداً دون أسرة، تتوسل إلى هذا، وتعلق بذاك، ولم تكفِ مصيبة فقدان ابنتك على الشاطئ الأديغي من البحر، بل دانك وأهانك أقرانك، إلى أن وجدتها في بلاد الغربة. ولما رأي الضابط يوسف وحيداً وكلّ يهتم بنفسه فحسب، ونحن متروكون على ساحل "أجي"، محصورين في جزء من الغابة، اتخذني معاوناً. وحين رأي حُسّادي أدير له بعض شؤونه، نسبوا إليّ، لا أكنتم فقد قلت وفعلت، ما أحجل منه الآن. ولكن لا يستطيع أحدٌ أن ينسب إليّ الجبن حين كنا نحمي بلادنا هناك. وشاهدي على هذا أنعم ثمنوني إذ أوفدوني، كائناً من كان السبب، باسم أبناء قومي البؤساء المقيمين في هذا الوادي رسول خير إلى إستانبول. لا تعرف متى يظهر لك الحظ الذي لم تنتظره. لولا أنني أرملةٌ وحيد... والزوجة ليس صعباً العثور عليها فهل أنا عجوز، هل الخمسون عمر متقدم؟ وأنا أعرف، إن بحثت، أكثر من أرملة محترمة من أرامل الحرب - ابتسم زوال - وانضمت داربخان الجميلة سيئة الحظ إليهن. لماذا لا تكون محظوظة إن وجدت رجلاً مثلي من قومها ميسوراً؟.."

هبّت ريح مفاجئة من فوق أغصان الأشجار فجمعتها وفرقتها، ثم هاجت وهي تنزل من جذوع الأشجار مع حفيفها في تخم الغابة، ثم انطفأت فجأة

كما هبت. وأضاءت أشعة شمس رفيعة جداً بزغت من بعد ما أرسلت السحبُ الزرقاء قطراتٍ من المطر، فأضاءت وجه الغابة المظلم. "ما هذه الريح التي داهمتنا، وما هذه السحابة البيضاء الوحيدة، وقطرات المطر التي بكت علينا بها؟" قال زوال الذي صحا من أفكاره مرة ثانية لنفسه، وهو يتألف من جديد مع الشمس البازغة من بين الأوراق المتفتحة حديثاً ومع صوت ارتياح الحصان ونخيره: - هذا هو حقاً كما يقول رجال الدين، سلوك الدنيا الفانية التي يجتبروننا فيها، وهذا سلوكنا معها... وفي هذه الدنيا يعيش الأديغة المشتتون نتيجة المأساة... - ارتعش زوال الفارس الوحيد دون أسرة الذي نسي القول المأثور: "في الغابة لا يروني، لا يسمعونني" كأن أحداً سمعه، فنظر في كل اتجاه، ونحر نفسه وإن لم ير على طريق الغابة غيره وغير حصانه: - كم قلت لك أن تبعد هذه الأفكار الضارة لك يا برقت! افرخ بالحظ الذي ابتسم لك، وثبت نفسك بين من صرت بينهم. وإلا ما استطعت أن تعيش بينهم، وبقيت خارجاً. إن سمعت السيدة الكبرى جدة السلطان التي أحسنت إليّ كرمي لابنتي فلن تقبل. وهي، أعني بيكا، وقعت بين الأتراك اضطراراً ولكنها اندمجت فيهم. وفيما هي في المرتبة العليا التي أوصلها إليها حظها، وبالتوازي مع إحسانها إلى تركيا التي أصبحت السيدة الكبرى فيها، لم تنس أن تحسن إلى أبناء قومها بقدر استطاعتها ولو لم تجر الأمور كما تريد هي تماماً. ولولا فضلها لما بقي البؤساء الذين كانوا يقيمون في غابة أجي، وليسوا وحدهم، أحياء. وتبعاً لرواية عُشماف فالأمر الذي عجزت عن تحقيقه هو منع حفيدها السلطان عبد العزيز من نقل الأديغة إلى بلغاريا. ولسنا وحدنا بل شتوهم في بريشتينا وفي صربيا وأماكن أخرى. وماذا كان بيدها؟ لا يمكن إجبار أحد على فعل الخير. وإذا لم تردّ على المعروف بمثله بقيت مديناً دائماً، وعثرت به..."

كما كانت مأساة الأديغة على الساحل في مخيلة زوال دائماً فقد انتصبت اليوم فجأة أمام عينيه مصحوبة بالألم: الناس الذين نجوا بجلودهم، ظلماً ودون إرادتهم، كانت العين تعجز عن الإحاطة بهم وهم ينتظرون السفن في سهل "شاجه"، يفتشون الأرض أسراً أسراً على الساحل السهلي. ووراءهم على المرتفع المحيط بهم يعيد القوزاق الحراس بالقوة كل من يحاول العودة إلى الوطن، ويتابعون بأعين تنظر شزراً من أحرقت قراهم ويلاحقون. وأصوات البنادق وصرخات الناس المهاجمين على السفن، وبكاء الأطفال، ولعنات النساء، ونداءات الأهل الذين فقد بعضهم أثر بعض، وهواء البحر الجبلي ينوء بروائح الموتى الذين لم يُدْفَنُوا... وزوال الذي هو الآن عاجز عن تحمّل كل هذه المصائب همز حصانه مرة أخرى فجرى به ريشما برّد الوجه الحامي، وريشما هدأ نبضه قليلاً. سأل نفسه وهو يتناسى أرض الأديغة، وساحل البحر، والسفينة الغربية، والشاطئ التركي، وغابة أجي، وأماكن غرية أخرى انتهت بالبلغار الذين وطّوهم بينهم: "بربك يا برقت إلى أين جارٍ مسابقاً حصانك؟ إن كنت تريد أن تهرب من ذكرياتك فأنت مخطئ. إذا كان حدث لك ما يسرّك اليوم، ولو كنت لا تعرف ما أمامك غداً وبعده، فإنك ستحمل معك طوال حياتك ما شهدت فيها أفراحاً كانت أم أحزاناً..." جعل العطش زوالاً يبحث عن ساقية ماء، ويُنبِصت. ثم ترحل ووخز إحدى الأشجار البيضاء على الطريق بالخنجر، وألصق فمه بالماء الذي سال من الجرح وشرب. وحين تركها اعتذر للحصان:

- لا تؤاخذني يا حصاني الطيب! أنا ذقتُ شيئاً من الماء، والمنهل القادم لك. هيا لن نتأخر ولو أنه ليس هناك من ينتظرنا.

وفي هذه اللحظة تذكر زوال ما قاله له ألبان: "وهل عجيب أن أكون وحدي؟ وماذا تمنع" وحدي كجبلٍ على رأسه نارٌ" من دخولي إلى قريتي؟ أقول هذا غير

أن في كلامه نصيباً من الصحة. شتان ما بين خروجي من قرية أبراخ وعودتي إليها الآن... أليكون وصلهم علمٌ بوضعي الآن؟ نحن الأديغة، كأننا لا نعرف الحسد الذي بيننا، من يخبرهم؟.. إن كنت لا أعرف ماذا أقول بحق البلغار والصرب والألبان ومَن أيضاً... فأنا على علم بأن الترك ليسوا أفضل منا في هذا الشأن. ما فعله بنا من طردنا من أرضنا يفعلونه بأعراق البلقان. ونحن، متجاهلين ما حدث لنا، سيضمّوننا إليهم برباء خفيّ لنحارب أعداءهم في صفوفهم ... هيه يا برقت زوال لا تُسمع أحداً هذا الكلام متذاكياً. من يعرف؟ كثير من أمثال أفكاري السيئة غير المنتظرة تأتي بها الحياة معها فلا تقبل من يحمل إليك مثلها، إذ أن ما أناطوا بي من منصبٍ غير صغير، وأبناء قومى البؤساء ستكون نهايتهم معها... وقد أتسبب في مشكلة لابنتي التي في سن الزواج. نعم، حين كنا نحمي بلادنا خلال عشرات السنين من الغزاة، ساندنا الترك والإنجليز بالوعود وألبونا، وليس بالقوة وبالسلح، كما كان يقول زانه قوه قره باتر الأصغر يقول. وتركيا التي فتحت لنا بابها بعد أن جرى ما جرى تُوجّهنا نحو حروبها دون أن تكشف نواياها لأحد. يقولون "من يُهن يجد الوقت للثأر" فلننتظر. وإذا كان الحاج برزج بلحيته الكثة المتناثرة يتابع أمور مصلحته الخاصة برباء وذكاء، وزانه قوه الأصغر الذي لا يستحق أن يكون ابن والده الرجل الذكي أين هو؟ في أي زاوية من تركيا يختبئ؟..."

الفصل الثالث والعشرون

في موعد حلول الظلام وإشعال الأنوار يجلس في مضافة كوبل هارون عدد كبير من الرجال وأمامهم صحنُ البَرَك الساخن^١، وجرّة من ماء العسل، ومعها

^١ نترجم الفطائر الأديغية الشهيرة "حَلْف" بـ "البَرَك" على الطريقة الشامية.

الأكواب المصنوعة من خشب البقس^١. وعلى المائدة اليوم وُجهاء أبزاح المختارون كوبل هارون وأصدقاؤه - جيرانه ناورز زغاشت وباغ مزحِب، ومعهم موفدو قرى البحدوغ والمخوش والبسلني الثالث. وعازف الربابة والموقع على آلة الإيقاع الخشبية، يجلسان في مكان لا يتفق مع عمريهما الصغيرين، قريباً من المائدة، لصق الجدار الذي عُُلِّقت عليه سجادة الصلاة المصنوعة من جلد الماعز وكشاشة الذباب اللتان جلبهما معه من الوطن الأم العجوز جرمت. وباغ حجرت وناورز قاسم على قائمتي الباب جاهزين لأي خدمة يطلبها الأسنُّ منهما. يصبان في الكؤوس العسل السائل، ويبدلان الجرار الفارغة.

مع أن الحرارة عمّت المضافة فقمصان الجالسين الظاهرة من تحت الأكسية مزررة. ومع الخناجر لا تزال خصورهم مزنرة. ورؤوسهم غارقة في قبعاتهم الجلدية. وأطراف الأكمام التي لا يصلها الطعام مثنية إلى الأعلى. ويحملون معهم المناديل الصغيرة لمسح أفواههم وأيديهم.

- اسمعوا يا أصدقائي ويا أيها الشباب، أريد أن أفتح معكم لحظة انفتحت شهيتنا أمام المائدة موضوعاً لم يسبق أن تحدثنا فيه. - قال زغاشت المتوهج من حرارة العسل مبتسماً، على نحو لا تعرف إن كان جاداً أم هازلاً - لو كنت واثقاً أن القرية تسمع كلامي لما نصحتهم أن ينتخبوا صديقي القدم هارون زعيماً لها.

- لو حدث هذا لأكرمك بخروف سمين يا صديقي المناكد. - مازحه كوبل الذي لم يكن دائماً يحب الكلام.

^١ شجرة من فصيلة الآس خشبها صلب تصنع منه الأبواب وبعض الأدوات.

- من أين تأتي بمثل هذا الخروف السمين وأنت الذي حافظ بصعوبة على حياة الخروفين الهزيلين إلى الربيع؟ ألا يكفي اعتمادكم على العجوز ستيفان؟..
- دحض زغاشت الذي انفكّت عقدة لسانه كلام صديقه.
- ألن يسمن أحد هذين الخروفين إلى أن يحين موعد الانتخاب القادم...
- اسمع ماذا يقول هذا الذي دفعنا الناس بصعوبة إلى انتخابه!.. - ابتسم زغاشت ثانية، وأكمل: - ألا ترى، ألم تسمع يا مزحِب كيف هو صديقنا القديم؟ أظن أن أحداً مثله هو من جعل الناس يقولون: "معروفي انقلب نحساً عليّ وجاري صار عدوّي"
- إذا كان صديقنا الطيب لم يُرضك فمن كنت تريد أن ينتخبوه مكانه؟ - سأل مزحِب الذي لا يحب المبالغة في المزاح، متعجباً من الاسم الذي سينطق به صديقه زغاشت.
- أ قليل من في قريتنا من الرجال ممن يتحلّون بالطيبة والفائدة؟.. - وهل يحتاج إلى بحث؟ لو لم يهرب برانت حاتام مرة أخرى تاركاً إيانا في الفوضى.
- لا تقل ما ليس فيه فائدة يا ناورز! - جزم مزحِب باختصار، ثم بدأ يغني بصوت أصمّ عالٍ كأنه يقول للحضور: غنوا مع الربابة والإيقاع:
- بلادنا، الوطن الأصيل، أهلنا،
نحملك أينما رحلنا في قلوبنا،
في المكان الذي لا يستضيفونا فيه،
نحلم بك مقيمين فيه.
- يا حسرتي يا وطننا، أهلنا،
لا تفارق قلوبنا، ولن تفارق،
وإن نظرنا إلى الأمام ارتسمت أمام عيوننا،

وإن نظرنا إلى الخلف فأنت أملنا.

النساء اللواتي كنّ يطبخن في أرض الدار سمعن الإنشاد الذكوري الجماعي
فشرعن يتجمعن على مسطبة المضافة وهنّ يمسحن دموعهن بأطراف أغطية
رؤوسهن أو براحتهن الرقيقة. حين سمعت ناورز آسيت صوت ابنها قاسم
وحجرت انفجرت باكية، وارتقت في صدر داربخان التي بدا عليها مظاهر
الحمل.

قمم جبالنا البيضاء،

سواقينا السريعة،

مراعينا المنيرة،

لا تفهم لغة الغريب.

ما إن انتهى باغ مزحج من غناء الألحان التي تناسب صوته العميق حتى انطلق
كورس الرجال:

ووي، ووي يا وطننا الأهل،

لا تفارق قلوبنا،

إن نظرنا إلى الأمام فأنت أمام عيوننا،

وإن نظرنا إلى الخلف فأنت أملنا.

مرة أخرى يغني مزحج من قلبه وصوته يعينه:

الأديغه لن يصفهم أحد بالخبين

حتى لو كانوا مشتتين،

أو عاشوا في غير وطنهم،

وسيحمون وجه رجولتهم.

تأثر برقت زوال بالأغنية التي سمعها، فشد لجام حصانه، وأنصت. وبرأ نفسه مردداً الكلمات التي بقيت في قلبه "هذا هو بالتأكيد" الأديغة لن يصفهم أحد بالجبن، وسيحمون وجه رجولتهم" ولن ننسى رجولتنا وإنسانيتنا في أي مكان. وسيبقى وطننا الأهل في قلوبنا، وسيبقى أملنا. وما يتأمله الأتراك منا؟ أليس عجيباً ما يحدث لنا؟ علينا دِينهم بدلاً من أن يكونوا مدينين لنا!.. على ما يبدو فإن قولهم "الضيف أسير المضيف" صحيح. كان مصطفى باشا قائد الجيش قال لي قبل أن يرسلني في مهمة إلى هذه الأنحاء: "متى ما قمعنا أهل البلقان الذين ألّبهم أقرباؤهم الروس الكفار، وعرفناهم قدرهم فكونوا على ثقة من العودة إلى القفقاس" وكانت السيدة الكبرى بيكا لمحت لي إلى مثل هذه الفكرة... لا أظن كلامهما دون جذور، وأغنية الأمل التي سمعتها هي من تأليف الأديغة هنا، وهذه أيضاً ليست بلا جذور..."

ربط زوال حصانه إلى جانب الأحصنة الثلاثة المربوطة إلى العمود عند الباب، ودخل الدار. وما إن وضع قدمه في المدخل حتى رأى داريجان بين النساء. حيّاها وحيّا من عرف منهن بإيماءة رأس، ثم لما دخل إلى المضافة، نهض من فيها من كبار وصغار لاستقباله بوجوه طليقة مرحّبين ومهنتين بسلامة الوصول. وأجلسوه في الصدارة باعتباره ضيفاً، بغضّ النظر عن عمره. ثم قال ناورز زغاشت:

- أهلاً وسهلاً بك. أطلت الغياب. ماذا رأيت حيث كنت؟ منذ بعض الوقت ننتظرك. ووصلتنا بعض الأخبار أنك نسيتنا، ولكن أقول لك الحقيقة لم نصدقها لثقتنا بك.

- حياكم الله، ورضي عنكم. كيف أنساكم وقد أوفدني إستانبول إلى تجمع الأديغة في نواحي ترغوفيشت؛ بل لم يخطر لي مثله هذا. والتقيت بأشخاص

متنفذين يمكن أن يساعدونا. وقد تفهّموا وضعكم. وما تبقى هو رأيكم فقط.

- ومع أن برقت زوال عرف الرجال الثلاثة الذين ليسوا من القرية فقد توجه إليهم ذاكراً أسماءهم من أجل أن يمنح لنفسه وحديثه الراحة والفرصة للتفكير:

- أستم جامبج وبُشه قان وقلّوبات، وسأخووني على من لم أذكركم؟ والله أنا مرتاح للقائنا. أليست قراكم في سلام وراحة؟ ومن أين سيأتي الأمان والراحة الآن؟ ومن هذا القبيل ما أدت من مهمة في إستانبول. وحين أعودوني إلى بلغراد كلفوني بالمهام نفسها. وسنُطْلِعُكم على التفاصيل حين نجمع مندوبي القرى الأديغية في الأيام القليلة القادمة. ثم سأل وكأنه لا يعرف أخبار داربخان: ما الأخبار بإذن الله في نواحيننا؟

- ناحيتنا وقريتنا بسلام. - مع أن ما حدث لآل باغ كان في ذهن كويل هارون فقد نظر بطرف عينه إلى ناورز زغاشت، وليس إلى صاحب المأساة مزحّب، وقال: - اليوم كان عندنا اجتماع، وانتهى بهدوء كُرمي لآل باغ وآل ناورز. واختاروا زعيمهم، وأهل القرية يمارسون أعمالهم الزراعية.

- يا كويل! - قاطع ناورز الحديث الجاف للزعيم المنتخب حديثاً - ما تقوله صحيح، وحتى بغيابنا نحن وباغ كانوا اختاروك زعيماً. ولكن برقت زوال ليس غريباً ولذا أطلّعه على ما فعل ابنُ وُسْمَن مراد بيه بحق ابنة قريتنا. أيها الشباب اسمعوا - قال لحجرت وقاسم - اخرجوا وأغلقوا الباب من ورائكما - وبإمكان مزحّب ألا يقبل، وحتى لو كان جيراننا الضيوف قاسمونا حزننا فلن أترجع عن الموضوع الذي بدّأته. سأروي دون إطالة الموضوع الذي يعرفه سكان وادينا من الأديغة والأبخاز والترك والبلغار من النهاية: وُسْمَن مراد بيه هذا الذي لا يسأل أحداً ورّط عدداً من حثالة الأتراك فحملهم على اختطاف الفتاة البريئة التي لا تعرف غير رها لابنه رجب.

- هذا لا يجوز بحق الله!.. - صاح برقت زوال بصوت لا يبدو عليه رباؤه، وأضاف وهو يُصلح وضع خنجره على الزنار: - ألا يمكن أن ترفعوا القضية إلى الحكومة؟!

- أي قضية حكومية تتكلم عليها... - نقض مزحج الصمت الذي ساد الغرفة، وأكمل بسؤال أكثر حزمًا: - وهل في البلاد التي تستضيفنا حكومة أو قانون؟

- في ما قلته نصيب من الصحة يا مزحج. كان يجب تحويل من أهانكم إلى الحكومة. - والآن لم يترجع برقت عن كلامه داعماً موقفه بمنصبه الذي لم يُفصح عنه تماماً. ثم يتقدم خطوة أخرى. - من الغد سأتابع هذه القضية، ونوقف من أهاننا عند حده.

- لا داعي! جزم مزحج.

- نعم، لا داعي - أيد زغاشت صديقه، - منذ اليوم الأول لم يسمح مزحج لمن ألحقوا به الإهانة، ونحن معهم، أن يتقربوا إليه. واتخذت داريجان موقفاً حكيماً: ما إن سنحت لها أول فرصة حتى عادت إلى البيت الذي سرقوها منه، بيت والدها، ملحقة الإهانة بعدلم الشرف الذي اختطفها وبأسرته كلها.

- هكذا؟ - سأل برقت كمن لم ير داريجان في الممر، واحتتم: - إن تصرفت هكذا دون أن تنهار أمام العار الذي ألحقوه بها فهذا أمر ممتاز. ولكن تحويل هذه المسألة إلى مسألة حكومية أمرٌ يدخل في صلب المهمة التي أسندوها إلي في بلغراد، والصادرة من إستانبول.

- ألم أقل إنه لا حاجة إلى هذا؟! - رفع باغ رأسه الضخم الثقيل، - إن كان هذا الحظ العاثر من نصب ابنتنا فمصيرها مصير نساتنا اللواتي جرى لهن مثل هذا.

- أنت لك رأيك يا مزحِب، وأنا عليّ تنفيذ المهمة التي أوكلوها إليّ.

- يا برقت! - قال باغ المتوهج - أنا لا أعرف طبيعة منصبك ومهمتك، وليس في الأمر عدم ثقة بك، غير أنني لن أسمح لك أن تتدخل في أمور أسرتي حتى لو عرفت أنك صرتَ سلطان تركيا. ولست وحدك بل لا أسمح لأي شخص. هذا أمر انتهينا منه، ونسيناه. والآن صارحنا بطبيعة المهمة المسندة إليك، إن لم تكن سرّاً، عسى أن تنفع الأديغة التعساء.

- والله لا أعرف يا مزحِب كيف أقدم إلى اجتماع مندوبي قراكم لطبيعة المهمة التي سألت عنها. - ثم قال بكلام ألطف وأحرص: - هذه ليست سرّاً، لا سرّاً عندي أخفيه عنكم. ولكن من المقرر متى جمعنا مندوبي القرى أن يتحدث إليكم الضابط القادم من ترغوفيشْت باسم مصطفى باشا قائد الجيش.

- إن كان هذا ما تقول يا زوال فهذا حقٌّ والله وأوافقك عليه. - قال الآن جامبج الذي كان ينوي دعوة رفاقه إلى الانصراف وقد وجد ذريعة لنفسه.

- إذا كنا عيّناك مندوباً إلى إستانبول فما مضى كثيره سيمضي قليله، متى جاء الضابط القادم باسم مصطفى باشا قائد الجيش وسماك فسنةئك بطريقة أمتع من تهنئة اليوم. ونحن جلسنا ما يكفي من الوقت، وقمتم بواجب الضيافة واعتنيتم بنا. أمامنا مسير ليلي. إذا التقينا أكثر بهذه الطريقة توثقت علاقاتنا، وتوطّد تعاوننا. وتحمّلنا أحزاننا، وأفراحنا القليلة. تصبحون على خير.

قام كوبل هارون يساعده حجرت وقاسم بتوديع الضيوف، ومساعدتهم على الركوب كما تُملي العادات على المضيف. وحين رجع إلى الغرفة فرح إذ وجد الضيوف جالسين في أمان وراحة. ولما رفع حجرت وقاسم من المائدة جرة العسل وبقايا البرك تكلم برقت زوال كمن لا يراي الجمع الذي وجد نفسه بينهم:

- يا مزحِب الذي أدعو الله أن يجعل يومه مئةً أسمعنا أغنية لنردد معك. وهذه الأغاني كائناتٌ من كان مؤلفُها تلتصق بالقلب وترسخ فيه.

- لو لم يكن الحزن يبقى في القلب لما سمَّوه حزنًا.... - قال مزحِب، وأضاف للداعي له دون حماسة زائدة: - هل نَظَل نُفني أنفسنا بهذه الأغنية؟ دعونا نتكلم في موضوع آخر. حسنًا إحكِ لنا إذا كنت سمعت أو رأيت حيث كنتَ خيرًا جيدًا.

- والله يا مزحِب هذا صحيح. - غيَّر برقت موقفه سريعاً. ما الفائدة من أن نجلس نرثي أنفسنا؟ أمورنا هذا العام ناجحة بالقياس إلى السنوات الماضية التي عانينا فيها دون أن يعني هذا خُلُو حياتنا من بعض السليبات. لا نتناسى أننا أدِيعَة وإن كنا نعيش في غير أرضنا، ونروِّض أنفسنا على الحياة في الغربة. ماذا بيدنا؟ علينا أن نتقبل الحياة مع الناس الذين ساقنا القدرُ إليهم.

- وكيف؟ - قال ناوَرز وعدمُ رضاه عمّا سمع بادٍ على وجهه.

- كيف أقول لك هذا يا زغاشت؟ هذا له أساليب كثيرة. لا أعني أن نتحول إلى أتراك لأننا نعيش في أرض تركية، أقصد أن ننسجم معهم أكثر فحسب.

- هذه ليست أرضاً تركية! - أسرع حجرت الواقف إلى قائمة الباب بالقول.

- يا ولد! - نهر مزحِب ابنه دون أن يرفع رأسه الثقيل، وأضاف: - وما قاله الفتى لا يخلو من الصحة. هيا يا قاسم ويا حجرت، والنساء اللواتي في الممر ابتعدوا - حين بقي الرجال وحدهم في الغرفة أكمل مزحِب كلامه: - أنا فهمت يا زوال ما كنت تريد أن تقوله بخصوص الترك... إن كنت تقدِّم موضوع دينهم على غيره فأنا لا أوافقك لأن هذا أحد أسباب نكبتنا. والروس والبلغار

¹ لاحظ أن كلمة الحزن والفرح والفطنة وكلمات كثيرة مقاربة تُنحت في الأدِيعَة من كلمة القلب مع اسم آخر. والحزن يعني حرفياً: ما يبقى في القلب "عُقان".

والصرب دينهم واحد هو المسيحية. والناس الذين يسكنون المشرق لهم دين يسمونه البوذية.

- والأوروبيون متنوعو الأديان من كاثوليكية وغيرها. - تدخل ناورز في حديث باغ.

- نعم، نعم - وافق كوبل صديقيه وكأنه يعرف شيئاً في موضوع الحديث. - ويقال إن هناك أدياناً أخرى.

"تعيشون حياتكم وأنتم تخوضون في ما قالوا وما لم يقولوا... - لا أعرف كيف كنتم تتصرفون معي لو رأيتم ما رأيْتُ في نصف العام الأخير فقط... ترتبون أمور الدنيا قاعدين على أروماتكم القديمة التي خسفت بكم. ومراد بيه التركي الجلف يفعل بكم ما يريد، وتتركونه يوسخ القرية... ويتكبر عليّ باغ مزحج كأني أنا من تسبب بخطف ابنته. ومن أتأمل فيه ناورز، دغك من كوبل الذي وجوده وعدمه سواء، يوافقه"

- تمام يا هارون تمام - خرج برقت سريعاً من أفكاره القرية البعيدة. - هناك أديان متنوعة كما تقول، غير أن الإسلام السائد في تركيا دين قويّ لمعتنقيه. - وهل هناك آخرون غير الكفار لا يدينون به؟ - سأل هارون زوال، رغم معرفته بهذه المعلومات، متظاهراً بأنه يسمعها لأول مرة.

- نعم! - قطع باغ الكلام مجيباً بدلاً من المسؤول، ثم ألقى: - هناك أمثال مرزخوي، لا أعني المرحوم مرزخوي بكر، هل تتذكر من أتكلم عليه؟ أخوه الأصغر، من يقال فيهم: "لم يصبح مولى بعدُ ومن مائدة إلى أخرى" محمد أفندي المرائي الذي ما كنت أريد أن يجري اسمه على لساني.

- لو لم يفعل إلا تخليّه عن ابنة بكر الأرملة التي لا معين لها التي خسرت ولديها... - وافق ناورزُ باغَ بصوت منكسر.

- أتقصد نات - نات الكافرة التي رباها بكر الرجل الطيب؟

- يا برقت! - نهر باغُ زوالَ برأس منتفض، وقطع كلامه: - لا تقل على المرأة التي لم تعد إلى قومها الذين حاربونا وصارت جزءاً منا ما لا تستحق. من مارس الكفر حقاً هو ذلك الذي صدع رؤوسنا بحجّاته الثلاث.

- صحيح يا مزحّب، تمام. صححت كلامي حقاً. هل عجيب أن زار الكعبة؟! وأنا لا أضمر الخير لذلك المقرئ الكذاب. حين وجدته في إستانبول وأنا فاقد كل أمل لم يلتفت إليّ. والآن حين واتاني الحظ، وسمع أن الجدة الكبرى بيكا تربّي ابنتي حاول التشبث بي مدعوماً بالحاج برزج، ولكن لم أسمح له بالتقرب مني. لا أعرف كيف ستكون علاقتي بالحاج برزج، هو، مهما قالوا فيه، رجل ذكي، ومن عرق أمراء. أما الآخر فلن أسمح له أن يتقرب إليّ مهما حاول. ولا يحتاج مصطفى باشا قائد الجيش الذي دلّني على وضعه بالنسبة إلى قضايا الأديغة من يعرفه به.

ارتفع فوق قرية أبزاخ الصامته المظلمة صوت المؤذن الحاد يُذكّر مسلمي القرية بموعد صلاة العشاء. ويكسر الصمت المخيم على المضيق الجبلي وكأنه لا صوت غيره في الدنيا: يصمتُ في الغابة التي بدأت تغيب في الليل، ويدوم فوق المراعي التي هجرت الشتاء واستقبلت الربيع. وينطفئ على القمم. ويُذكّر الرجال المجتمعين في مضافة كوبل أنهم مسلمون.

- حانت صلاة العشاء. لن نستطيع الذهاب إلى المسجد. - قال باغ غير المتحمس.

- هيا يا ولد - صاح المضيف هارون من داخل المضافة، وقال لقاسم الذي لبيّ على الفور: - حضّروا ماء الوضوء!

- لا يا هارون، لا، لا يزال أمامنا الوقت . - نهض مزحِب - تعال يا برقت سأكون مضيفك إن سمح لنا هارون الذي أثقلنا عليه طوال النهار. وسنجد بعد صلاة العشاء شيئاً نقوله. نعم، نعم يا كوبل ليست مضافتك باردة. ولكن أظن أن مضافة آل باغ أدفاً. أعدك يا ناورز أن أريح ضيفي. تركناكم بخير يا آل كوبل. وأنتم أيضاً يا زغاشت. تفضلوا مساء غد إلى مضافتي. ما إن قال أحدهم كلمة "إن لم تكونوا على عجل" حتى التفت باسماء. - لا أضيف شيئاً إلى ما قلته.

ما لاحظته برقت زوال على داريجان التي أتت بإبريق الضوء، وبطنها يشي بالحمل جعل لونه يُمتقع، ويقول لنفسه: "أظنها حاملاً... أتحمِلُ في هذه المدة القصيرة؟.. - غمغم وهو يستغرب ولا يستطيع تقبُّل ما يرى. - ساحني يا رب إن كنت قلت ما لا يجوز في حق المرأة التي اكتملت أنوثتها!.." حين صلى الضيف والمضيف العشاء معاً، وعادا إلى مجلسهما، قال مزحِب:

- هذه حياتنا كما ترى يا زوال.

- أحوالكم أحسنُّ بالقياس إلى الخريف الماضي.

- ليس هذا ما أقصده... - أضاف مزحِب إلى أفكاره وهو يهز رأسه: - أقصد ما جرى لابنتنا ونحن نكاد نسترجع وعينا بعد النكبة.

- سألتصرف مع رجب مراد بيه بموجب الصلاحيات التي منحتني إياها الحكومة ولو أنك عارضتني في مجلس كوبل. هذه حجة لأتخلص من هذا المحرم عديم الإيمان لأنهم عينوه معاوناً لي في قضايا الأديغة. وسأُسْنيهِ رتبة الضابط التي يحملها.

- وهل حملوه قضايانا نحن الأديغة؟! - تأمل باغ برقت واجماً.

- لا، قلتُ إنهم عينوه شبه خادم لقضايا الترك في هذا المضيق.

- لا مشكلة إذن... - قبل باغ فجأة اقترح برقت آخذاً بعين الاعتبار أن ابنته حامل - إن كنت ستعاقبه حكومياً دون أن أجنبي أنا ذنباً فاعمل به ما تستطيع حتى لو كان يريد أن يكون صهري.

تحدث باغ وضيغه إلى منتصف الليل في قضايا الأديغة والترك، والبلغار والروس المناصرين لهم، يختلفان ثم يتفقان فيتصالحان.

- على ما تقول يا زوال، كنا، منذ أن وقعنا في بلاد الغربة، نتكلم عليك في حضورك وغيابك مستنكرين سلوكك، على حق أم على باطل، فما مرّ بك من أهوال كثير بالقياس إلى ما مررنا به. وبصراحة لم نسوّغ لك رحلتك إلى إستانبول، ولا كنت موضع ثقة متّاً. والآن بعدما رويت لي من إنجازاتك فأنت تستحق التقدير. - تنهد مزحج عميقاً، ثم اختتم: - لو لم يكن إلا عثورك على ابنتك الوحيدة...

- نعم يا مزحج، نعم...

- تصبح على خير يا زوال. ليست المواضيع التي سنتكلم عليها غداً قليلة. - التفت مزحج إليه لحظة خروجه من الباب، وقال له وظاهرٌ أنه يغبطه: - أنت محظوظ!

- لا أعرف إن كنت محظوظاً... - قال زوال لمن يخرج من المضافة دون أن يفهم أن مزحج هنأه على عثوره على ابنته عُشماف، ثم فهم القصد من كلام محدّثه فقال لنفسه وقد فهم: - نعم، نعم. حياك الله، إن كنت تقصد ابنتي فأنا حقاً كما قلت، وإن كنتم ستوافقوني على الموضوع الآخر، موضوع تأليف جيش من الأديغة فسنرى.

استأنف زوال أفكاره بعدما أطفأ المصباح وأوى إلى فراشه: "مهما قيّم من يعرفني ومن لا يعرفني طباعي وأسلوب حياتي فأنا أدعو الله ألا يكون أمام ابنتي

ما حدث لابنة مزحِب. بالقياس إلى داربخان التي ثارت بسببها كل هذه المشكلات فابنتي عُشماف يدللوها في جنة السلطان، بل إن بعض أولاد السلطان يحاولون التقرب إليها. ومهما تصرفوا معها فهي تحت رعاية بيكا السيدة الكبرى تحرس شرفها. ما كنت لأُخيل داربخان ستكون تعيسة الحظ... وإلى الآن لا تزال جميلة لولا ما حدث لها. وليس ما حدث لها مهماً فما أكثر الأرامل في الدنيا لولا الجنين التركي الذي تحمله... ألا يمكن التخلص منه بطريقة ما؟.. لا أعرف ما أقول... لا، لا، لا تناسبني داربخان التي كان عندي نية واضحة لأجلها... الأفضل أن أبحث عن امرأة دون مشكلات. أين ياترى ابنة بكر نات - نات؟ كانت جميلة وهي بكر، وظلت جميلة بعدما تزوجت، وبعدها أنجبت ولدين. قيل إنها تعيش محترمة نفسها حتى بعدما فقدت ولديها... مهلاً يا برقت! ماذا جرى لك بعدما عشتَ إلى الآن وحيداً؟ لا تستعجل! ستحظى بالكثير من النساء ما دامت المهمة التي قلّدوك إياها رفعت من شأنك أيها المنحوس.."

الفصل الرابع والعشرون

الوقت بعد الظهر. وناورز زغاشت، وكوبل هارون، وحثُ بُشه قان من قرية البجدوغ شَشْنِيه، القادمون لمقابلة برقت زوال مع مزحِب نفسه، جالسون في مضافة باغ مزحِب. وفي الغرفة الأخرى، غرفة النساء، حجرت وداربخان اللذان رفعاً مائدة الغداء من غرفة الضيوف. حجرت يضر سوط الحصان، وداربخان تنسج جوارب صوفية.

وكما اعتاد حجرت في الأشهر القليلة الماضية أن ينتفض برأسه كلما سمع وقع حوافر حصان، فعل هذه المرة أيضاً، وأنصت:

- ليس هذا حصان حاتام... - قال هذا من شفثيه فقط.

- ومن أين تعرف؟ - سألت داريجان دون أن توقف نسجها، وأضافت: - ربما كان الله وحده هو من يعرف أين هو.

- متى ما صحا الجو قليلاً وعاد الدفء فسأجده أينما كان... - قال من يتصنّع الرجولة حجرت، واختتم بصوت كسير: - هل عجيب أن لم يستطع حمايتك... وأنا إذن كان عليّ أن أهيّم على وجهي متهماً نفسي بالتسبب في العار.

- لا أعرف ماذا تقول يا حجرت. ولماذا تدين أختانا الأكبر التعيس؟ هل كنتما كلاكما قادرين على التصدي لكل هؤلاء الأشرار؟ لا تهتموا بكل ما يقوله الناس، وبخاصة من لا يودّوننا. هؤلاء سيثرون، ويُشيعون الكثير. - تنهدت دريجان وقالت لأخيها الأصغر وهي تنظر إليه بعين العطف - أنا راضية عنك إذ لم تترك والدنا وحيداً في البيت. وحاتام، وإن حمله الشعور بالإهانة على الهيام على وجهه، فمن المرجح أن يعود إلينا لأنه صحا إلى نفسه. مهما يقولوا فيه يبق أختانا. والدنا عاملنا ثلاثتنا بالعدل دون أن يفكر في الزواج من جديد... - انكسر صوت داريجان مُرغمة فتظاهرت بالسعال فأخفتها.

- نعم يا داري¹، والدنا ربانا ثلاثتنا معاً. ناداها حجرت باسم الدلال كعادته، وأضاف بسرعة: - أما قلْتُ لك إني سأجد حاتام أينما كان!

¹ ترخيم داريجان.

- وهذا ما يقوله والدانا يا أحيي الأصغر - وافقت داربخان أخاها ثم غيّرت الموضوع بمهارة: - اسمع يا حجرت، كأن ضيوفاً جاؤونا. جذبت أصوات حوافر الخيل حجرت إلى النافذة، وقال لمن وراءه متعجباً مما يراه:

- تودور وبارافان يتجهان إلينا بدلاً من المضافة... سألاقيهما وأرشدتهما إليها. وريثما تخفي داربخان الجورب الذي تنسجه دخل الرجلان اللذان سمعت باسميهما إلى غرفتها، وحيها تودور بالأديغة:

- نهارك سعيد يا داربخان. رفيقي هذا هو بارافان بارافانوف. ربما سمعت باسمه. صديق أكبر لي موثوق. وكان في وطننا، ويعرف الأديغة.

- تفضلاً! - قالت داربخان للداخلين إليها، مداريةً ذهولها. وحين جلس بارافان في صدر الموقد، وتودور إلى جهة الباب، كما يفعل المغازلون الأديغة، فهمت داربخان سبب مجيء الرجلين غير المنتظرين إليها، وقفت إلى جانب الصوفا الخشبية، مستعدة وغير مستعدة لما ستقول لهما، تُخفية بطنها المنتفخ بكفّيهما المصالبتين عليه.

الفصل الخامس والعشرون

اجتماع الخمسين رجلاً الموفدين من القرى، بمن فيهم الرجلان الآتيان من الشيشان، واللذان يعرفان شيئاً من اللغة الأديغة يجري في المرعى الذي أتاه الشهر الأخير من الربيع صاحياً. والمرعى محروسٌ جيداً بالفرسان والمشاة المسلحين. ويبدو من بين المندوبين ذوي الثياب الرثة الحاج برزج أمير الوبيخ بلحيته البيضاء وزيّ الأديغي الكامل، وقوامه المتين غير المتأثر بعمره. وإلى جانبه

مرزخوي محمد الأفندي بعمامة الحج البيضاء الخضراء عالي القامة متناسقها. ويلمع من بين الواقفين معه برقت زوال متباهياً برتبة الضابط التي شرفوه بها، مدركاً أهمية المنصب.

يتوجه برقت زوال إلى المجتمعين، رافضاً ركوب الحصان الذي جاؤوه به إلى وسط ساحة الاجتماع، دون أن يسرّحه مع ذلك، متأملاً أن يرى المجتمعون الحصان، ويفهموا قيمته.

- أيتها الجماعة! يا من أدعو الله الذي يتهل إليه الجميع ولا يتهل هو إلى أحد أن يرضى عنكم، ويعطف عليكم. أيها المسلمون الأديغة وأنتم يا إخواننا الشيشان، إن سمحتم لي أفتتح باسم موفد نبينا السلطان الاجتماع الأول لسكان مضيقنا الأديغة. لن أطيل كلامي: لا أظنكم جاهلين السلام التركي السائد في البلقان منذ مئات السنين. والكفار الذين هجرونا من أرضنا يحرضون علينا أبناء دينهم وقومهم، ويشعلون نار الوعي فيهم. ومرة أخرى وجب علينا الاحتماء من أعدائنا. فماذا علينا أن نفعل؟

- عرّفنا بما علينا دون أن تسألنا نُجْبِك - صاح أحد الواقفين إلى جانب ناورز زغاشت.

- من هذا الذي يعاكسني قبل أن أكمل كلامي؟.. - قال برقت كأنه غير عابئ، وأكمل كلامه وهو ينظر بطرف عينه إلى الحاج برزج: - سأقول عليكم ما علينا: إن ألفنا جيشاً من كل القرى استطعنا حماية أنفسنا.

- يا من أدعو له أن يحسبوا يومه مئة، يا برقت. كنت سألتك عن هذا الموضوع في مضافة باغ مزحج. وأكرره الآن.. وهو: ممّن سنحمي أنفسنا؟ أنت كرمي لأحدهم جعلتهم يقبلونك كتركي. ويمنحونك هذه الرتبة ولكن، إذا

لم يكن لنا، نحن الأديغة، الحق في أن ننخرط في الجيش التركي فكيف لجمع عدد من الفرسان من القرى أن يصبح جيشاً؟

- اسمعوا إلى أين وصل الفكر بهذا!... تتم برقت لنفسه، وأضاف لمن يُحاججه: - لم نصل بعدُ يا بشه قان إلى جيش الفرسان الذي تتكلم عليه.

- ما يقوله بشه قان موفد البجدوغ فيه شيء من الصحة. - قال آخر من مجموعة من الشبان، ووافقه آخر.

- لن يُثمر اجتماع الأديغة عن شيء إن استمر الجدل بيننا هكذا، - قال برقت كاظمًا غيظه بصعوبة، ثم توجه إلى الحاج برزج: - أيها المحترم برزج، لا تدعني أحادل من لا يفهم سبب اجتماعنا اليوم ما دام أمامنا عمل واحد. تعال قف إلى جانبي وأدِلْ برأيك. - حين وقف الحاج برزج بقامته الصلبة معتدًا، أسمعته برقت كلاماً يوحي بأنه أعلى منه منصباً: - إذا كنا سنمثل أمام مصطفى باشا قائد الجيش الذي ننقذ أوامره معاً، فوافقي دون أن تتجاوز ما أبلغتهم إياه.

- يا من يغمرهم الله خالقنا الوحيد برعايته، وأيها المسلمون الذين أدعو لهم أن يخفف عنهم مأساتهم، - رفع الحاج برزج يده اليسرى، ونادى بصوت حاسم ثقيل المؤتمرين وغيرهم - وأنتم يا من هجرتم أرضكم وتعيشون في مضيق الجبال الغريب.

- لم نهجر أرضنا بإرادتنا. بل طردنا من أحسنت إليهم وردّوا لك معروفك - قاطع ناورز زغاشت كلام أمير الوبيخ.

- أنا لم أحسن إلى أحد يا ناورز - ردّ برزج بلامبالاة، وفصل - إن لم أناضل من أجل القضية الأديغية ولم أدخر فيها جهداً، ولم أنتكب فيني لم أجن فائدة.

- قبل أن توجه إلينا يا برزج هذا الكلام انظر إلى نفسك وانظر إلينا! - وافق جامبج القادم من قرية بسلي ناورز - لو لم تفعلوا إلا إرسال أمثال ابنة برقت إلى دور البغاء...

- ما كنتم تفعلونه في وطننا تابعتموه هنا... - لم يستطع حُت بشه قان مرة أخرى أن يكظم غضبه.

- لا تهمني بما ليس من ذنبي! - قال برزج الحاج مُشهداً الطريق الربيعي الذي رفع إليه نظره - لن يقبل منكم الله العليم ما تقولون. الفتاة التي تهمني بها، ابنة برقت موفد قائد جيش البلقان مصطفى باشا، تربّي الآن عند بيكا السيدة الكبرى، وتعيش مدللة في قصرها. وما تعلمونه كلكم يشهد على صحته برقت زوال والدّها. ومحمد أفندي الذي جاء معي من إستانبول يعرف هذا.

- هذا الأفندي الذي ذكرت اسمه هو من لا يناسبنا البتّة... - تمتم باغ مزحج كأنه يُكلّم نفسه، مُسمعاً الواقفين في مجموعته.

- أيتها الجماعة التي أدعو لها بالخير - تابع برزج زعيم الوبيخ متجاهلاً كلام باغ مزحج - ما اجتمعنا لأجله اليوم مما لا يتحمل المهارات. أوافق برقت زوال الضابط على الموضوع الذي اقترحه عليكم يا سكان البلقان الأديغة. وإن لم نتحل بالوحدة والطاعة فلن تنجح أمورنا هنا. علينا أن نؤلف في القرى من عدد من الفرسان والمشاة مجموعاتٍ نحمي بها أنفسنا. ثم نلحق ما يحدث... - "ليس للمرة الأولى أسمع في تركيا ما اتهموني به - قال برزج لنفسه، - سمعت الكلام نفسه من الأديغة سكان طرابزون، ومن سكان هضبة الأناضول، ومن سهل قونية، ومن أنطاليا على ساحل البحر الأبيض المتوسط، والقرى المحيطة بديوزجه، ومن نواحي إزمير وبورصة... تؤذيني هذه الكلمات المرة أكثر مما

تؤذيني الجروح التي أصابني بها العدو في بلادنا... نسي أبناء قومي ما قدّمْتُ لهم على ما يبدو... هل عجيب إن نقلتُ إسطبلاقي الأميرية بسفن خاصة... - وفي اللحظة نفسها حملته الكلمات التي أنطقته بها أحزانه على أن يصحو: - مهلاً، مهلاً! ما فعله بنا الأتراك الذين أحسنّا إليهم متحملين إهاناتهم أمرٌ عجيب... اختاروا لنا أماكن مختلفة في بلادهم نذوب فيها بين من نسكن معهم... انظر ماذا خطر لهؤلاء من أفكار!.."

نظر الحاج برزج إلى من ناداه لحظة خروجه من أفكاره:

- ما الذي سيحدث يا برزج، وإلّا سننظر؟ سأله حاتام ذو اللحية التي التحمت بشاريه، الحاملُ رجب بن مراد بيه على حارك حصانه إلى حدود المرعى - ممن يجب أن نحتمي؟ أين البلغار الذين نسكن أرضهم وبلادهم أم ممن نكب أسرتنا من أمثال هذا الذي أحمله على حصاني؟ لا تعتب عليّ يا والدنا، أنا فعلتُ ما عليّ، وأنا راضٍ بما تقررونه بشأنه - رمى حاتام من على حارك حصانه أمام المجتمعين، وأدار رأس حصانه إلى حيث خرج بكل اطمئنان.

- حاتام، يا ولد، ارجع! - نادى باغ مزحّب ابنه. - أيُّ عار ألحقته بي أمام القرية! حجرت وقاسم إلى أين تركضان؟ هذا الذي تلحقان به سيعود يوماً ما إن عاش. يا هارون، أبعدوا هذا الذي رموه أمامنا من أمامنا، وعودوا به إلى والده بإنسانية لا يستحقها! لا تؤاخذوني أيتها الجماعة على ما فعله ابني الأكبر الغاضب دون علمي، ولا تعتبوا على قرية أبنّاخ التي أنتم ضيوفها. وأنا كفيل به. والآن بما أن الموضوع الذي اجتمعنا لأجله فوق كل شيء سأقول لكم رأيي لأنكم تعتقدون أن حماية أنفسنا واجبة: نحن الغرباء لا نعادي أحداً. من يعرف ما لا يزال بانتظارنا؟ إن كنا سنحامي أنفسنا فرأيكم رأيي، وأقدم

ابني الأصغر حجرت ليكون في عداد الجيش الذي سيؤلف. وضُئوني إليه إن لزم.

- حياك الله يا مزحج ورضي عنك - كان برقت زوال راضياً عما سمع.

- وهل يتطلب الأمر المشترك بين الجميع شكراً؟ - خرج قلوبات من الجمع وقال. - وأنا أوافقكم باسم القرية التي أنا موفدُها. وهذا ما كان سيقوله توغوظقوه قازبك¹ الرجل المتميز الذي ضحى بروحه وأرواح أبنائه في مواجهة الجنرال النهاب بيسكروفنه لو كان حياً. من حُسن حظه أنه لم يشهد ما جرى لنا اليوم. إن كنا سنعيش مكتفين هكذا في أرض البلغار التي رمونا إليها فلن يدعنا أبناء قومهم الذين طردونا من أرضهم - وستذكرون يوماً كلامي هذا - نعيش مرتاحين هنا. من لا يثار لنفسه فلا يعد نفسه أديغياً!

- يا قلوبات، يا من أدعو له أن يجعل الله يومه مئة، وقوفك باسم قريتك الشابسغ إلى جانبنا - امتدح برقت زوال المتكلم القصير العبوس، ثم وجه إليه ملاحظة خاصة: - لم نصل بعدُ إلى كلماتك الأخيرة المملوءة بالأفكار العنيفة.

- ما الأمر يا زوال يا من رعاك الله العلي العزيز بعطفه، لماذا لم نصل إلى ما قاله الرجل الشابسغ الذي حوّل الكفار أرضه الجنة إلى أرضٍ رمادٍ؟ - سأل مرزخوي محمد الأفندي الخارج من صفوف جماعته، مرتدياً عباءة خضراء يتراقص طرفاها على فردتيّ حزمته الصفراء - قلوبات الذي ينظر إلى البعيد

¹ ورد ذكره في رواية خان جري من قادة المقاومة في الشابسغ.

مذكراً بزانه قوه سفر بي الرجل الأديغي الممتاز من الناختواي^١، خلافاً لابنه قره باتر^٢، وتفكيره يتطرق إلى جوانب كثيرة. ماذا قلت؟ - سأل من ناداه - أهو زانه قوه قره باتر الذي جئت على ذكره بالخير يا من رعاك الله؟ هذا الرجل ضييع ما فعله لأبناء قومه في تركيا: إنه مختفٍ في زاوية مجهولة متحلياً عن مشكلة أبناء قومه. قابلته بنفسي، وكلمته لأذكره بنفسي، ورويتُ له ما يقوم به الحاج برزج وبرقت الضابط في خدمة قومهما المسلمين، غير أنه تصام وإن لم يكن أصمّ. اعتبروا من لم يسمعي لم يسمعكم. كان الأفضل ألا أنطق اسم الرجل الذي كفّ عن الاهتمام بقضايا قومه، ونسي أديغيته. ولكن من أجل أن تعرفوا أن بينكم أمثاله وغيرهم، أولاني الله الذي يختبر إنسانيتنا وإسلامنا ويشهد عليهما رؤيةً لوجهه لم تروها وإن رأيته أنا، أقول لكم إن ما نفعله اليوم يجري بإرادته وعلمه. وسنقضي أينما عشنا أعداءً لمن يدنس بحذائه أرضنا الطاهرة لأننا العباد المسلمون لمن بيده الدنيا الفانية التي يشهد علينا فيها وجنته الأخروية. قلوبات الزعيم المبارك لم يقل ما لا يجوز. أتكلم على دمنا المسلم، دمنا الأديغي، إن لم نسفكه هنا على المسيحيين السلاف فلن يقبل الله الذي نحن أمتة. أنا شاهدٌ على أن القضية التي وضعها أمامكم برزج وبرقت قضية إلهية.

^١ قبيلة قريبة من الشابسغ، وهو والد زانه قوه قره باتر، أحد أقطاب الأديغة الذين أُلّفوا المجلس - البرلمان الأديغي من الأبخاز والشابسغ والويخ، والذي انهار بعدما أحرق الروس مقرّه على الساحل. وتردد اسمه في رواية خان جري.

^٢ لأنه هاجر مبكراً من القفقاس إلى تركيا مع اختيار المقاومة بتصرفٍ فردي.

- اسمعوا ماذا يقول هذا! يروي هنا في وادينا ما كان يرويه في مجلس الأديغة وفي ثنايا جبال الأبراخ... يعني لمن يجلس في ذيل عربته... - خرج مزحِب من بين أصحابه وما سمعه يثير الحمى في جسده.

- إلى أين ماضٍ؟ - همس ناورز لباغ.

- لا أذهب بعيداً... - همس في أذنه مبتسماً - أظن هذا الأفندي الثرثار تسبب في نقض وضوئي.

- والله وأنا أشكو من هذا... - حين قال ناورز هذا التفت إليه مزحِب بما يعني: لا تقم أنت من مجلسك كأننا اتفقنا على القيام، ابتسم زغاشت وكفَّ عن الرّد.

رأى حجرت والده قام من بين مجموعته فلاحق به.

- وأنت يا ولد لماذا تتبعني؟

- لا أعرف، رأيته خارجاً من الاجتماع فقلت لنفسي: ولماذا أبقى أنا؟

- أهنأك ما لم يُعجبك؟

- هذا الأفندي الثرثار الذي كنت تأتي على ذكره لم يقل شيئاً حسناً.

- وهذا هو رأيك؟

- نعم، أيّ ثأر، وهل في القرآن مثله هذا؟

- لا، - قال باختصار، واستدار إلى الولد الذي لم يكن يلتفت إليه: إذن ما

رأيك في الجيش الذي سيحمينا؟

- أنا أوافقك على ما قلته بهذا الشأن. ألم تقرر أن تنسبني إليه؟

- نعم، شريطة أن تبقى معهم محتفظاً بعقلك... نعم، نعيش في دنيا عجيبة لا

نفهمها كما كان العجوز جرمت يقول. ولكن إن لم تهزمنا إلى الآن فلن نسمح

لها أن تهزمنا مهما كان ينتظرنا من أهوال. - جلس باغ مزحِب على جذع

شجرة ساقطة، ثم خصّ هكذا ارتباطاً دون أن يضيف فكرة هامة: - حقاً
هكذا تجري أمورنا... إذا كان الميسر الذي يسمح لك بالجلوس في حضرته لن
يعود ويغتابك فاجلس ولا تقف.. - ثم دان حجرت بما كان مهموماً به: - الحق
يا ولد لماذا لم تعرف، دون أن تطيعني، أين هرب حاتام المنحوس؟

- كيف كنت أخالف أمرك إليّ على مسمع من الناس يا والدنا؟ ألسنت من
قال إن حاتام سيعود إن كان حياً؟

- قلت لأن اختفاه الآن يُفنيها... - حسناً فعل أخوك إذ لم يقتل هذا القبيح
الذي ألقاه من حارك حصانه... كان الأفضل أن ترافق من أوصلوه إلى بيته.

- ما كنت لأستطيع هذا. كانت الإهانة ستُفِلت مني خنجري...

- فكرت جيداً - قال الأب الذي لم يكن حمل ابنته يفارق خياله، وأكمل: -
لا عجب أن تكون نهايته على يد غيرنا، لا على يدنا.

- لو حدث هذا لكان أفضل... - تذكر حجرثُ تودور الذي كان في بيتهم
قبل أيام، وقال حين رأى المؤتمرين ينصرفون: - أظن المؤتمر انتهى.

- إذا كان المؤتمر انتهى - نخض مزحج دون رغبة - كنت وعدتُ ناورز
بالعودة، فلنعد ونختلط بالناس دون ضجيج. - تكلم مزحج على صاحبهم
العجزو البلغاري إذ لم يجد من اللائق أن يسأل ابنه عن سبب قدوم تودور
وبارافان إلى البيت للمقابلة داريجان، وهو لا يعرف بل يتعجب كيف خطر له
السؤال نفسه: - يا ربي منذ زمن غير قصير لم أر ستيفان، ما أخباره يا ترى؟
- في أحسن حالاته، قابلناه أنا وقاسم أمس عند الساقية. سأل عنك، وأرسل
إليك تحياته.

- وكيف لم تخبرني؟

- لم أستطع لأنكم كنتم مشغولين بأعمال المؤتمر.

- لا يجوز يا ولد أن تنسى تحية الخير مهما كان الإنسان مشغولاً.

الفصل السادس والعشرون

ما إن ترَجَّل بارافان بارافانوف من الحصان حتى قال لتودور الذي استقبله بوجه متجهم:

- لا خبرَ جيداً. ما كنا نتوجس منه يتحقق: الشراكسة يؤلفون سرّاً مجموعات من الفرسان.

- وهل ما يقومون به علناً سرٌّ؟

- ومن أين تعرف؟! - ارتفع صوت بارافان فجأة.

- لا أتكلم على ما لا أعرفه.

- هل تعرف من أعاد إلينا بوريس ستيفانوف مذبحاً على صهوة حصان؟

- أنا واثق أن يداً شرَكسية لم تمتدَّ على بوريس. جده ستيفان يقول هذا.

- اسمع ما يقول هؤلاء! - احمرت عينا بارافان - ما أشد توجَّسكما أنتما،

هل سحركما المجتمعون الشراكسة... ما كنت أريد أن أُخبرك، ولكنك تشهد

على أن الشراكسة أحوالُك. وسأخبرك بشيء آخر: ألم تر كيف كانت هذه

المرأة معشوقتك التي لا تليق بك تُخفي بطنها؟

- رأيتُ.

- ألا يردعك أن في بطنها جنيناً تركياً؟

- لا يردعني! - قال تودور الذي كان يغلق بابَه لضييفه: - لا أصادق من

يُحقد عليّ، اركبَ حالاً!

الفصل السابع والعشرون

لا زحامٌ في دارةِ وِسمِن الكبرى: مراد بيه جالسٌ يتدقّقاً على أشعة الشمس ونار الإهانة التي أُلحِقَتْ به من جهة ابنه لا تزال تحرقه. لا يُطِيق أن يرى نفسه، دغكٌ من رؤية غيره من قريب أو من بعيد. "لم أستمع إلى نصيحة ألبان حين قال لي: لا تعقد صلاتٍ مع الشراكسة. ولا تسمح لهم أن يعقدوها معك... ورطبنا أنفسنا والأسرة كلها حتى ليشمتُ بنا من يسمع ما فعلوا بنا. ماذا كانت حاجتنا إلى الابنة الوقحة لمن سمحوا للعدو أن يطردهم من أرضهم ونحن عندنا كَنَّة مطيعة؟!"

- اسمعوا، أَلستم من أتحدث إليهم، ألا تسمعون؟ - نفِض مراد بيه رأسه غاضباً يريد أن يتشقى لنفسه من غيره، - أَلم يعد في البيت ولا في الدار من يأتيني بكأس من الشاي؟! - نهض الرجل المرتدي طربوشاً مغريباً أحمر عاجزاً عن الاستمرار في الجلوس، وحين نظر إلى السماء حيث ترتفع الشمس الحمراء الكبيرة رجع إلى البيت كمن احترق بها: - هذه الشمس لا تبشّر بنهار سعيد. تابع مراد بيه أفكاره الثقيلة مفكراً في الشمس التي أفرغته: "جرت لأسرتنا حادثة مؤسفة، ولكن أَلم يبق في قرية مافليود إنسان، ولا بقي حولنا جيران؟ غير أنني فعلتُ خيراً إذ صرفتُ مَنْ أوصلوا ابني قبل أن يفزع الجيران. وفي هذه الناحية تبَيّن أن رجب أفطسٌ مني. وأفهم ما يلجمه عما سيقوله ويفعله... ورغم أنه ليس بلا زوجة فلا أعرف ماذا وجد في المرأة الشركسية التي أهانتة. وهل عجيب إن كان في رِحمها جنين؟ متى وضعت فسنعيد الطفل إلينا لأنه من صلبنا، ومسلمون ندين وإياهم بدين واحد. وهم يستفزوننا وإن كنا نريد السكوت عليهم: ليفرحوا إن سمحنا لهم أن يعيشوا بيننا!.."

- أهذه أنت؟.. كَلِّم عائشة دون حماسة كبيرة حين ظهرت وراء من حملتها طعام الفطور.

- ومن تكون غيري!..- لامت زوجها ملاطفةً إياه بعدما غادرت الخادمة -
تجلس وحيداً حتى تُفني نفسك بأحزانك...

- ولماذا أنا وحيد؟ - قال مراد بيه الذي جلست زوجته إلى جانبه وعلى وجهه وصوته آثار ما يغلي في قلبه- ها أنتِ، ألسِتي معي؟!

- يسرني أن تقول هذا، غير أنك تتناسى اسم من كان يجب أن تذكره أولاً: الله أولاً، لا أحد يعدله.

- نعم، الله معي، هو في قلبي - أصلح مراد بيه موقفه بسرعة، ثم مازح امرأته:
وبعداً أنتِ مَنْ في قلبي يا عائشة الخانم. - ثم سألها عمن يشغل باله: -

ما أحوال رجب؟ وكيف صدف أن التقى بمن عجز أقاربه عن العثور عليه؟
- ومن أين أعرف، وهل يُخبرك؟ ألا تعرف طبيعة ابننا؟ ولكن يُحَيِّل إلي أنه بصفته أخوا الكنة كان يريد أن يطلب منه التوسُّط معها.

- أيّ عروس، وأي محادثة تتكلمين عليها؟! - غضب مراد بيه مما سمع، ثم رشف من الكأس، وقال بلهجة ألطف: - وما تفترضينه قد يكون صحيحاً.

- نعم، نعم، بالغنا في لوم ابننا، ولكن ألا قلب له؟ - ثم أضافت بعد وقفة قصيرة: - تذكرت أنت أيضاً كيف كنت أيام زمان!

قال مراد بيه مانحاً نفسه فرصة، متأملاً كأس الشاي كمن يريد أن يعرف ما بقي فيها:

- على ما أفهم يا عائشة خانم، كنت مغرماً بك وأنت عازية، وأنت عروس جديدة أحوم حولك، والآن بعدما هُرِمْتَ توقفت عن الهيام بك. إن كان هذا رأيك فرمما وافقتك. ولكن لا تخيلي أنني لا أفهم مأساة ابننا الوحيد رجب. لا

أظن أن حملَ المرأة الشركسية طفلاً منه هو السبب الوحيد لعدم نسيانها... كيف نستدرك خطأنا؟ هذه "المرأة العظيمة" تربأ بنفسها أن تُخطفَ من قِبَلنا! أما أبوها فلم يتفهّمنا مهما ترجيناه. ولكن أكثر ما يثير عجبِي، ولا أعرف سبباً له هو كيف أُعيد رجب دون آثار ضرب مبرح.

- وأنا استغرِيت هذا - قالت عائشة ثم سحبت كلامها حالاً نادمة: - ولكن ألم يُهينوا ولدنا الغالي أمام مجلس قريتهم؟!

- لا تتحدثي في ما لافائدة فيه! - نهر مراد بيه المرأة التي كان إلى الآن راضياً عنها، وأمرها بحزم - ولا تُسمعي أهل البيت هذا الكلام - ثم أضاف بنبرة أنعم: - كان الأفضل أن ألتقي بمن يسمونه حاتام غير أُنِي لا أعرف كيف أعثر عليه. ولم يكن ضاراً أن ألتقي بالأصغر منه حجرت إن كنت تتذكرينه.

- يا مراد بيه أنت أحد رجالات الأتراك القاطنين في هذا المضيق؛ ألم يبق لك الآن أمل إلا في هؤلاء؟ سألت عائشة التي لا تعرف تأويل ما سمعت، زوجها، وأضافت الخبر الذي لا تستطيع منذ البارحة إخباره به: - يقال إن الفتاة الشركسية التي بذرت الشقاق بيننا وبينهم تستقبل خطاباً بمن فيهم بلغار. لا تستغرب، يقال إن المرأة المحرومة من الشرف والكلبة المغتلمة سيّان. وإن كنت لا تصدّق ما نقلتُ إليك فلا تحبس نفسك في البيت، اسألي!..- تباكت عائشة وقد ارتعبت من صراحتها الوقحة.

- اسكتي! - كانت المرأة هي الوحيدة التي يستطيع مراد بيه في هذه اللحظة أن يأمرها فنهّرها، ثم سألها: - هل يعرف رجب بهذا الخبر؟

- لا أحد غيرنا أنت وأنا يعرف.

- هيا أرسلني لي رجب إلى مضافتي! - قال للمرأة التي تركها خلف البيت.

- رجب وألبان لا يزالان غائبين منذ البارحة حين أرسلتهما إلى أفندي المخوش حزرت. - أُلِّقت عائشة الجواب إلى الرجل المنصرف وقد نتأ رأسا كتفيه.

- ولماذا لا يعودان إن أرسلتهما، لماذا غائبان؟... أيّ زفافٍ ابتدعه حزرت في هذا العالم المضطرب! - اتجه مراد بيه وهو يدمدم معتبراً أن ما يحدث في أسرته هو الأهمّ، مع أنه كان عارفاً أنه أرسل ابنه وألبان إلى عرس الأفندي حزرت. - لم يكف المبلغ الكبير الذي أرسلته إليه بل أضفت عشرين خروفاً. وهذه الفتاة التركية التي أجبر ابنه الأهل على الزواج منها لمصاهرة الترك، هل يمكن أن تعيش بين الشراكسة؟ لو لم يكن إلا ما جرى لأسرتنا!

"أيها العنيد، كان خيراً لك أن توقّف بين من يعيش في بيتك من أن توقّف بين الشراكسة والترك في قراهم... - وبُتحت عائشة زوجها، وعادت إلى الغرفة التي خرجت منها وهي تصرخ: - مهنورُ الزوجة الأولى لابننا الذي هام بالفتاة الشركسية، والتي دللناها، عديمَةُ النسل والحظ، لم تعد تريد العيش بيننا. لم أُبلِّغك، غير أن أقرباءنا أهلها أرسلوا إلينا أكثر من رسول..."

كما يفعل مراد بيه إن كان في الغابة أم في البيت أم في أرض الدار توقف فجأة كمن يسمع صوت عربة ركاب قادمة، وأنصت باتجاه الشارع. ونظر نحو البوابة الكبيرة، ونحو الشمس التي ارتعب منها هذا الصباح، والتي تتوسط الآن السماء، وجلس إلى مجموعة أدوات الوضوء من إبريق وطشت، وراء ممر المضافة، متذكراً أن عليه قضاء صلاة الفجر.

ما إن أنهى مراد بيه صلاة الظهر حتى توجه وهو ما يزال على ركبتيه يشكو إلى الله حال أسرته، ويدعو: افهم حال أسرتي المسلمة يا ربّ، وارحمني. أعلم أنك تعرف حالها وأن لك يداً في مصيرها وإن كنت أشرح لك. أتحمل ما تختبرني به في دنياي الفانية. وأنا أعترف بخطئي إذ دفعتُ ابني الوحيد الذي رزقتني إياه

في دنياك العارية إلى اختطاف تلك المرأة. ولم يكن عبدك رجب خالياً من المحبة لتلك المرأة المسلمة. ولو لم يدخل الجن والشياطين بين الشابين لكانا اعتادا أحدهما على الآخر، ولعاشا فرحين بالولد الذي سترزقهما به. لا تدعُ المرأة التي عادت إلى أهلها حاملاً بطفلنا تتعلق بأحد من يخطبونها. امنحها يا رب رحمتك ولينك. إن كان الخبر الذي رويته لك اليوم صحيحاً فلا تُدخل ابن المرأة الشركسية التي تحوّلت من ديننا إلى دين الكفار، نصف الأديغي، نصف البلغاري، بين الاثنين المفترقين ولا يستطيعان الالتقاء. وإن دخل بطريقة ما، وكان ولدنا سيصبح كافراً فاسترجعه من المرأة الشركسية لأنك أنت من وهبه لها. وإن قلتُ من لوعي ما لا يقال بشأن ولدي الصغير فارحمي يا ربي، نحن يائسون، لا أمل لنا، نحن آل وسمن، غيرك يا إلهنا العزيز. والذين خلّصتهم من أعدائك وراء البحر وأسكنتهم بلادنا من أجل أن نُفيدهم هم من أمتك كما نحن، ولذا سنعاملهم بالرحمة التي زرعتها فينا. وستتناسى الموبقات التي اقترفناها دون وعي منا في دنيانا الفانية. لماذا يقوم عداء بين آل وسمن الأتراك وآل باغ الشراكسة؟ سمعك باغ الشركسي الذي كان يرفض الاستجابة لنا ولذا أعدت رجب الذي أنت في قلبه، وكان على شفا الهلاك، سالماً. وأنا قابلت هؤلاء بالقلب الرحيم الذي زرعته فيّ. ولكن لن أستطيع يا إلهي الكبير أن أقول هذا في حق كفار البلقان، وأنصارهم الروس المساندين لهم! " - اختتم على نحو مفاجئ، وبقلب هائج، مراد بيه الذي كان جالساً على سجادة الصلاة دعاه الذي يمزّق نياط القلوب، ونهض.

ذرع مراد بيه أرض الغرفة الفسيحة بضع مرات دون أن يفارقه هذا الهياج وهذه الحماسة. وأعادته السجادة التي يعلقها على الجدار إلى وعيه فقال لنفسه: "أخشى أن أُحيط بأحقادي صلاتي التي أديتها تَوّاً على هذه السجادة على

ركبتي، وأدعيتي إلى الله... لماذا أكلّف نفسي حل مسائل الشراكسة الملتبسة عن طريق الدولة؟ ليحلّها برقت زوال الذي سلبنا مهمتنا أنا والحاج برزج الحكيم،! أين هو الآن؟ يعتقد مؤتمرات للشراكسة دون أن يخبرني بما يقول وما يفعل مع أنه اتخذني معاوناً لشؤون مضيق ترغوفيشت..."

مراد بيه الذي أعاد السجادة إلى الجدار، وجلس على الكرسي الناعم المغطى بالزخارف تابع الآن أفكاره وهو يقلّب حبات السُّبحة. تصل أفكاره المتضاربة غير المنتظمة إلى الكثير. دخل بها إلى إستانبول التي لم تطأها قدماه منذ عامين. وارتسم أمام عينيه القصر الذي تُرقي فيه ابنة برقت. وحين يخرج من إستانبول تتلاحق أمام عينيه مناظر البلقان المتنوعة التي عاش فيها. ويمشي في شوارع بلغراد وأزقة سبليت. ويتجاوز المدينة الصغيرة شومان القريبة من مضيق ترغوفيشت الذي يسكن فيه الآن، ويتجول في فارنا على ساحل البحر. ويخطر له معبر جبل شيبكا الذي سيصبح بعد سنين مشهوراً ولكنه لا يتذكر الآن أين يقع فلا يُعيّره اهتماماً بالغاً. وبلاد الشراكسة التي كانت تمتد على طول ساحل البحر الأسود من الطرف الآخر حتى بلاد القبرتاي ونالشيك يسمع بها فحسب، ولا فكرة له عنها، بل إن ما يسميه بلاد الكفار روسيا التي دخلت في حروب كثيرة دامية ضد بلاده تركيا لا يعرف، وإن سألته، أين تقع. ولكنه يمكن أن يدلّك على موقع الكعبة حتى وهو مغمض العينين، وإن لم يزرها.

والموضوع الذي عاد من أجله مراد بيه هذه اللحظة إلى قريته مافليود، بغضّ النظر عما وصل إليه فكره، هو المشكلة التي ورّطه فيها ابنه، ولا يجد لها حلاً: "آه من هؤلاء الشراكسة!.. من أين أتانا هؤلاء لا يجلبون لنا إلا الهمّ والجفاء؟"

قال الخادم الذي دخل الغرفة:

- غداؤك جاهز أيها المحترم مراد بيه.

- بهذه السرعة؟.. - قال مراد بيه مرتاحاً لخروجه من همومه المؤرقة. وحين دخل إلى الغرفة الملحقة التي حُصِّرَ له فيها الغداء سأل عائشة خانم التي كانت تضع اللمسات الأخيرة على مائدة زوجها: - وأنت هل ستشاركوني الغداء؟ - ثم قال لها هكذا دون سبب مهم، ودون انتظار الجواب: أعددت لي غداء طيباً غير أنني لا أريد تناول الطعام.

- ولماذا لا تأكل وأنت لم تذق منذ الصباح إلا الشاي؟ - عاتبت عائشة زوجها ثم أصلحت كلامها وهي تنظر إليه بعين راضية: - لم أدع أحداً يجهز لك الغداء. طبخته لك بعناية.

- هو إذن لذيد جداً، سأكله بكل رضاء - ثم سأل بعدما احتسى شيئاً من الحساء: - ما أخباركن في جناح الحريم؟ هل عادت الكنة اللطيفة الهادئة إلى طبيعتها؟

- لا، لم تخرج عن غضبها، وهذا واحدٌ مما يجلب لي الهمّ.
- لماذا؟ سأل مراد بيه دون أن يرفع رأسه عن صحن الحساء.
- وأنا لا أعرف... ربما صار قلبها عند أهلها... - كانت عائشة تريد إفشاء ما تُسرّه ولكنها لم تجده لائقاً.

- لا تتكلمي على ما لا تعرفين - مرة أخرى قال مراد بيه بلامبالاة، ثم انتفض برأسه بعدما أعاد التفكير: - أيّ "أهلها" هذا؟

- وكيف لي أن أعرف كيف ستعيش معك امرأة أُعفيت من واجبات الزوجية، ولا أولاد لها...

- هذا ما كان ينقصنا! - هبّ مراد بيه واقفاً والمعلقة المكسورة بيده، وعيناه تقدحان شرراً.

- لا أعرف يا حسرتي، لا أعرف! - قفزت عائشة خانم من مجلسها، وهربت من الغرفة.

الفصل الثامن والعشرون

لا عائق أمام عقل الإنسان يمنعه من أن يحمل صاحبه على أن يقول ويفعل ما يريده: يُحِبُّ صاحبه، ويقدمه، ويُخطِّئه، ويصحِّيه. والدنيا التي تشهد عمره وتقلبات حياته؛ أهي مثله؟ الدنيا متى أخطأت أخطأ معها الجنس البشري، ولذا فالدنيا حريصة على نفسها في نهارها وليلها. والناس الذين تُبقي الدنيا على حياتهم متى بدؤوا يفلتون منها، ويخرجون من جلودهم، أعادتهم إلى وعيهم عبر الهزات الأرضية، والرعود والبروق، والفيضانات والبراكين، والحروب الدامية. وحياة هؤلاء يتلاصق فيها الشفقة والظلم كما يتلاصق المطر الجالب للخصب والبرق الجالب للدمار. الشفقة تُحييهم، والظلم يصرعهم.

حاتام الذي كان يفكر في هذه الأمور ولا يستطيع تفسير ضيقه قفز من مكانه كأن أحداً ناداه فركب حصانه نحو المخوش، لا نحو قرية أبزاخ. وقبل أن يسير ساعة توقف في مرعى الغابة لا يستطيع تقبل ما يرى: فارسٌ أديغي يحرث على الرجلين البلغاريين وموجه الدقة العجوز.

- أيُّ عيب تفعله؟ أأنت إنساناً؟ أسرع حاتام إلى مغسل أموات المخوش شحام وألقاه من على سرج حصانه.

- هل اختلَّ عقلك يا باغ؛ ماذا تفعل بي؟ أنسيت ماذا فعل أقرباء هؤلاء في وطننا؟ أنا إنسان، وهؤلاء حيوانات؛ ليحرقوا!

- اخرس يا عديم الشرف! - أمسك حاتام بيده الضخمة عنق غاسل الأموات، وقال للبلغاريين الاثنين وهو يجرّ شحام إلى المخرات: - اخرجوا من تحت النير، سأربط هذا مع حصانه إلى النير وأحرث عليه. وأنتما حرّان.

- ما تفعله بي وأنت مسلم عيب... لن يقبل منك الله ولن يوفّقك.

- بالقياس إليك أنا مسلم ولكني إنسان. قف مع حصانك يا عديم الإيمان واحرث لنفسك ما ليس أرضك.

أمسك حاتام بدفة المخرات وضغط عليها، وبعد عدة خطوات سقط من يحرث مع حصانه على ركبتيه.

- لن أقدر على أكثر من هذا.

- يكفي أن تعرف الآن أنك عديم الرحمة ، غير أنني لا أصدّق. - ألقى حاتام بالمخرات إلى جانب الأرض، وامتطى حصانه وتابع.

صاح شحام مغسل الأموات وراء حاتام:

- أتوسّل إليك ألا تخبر أحداً أنك ربطتني إلى المخرات!

- إذا كان الله رأى ما بيننا من سرّ فلن أخبر أحداً به. - قال حاتام إلى مَنْ وراءه وهو يدخل الغابة التي سبقه إليها البلغاريان والعجوز.

الريح تهدأ على سطح الأرض. والسحب تترجح في وسط السماء. والشمس الغاربة تلتفت إليها. والنسيم الخفيف يهمس في آذان الأوراق المتساقطة.

العالم ولو لم يكن سرّاً على الإنسان، يضيع في مجاهله كلّ من عندهم أسرار، غيرَ عارفين ولا فاهمين. وهل يحتفظ حاتام بسرّ؟ إن اعتبرت سرّه الواضح شبيهاً بالغابة الجبل التي ولج فيها فرمّا تخطى. حين ترجل حاتام المتعب من الدروب الجبلية الضيقة، وأسند ظهره إلى جذع شجرة دون أن يُفْلِت زمام الحصان من يده، خطفه حالاً النوم الذي كان ثقيلاً عليه.

يرى حاتام حُلماً دون أن يتذكر أين هو الآن، ولا الغابة الجبلية التي هو فيها، ولا الشمس التي تظله، ولا قمر منتصف الليل، ولا النجوم المبعثرة حوله، ولا الينابيع والسواقي التي يتجاوزها، ولا تِباب المرتفعات التي يتسلقها، ولا الوديان التي يجد نفسه فيها، ولا المراعي التي طُرِدَ منها، ولا البراري التي لا عشب ولا شجر ولا ماشية فيها. يلاحقه الدب الهائج، ثم يتبين أن ما التفت لأجله هو ذئب، ثم يتحول إلى ثعلب. وبعد قليل ينكشف الثعلب الذي كان وراءه عن أرنب. ثم حين ينهره تقع الفأرة في براثن العقاب الذي انقضَّ من السماء. وفيما يتألم حاتام لحال الفأرة ينتصب أمامه إنسان الغابة ذو العين الوحيدة، واليدِ والقدم الوحيدتين، ويسأله باسماء في وجهه: أيُّ نوع من البشر أنت الذي عنده عينان ويدان ورجلان، وأنت ملبَّد اللحية والشاربين أكثر مني؟ وما الذي يمنعك من الاستقرار؟ أتعيش ضالاً في الدنيا المنيرة والمظلمة، الخصبية والمحملة، والباردة التي يتلونكم فيها؟ قل لي وتوسَّلْ أيها الشيطان الضالَّ الذي يحمل اسم الإنسان لأحقق لك حالاً ما تريد".

"يا نصف الإنسان الذي لا أعرف أصله، أنا توسَّلت منذ زمن بعيد إلى من يجب أن أتوسل إليه. غير أنني لن أتفق معه..." "أنت وأنا يمكن أن نتفق - قال رجل الغابة الذي كان يعتقد أن الدنيا مُلكه، واختتم: - وأنت إن حققت لي ما أريد... إذن كيف سأقضي عمري والريغ حي، والصيف ضيقي، والخريف يهمس لي، والشتاء يجمدني، ولا أحد يدفئني معي فراشي؟ فكَّر في امرأة تدفئني. ولتكن من تكون: بكرةً أو ثيباً أو أرملة... لماذا تبتسم؟ الأني أطمع في ما لا أستحقه؟" "أنت تخطئ أيها الإنسان المسكين! إن كان هذا رأيك فالأفضل لك أن تسخر من نفسك، لا مِنِّي..." - تلاشى رجل الغابة من أمام حاتام.

"مهلاً، مهلاً. - صرخ حاتام وراء العدم، ولكنه بقي وحيداً في الغابة لا أحد يسمعه ولا أحد يراه. - نهر نفسه قائلاً: قال لي ما أستحقّ!..."

أيقظ سهيل الحصان حاتام فسأل الحصان الذي كان يتنصّت ومنخره يرتعشان، وأذناه منتصبتان:

- هل هناك خطر داهم يا حصاني يا صديقي؟

ما إن ركب حاتام حتى اعترضه ثلاثة فرسان: الحاج برزج، وبرقت زوال، ومرزخوي محمد الأفندي.

- ما الأمر يا حاتام ألم تتعرف علينا؟ - سأل برقت زوال بجفاء الرجل الذي كان يبدو من فوق سرجه ضخماً أشعث قبيح المنظر، رغم أن قلبه كان يتألم له.

- وكيف لا أعرفكم أيها الكبار!.. - قال حاتام مرتفعاً عن سرجه قليلاً، مبدئياً احترامه لهم مع أنه امتنع من كلام برقت. وأجابهم: - عالمنا عالمٌ ينكرونك فيه. والبلاد التي تُهنا فيها بلاد غريبة... إن كانت نيتكم حسنة فسأدعو لكم أن تتحقق. وإلا افترقنا وقد رأى أحدنا الآخر ولم يره.

- لو لم تكن نوايانا حسنة يا أخانا الأصغر لما وصلنا إلى هنا متابعين أمور الأديغة والمسلمين، مُفنين أنفسنا في خدمتهم. - قال محمد أفندي، يغلبه عتابه، كلماتٍ حكيمة، ثم نصحه بصوت ناعم: - حين يتعيّن عليك أن تخطب على شرف أحدٍ فلا تنس أن تذكر أولاً اسمه، ولا تنسَ من يجب أن تتضرع إليه. وإن عشت هكذا في دنياك الفانية التي يبتلونك فيها فسيفتح لك باب جنته.

- أتقصد الله الذي لم يفارق فمك حين كنا نعيش في وطننا ، وفي بلاد الغربة؟

- ما كان يفكر فيه حاتام في السنوات الأخيرة لم يعد يثقل عليه الآن فسأل

باسمًا: - إن كان هو مقصودك يا أفندي فسأقول لك: أسمع اسمه منذ طفولتي. حين فقدت أبي وأمي وكل أهلي وبقيت في الدنيا وحيداً توسلت إليه ولكنه لم يسمعني. مزحِب الذي أسأت إليه وسببت له الحزن هو من سمعني ساعة وقعت في المهلكة وساندني. لست محتاجاً ولا أصحابك إلى المواعظ التي لا تتجاوز شفتيك! - حين حثَّ حاتام حصانه اقترب من الأفندي الواقف أمامه حتى كأنه يريد أن يُسقطه من سرجه، وغاب في طريق لا يعرف عنه شيئاً دون أن يلتفت إلى الفرسان الثلاثة وراءه.

- أرايتم أيها المسلمون الذين سيغمرهم الله بعطفه - صاح محمد أفندي الذي لم يصحَّ بعدُ من الصدمة بصوته الرفيع - هذا الفارسُ الجيُّ الأسود؟ هذا شيطان، شيطان.

- اهدأ يا مرزخوي! - صرخ الحاج برزج المتعالي على ما سمع ونظر إلى الأفندي الثرثار، ونصحه: - لم تترك لنا الفرصة لتتكلم إلى المسكين الوحيد الذي صار في الغابة متمرداً.

- أهذا يا محترم من تعدد إنساناً وهو شيطان أسود؟! - لم تسمح الإهانة التي أُحِقَّت بمحمد أفندي أن يعود إلى سرجه: إنه عدو الله، شيطان، كافر! هو مثلاً باغ الملحد الأشعث!

- كفى، لا تقل ما لا يجوز لك... - نهر زوال أيضاً الأفندي، - وما قاله لك المحترم برزج فيه شيء من الصواب - ثم قال لنفسه: "ما أثقل هذا الرجل على النفس سواء صدَّقنا باغ مزحِب أم لم نصدِّقه!"

- هكذا! إن رأيتَ هذا فسأطيعك. أنهى محمد أفندي الحديث كأن لم يجر له شيء.

- خَفَّفَ قليلاً من خطابك الديني؛ سيكون لما تقوله هؤلاء اليائسين قيمة أكبر. - عاتب الحاج برزج الآن رفيقه الذي كان يصحبه أينما سافر، مشفقاً عليه.

- نعم يا محترم، وأنت على حق يا زوال، الله العزيز الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل هو إلى أحد...

- هيا، لنُسرع! - قال برقت باحثاً عن ذريعة لمقاطعة الكلمات التي لا يُطيقها. - المخوش وأفنديهم ينتظروننا.

تذكر حاتام الذي أطلق حصانه على طريقه، حلمه وهو يسترجع الجدل الذي دار بينه وبين من لا قوه فجأة على الدرب الجبلي الضيق. "أيُّ حلمٍ هذا؟.. أيُّ دنيا تلك التي كانت الوحوش تطاردني فيها؟! أعود فأفكر: أليس مسرّع المطاردة هذه الدنيا؟ ما رأيته في الحلم، والوحوش منه، أراه كل يوم هنا. الوحوش ذوات الرجلين أسوأ من ذوات الأربعة. ورجل الغابة؟ هذا كان يتوسل إليّ ولم ينوِ إهانتي. وأولئك؟ أولئك يعيشون وما على ألسنتهم غيرُ ما في قلوبهم، يعلّقون أخطاءهم على مشجب الله الذي لا ينفعنا ولا يرحمنا. مرزخوي المرائي الذي ينصح: افعلوا ما نقول، ولا تفعلوا ما نفعل، كما يقول والدنا، أفندي دون إيمان. والاثنان الآخران المتشوقان لامتداح خدمتهما لقضايا الأديغة، يبحثان عن مصلحتهما الشخصية.

الحق لا عتب لي على الثلاثة، فدنيانا هي دنيا هؤلاء. وبالقياس إليهم فوالدنا البسيط يعيش متحملاً مشاقّه، ووجهه مغسول بقطرات الندى. ونحن، داربخان، وحجرت، وأنا، يُفني نفسه ليربيننا على أخلاقه. مَنْ بين الثلاثة، ووالدنا وأنا معهم، يشبه الفأرة المنحوسة التي حملها العقاب؟ - سخر حاتام من نفسه بسبب السؤال الخاطر الطارئ، وأجاب نفسه: - ومن سيكون؟ ربما

هو الأفندي مرزخوي المحتال. والآحران ليسا رجلين صالحين. مرزخوي أفندي لا يفارق اسم الله لسانه، ولكنه لا يخدمك في شيء. أ تكون أنت الفأرة المنحوسة في مخالب العقاب يا برانت حاتام الذي رُئي لدى آل باغ؟.. لست أنا! أنا من حمل رجب، الفأرة المؤذية الصغيرة، إلى ساحة الاجتماع وألقاها أمام والدنا. وبدلاً من أن يتركني أمزقه بشهادة أهل القرية أرسله والدنا إلى أهله دون أن تمتد إليه يدي. لم أفهم تصرف والدنا ولا سلوك المؤتمرين المعتدين بأنفسهم. لا أعرف لماذا تجاهل والدنا الحكمة القائلة: "مُدّ يدك إلى روح من يمدّ يده إلى عينك!"

هذا ما سيحدث لك حين تكون غريباً، حين تكون بلا جذور. الغرباء يعيشون بين الغرباء. من يهددوننا بقضائهم، ماذا نفعل حيالهم، نشكرهم ونحبي رجولتهم، متناسين شرفنا، ثم لا يبقى لنا إلا أن نرد عليهم بإشارة مهينة بإصبعنا الوسطى. ماذا ستفعلنا رتبة برقت التركية؟ وما فائدة من كان يوماً مشهوراً في بلادنا، المحترم برزج ذو اللحية البيضاء هنا؟ وما تقدمه لنا بيكا جدة السلطان من منفعة قليلة جداً، ويقال إنها تقيم في إستانبول وقد تذكرت أنها أديغة بفضل ابنة برقت. وأمثال مرزخوي أفندي، سواء كانوا أديغة أم تركاً أم ألباناً، أفندية في كل مكان يدعون إلى الله بغير لغتهم. كان بإمكاننا أن نتصالح بطريقة ما مع من شنّوا الحرب علينا، مهما كان سلوكهم معنا. ما كان علينا أن ندعهم يطردوننا من بلادنا..."

حين أخرج العصفور الطائر من غصن الشجرة حاتام من أفكاره قال ساخراً من نفسه للحصان الذي كان قد نصب أذنيه:

- لا تنزع كما يقول والدنا، فلا خوف علينا. وسأصارك بما ضحكك لأجله: كنت تفكرت في القضايا الأديغة التي أرويها لك أحياناً عندما لا أجد

من أكلّمه، أبوح له بما في قلبي. ولو سمع بها أحد الفرسان الثلاثة المتباهين لكان سخر مني قائلاً لنفسه: يَمْ يثرثر هذا المجنون؟.. أنا لستُ مجنوناً! لا يتصوّر أحدٌ أنني أهذي! غير أن الكرب الذي عانىناه كلانا في أيامنا وليالينا جلب لنا ما نفكر فيه يا محجّلي. إن لم يرعنا الله بعنايته فمن يُخبرنا بما أمامنا غداً وبعد غد، وفي الأسابيع والسنين القادمة؟

يا محجّلي إذا كنت وفيثُ بنذري وجئتُ برجب بن مراد بيه إلى ساحة الاجتماع ورميته أمام المؤتمرين وأمام والدنا، وأهنته بما يكفي وإن أنقذناه من خطر الوحوش، فلنا الحق أن نعود الآن إلى ديارنا... ولكن كيف أعود إلى حضرة والدنا وأنا لستُ راضياً بما فعله إذ أعاده إلى أهله سليماً؟ وكيف أحرّو أن أنظر في وجه אחتي داربخان التعيسة؟ أما אחي الأصغر حجرت فسيفهمني في كل وقت وكل سلوك... - خطر لحاتام منظر تودور، وسرعان ما استجاب: تعال نزر تودور!

الفصل التاسع والعشرون

بعد الظهر، وبعدما تأخروا ساعة عن الموعد، توجه زوال وصاحباها إلى الساحة التي يُعقد فيها اجتماع المخوش. سأل زوال الأفندي حزرت مستقلاً عدد مستقبلهم:

- ألم يلتئم شمل المؤتمر بعد؟
- والله لا أعرف أيها الزعيم الكبير، يا من غمرك الله بعطفه، كيف أقول لك،
- بدأ حزرت أفندي يحوم حول الجواب - ألا تعرفون طبيعة رعيتي من المخوش؟ حتى في الوطن الأم لم يكونوا، مدعومين بالبسلني، يدعوننا نرتاح. أرهقونا والله ونحن ندعوهم إلى المؤتمر... وعندما حان موعد الاجتماع ولم

تصلوا انصرفوا قائلين: أنظروا واقفين هكذا بلا عمل في هذا اليوم الربيعي. إن اتفق رأيُنا مع رأي الزعماء الذين سيُزوروننا فنحن موافقون على ما تقترحون. والمسلمون الواقفون هنا هم شهودي بعد الله تعالى.

- الله تعالى العلي العزيز لا يتخذونه شاهداً، ربما تكون نسيت يا حزرت أفندي. - صحح محمد أفندي لحزرت أفندي موقفه، واختتم بكلام لطف مشيراً بحرصٍ إلى أنه مطلعٌ على الإسلام: - نسمعك يا حزرت أفندي، يا عبد الله!

- نعم يا عبد الله محمد أفندي، الله أحد لم يلد، ولم يولد، ولا كُفَّ له. - توجه حزرت أفندي بعدما صحح خطأه إلى ضيوفه وهو يترجم بالأديغية "قل هو الله": - تفضلوا يا ضيوفُنا الأعزاء ما دمتم راضين عن المهمة التي أوكّلناها إلى المخوش. - وبعد وقفة قصيرة أضاف: - وفي بيتنا مناسبة فرح، تفضلوا، عندنا عروس.

- هذه فرحة كبرى يا من ندعو له أن يصبح وجيهاً مع فرحه، يا حزرت أفندي. - قال برزج الحاج من قلبه، ثم دعا له: - لتضع العروس قدماً مباركة في بيتكم، ولتبقى عقباً مباركة حيث خرجت!

قال أفندي المخوش حين وافق برقت زوال ومحمد أفندي كبيرهما الحاج برزج: - حياكم الله، ورضي عنكم! حقق الله المسألة الأديغية التي نعمل فيها، ومسألة الأتراك أيضاً! أيها المخوش، أين مبلّغنا؟ أدعُ إلى صلاة العصر كلٍّ من على رجليه. جاءكم من تسمعون سيرته ولا تعرفون شخصه مرزخوي محمد من إستانبول، وسيُتلو عليكم من القرآن تلاوة مؤثرة بصوته الرخيم. - وفي هذه اللحظة أخبر الضيوف بما يُحزنه، بصوت منكسر: - لم يكتب الله لمراد بيه أن يكون بيننا اليوم...

- ماذا جرى له؟ سأل الحاج برزج.
- لا بدّ أنكم تعرفون ما حدث في أسرة وَثَمَنَ الممتازة... الكنة الوحيدة التي بقيت له هجرت الأسرة. لا أعرف ما علينا أن نفعل لأجل صديقنا وسندنا.
- تبادل الضيوف نظرات مختلفة حول ما أخبرهم به المضيف، ولم يُعلّقوا بشيء على الخبر.

الفصل الثلاثون

وفي فترة بعد الظهر نفسها كان باغ حاتام وديمتروف تودور في الغرفة يتبادلان الود والمرح.

الطبيعة التي كانت هادئة منذ انبلاج عمود الصبح اللطيف إلى ما بعد الظهر تغيرت فجأة كما يحدث عادة في الجبال: تتابعت من جهة الغرب السحب السوداء المتلاحقة يدرك بعضها بعضاً ويُمسك بذيله. وهبّت الريح من عمق الأرض كأنها أتت من السحب. والبرق الذي يضرب هنا وهناك بسوط من نار كأنه أثار الصاعقة فنثرت قطرات المطر.

تأمل تودور من ناحية النافذة النهار الذي أظلم وقال:

- هذه يا حاتام حال البلاد التي جلبوكم إليها: تُغيّر الطبيعة سلوكها على نحو مفاجئ.

- ليس هذا جديداً عليّ... - تنهد حاتام.

- أصدّق أنك معتاد على هذا.

- إن كنت تقصد حياتي في الغابة وحيداً، فأنا أريد شيئاً آخر... - تنهد حاتام ثانية على نحو أعمق، وأخفى: - لو كنْتُ أعرف أنهم يسمحون لي أن

أعيش في الوطن الذي أُرغمنا على هجره لقبلت حتى لو كانت طبيعتها مثل ما يجري هذا النهار... كانت سماؤها وشمسها وهواؤها وبرقها ورعدها دواءً لي.

- أهذا ما تقصده؟.. - نظر تودور إلى ضيفه وفي عينيه يرسم إشفاقه ورحمته، وأوضح بالقول: - أفهم، أفهم. من حسن حظّ أُمّي أنّها ماتت قبل أن تشهد ما حلّ بأبناء قومها الذين كانت تتمنى لقاءهم. ربما كتب الله عليّ أن أتحمّل معكم ما كانت أُمّي عاجزة عن تحمله.

- هل توفيت أمك وهي على دين الروس؟

- كيف أفهمك الموضوع يا حاتام... كانت أُمّي في وحدتها تدعو إلى الله بالعربية، وفي طريقنا أنا ووالدي إلى الكنيسة ترافقنا، وترسم معنا إشارة الصليب.

- ما تقوله عجيب... - قال حاتام كأنه يحدث نفسه، وسأل تودور: - وهل كان في عنقها صليب صغير كالذي في عنقك؟

- لا، لم تلبس، ولكنها دُفنت على الطريقة المسيحية. وعلى شهادة قبرها صليب. أُرّيك إياه يوماً ما إن أردت.

- لا، لا. - استعجل حاتام على الجواب - أنا لا أدخل إلى مقبرة كفّار... - غير أنه سرعان ما تذكّر فأصلح كلامه: - لا تؤاخذني يا تود. أيمكن أن أناديك بهذا الاسم؟ سمعتهم ينادونك به.

- ولماذا لا يمكن؟ - قال تودور راضياً، ثم أكمل بارتياح أوضح: - ووالدي كانت تناديني به.

- ووالدي أنا كانت تناديني بـ "تام جي"^١. - قال حاتام منفِعلاً، وأهَي بصوت هادئ: - لم يدعني الكفّار أنا بوالدي الذي كان يناديني باسم أسرتي "برانت".

- وأنا لم يدعني الترك من أمثال مراد بيه اللص أنا بوالدي. وكذلك عمي برداس، والأخ الأصغر لستيفان العجوز، وابن الأخير بوريسك. وأضف إليهم أسرة بارافانوف الذي لا تحبه. ومأساة الشراكسة هم من تسببوا فيها. وبالنتيجة يا حاتام نحن متشابهان لولا أننا واقفان على ضفّي النهر نفسه نتبادل التهديدات.

- ومع ذلك يا تود ألا يجري نهر واحد بين الضفتين؟ أليس ما نشربه هو ماء النهر نفسه؟ إن صحّ هذا قلْتُ لك غيره: أليس النهر الذي يمنحنا الحياة بمائه هو ما لا نجد كلانا معبراً له؟

- هذا كلام مستقيم. - نظر تودور راضياً إلى حاتام، متعجباً من أن ما سمعه مشابه لما يقلقه من أفكار، غير مصدّق. ونظر إلى حاتام الذي لم يكن يفهم إلى الآن طبيعته. - لأن الأفكار نفسها أيضاً كانت تُقلّني.

- لولا أن آراءنا متطابقة، أكنت خرجتُ من الغابة التي يُشيع الأفندية من أمثال مرزخوي محمد ومخوش أبي صرثُ متمرداً فيها، وجئتُ إليك؟ - سأل حاتام باسمًا، ثم لاهمه: - وأنت أيضاً أظنك لا تتق بي مثلهم... لا يفهم هذا الأمر من لم يشهد مأساء. ولكن أفكار من يعيش مضطراً وحيداً ستشعل رأسك دون دخان حتى لو امتلأ بالتبن. أنت، لا أنا، من قال إننا متشابهان. ولكن لن نستطيع أن نصبح متشابهين حتى لو قلنا إننا نحن الاثنين

^١ يعني تام الصغير.

متشابهان في المصائب التي مررنا بها. وحسب روايات كبارنا، وحسب ما رأيْتُ
بنفسي، وحسب ما قلت أنت عن الأتراك فإن من نشاركهم دينهم ومن لا
نشاركهم خدعوننا ولم يساندونا. وأنتم يقال إن أبناء دينكم وقومكم ساندوكم
في موضوع الحرية. على ما يبدو التقينا لا يعرف أحدنا الآخر فتوجب علينا أن
نتجابه على الضفتين اللتين تكلمت عنهما.

- وتبقون متحالفين مع الترك؟

- لا أعرف ما سيفعل أبناء قريتي أبزاخ في هذا الشأن. غير أنني، من جهتي، لن
أقف في صفٍّ أحدٍ.

- بحجة الحماية الذاتية، أُلّفوا من شراكسة مضيق ترغوفشت حشدًا من
الفرسان والمشاة. ولا يقتصر الأمر على ناحيتنا، بل ينطبق على البلقان كلها.

- وكيف أعرف ما يحدث في البلقان، وصلّتي قرارات مجالس قرانا. كل الغباء
شكّاكون، يخافون من أن تهاجموهم.

- هل تتذكرون البلغار فعلوا بكم شيئاً من هذا القبيل خلال السنوات التي
عشتموها بينهم؟

- لا أتذكر ولكنهم يقولون: من يعرف مايمكن أن يصدر منكم؟!

- من يقول هذا هم الأتراك الذين أسروا بلادنا بلغاريا. - قال ديمتروف تودور
نصفٌ قريب باغ حاتام وخصّ باختصار: - ألا يكفيكم خدعكم هؤلاء؟!

- وهل الترك وحدهم؟ هل هناك بلاد اسمها إنجلترا؟ إن وُجدت فقد سمعْتُ
كبارنا يقولون إنها هي الأخرى خدعتنا. ومن لم يخدعنا؟ من لم يخدعنا بمن
فيهم من جلبهم لنا من بولونيا المدعو بالتركية توفيق بيه قائد جيش لاينسكا؟
وكذلك روسيا التي طردتنا من بلادنا، والتي تساندكم الآن.

- أنظر إليك وأفكر فيك يا حاتام فأتعجب، لست مجرد مهاجر - منح تودور مع ضيفه الذي التحم شارياه بلحيته، ثم امتدحه: - عندك اطلاع على المظالم التي عانيتموها.

- وليس في هذا غريب يا تود فقد عانيت الظلم منذ كنت في الثامنة أو العاشرة التي وعيتُ فيها جيداً من مجموع سنوات عمري الثلاثين، ولا أزال. لا تسخر مني، حين تكون وحيداً ليس لك إلا رجلاك فالدنيا التي تعيش فيها مع تعاستك بدءاً من حصانك المسرج، إلى الأشجار، إلى المخيمات، والسواقي، والدروب، والتباب، والفصول الأربعة للسنوات التي لا نهاية لها، والسماء العالية، والسحب، وأمطار الرعود والبرق وبردها، والرياح... تشاركك كلها أفكارك، وتصبح تنفهم شفقتها وفرحها وبؤسها.

أضاء البرق من جديد الغرفة التي كان يزحف إليها الظلام وقد نسي تودور وحاتام السماء والأرض وهما يتسامران. ثم بدأ مطر غزيرٌ مصحوب بالرعد والبرق.

- ليس هذا مطرٌ خبيرٌ، سأدخل بحصانك إلى الإسطبل، لا تدعنا نذنب بحقه. - قال المضيف الذي نهض مسرعاً وهو يغطي رأسه بمعطفه.

- مرّ حصاني بكثير من تقلبات الجو أسوأ من هذا بكثير. إن كان هذا رأيك فحسنٌ، سأرافقك.

- ولماذا نعرض شخصينا للمطر، حالاً...

اقترب حاتام نافذ الصبر من النافذة التي كانت الطبيعة قد جُنتَ بقرها: أدخل تودور الحصان غير الصديق إلى مستودع الحطب الجاف، وأسرع بالهروب متحاشياً المطر الهاطل بزاوية مائلة. وما إن دخل الغرفة حتى أسرع بالقول وكأنه يعرف ما في دخيلة الضيف:

- لا ينوي المطر التوقف قريباً، وإن توقف فلن يكون مساءً ممتعاً.
- إن كان الجو سيستمر هكذا فهو أمرٌ سيء. كنت أود الركوب بعدما تلاقينا وتحادثنا.
- وهل ستغادر بهذه البساطة؟ - سأل تودور رافضاً ما سمع: وإلى أين ستغادر؟
- ألن يتسع لي مضيق ترغشت الواسع؟ المكان الذي يأخذني إليه حصاني ويتوقف عنده هو مقصدي.
- ماذا تقول يا حاتام؟ - ضحك تودور من أعماق قلبه - ما أجمل الاسم الشرکسي الذي سميت به ترغوفشت!
- لماذا؟ وهل ناديت المضيق الذي دفنوا فيه الأديعة، مضيق ترغشت، بغير ما يسمونه به؟ - كرر حاتام بلا مبالاة ما قاله، وضحك، ثم أضاف اعتباطاً: - المقرر أن أقضي ليلتي في محطتي المعتادة.
- لا، لا. لا تفكر في هذا الاتجاه كأنك لا تجلس في بيتٍ يمكن أن تقضي ليلتك فيه. يَحْتَلِ إليّ أن هناك أموراً لم نتكلم عليها بعد. وكما كانت أُمي تقول: القدوم بيد الضيف، والمغادرة بيد المضيف. ولا أظنك جئت على غير عادتك لترجية الوقت. إن كان هناك ما يشغل بالك فأنا أسمعك، وسأحاول أن أفهمك بقدر ما أستطيع.
- أنا يُقْلِقُنِي كثير من الأمور. غير أن أعْقَدَها، ولا أجد منه مخرجاً هو موضوع أختي التعيسة دارينخان. وفي هذا الموضوع ربما سمعت ما فعلته برجب عديم الإيمان ابن مراد بيه، والعفو الذي لا يستحقه من قِبل والدنا، وإن كنت لم تسمع...

- سمعتُ! - قال تودور باختصار، وشرح لحاتام سبب مقاطعته: - لا تلم مزحج لهذا السبب، تصرف على نحو صحيح، ما نذرته شخصياً، وفي موضوع أُسرِّي لا يهمّ الاجتماع. ثم إنه لا يجوز أن تُشهد أبناء قريتك على قتل تركي. أنت حملت على حارك الحصان الرجل الذي غضبت عليه، ورميته مكتفياً أمام المجتمعين.

- أنا المذنب الآن، والبقية كلكم حكماء وعلى حق... إن كان هذا رأيكم فأنا أعرف ما سأفعل بمن لوّث أختي، سليل الدنس... - غمغم حاتام لنفسه، ثم نظر إلى تودور برأس منتصب وعينين محمرتين: - هل صحيح ما سمعته عما تنوي بأختي المسكينة؟

- أختك دارينخان لا أنظر إليها على أنها مسكينة يا حاتام. وسنكون سعيدين معاً. - قال تودور، واختتم وقد فهم ما لا يستطيع حاتام أن يقوله: - وإن كانت مشكلة الطفل التي تتحسبون منها فيسيكون لي، سأريه وأنشئه. - ودارينخان ما رأيها، ماذا تقول لك؟

- لن أكتف ما لم يعد سراً: تقول لي: خذ رأي والدي وأخوي. - لماذا لا تقول هكذا من البداية يا مبارك النسل!.. - أنصت حاتام وقد قطع فرحته صهيل الحصان من جهة الباب.

- هل هناك ما يُقلق؟ - سأل تودور الحامل مصباح كيروسين، وأنهى بنبرة واثقة: - كلي "شوركا" كلبٌ نشيط، لو كان هناك ما يُقلق لأخبرنا.

- مهلاً، خيّل إليّ أن حصاني قلق... - حين خرج حاتام بجسده الضخم من الغرفة تعرّف على أحد الشخصين اللذين كانا يُخرجان الحصان من المستودع الجاف، وناداه: - حجرت، أهذا أنت؟

حين رجع حاتام إلى الغرفة يسبقه حجرت وقاسم وقد بللهما المطر الغزير
استقبلهما تودور باشاً:

- تفضّلاً أيها الضيفان الطارئان.

- هذان ليسا من الضيوف الذين يمكن أن يدخلوا بيتك، بل هما لصّان غيرُ
منتظرين. كادا يسرقان الحصان.

- ومن عرف أن الحصان لك؟.. - قال حجرت مبرئاً نفسه، وشرح الوضع
بدقة: - كنا طوال النهار ننتعّب حصان بارافانوف فتوقعنا أن يكون نزل عند
تودور في هذا المطر العنيف، فجئنا. ولكن كلبك ليس كلباً جيداً يا تودور -
اختتم حجرت الذي كان يبرّئ نفسه بالعتاب.

- هذا لا يصلح كلباً - وافق قاسم صديقه.

- لماذا؟ - سأل تودور بعدما قيل له عن كلبه.

- رمينا له عظمة فسمح لنا بالدخول.

- أنتما مخطئان يا أخوَي الصغيرين - دافع تودور ضاحكاً عن كلبه - أنا
شاهد على أن كلبى ما كان يسمح لكما بالخروج من أرض الدار. حسناً،
ليس هذا مهماً. اجلسا بجانب الموقد إذ حدث ما حدث وانتهى، وجففا
ملايسكما. ولا شك أنكما جعتما وأنتما تلاحقان طوال النهار هذا المخادع
بارافانوف، فاشربا شيئاً من الشاي على الأقل.

- اتركهما يا تود، لا تؤخّرهاما بالتجفيف والإطعام إذ لا شك أن القرية بكاملها
تبحث عنهما لأنها تقلق عليهما في هذا الجوّ المتوتر. تعالا اركبا حصاني الذي
لم تستطيعا سرقته أوصلكما إلى القرية.

حين التَقُوا في ظاهر القرية وهم على ظهر الحصان بمجموعة الرجال الباحثين بقيادة باغ مزحِب وناورز زغاشت رأى مزحِب الفتيين راكبين وراء ابنه الأكبر فتظاهر مرافقاً الحصان بأنه يعتنقهما والارتياح بادٍ عليه:

- أين أنتم ثلاثتكم إلى الآن يا مباركي النسل؟!

الفصل الحادي والثلاثون

في الساعة الحادية عشرة من الصباح، وفي الموعد المقرر، يقف على باب مصطفى باشا قائد الجيش خمسة أشخاص: برقت زوال، ووسمن مراد بيه، برتبتين متفاوتتين، وبزيّ الضباط الأتراك، والحاج برزج بكساء أسود يتوافق مع لحيته البيضاء، والاثنان الآخران محمد أفندي وحزرت أفندي يرتديان عباءتين بلون الرمل وعمامتين خضراوين. وعيون مَنْ في القاعة الفسيحة، ولو أنهم ليسوا كثيرين، ترقبهم.

- مضت بضع دقائق على الموعد المحدد لنا... - همس محمد أفندي في أذن الحاج برزج.

هزّ برزج له بما يعني: "نعم، وأنا لاحظتُ هذا..."، وهمس له هو الآخر:

- لا تدعنا نتكلم بلغتنا! هؤلاء يمتعضون منها.

- بأيّ لغة نكلّمهم ونحن لا نعرف لغتهم؟.. - لم يستطع حزرت أفندي إلا أن يعلّق على ما سمع.

فتحت البوابة الكبيرة، وأدخلت المجموعة التي يتّأسسها برقت. حيّا الضابطان برقت ووسمن بأيدي مسبلة إلى الجانبين مصطفى باشا الواقف في وسط القاعة لاستقبالهم، ووراءه الضابط المترجم الأديغي الوجه، في حين حياه الثلاثة الآخرون بإيماءة احترام.

أجلس مصطفى باشا الذي بدت قامته المتينة أعلى بفضل الرتبة الذهبية على كتفيه ضيوفه على مقعد طويل لصق الجدار. وجلس هو غير بعيد عنهم على الكرسي الكبير، وقال لهم دون مزاح:

- أراكم جمعاً كبيراً كأنكم تحملون خيراً مفرحاً. سنسمع لكم بسرور ضمن الوقت القصير المخصص لكم. ما الأخبار في المنطقة التي كنت فيها يا بكباشي؟

- الشمال الغربي لتركيا يسوده السلام أيها القائد الكبير للبلقان. والناس يعيشون والسلطان المنير الذي رضي الله عنه في قلوبهم. وكذلك الكفار، سامحي على ذكر أسمائهم، البلغار والرومان والروملي. والشراكسة الذين اتاهم الحظ السعيد بجيرتهم لكم بخير. وهم جاهزون لمساندة البلاد التي صارت جنة لهم في أي مهمة.

- إذا قرر الشراكسة أن يساندونا هكذا مقدرين الشفقة التي أبديناها نحوهم، وصادقين في موقفهم، فنحن أيضاً نقدرهم ونشجعهم. هؤلاء قاوموا الدولة الكبيرة روسيا عدوتنا الأولى دون سند، ونحن عاجزون عن مساعدتهم، مئة عام. من العيب والإثم أن تعود فتحاسب الشراكسة الشجعان على ما لم يستطيعوا تحقيقه. ولكن الوقت الذي سيثارون فيه لأنفسهم لم يعد بعيداً. ما عددهم في المنطقة التي كنتم فيها؟

- المجموع سبع وخمسون قرية أيها القائد الكبير.

- وكم يمكن أن يسكن في هذه القرى؟

- في كل قرية مئتان إلى ثلاثمائة وسطياً.

- أقصد عدد الرجال القادرين على استعمال السلاح.

- وهذا كان جزءاً من مهمتنا فأبجزنه: لابد أن في كل قرية مئة ولو أن عدد الذكور قليل.

- من البديهي أن يكون رجال الشراكسة الذين سَلِموا من الحرب قليلين... - قال القائد، ثم فصل: - غير أن كل واحد من مقاتليهم يساوي بضعة مقاتلين من الكفار الذين سردت أسماءهم، بالإضافة إلى من يساندونهم من الروس. على كلامكم يمكن أن يخرج من المنطقة التي كنتم فيها من ثلاثة آلاف مقاتل إلى خمسة آلاف.

- تعدادهم أيها القائد الكبير سيصل خلال سنة إلى عدة آلاف.

- ونحن نفكر هكذا في هذا الموضوع المهم واضعين في الاعتبار الأماكن الأخرى التي وطّنا فيها الشراكسة. - قال مصطفى باشا باختصار، وأكد عليهم: - غير أنني أَلح عليكم، إذ لم يصبح الموضوع الذي تحدثنا فيه موضوعاً حكومياً رسمياً، أن يبقى في هذه القاعة، وبيننا. وأنت يا محترم كنت تريد أن تقول شيئاً، أسمعنا!

- وأنا موافق أيها القائد الكبير على ما قلت - قال الحاج برزج مرتاحاً لإبراز اسمه على نحو مفاجئ - نحن جاهزون في أي وقت للثأر للدم الشركسي.

- إن كان هذا رأيك فالشكر لكم، ننهي لقاءنا اليوم. أما أنت أيها الضابط وشمس فابق لأني أحتاجك. - حين بقي التركيان وحدهما في القاعة سأل مصطفى باشا الضابط مراد بيه: - هل تثق بهؤلاء الشراكسة؟

- يحدث أن أثق بهم وألا أثق.

- أجب عن سؤالك جواباً واضحاً!

- هؤلاء تغلبهم الحمية.

- هذه ميزة، لا عيب.

- لا أظنهم فهموا إسلامهم تماماً.
- سيفهمونهم في تركيا، وماذا أيضاً؟
- الحسدُ مرضُهم.
- لا أعتقد أن هناك عرقاً ليست فيه هذه الصفة.
- ويتنازعون الزعامة.
- ونحن فينا هذه الصفة. تكلم على صفة إيجابية أخرى.
- مقاتلون، صادقون، جديرون بالثقة.
- هذا ما كنتُ أريد أن أسمعه. ولكن لا أقصد بهذا ألا تراقبهم ولا تبحث عن نقاط ضعفهم. لا تدعُ برقت يغيب عن ناظريك دون اعتبار لفارق الرتبة الكبير بينكما. لا تدعُه يعرفك، واحذر منه، وعامله بلطف. وأذكركُ ثانية لأنه قريب السيدة الكبرى، وأنه مشمول برعايتها، وأنها تكلف دائماً من يسأل عنه.
- أتبع مصطفى باشا الضابطَ الخارج من القاعة كلامه: - ليس من الآن نعرف الحاج برزج، والأفنديان ربما ليسا سيئين. ولكن من يعرف، لا تجعلهما من ثقاتك. ونحن سنقيّمهما تبعاً لإخلاصهما لنا.
- سأعاملهما أيها القائد الكبير كما طلبت. ولن أدعهما يخطوان خطوة خارج رقابتي. وسأطِلك حتى على ما يكتمان في صدريهما. - وعدَ وضمن مراد بيه قائده، ثم خرج من القاعة قائلاً في نفسه: "غير أنني لا أعرف إلى من أفضي بمشكلات أسرتي فيضعُ حداً لها ويوقفها من جديد على قدميها" ثم عاد برأس مرفوع ووجهٍ طليق كأن لا شيء يشغل باله إلى من كانوا بانتظاره.
- لم يكن استيقاف مراد بيه الذي تحت أمرته من قبل القائد، وانفراده به، هو ما يُقلِق برقت بل إثارة القائد الحاج برزج بالسؤال والجواب خلافاً للآخرين.

الفصل الثاني والثلاثون

سماء بداية الربيع صافية كوجه المرأة. والغابات الواسعة المتباعدة التي تلتحف هذه السماء مُشمسة حتى تكاد العين لا تُحيط بها، موجة عظيمة من الخضرة. ومن بعيد تبدو القمم البيضاء فتتصورها سُحباً. وأوراق الأشجار تُصفق. وأطراف الأعشاب تتراقص. وبعض الجوارح تدوم هنا وهناك. والساقية الجارية على جانب الطريق تنثر مياهها الفضية.

حين وصل وسمن مراد بيه إلى الربوة ظاهرَ قريته أوقف حصانه، وقال لألبان وكأنه يراه أول مرة:

- هيا أسرع، وأخبر رجب أبي عائذ من بلغراد البعيدة. أنا سأصلي الظهر عند هذا النبع، وسأدعو إلى الله العلي العزيز أن يغمرنا برحمته، ويتفهم ما نفعله دون إرادة منا. إيه يادينا المنيرة الجميلة، ما أشد نفاقك وخداعك. لن ندعك تخدعينا مهما تملقَتنا.

منذ ما قبل الضوء، ورشما نشف مراد بيه ماء الضوء من وجهه وذراعيه ورجليه وأصابع يديه، ورشما أسبل كُمية، وطرفي سرواله، وفرد سجادة صلاته ووجهها إلى القبلة ووقف عليها، كان موضوع ما حدث لابنه وحلول هذه المشكلة هو ما يفكر فيه.

وبعدما أنهى الصلاة، وترث قليلاً مع الله على ركبتيه، كان ما يدعو الله لأجله هو الموضوع نفسه: "ليس ما كلفني به عبدك مصطفى باشا قائد الجيش مشكلة، سألي له كل مطالبه بقدر المستطاع لأني أنا من سينفذه، ولأنها كلها بعلمك وإرادتك. وكما وعدتك يوماً فسأعيد الشراكسة الذين لم يصبحوا بعدُ مسلمين حقيقيين إلى جادة الصواب، وسنجعلهم يوقنون أنك موثلهم الأخير. أنا، مشغولاً بقضايا بلادي تركيا، وبمعادة الكفار، عاجز عن حلّ

مشكلات أسرة ابني الوحيد الذي منحتني إياه. أتوسل إليك أن ترقق قلب المرأة الشركية التي لا تودّنا، فتعيده إلينا وسط تعجّب الناس الذين يسمعون أو يرون، مع ابننا الذي في رحمها. وتعيد السلام الذي ساد أسرتنا إليها... أنا لا أدين الأسرة الشركية التي كنت أود أن أجعلها من أهلي، والولد، وأمه، والمرأة التركية التي هجرت ابني والتي لا أولاد لها... أنا المذنب. أنا جالسٌ في حضرتك، أتضرع إليك أن تحلّ قضايا أسرتي على خير..".

سأل مراد بيه الفارسين اللذين اقتربا منه فيما كان يطوي سجادة الصلاة، ويعلّقها بطرف سرجه، دون أن يلتفت إليهما بصوت متعب غير متشوق:

- أنتما؟

- أهلاً بك يا والدنا - ترحل رجب بمزاج سيء من الحصان: - الحمد لله على وصولك بالخير إلى ظاهر قرينتنا.

- حياك الله! هيّا بشرني إن كان عندك خبر طيّب.

- هناك خبران... - قال ألبان بدلاً من رجب الذي كان يمطّ عنقه: - غير أنني لا أعرف يمّ أبداً... سأبدأ بالأحسن: عادت الكتّة مَهْنُور من تلقاء نفسها إلى البيت.

- وماذا كان بيدها إن لم تعد؟.. - مرة أخرى تتم مراد بيه دون أن يلتفت - والخبر الآخر، أهو أحسن؟

- هذا إن كان خيراً لبعضهم فليس خيراً لنا: ابنة أسرة باغ، كُنْتُنا السابقة تزوجت...

التفت مراد بيه الذي أمسك بطرفي السرج بقوة، ووقف قليلاً، بقامة قوية، وسأل:

- وهل يحقّ للكنة التي تحمل جنين آل وَثْمَن أن تتزوج؟! من الذي تزوج من امرأة في أواخر حملها؟

- هو ديمتروف نصف البلغاري نصف الشركسي...

سار مراد بيه قليلاً واللجام في يده مطرق الرأس، ثم عاد إلى السرج كعقاب يُقلع إلى السماء.

الفصل الثالث والثلاثون

أحسنُ الأخبارِ حين تمرّجه بنكدك وتُشيعه بين الناس يعود إليك على نحوٍ يُنكره حتى الذي أطلقه، متغيراً، يحوِّره كل سامع كما يريد. ولكن مهما تنوع وتعدد يبقُ مُلكاً لصاحبه ساراً كان أم مخزناً. والحياة تحمل الخير والشر متلازمين حتى يصدرنا عن الناس.

عاش باغ مزحج الأديغي ووسمن رجب مراد بيه التركي معاً متباعدين لا يعرف أحدهما الآخر، ولا تتفق لغتهما ولا عاداتهما وطبائعهما في الدنيا التي يسميها المنتفعون من الدين بالدنيا العارية. والآن وجب عليهما، وقد جمعتها مأساة الأديغة، أن يعيشا في بلاد واحدة يتوسلان القرابة بينهما ولا يتوسلان، أحدهما غريباً، والآخرُ وتداً ثخيناً مغروساً في الأرض. ما العمل؟ إذا كان القوي يكسر الهشّ، كما يجري في الحياة، والحجر يتشقق، والسيوف الفولاذي تطوّعه النار، فالماء الذي يشبهونه بروح الإنسان يسقيه^١. ومع أن الحب من هذا القبيل فهو مختلف عنها. إن لم تعتنِ بالحب الهش الذي ينشأ بين الرجل والمرأة، وتحرص عليه، وتتوسل إليه، انكشف لك يوماً ما عن حجر باردٍ أصمّ.

^١ لافرق بين اسم الماء واسم الروح في لغة الأديغة إلا الفتحة الأخيرة في اسم الروح التي هي فتحة كاملة بالعربية، ونصف فتحة في اسم الماء.

داريخان التي اكتوت في طفولتها بنار الوطن، وأنتهت الأم والجدّة حياتيهما في حضنها، ثم عاشت في الغابة الكثيفة الشائكة المحاصرة، وشهدت بعينيها موت المئات جوعاً ومرضاً، والتي اختاروا لها أخيراً مضيقاً بعيداً في بلغاريا موطناً، هل كانت في حالٍ يسمح لها أن تعرف الحب وتفهمه؟

الإنسان الذي يكمن الحب في صدره لا يعرف كيف يولد الحب، ولا كيف يكون، ولا موعدّه. الحب لا يعترف بحربٍ ولا بمجاعة، ولا باختلاف اللغات وتمايز الأعراق، ولا بالجميل والقيح. يبدأ من النظرة الأولى، من تبادل الحديث، من الرغبة السرية المتبادلة، ومن الرحمة؛ بل يبدأ من المأزق.

كانت المصيبة غير المنتظرة التي ألمت بداريخان نتيجة لوضعها البائس. كان هناك من سمعوا خبر اختطافها فقالوا: "طوبى لها، أنقذوها من حياة البؤس؛ أعجيبٌ إن كان العريس تركياً، أو كانت زوجة ثانية. القرآن يسمح للرجل بأربع زوجات. دخلت أسرة غنية. ستعيش وهي ترفل في أثواب الحرير، وكل ما تطلبه أمامها"، وكان هناك من لم يقبل طريقة اختطافها الظلمة، ومن تجاهل أمرها متظاهراً أنه لم يسمع شيئاً. ومن قالوا: "حين هربت إلى بيت أهلها دمرت سعادتها بيدها" فسحروا منها ليسوا قلائل. ومن لم يقبل هروبها إذ عرف أن في بطنها جنيناً فقالوا الكثير حرّفوا الكلام واخترعوه كثيرون جداً. وكان في القرية من يقول إن والد الجنين هو حاتام، لا وسمن رجب، فخافت أن يكشفوا أمرها فهرت بجلدها، وإن حاتام اختفى للسبب نفسه. ماذا سيقول هؤلاء وغيرهم إذن وقد تزوجت فجأة من ديمتروف تودور الذي لم يكلمها إلا مرة واحدة، وفي آخر مراحل حملها؟ وربما كان هناك من يسخر قائلاً: "هي تزوجت لأنها كانت في أزمة، وكان عليها أن تتزوج، ولكن أما كان بإمكانها ألا تأخذ الجنين إلى بيت مسيحي غريب؟..." وماذا سيكون موقف الأسرة التركية

المسلمة التي هربت منها وجنيتها في رحمها؟ وكيف سيتصرف مراد بيه الذي لم يضعوا مضيق ترغوفشت في يده دون تكليف رسمي؟..

شمس منتصف الصيف ترتفع في السماء ناشرة الدفء في الأرض التي بردها قليلاً نسيم الليل القصير. وبيت تودور في القرية العمالية "ستيفانوفكا" المنتصبة بعدة بيوت متباعدة على تُحْم الغابة المرتفعة الخفيفة الشجر يبدو على نحوٍ يزرع الأسى في القلوب كأن أحداً لا يسكنه، لولا أنه كان يقطع الحطب بقميصه المبلول بالعرق: لا ديك فيه يصيح، ولا حروف يثغو، ولا صبيّ يلعب؛ بل لا تسمع صوت عتاب أو توييح. وتود الذي اعتاد من الطفولة وحتى سن الثلاثين على هذه المظاهر غير عابئ بهذه الحالة. وإن كان عابئاً فحين يعيد التفكير في طفولته يحزن ويشعر بالإهانة إذ عاش غير حرٍّ في أكثر أموره، مكبوتاً، في البلاد التي لا تستطيع أن تسمي نفسها باسمها. وليس هذا الشعور وليد اليوم أو الأمس بل السنوات الماضية، بل مضت مئات السنين تحتل فيها تركيا البلقان، وتتوسع شرقاً وغرباً وجنوباً.

"وكانت تنوي احتلال القفقاس أيضاً. - غرز تودور الفأس في الحطب، ومسح بكمه العرق عن جبينه، وجلس يعبّ الهواء. - ظلت تركيا تدفع الشراكسة التعساء الذين تنتمي إليهم أمي المرحومة إلى القتال حتى أدّت بهم إلى أن يُطردوا من بلادهم. والآن جاءت بهم إلى هنا تريد أن يحاربونا لينأروا لأنفسهم، وتوطّد بهذا حكمها لولا أن أبناء قومنا إخواننا حالوا دونها. أيُّ بلادٍ جنة كان يعيش فيها هؤلاء كما كان يروي بارافانوف... من حظي أني لم أذهب إلى هناك كما فعل بارافانوف. لو فعلت هذا لتوجب عليّ أن أسفح دم أمي، وربما كان هذا ما لجمني. أنا لم أذهب إلى أي مكان كي أسلب أرض أحدٍ، أو أفرض حكمي أو لغتي بالسلاح، ولن أذهب، كما فعل الأتراك. وإن كان ما

فعلت بشأن داربخان فلا علاقة لأحد بي ولا يهمني أن أبقى في أفواه الناس يقولون عني ما أريد وما لا أريد. ولتكلّموا عليّ بأيّ لغة يشاؤون! سأري الطفل ذا العرق التركي الشركسي كما لو كان ابني. وهذا موضوع منتهٍ بالنسبة إليّ لأنه لا شأن له بالدين أو العرق بل موضوع قرابة. وقد اتخذنا كلانا معاً هذا القرار كنذرٍ للزواج. وعلى هذا فالشمس والسماء والنهار المنير والليل المظلم كلها شهودي كما كانت المرحومة أمي تقول".

خرج تودور من أفكاره الأخيرة ونظر نحو الغرفة التي تجلس فيها داربخان، وأشار باسمًا لمن كانت تنظر من الشباب أن تخرج. وهُرع لاستقبالها يريد أن يكسب وقت الانتظار.

- تعالي يا داربخان. كنا اتفقنا قبل أيام مع جدنا ستيفان الذي سيصبح جداً لابننا بعد تعميده أن تبقي على رجلك أطول فترة ممكنة، ولكن، لا بأس، دعينا نجلس قليلاً على حائط هذه الغرفة المشمس. الجو جميل، والهواء نظيف، وأنتما محتاجان لهما.

- لسنا وحدنا يا تود بل ثلاثتنا. - قابلت داربخان الزوج الذي نظر إليها بخنان بنظرة مماثلة، وقالت - وأنت تكسب ما عندك بالعمل ليلًا ونهارًا؛ اجلس إلى جانبي واسترخ! وعدنا حاتام وحقرت بالجيء اليوم أو غداً؛ سيقطعان الخطب بسرعة ويودعانه في المكان الجاف.

- أخواك نشيطان وصادقان يا داري - امتدح أخويها وهو يناديها باسم الدلال، وأنهى الحديث متهمًا نفسه - ولكن هل أشعل أنسبائي؟!

- لا بأس إن عملوا قليلاً. - قالت داربخان بإيجاز طريقة لا تعرف منها أي جادة أم هازلة، وفسترت ضاحكة من قلبها: - وفي جميع الأحوال والدنا أفسد أخلاقهما من شدة حرصه عليهما ولطفه الزائد معهما. مهلاً، لا أعرف ماذا

جرى لي اليوم حتى تجلس وقميصك مبلل بالعرق، اخلعه، سأتيك بقميص آخر. لا، يا تود، لا، أنا سأذهب. أليس ستيفان من نصحي أن أتمشى المزيد. ها هو حالاً. - دخلت دارينخان إلى الغرفة تشم رائحة عرق زوجها الطيب.

نظر تودور إلى أسفل التبة التي يقع عليها بيته دون أن ينظر إلى كومة الحطب المحتاجة إلى التقطيع وإلى الفأس المغروزة في الأرومة. وفيما هو يتشوف ما وراء مستنقع القصب بقلبه نظر إلى الجهة التي يقع فيها مُستراح أغنام العجوز ستيفان. ودخل بعينيه إلى اليمين حيث القرية التي جاء منها بدارينخان. وسار على شارعها الوحيد محمياً كل من يصادفه من رجال ونساء، وصغار وكبار. وفيما هو في القرية نظر إلى الأبعد، إلى الجهة التي فيها قرية مافليود التركية، نهض من دنياه المنيرة التي أظلمت، وهوى بفأسه على الحطب قائلاً: افعلوا ما تريدون إن كنتم تستطيعون، فاستأنف تقطيعه للحطب.

- يا تود أراك عدت إلى تقطيع الحطب من جديد. ألم نتفق على أن يعاونك أخوأي متى جاء! - ذكّرتة وهي تلاطفه فيما تعلّق القميص بحبل الغسيل. - اتفقنا، ولكن كيف أقعد عاطلاً في هذا النهار الصاحي المشمس! ما إن أفرغ من القطعة العجفاء اللعينة هذه حتى أتوقف.

- ولماذا علقت بها، انتبه إلى رجلك!

- وهل تظنينها وحدها يا حلوتي ما في هذه الكومة؟- ابتسم تودور للمرأة. وفيما هو يلبس القميص الجاف الذي جاءته به مازحها - إن خوْفُني هذه فستسخر مني بقية الحطب. ابتعدي أنت!

مرة أخرى جلس تودور ودارينخان على المقعد الطويل في الجانب المشمس من البيت كأنهما يلتقيان أول مرة، مشتاقاً أحدهما إلى الآخر. وفيما يتبادلان حديثاً مألوفاً وضعت دارينخان رأسها على كتف الرجل. وتودور الذي ارتاح

لهذه الحركة لان قلبه تماماً فتهياً له أن العالم الذي كان ينتصب أمام عينيه من خليط الترك والبلغار، ثم أضيف إليه الأديغة الغرباء، أجمل وأقرب تناولاً: وسمع ثانية زقزقة العصفور في أعلى الشجرة، وارتسمت أمام عينيه الأشواك التي نبتت بجانب سور الإسطبل، ولاحظ أن السحب التائهة في السماء تلتقي بمشياتها. وأضيف إلى المناظر قبة كنيسة قرية ستيفانوفكا المدببة، ومجموعة البيوت أمامها. وانتبه إلى تنفس حبيبته وراحة قلبه.

قالت دارينخان:

- حان الظهر، طال قعودي، تعال يا تود أغديك!

- لم نسمع بعد صوت المؤذن الذي يعلمنا بقدم الظهر.

- ألا تُسمع أجراس الكنائس ظهراً يا تود؟.. - سألت دارينخان الزوج اعتباراً مع أنها تعرف أنها لا تُقرع ظهراً، ثم أصلحت كلامها بسرعة حذرةً من ألا يعجبه السؤال: - نسيت أنها تُقرع مساءً فقط.

- في طفولتي، حين كانت القرية مأهولة أكثر من الآن، كانت تُقرع أكثر.

- في قرية أبزاخ لا يعيش كثير من السكان. ومع ذلك يُسمع صوت المؤذن "مَراو" خمس مرات كل يوم.

- الشراكسة - الأبزاخ مسلمون كالأتراك. والقليل من البلغار ممن بقي في ستيفانوفكا مسيحيون. ولما كان الترك يستأوون من صوت الجرس أُجبروا على الاكتفاء بقرعه يوم الأحد فحسب.

- لا أعرف سبب تصرف الأتراك هكذا. - أسرعت دارينخان بالتعليق رافعة رأسها ولو أنها لم تصدّق ما سمعت. - صوت جرس الكنيسة، كما يقول والدنا، جميلٌ يلامس أعماق القلب.

- هكذا يقول والدك؟ - استغرب تودور.

- يقول.

- إن سمع الترك أنه يقول هذا أعدموه بتهمة الكفر.

- وبغض النظر عن هذا فوالدنا - استعجلت داربخان دون أن تفكر - يلقبونه في مافليود بالكافر... لِيُطْلِقُوا عليه هذا اللقب، لا بأس، فلن يتحول والذي إلى إنسان عديم الشرف مثلهم. وأنا وحاتام وحجرت أيضاً. لا أحد يعرف هذه الأسرة كما أعرف ولو أنهم يُشيعون عن أنفسهم أن الله لامس جباههم. - دعينا يا داري في هذا النهار المشمس اللطيف من هذه الأحاديث المزعجة. ولنتكلم في موضوعات ممتعة. انظري إلى طبيعة بلغاريا ما أجملها!

- كانت بلادنا التي جانبنا الحظُّ فيها أجمل من هنا...

صدر من جهة قرية أنباخ صوت المؤذن مراو يدعو إلى صلاة الظهر. وتلاه مؤذن قرية البجدوغ الأجرش. وجاوبه مؤذن الشابسغ الرفيع. واحتلت السماء أصوات مؤذني الترك في القرى التركية المتناثرة هنا وهناك على سفوح الجبال. نهض تودور بميئة المتضاحك المخادع:

- تعالي يا داري، لننتغداً!

الغرفة الحجرية ذات النافذتين الضيقتين، المتوسطة العلو، منعشة بالقياس إلى دار أسرة ديمتروف البلغارية - الأديغية الحديثة الحارة الباعثة على الضيق، التي تُظللها الشمس الحادة. والقُدُرُ الصغيرة الملفوفة بجلد الخروف موضوعة على المائدة الطويلة العالية المصفوفة إلى جدار غرفة الموقد ذات النافذة الوحيدة. وعلى منديل ملون نظيف بضعة أرغفة من الخبز الرقيق. والصحن المعدني الأبيض الرقيق مملوء بشمار البندورة غير المقطعة والخيار والفلفل. وإلى جانبه المملحة، وصحن لكل منهما، وسيخان، وسكينة، ومناديل صغيرة.

- هذا يا تود من البطاطا الحديثة التي زرعتهَا هذا العام. - انبعث البخار من
القدر الصغيرة التي رفعت داريخان الغطاء عنها. - وهذا الباذنجان والخيار
والفلفل كله من بستانك.

- الآن صار بستاننا أنت وأنا يا داري.

- نعم، بستاننا. وجبن الغنم هذا مما جاءنا به ستيفان قبل مدة. والخبز الرقيق
شاركتني أمس في خبزه، ثم ماذا بعد؟

- والملح؟.. - مازح تود داريخان.

- هذا مما جاء من بيتنا. كُل يا تود، هنيئاً مريئاً! ادعُ إلى الله قبل أن تمدّ يدك
إلى الطعام لأن ما على المائدة من النتائج الجديد للعام. هذا ما كانت جدتنا
المرحومة تنصحنا به.

- وهذا ما كانت والدتي تقوله... - كان يؤدّ تودور أن يرسم إشارة الصليب
قبل أن يشرع في الطعام، ولكن داريخان أسرع قبل أن يمد يده إلى صحنه:
- مهلاً يا تود، أنت تنسى ما كنا اتفقنا عليه قبل أيام: أنا سأقول: بسم الله،
وأنت ارسم الصليب.

- نعم يا داري، كنا اتفقنا... لن ننسى اتفاقنا، ثم سنرى لاحقاً.

- كل شيء سيكون على ما يُرام يا تود. الطعام طعام لكل إنسان فلا يستقبله
إلا بالخير!

قال تودور بعدما انتهى من الغداء بسرعة على عادته:

- شكراً يا داري. تمتعت بطعامك، كُل ما على المائدة كان شهياً.

- لا داعي للشكر يا تود، هنيئاً!

- إن كان هذا رأيك، وإذا كنت لن تسمح لي بتقطيع الحطب فسأروض حصاني قليلاً إذ هو في راحة منذ البارحة. وسأورده الماء. لن أذهب بعيداً، سأعود ريثما ترفعين الطعام.

رفعت دارينخان الطعام عن المائدة دون أن تُثقل أشهر حملها السبعة على تناسق رشاقتها ومهارتها اليدوية. لم تكن تريد أن يعود زوجها وهي تَقيل على الأريكة كما رغبت فاستلقت على الكرسي الناعم المريح. سألت نفسها دون أن تعي وهي سارحة في خواطرها القريبة البعيدة: "هل أنا محظوظة؟" .. - وسخرت من نفسها - ربما لم أشهد سعادة إلا في هذا الشهر والنصف من سنوات عمري الست والعشرين... أقول هذا ولكن حين كنا في وطننا، مع أنهم شتوا علينا حرباً لا نهاية لها، وطاردونا في قرانا الجبلية يحرقونها، وحين دُفِئنا إلى ساحل البحر، وفي إقامتنا فيه، كان عندي أُمي وأبي. وكنت أستمَد الثقة من والدي الذي كان يقف في مواجهة الأعداء. وحين يعود إلينا ليوم واحد كانت الدنيا تضيق عن فرحي، كنا محظوظين... وفي السفينة المشؤومة التي ركبناها قبل أن يُتاح لنا دَفْنُ جثمان أُمي كنتُ محظوظة ما دامت جدتي معي، تضع رأسها في حضني وتهمس لي بكلماتها العذبة الأخيرة... وحين حملني والدي، الوحيد الذي بقي لي على ظهره من السفينة إلى شاطئ "أجي" كنت محظوظة لأني على قيد الحياة... وحين كان الجوع والكوليرا يقتلانا في غابة "أجي" فوجد فيها حاتام وحجرت وأشفق عليهما وراهما معي كنت محظوظة... وفي المضيق الذي وجدنا أنفسنا فيه، ومهما مرّ بنا من صعب، وطوال احتفاظي بعذريتي، وحتى أهان المجرمون عفاي في الأسرة التي نُكِبْتُ فيها كنت محظوظة... - صحتُ دارينخان من ذكرياتها التي فيها شيءٌ من الفرح وسط العذاب بعدما خُيِّلَ إليها أن صوتاً صامتاً انبعث منها، فتفحّصت ما حولها ناسية مكانها.

والآن، وقد عرفت من نفسها أنها ليست وحيدة، لمست بطنها بيديها الناعمتين، ولاطفت من تحرك في رحها قائلة: ما سمعته يخصني أنا، لا أنت. ارتع، أنا من يملكك الآن، ولن أتخلي عنك لأحد.

تحركت داربخان في أرجاء البيت تعمل وترتب كي تنسى ذكرياتها التي هاجمتها: مسحت المائدة ثانية، وتفحصت من جديد الصحن النظيفة، ولقت الأربعة الرقيقة المتبقية بمنديل نظيف. ونقلت ما بقي على المائدة من البطاطا إلى صحن أعمق. ومسحت بيدها على المقعد الذي كان يجلس عليه تودور. وكنست أرض الغرفة النظيفة. ونفضت الوسادة المملوءة بريش الإوز من على الصوفا. وأنصتت تريد أن تسمع صوت الرجل وإن لم يمض على خروجه أكثر من نصف ساعة. ونظرت باتجاه الفناء، وأسدت الستارة على النافذة التي عشتت الشمس قربها. ومهما اخترعت داربخان من أعمال صغيرة لم تكن أفكارها المتناسقة - المتناثرة تُفلتها.

كان ما تفكر فيه في هذه اللحظة هو الحظ المفاجئ الذي ظهر لها ليمسح العار عن الفتاة التي كانت تشتت أن يستيقظ الحب في قلبها. ومع ذلك سألت داربخان نفسها وهي تعاتبها: "هل من حسن الحظ أن تقترني بمثل تودور بعدما عبث بك من لا تحببه وزرع فيك طفله، وبعدها حدث لك ما حدث، وقيل فيك ما قيل؟.. وكيف سيكون موقف البلغار الذين اختلطت بهم عن طريق تودور، وماذا سيكون موقف أصدقائه منه؟ ها قد مضى شهران على اقتراننا ولم يدخل بيتنا إلا العجوز ستيفان وأخوأي. ولا أعرف، لو لم يكن تودور وحيداً، لو كان عنده أهل، كيف كانوا سيتعاملون معي، وكيف سيستقبلوني. مهما حاولنا كلانا التظاهر بعدم الاهتمام بالأمر فنحن من دينين مختلفين. وحين قلت لتودور هذا الكلام ضحك وأجابني: قالت لي

أمي: كنت مسلمة حين ولدتك. أقول لتود وحجاب جدتي ما يزال في عنقي كما وضعته، وكتاب أمي الذي وضعته تحت وسادتي كما وضعته، ارسم إشارة الصليب، لا تنسها، ولا تهتم بما عندي. نعم، هذه وغيرها من ممارسات الحياة مشكلة، ولكن مشكلة المشكلات هو الطفل الذي أحمله. لا أعرف كيف سنعيش نحن الثلاثة معاً... وإلا فتودور إنسان طيب يتحلى بالصدق والشفقة. ولو لم يكن من هذا النوع من الناس لما أتى بي إلى بيته. والآخرون يعزّمون، حسب ما يأمر الإسلام، أن ينتزعه مني. هؤلاء ليس الدين وحده يتحكم فيهم، بل دولة كاملة تسندهم..."

لما خرجت داربخان من الغرفة بعدما سمعت وقع حوافر الحصان الداخل إلى الدار قال تودور قلقاً عليها:

- لا تخرجي من البيت إلى هذا الجو الحار... ها أنا حالاً.
ولما دخل مرهقاً من الحر إلى البيت نهضت داربخان كما كانت أمها تفعل، واستقبلته بوجه طلق:

- تفضل يا تود، ادخل. بقيت طويلاً في الحر، اشرب ماء بارداً.
- الماء البارد حسن، سأشرب، - شرب تودور من الكأس التي مدتها له بيدها الجميلة، وسألها: - ما أخباركما؟

- نحن؟ - مع أنها لم تكن تسمع هذا لأول مرة فقد سألت مرتاحة، ثم فصّلت: - نحن مرتاحان إن كانت الدنيا مرتاحة.

- والطبيعة التي دوّخها الحر مرتاحة. والحوار هادئ. وكما يقول حاتام: لا شيء يُخيف.

ودون أن تُظهر داربخان قلقها من طريقة نطق تودور للعبارة: "الحوار هادئ. ولا شيء يُخيف" قالت هي قلقة على الزوج أكثر من قلقها على الآخرين:

- يا تود، نم هنا وارتح قليلاً. وأخوأي اللذان ننتظرهما لن يأتيا اليوم.
- وأنا هذا رأيي. أنا ليست راحتي مهمة، أنت من يجب أن تستريح.
- أنا استرحتُ قليلاً في غيابك.
- وكيف تستريحين وأنا لم أغب نصف ساعة؟.. لو عرفت أنك تستريحين لأطلتُ غيابي.
- فعلتُ خيراً بعودتك يا تود. لا، ليس لأني كنت خائفة.
- والآن هل تعرفين ماذا سنفعل كلانا يا داري؟ سنتنزه ولحام الحصان بيدنا. — مزح تودور مع داربخان.
- حين خيم ليل الصيف القصير على جوار قرية ستيفانوفكا، وأوت أسرة ديمتروف الصغيرة إلى البيت الحجري. أتت داربخان في حديثها على العجوز ستيفان:
- والمسكين ستيفان لا نعرف أخباره. حين زارنا قبل أيام خمنتُ أنه متوعل.
- بعدما قتلوا بوريس الذي كان أمله، تأثر ستيفان جداً رغم أنه يحاول إخفاء حزنه.
- مسكين، من سوء حظ الإنسان أن يبقى وحيداً في شيخوخته... على يد من يثرى كانت نهايته؟
- يكفي أن أعرفه أنا! — جزم تودور، وأنهى بصوت اللطف: — حين أثار لدم بوريس...
- يا مصيبي يا تود... — ارتعبت داربخان.
- ليس الآن، سيحين وقته...

- ربما ليس هناك ما لا يحين وقته. - أضافت داربخان ما يقلقها وقد فهمت من لم يُذكر اسمه: - سأطبخ غداً يا تود، وتحمل شيئاً منه إلى المسكين ستيفان.

- هذا حسن، ولكن إذا أتى أخواك. لا يمكن أن أتركك وحدك في البيت.

- وكيف أكون وحدي. ألن يكون الله معي كما كانت جدتي تقول؟

- سأخبرك بما كان والدي يقول في هذا الشأن - ضحك تودور ضحكة خفيفة - توكل على الله، ولا تُخطئ. حسناً يا داري، لنصبح على خير. غداً يوم آخر.

صباحاً مع موعد الشاي، حين رأى تودور حاتام وحجرت يركبان حصاناً واحداً وفي حضنهما خروف حيّ استقبلهما تودور يسبقه كلبه الضخم شوكا لاعباً. ولما سمعت داربخان صوت الأخوين اللذين تنتظرهما خرجت من البيت تطير من الفرح:

- أطلقا كلبكما عليه كي لا يكذب بعد الآن - قال حاتام الضخم الذي كان يُنزل الخروف من حارك الحصان مشيراً إلى أخيه حجرت، وشرح لهما خبر الخروف الذي يدخل به إلى الدار: - أرسله لكما والدنا، طلب منا جازماً أن نفعل به ما يجب.

- أنا عملتُ ما عليّ: سننتُ لك السكين، وقرأت عليه الدعاء، وأنت أُر تودور ما أنت ماهر فيه. - رد حجرت حذراً على مزاح حاتام بمزاح. - ولا تنس توجيه وجه الخروف إلى القبلة، والبسلة.

- إهدأ يا حجرت. ستُغضب أخاك الأكبر.

- نعم، نعم يا داري - عاد حجرت بسرعة إلى وعيه، وأصلح الموقف - ألن أجد أنا أيضاً ما أفعله في هذه الدار الواسعة؟!

- مهلاً، مهلاً - عارضت داربخان الآن أخويها - بعد أن أقدم لكما الفطور.
- نحن انتهينا للتو من الفطور - قال حاتام وهو ماضيّ دون أن يهتم بكلام أخته، وشرح لها: - وهل يدعُك والدنا تخرج من البيت دون فطور!
- ومن طبخت لكم يا حسرتي؟
- أنسيت أن هذا طبّاخ ماهر - قال حجرت لأخته مشيراً إلى أخيه الأكبر دون أن يُسمعه.
- كفّاك ثثرةً؛ هيّا جهّز مكان إشعال النار!
- حاضر! غمز حجرت أخته، وصحح موقفه - ها هو الخطب المقطّع جاهز، ولا شك أن عند تودور العصا الحديدية والكلابتين.
- لا تقلق يا حجرت. عنده ما تطلب. بل يمكن أن نجد شيئاً من الفحم. - أراح الصهر حجرت من مطالبه الكثيرة.
- انتهى حاتام وصحبه خلال بضع ساعات من إعداد الخروف شيئاً وتخفيفاً. وجفل تودور من القرع المفاجئ لأجراس كنيسة ستيفانوفك، وتضامنت داربخان مع زوجها فأنصتت هي الأخرى:
- اليوم ليس الأحد. هل مات أحدهم... - قال تودور.
- من يا حسرتي - قالت داربخان، - ليكون مثواه اللجنة كائناً من كان. وفي اللحظة نفسها أبلغهم الفارس على الباب:
- رحل ستيفانوف ستيفان!
- تبادل الأربعة المنتمون إلى دياتنين: الإسلام والمسيحية، النظرات غير عارفين ماذا يقولون أو يتصرفون.
- نهض تودور:
- أنا لا بد أن أذهب إلى المرحوم.

- ونحن معك، - قال حاتام وحجرت معاً.
- وأنا؟.. - انفعلت داريجان وأجهشت بالبكاء.
- أنتِ لن تتحملي يا داري. كنت أود لو يبقى أحد أخويك معك.
- سيبقى حجرت مع أختنا. - قرر حاتام حازماً - وأنا سأخبر القرية بطريقة ما.

الفصل الرابع والثلاثون

الخامس والعشرون من شهر أيار عام ١٨٧٤. مكتب القيصر الروسي في سان بطرسبورغ. الساعة الثانية عشرة.

- هل تسمع يا أخي الأصغر، - قال القيصر ألكسندر الثاني لأخيه - مضى نصف النهار... مازلنا نستمد الثقة مما أُنجزنا لبلادنا رغم مُضيِّ عشر سنوات من عمرنا على امتلاكنا القفقاس. نرفع باسم والدنا الذي لم يشهد انتصارنا، وباسم الأحياء والراحلين كأس الشمبانيا لأنفسنا. ليس باسم ضحايا بلادنا فحسب بل باسم من هجرناهم من بلادهم الشراكسة.

- احترامك للعدو الذي انتصرت عليه يُعلي شأنك، ويرفع من قيمتك، ولا ينتقص منها. - وافق أخاه وليُّ العهد نيقولاي رومانوف حاكم القفقاس الذي انتهت الحرب الروسية القفقاسية على يده بالنصر في سهل "قابلة" باللغة الأديفية، و"كراسنه بوليان" بالروسية.

بعدما تبادل الأخوان الأنخاب بشأن ما حققاه لروسيا، قال القيصر بعد وقفة: - كان علينا ألا نُخرج الشراكسة من أرضهم. - قال وكأنه يحادث صورة والده نيقولاي الأول الكبيرة على الجدار، ثم أضاف: - أظننا أحسنًا إلى تركيا في الوقت الذي كنا ننوي إغراقها بالمشكلات؛ فلم يكف أن حوّلت البلقان

المسيحية إلى إسلامية، بل أضافت إليها الشراكسة الذين لا يُكْتَنون لنا الودّ، وتظل تحرّضهم.

- ألم نكن اتفقنا مع السلطان على ألا يفعل هذا؟

- كنا اشترطنا عليه ألا يضم الشراكسة إلى الجيش وألا يسلّحهم ولم نحدد له مكان إقامتهم. تخاف تركيا أن يضيع من يدها سلافُ البلقان، فتؤلّب الشراكسة خفية بحجج مختلفة. وتكسو مجموعات من الأتراك بالزّي الشرکسي وتجعلهم ينهبون القرى السلافية، فينصبّ غضبهم واحتقارهم على الشراكسة. ولم يعد لإخواننا السلاف أملٌ غيرنا. ما رأيك أن تقود الجيش الذي سندفعه إلى البلقان؟ - اختتم القيصر ألكسندر الثاني كلامه بالسؤال المفاجئ.

- أيّ قرار تتخذه أيها القيصر المنير قراري أنا.

- شكراً لك. أنت موضع ثقتنا. - قال القيصر باختصار، ثم فصّل وهو ينظر بعينيه الزرقاوين في عيني أخيه المماثلتين: - ولكن ليس الآن موعده. تعال، نساؤنا اللواتي سيقاسمن عيّدنا ينتظرننا في القاعة المجاورة. ولما كان امتلاك روسيا للقفقاس يُعدّ ثاني أهمّ حدثٍ بعد سيبيريا، أقدم لك أحد أهمّ أوسمة بلادك التي خدمتها، والتي تحمل اسم "سيفياتوي جيورجي" والذي هو الوسام الثاني، مع الأمر المتعلق به.

الفصل الخامس والثلاثون

الصيف، بداية الخريف الذي يلاحقه خطوة بخطوة فيقلق ويمرض، يتجاوز البلقان. والشتاء القارسٌ دون ثلوج، السابقٌ له، والربيعُ الجميل العابس، والصيفُ المنصرف الآن بحرّه، لم يسُد في أيّ منها السلام. البلغار قالوا كفانا خمسة قرون من العبودية، والرومان يطالبون بدولة مستقلة، والصرب لا يُنكرون

أنهم لم يعودوا يتحملون حكم الأجنبي. اليونان يحاولون إعادة رفع علم الديمقراطية الأزلي عندهم. وسكان الهرسك والبوسنة والجبل الأسود وبيساريا^١، كلهم يشتهون حياة الحرية. والأديغة الغرباء الذين طُردوا من أرضهم وقُذف بهم إلى نار البلقان بقوا في تركيا يتنافسون على المكان الذي سيتجهون إليه.

توقف السلطان عبد العزيز قليلاً في القاعة التي تلمع جدرانها بالذهب والفضة، وأنصت إلى الفناء الذي تنفتح عليه النافذة الكبرى. وحين صحا توقف إلى الجدار الذي عُلِّقت عليه أسلحة السلاطين السابقين له، الذين احتلوا قرابة ربع الأرض، وخاطب نفسه: "هذا سيف القائد العسكري الكبير الذي أخضع قسطنطينية بيزنطة فأرسي أساس تركيا... وهؤلاء وأولئك ليس ما سفكوه من الدم قليلاً حتى وسَّعوا حدود تركيا... وهذا السيف، والخنجر، والمسدس، لبيازيد الصاعقة الذي هزم المماليك بعدما حكموا مصر زهاء ثلاثمئة عام، وأرغم البلقان على الاستسلام... والأسلحة الأخرى لمن أفلت من يده بلاد الشراكسة مشغولاً بتأسيس الجيش الإنكشاري، السلطان عبد الحميد الأول... وكان عقل السلطان سليمان الطيب وفطنته في هذه الأسلحة. وأسلحتي أنا أي قيمة..." - وفي لحظة نُطقه باسمه عبد العزيز امتثلت لعينيه فتنة البلقان، وانصرف منكسراً من الحائط المزخرف، وفيما هو يدخل جناح الورود في قصره غير متحمّل جوّ القاعة، نهر حرّاسه:

- اغربوا عن وجهي ودعوني أستريح!

^١ هو الاسم القديم لمولدوفا، غرب روسيا البيضاء.

أضاف السلطان إلى أفكاره القريبة البعيدة وكأن العرق الذي شربه سرّاً ليلة أمس قبيل النوم، وما أضافه إليه هذا الصباح، وشمس الخريف الحارة، لم تؤثر فيه كثيراً، وسأل نفسه: "أَيكون تفتّتُ الإمبراطورية التركية في ولايتي؟! وليكن! ما كان عليهم أن يحشروا كل هذه البلدان، والأجناس من البشر، من مشرق الشمس إلى مغربها، بالسلاح في دولة واحدة... انظر واسمع ما أجمل ما يسمونها دنيانا الفانية!" الشمس تشرق، وتمنح الحياة للأحياء والجماد، الجوار جميل، وعالم الإنسان أجمل... - ارتعب السلطان من أن يكون أحدٌ يطلع على أفكاره الشعرية فصحا من تأملاته، ونظر حوله. كان يتمنى لو أضاف قليلاً من العرق إلى ما شربه غير أن ضرورة مقابلته لجدته بيكا لجمته، فواسى نفسه: - هي الوحيدة عندي التي أستفيد من حكمتها وفطنتها مهما نهرتني أو لامتني. أما وزرائي فلا يهتمهم إلا مصالحهم الشخصية. أنا لا أوافق بيكا السيدة الكبرى ولكن علينا إغلاق بيوت الدعارة... ليست هذه مشكلة. أصعبُ المشكلات هو ما يتجدد في البلقان من فتن. ولا يخلو عالم العرب من اضطرابات غير أن هؤلاء لا سند لهم كما لسلافِ البلقان الذين يعضدهم الروس. والشراكسة الذين أحسنّا إليهم فأنقذناهم من خطر الإبادة على يد الروس يثيرون في البلاد مشكلات لا داعي لها بدلاً من أن يشكرونا. بعضهم يتهمنا بأننا لم نعاملهم بإنسانية فوظّناهم في أماكن القحط، وآخرون يريدون العودة إلى وطنهم الأم، وغيرهم يطلبون تسليحهم للانتقام من أهل البلقان المسيحيين، أقرباء الروس الذين نكبوهم... يا إلهي، أعرف أنّ فيّ كثيراً من العيوب التي لا ترضى عنها، ولكنك في قلبي. وأعيش بفضل دينك. يحدث أحياناً أن تدعني أنساك في غمرة انشغالي بنشره بين عبادك الذين أرسلتني إليهم. ما العمل؛ دنياك العارية التي نختبر فيها عبادي - عبادك بالغة الجمال.

ولا أظنك بعيداً عما يحدث لي فيها. متى استدعيتني إلى دنياء الأخرى الأبدية فسأمثل أمامك جاهزاً على قدر طاقتي لأسئلتك المحرجة التي ستطرحها عليّ. يا رب لا يكنْ على يدي تمزُّقُ الدولة العظمى تركيا التي أسسها بأمرِك موفدوك أسلافي! أرشدني إلى ما عليّ فعله! لا تدعني أخطئ، اشملني برحمتك! دغ تاريخ قومي الذي هو بيدك يذكّرني بالخير!..".

ردّت بيكا باختصار حين أبلغوها بقدم السلطان عبد العزيز:

- ليدخل! - قبل السلطان عبد العزيز يدي وجبين جدته التي يتهبب منها مع أنه حاول التخلص من رائحة العرق. ولكن جدته توجهت إليه بصوت قوي قاس حين تجاوز الكرسي الذي أشير إليه بالجلوس عليه: - ليس هذا مكان جلوسك؛ اجلس أمامي بطريقة أرى في عينيك حالك. - ثم سألته بصوت ألطف: - كيف حالك يا موفد الخالق الوحيد للكون؟ مضى زمناً على تجنُّبك إياي فاستدعيتك لمقابلتك. كنت أودّ أن تُطلعي على ما في بلادك من أخبار لا أعرفها. سنفكر معاً في قضاياك على مبدأ "رأسان خيرٌ من رأس واحد". وإن احتجنا تبادلنا النصّح واللوم. سمعتُ، إن كان ما سمعت صحيحاً، أنك رجعت إلى الشرب.

- لا ، نان، لا. لا تصدّقي كل ما تسمعين. منذ زمن بعيد أقلت ونسيت. استرحتُ منذ أن أمرت بإبعاد الشرب عن دار القصر. ربما تتحدثين عن رائحة الدواء الذي تناولته للاستراحة قبل أن آتي إليك، وكما تعلمين، فبعد قضايا الدولة التي لا نهاية لها، أنا أنظم الأشعار، وسأقرأ لك أحدها.

- في وقت آخر، لاحقاً. - رفعت بيكا يديها البضتين البيضاوين بأناقة، وأسكتت رياء السلطان. - لم أستدعك لأستمع إلى أشعارك. أسمعها لمن في بيتك، تلك التي لا تتقبل النصّح. قل لي أخبار بلادك باختصار، أسمعك.

- لا بأس بأحوال بلادنا ولو أنها لا تجري كما نريد تماماً، لولا هياج البلقان الكفار.

- هؤلاء هائجون منذ زمن طويل.

- هؤلاء يساندوهم الآن أعداؤنا الأتراك الذين سلبونا ساحل البحر الأسود، وطردوا الشراكسة من أرضهم، الروس. لماذا تضحكين؟ أقلت ما يُضحك؟

- يُضحكني، ولو أنه لا يجوز الضحك في مناسبة البكاء، أن تتصور أن أرض الأديغة كانت لنا يوماً... ما الفائدة من الكلام على ما لم يعد فيه فائدة؟.. ونحن، أليس عندنا من يقف معنا؟

- نحن معنا الله.

- حسنٌ أنك تحتفظ به في قلبك لا تنساه. إنه يساند أمتك، ويرعاها، وينبّه من يُخطئ. ويدّخر جنته لمن يخلص له. ما أقصده غير ذلك. أتكلم على الدول التي يمكن أن تساندنا.

- وهل يمكن أن تعدد دولة أو دولاً تدعمك؟ إنجلترا، وفرنسا، ومن أيضاً، لا يسهل عدّها.

- ولا تنس الفرس.

- نعم، والفرس.

- وسيساندنا غيرهم ممن يخافون من الروس. عليك أن تحتّ وزيرك للشؤون الخارجية أن يعمل بجِدّ. كلمته قبل أيام واتفقنا على أن يستمر في مهامه، وإن لم يفعل فأنت تعرف كيف تتصرف معه. ووزيرك للشؤون الداخلية كسول. لماذا لا يُهدّئ المهاجرين الشراكسة، لماذا لا يحثّهم على مساندتنا؟ أيّ عريضة مطالب أوصلها إليك؟ لا أمل في العودة. وإن حققت لهم هذا الطلب فروسيا التي طردتهم لن تقبل.

- وهل يستجيبون لك؟!

- دَعْهُمْ يعرفون أن من لا يسمع الكلمة يُدان! - جزمت بيكا السيدة الكبرى، ثم أضافت: - البلقان أ همّ شواغلنا في هذه اللحظة. لم يعد لمصطفى باشا قائد الجيش فائدة هناك. لا تتعرض للكبكباشي برقت. وكذلك للحاج برزج؛ لا تنغّر بتقدمه في السن! ولا تهتمّ بالجفوة بين برقت وبرزج! ليُساعد أحدهما الآخر حين يعملان في مهمة واحدة. والآن إن وافقتني فلا بدّ في الأيام القليلة القادمة من حلّ مشكلة معينة.

- وهل يمكن ألا أوافقك؟

- اسمع أولاً ما سيقال لك لتعرف كيف توافقهم. اجمع مجلس المفتين التابع للسلطان. واطلب مساهمة المفتين المتنفذين للولايات، ولا سيما مفتي البلقان. واطلب من الأئمة أن يتكلموا في جوامعك على ما يحدث في بلقان تركيا. وأنا سأستمع إلى مجلسكم دون أن تحسّوا بوجودي من مقصورة النساء العالية. لا داعي لأن تسمح للأفندية أن يتكلموا كثيراً لأنهم ثرثارون. علينا أن نعمل لإفهام كلّ من لا يُكرّ لنا المودة أن البلقان مُلكٌ لتركيا بفضل الله العلي العظيم، وأننا لن نتخلى عنها لأحد. وعلينا أن نحذر من أي تقصير أو إهمال على الطريقة التركية في هذه القضية. وهذه مهمة مُلِحّة أماننا. باشرْ بها اليوم، بل من هذه اللحظة!

- وروسيا ليست غافلة يا سيدتنا الكبرى.

- حسنٌ أنك فهمت هذا أيها السلطان.

لا يتلزم عدم تنفيذ أفكار السلطان حالاً مع طباع من يحمل لقب السلطان: التأم عقد مجلس الإفتاء في خلال ستة أيام في مسجد إستانبول. وتألّف مع

الوزير وعدد من الأفندية المدعويين من تسعة وخمسين شخصاً. وافتتح هؤلاء وشيخ الإسلام^١ الاجتماع بصلاة الظهر.

وبعد انتهائهم من الصلاة عاد إليهم شيخ الإسلام الذي كان خرج من صفوفهم.

قال السلطان عبد العزيز كأنه يقرأ شعراً:

- يا رجال الدين الذين أودع الله فيهم خالق الكون كله، من لا كفء له، يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل هو إلى أحد، رحمته وقوته، ما نجمعكم لأجله اليوم مسألةً مُقلقة، وهي الاضطرابات التي يُثيرها الكفار في البلقان. البلقان التي تلازمت فيها طوال عمرنا رحمتنا ورعايتنا هيّج فيها الكفار فتنة لم تعدها. وأنتم تعرفون من يؤلّتهم: روسيا النّهابة البعيدة عنا براً وبحراً والتي تُضمّر لنا الكراهية. وأنتم ترون بأعينكم ما فعلته بالشراكسة. وقد استضعفنا رجال دينٍ منهم إلى اجتماعنا. تطلب روسيا ممّن يعيشون في البلقان من أقبائنا وكأخهم كانوا يمتلكون دولة يوماً من الأيام أن يستيقظوا ويُحيوا دولهم، وأن يقفوا في وجه الدولة التي تُظلمهم منذ مئات السنين، وتعدّهم بالمساعدة فتثيرهم ضدنا. ولكن مهما حرّضتهم فلا داعي للباس إذ يعضدنا الله الذي يأتمر العالم كله بأمره. وإذا كنا أقوىاء اليوم وغداً، وسنكون في القرون المقبلة، فسنوصِل تعاليم الله ليس إلى مسلمي البلقان وحدهم بل إلى الكفار، وإلى كل من نسي الله، ومن لا يؤمن به. وسنعيد إليهم الوعي بكل ما يتعلق بنا. وسأتكلم أيضاً على موضوع آخر يشغل بالي - نظر السلطان إلى المقصورة التي عليها جدّته -

^١ وهو المفتي الأكبر، منصبٌ استُحدث في عهد السلطان محمد الفاتح عام ١٤٥١. وغدت مشيخة الإسلام مؤسسة إدارية وقانونية مهمتها تسويغ سياسة السلطان عبر فتاويها واجتهاداتها.

وهو موضوع الشراكسة. وكما قلت، لا أظن أن بينكم من يجهل المصيبة التي حلت بهم. وقد توجهوا إلينا بلا أمل وسند غيرنا. ولم تهدأ بعد عواطفهم الهائجة. وهم، وإن لم يكونوا أقباءنا في العرق، أبناء ديننا وأسرتنا الإسلامية. وستأمل مساندتهم لنا في كل قضايا تركيا. حلّوا لهم مشكلاتهم بكل ما أُوتيتهم من قوة. أبعدوا عنهم أي سبب للشكوى، وكل تفكير في العودة إلى بلادهم. انتهت كلمتي هنا. وأترك المجال لمن يريد أن يسأل أو أن يتكلم، ولو أنه لا كلام بعد كلمة السلطان.

- أقلق أحياناً على حفيدي السلطان - همست بيكا في أذن عُشماف - ولكنه بارع في الكلام - الفكر. - وبعد وقفة قصيرة أضافت: - غير أني لا أعرف إن كان هذا الحشد أمامه سيفهمه.

ابتسمت عُشماف في وجه السيدة الكبرى التي تمسك يدها، ولم تجب.

- لن نتكلم يا موفد إلّنا خالقنا، ولكن سنسأل ما دمت سمحت لنا - قال أفندي قونيا - ألم يبق في البلقان من جيشنا ما يبدد خوفنا؟

- بلى يا إبراهيم أفندي رعاك الله. غير أن هذه المسألة من اختصاص السلطان، وليس اختصاص مجلسكم.

- إذا كنت تقول لنا هذا، وتؤمّلنا يا سلطاننا الفرد الذي لا يشبهه أحد، فدُم على رأسنا ونحن راضون عن جوابك الواضح، والله العلي العظيم راضٍ عنك، تنمّي الرضا في جنة بلادك، يُعزّك الناس فيها، ومعروفك لا ينقطع عنا، ونحن نرده لك بالخير.

- أما يزال هناك من له سؤال؟ - سأل السلطان رجاله العاملين في الدين وعدم رضاه عن السؤال المبطن لأفندي قونيا واضح من صوته مع أن كلام الأفندي لم يتعدّ أن يكون خطاب مديح.

- أيها السلطان العظيم عبد العزيز، سلطانٌ مسلمي جنة الله على أرضه، ونحن الشراكسة منهم، تركيا. ليتك تشرفني بإذنك السامي وتسمح لي ببضع كلمات باسم الشراكسة الذي أنا أفنديهم، وتُسَمِّعها الله، يا من لا حدود لرضانا عنه. ابتعد مرزخوي محمد أفندي عن رفاقه بضع خطوات، مرتدياً زيَّ الأديغة، مغيراً القبعة الأديغية إلى طربوش معمم، ووقف بقامة مشدودة.

- اسمع إلى هذا! - ضحكت بيكا السيدة الكبرى وقالت لغُشماف إلى جانبها - أليس هذا من كان يطمع فيك وهو من جيل والدك؟.. ألم أطلب منعه من الحضور؟..

- نسمعك إن كانت كلمتك مختصرة - أكّد السلطان على الأفندي المرائي لأنه يعرفه من قبل.

- كنت تذكر بالخير الشراكسة الذين صاروا من أمتك، وصاروا تحت أنظارك الكريمة يا موفد الله العليّ العزيز فوقفتُ في حضرتك لأشكرك باسمهم وأقدم إليك احترامي - غيّر محمد أفندي موقفه، ورجع بسرعة إلى الصف الذي خرج منه.

- بعدما انتهينا من أعمال مجلس المفتين دون إبطاء - أنهى السلطان عبد العزيز دون أن يطلب سؤالاً من أحد. - دعونا ننهي دعاءنا ونحن راضون بقراراتنا الشفهية قبل أن نعود إلى رعايانا المسلمين. آمين، الله أكبر!

في اليوم التالي لاختتام مجلس المفتين استدعوا السفير الروسي في تركيا إيغنايفر إلى مقر وزارة الخارجية، وسلموه ورقة الاحتجاج على تدخل بلاده في البلقان التي لا شأن لها بها. وبالإضافة إلى نشر الجرائد التركية للوثيقة فقد ظل المنادون يذيعونها في مختلف أرجاء الإمبراطورية.

الفصل السادس والثلاثون

- يا مراد بيه، يا مراد بيه، هات البشارة! - فتحت عائشة الباب على مصراعيه ودخلت الغرفة.

- أيُّ خبر سار في هذا العالم المضطرب؟.. - قال مراد بيه الذي كان منهمكاً في مسح خنجره التركي المعقوف بلا اهتمام، وهو الذي ملّ من مزحات زوجته السخيفة، ثم سأل برأس منتصب: - أيّ بشرى؟

- عندنا غلام، وكما أخبرنا المبشّر فهو يشبه رجب تماماً. وقيل إنه يشبهني أنا أيضاً قليلاً. يا لمصيتي؛ جرحت نفسك؟ الدم يسيل من يدك!

- هل تعنين هذا الجرح؟ أ قليلٌ ما سال من دمي في الستين الأخيرتين!... وأين هو رجب؟

- وأين يكون المسكين؟ ما إن سمع الخبر حتى ركب وخرج.

- اعثروا عليه حالاً قبل أن يصدر عنه تصرفٌ طائش!

خرج من القرية مسرعاً ومن يره يتعجب منه، وفي اللحظة التي كان سيلج فيها بغلوة حصان واحدة عمق الغابة شدّ اللجام فرفعه الحصان فوق سرجه، وسأل نفسه: "ما الذي جرى لي حتى فقدتُ وعيي؟ هل يتصرف كلُّ من رُزق بصبي هكذا؟ لا يتصرفون لأنهم لم يقعوا في الموقف الذي أنا فيه. كنا رأينا لو كانوا في مكاني... ما كنت لأهتم بالمرأة الشركسية التي تنقصها التربية فهجرتني إلى بلغاري كافر لو لم تحمل إليه ولدي المسلم. كان عليّ أن أقتل المرأة التي فضّلت عليّ رجلاً كافراً فأهانته قليلةُ التربية هذه شرفي لولا أن والذي غلبته، على غير عادته، الشفقةُ فمنعني. وبدلاً من أن أكون أول من تقع عينه على ولدي وقعت عيننا الكافر البلغاري - الشركسي الذي لا يعرف أحداً أصله. ثم، كعادتهم، سيعمّدونه في الكنيسة... وأنا أعرف جزاءهم: حين أمرهم بقتل

الاثنين سيبقى لي ولدي! والمتقن لمثل هذه العمليات هو ألبان... سيعود بين عشية وضحاها من كوسوفو..." غيّر رجب وجهة الحصان بسرعة، ورجع إلى القرية متمهلاً. ولم تفارق هذه الأفكار رأسه في طريقه.

- ادخل يا رجب إلى الغرفة! - نادى مراد بيه ولده حين سلّم الخادم حصانه، وسأله دون أن يُظهر الخبر الذي يعرفه: - أين كنت؟

- لم أكن في مكان مهم. رُوّضت الحصان في ظاهر القرية.

- حسنٌ أن اعتنيت بالحصان هكذا - امتدح مراد بيه ابنه مبتسماً في نفسه، وأضاف له كأن ليس لكلامه أهمية - أهنتك على الخبر الذي وردنا - ثم شدّد عليه بصوت حازم - لا يجوز أن تتصرف في هذا الشأن دون علمي. هل فهمت؟ إن فهمت فأرضّ بالعيش مع زوجتك الأولى ريشما يعود إلينا ولدنا.

- كما تريد، ولكن مع ذلك...

- ليس هناك "ومع ذلك" بالنسبة لك! - لم يسمح مراد بيه لابنه أن يكمل الـ "ومع ذلك" بعد "كما تريد" التي أعجبته. - أنا من يقرر هذا!

الفصل السابع والثلاثون

منذ أكثر من أسبوع يدور ألبان أرجاء مضيق ترغوفيشت متحزباً. أياً قابل روى له ما يبحث عنه بحجج مختلفة. وفي غمرة الخبر يسأل عن بارافان بارافانوف الذي يبحث عنه دون إيلائه أهمية خاصة. وبهذه الطريقة وبالمداورة، وبالتكلم بلغة الأديغة دخل عدة قرى أديغية. وقضى بعض الوقت في مضافاتهم، وطَرَق القرى البلغارية متحدثاً بلغتهم. وعبر القرى التركية مدّعياً النبالة، ووصل إلى ترغوفيشت، وبات ليلة في بلدة شومليه.

أرهق حصانه والناس يقولون له: رأينا بارافان هنا، وهناك. وتعب هو الآخر على سهوة الحصان. كان من يمكن أن يعرف أين بارافان هو صهر الأديغة تودور ديمتروف، ولكن لم يشأ أن يجعله يشك في أنه يتابع مهمة غير نظيفة بحقه. وكيف كان سيقابل، كما كان يقول ألبان، من يحرس غير ولده ليلاً ونهاراً؟

وفيما يغسل ألبان وجهه عند ساقية في الغابة انتصب أمامه مراد بيه: "منذ ست سنوات أو سبع أعرف هذا الرجل ولكن لم أعرف حقيقته. لو كلّفني بما ستفعل ببارافان لنقّذته منذ زمن طويل لك أيها الخبيث. أفهم ما لا تسخو به نفسك.. تريد أن تحقق هدفك دون خسارة، كما يقول الشراكسة، "يستوي لحمك دون أن يسودّ سيخك". ولكن مثل هذا لا يتحقق. لو أعطيتني شيئاً من الذهب والفضة التي قتلنا من أجلهما أسرة الأمير الشركسي، لا أطلب النصف ولا الثلث، ثم لم تُعطني شيئاً مما سرقنا بذريعة أنه سُرق منك، لكنك منذ زمن بعيد نقّذت لك ما تريد من بارافان أن يفعله. أعرف أنك لا تريد أن تكون أنت في صورة أي حادثة، ولكن عاجلاً أم آجلاً، ستظهر حقيقتك والمال الذي رُويّ بالدم والذي تخفيه عني. لو عرفت أين دفنته لأرسلتك حالاً إلى سراط جهنم. وبدلاً من أن أفعل بك هذا تجعلني أبحث عن بارافان الكافر. لست من سيحده بل أنا من سأنتقم معه... من أين سأتي به؟ لماذا لم أبحث في المستراح المهجور لأغنام العجوز ستيفان الذي مات؟ لا أذكر من قال لي مرة إنك يمكن أن تجده هناك. سأذهب إليه قبل حلول المساء، وإن تأخرت فربما أجد في المكان الذي نهبه الشراكسة مكاناً جافاً أقضي فيه ليلتي."

التفكير، وإن بدأ مع وقع حوافر الخيل الممل، فالفكرة التي كان يلاحقها ألبان لم تكن خيرة. وقد سأل نفسه معترفاً بِشَرِّها: "أيُّ شرٍّ أفعله وأنا أهتم من

مارست معه الشر بأنه تصرف معي شراً؟.. — انتصبت أمام عيني ألبان صورة الصبيين اللذين كانا ينظران إليه شزراً في فندق بلغراد. وتذكر أن برقت زوال كان قال له "لا أعرف ماذا فعلتَ بهذين الصبيين حتى ينظرا إليك نظرات عدائية" — لأنهما عرفا ما فعلتُ بوالدهما، من حسن حظي أن عيني لم تقع عليهما بعد ذلك اليوم... كنت أذنبُ بحقهما... يا إلهي اقترفتُ كثيراً من الجرائم: الرجل الشيشاني الذي وثق بي في أرض الغربة فاستلثتُ روحه بهذا الخنجر الشركسي من أجل مسدسه... والفتاة البلغارية التي اغتصبْتُها ثم تخلصت منها في المستنقع... اغفر لي وارحمي يا إلهي، وأهديني إلى صراطك المستقيم! والمهمة التي ألاحقها اليوم مهمة قدرة. أنت يا إلهي من خلق الكون، وخلق على الأرض البشر، وأنطقهم بلغات مختلفة، وفرض عليهم ديانات متعددة، ويمتحنهم في ديانا العارية، سنمثل أمامك حاملين ذنوبنا التي تعرفها، فلا تدعني أخطئ في الأمر الذي له علاقة باتنين. وهذان من أبناء البشر أملهما فيك على ما أظن. إن سمعني وأطلقت لي حربي فسأخبرهما والوليد ثالثهما أن يهربا بجلديهما من وجه مراد بيه، فيحموا أنفسهم. وإن اقتضت الضرورة أنجو بنفسي أيضاً ما دام حصولي على بعض الذهب والفضة متعذراً... — قفز ألبان من مجلسه متخيلاً أن مراد بيه يناديه — ماذا أترثر! إن أفعُلْ هكذا أضع نفسي دون فائدة في خدمة من سرق المال. وأنا سأنتزع منه ما أريد مهما حاول معي وتصرّف. ثم نرى، كما يقول مراد بيه، ما سنفعل. وماذا سأرى؟.. لا أعرف. لم يتفق معه بارافان لسبب ما؟.. متى وقعت عيناه على المال الذي لم ير مثله قطّ واحتاج إليه لقضاياه البلغارية فسيوافق ذلك الأفاق. وإن بادرنِي فعمل بي ما أنويه له متى انتهى من مهمته؟ ليس مراد بيه غافلاً عما يفكر فيه بارافان؛ هل أعرفه اليوم فحسب؟ وبارافانوف المحرّض

العتيق ليس ساذجاً فيشرب الماء من أنفه. ربما هجم عليك كما يهجم الجرذ الذكر إن حصرته في الزاوية. ماذا بيدنا؛ هذه حال العالم الذي نعيش فيه: إما أنت وإما أنا... والآن ماذا يريد هذان اللذان يركبان حصاناً واحداً؟" حين رآهما ألبان في المنعطف سخر منهما في قلبه، وقال لهما حين وصلا باشاً في وجهيهما:

- والله يسرني أن أقابلكما أيها الأخوان. ما أحوالكما؟ أليس والدكما مزحج حياً وفي صحة جيدة، لم أره بعد الربيع الماضي.

- ونحن لا بأس بنا. ووالدنا حيّ وبصحة جيدة. - أجب حاتامُ بفتور. نعم، لا شيء يعدل الحياة والصحة في الدنيا. مبروك، سمعت أنكم زُرِقتُم باين أخت. وعليّ أن أهنيّ مزحج المسكين¹ ولكن ألا تعرفان...

- نعرف!.. - ردّ حجرت بعنف، غير راضٍ عن وصف والده بالمسكين. - ليس والدنا المسكين، بل من لم تذكر اسمه، مراد بيه!

- اسكتْ يا حجرت، تتناسى كونك الأصغر سنّاً. - نهر حاتام أخاه، ثم توجه إلى الأكبر: تفضّل يا ألبان!

- حياك الله، اليوم مساءً ينتظرونني في شومليه. وأنتما ربما تذهبان إلى أختكما. لا تعبنا عليّ أنتما ووالدكما. لا علاقة لي بالأمر المنكر الذي حدث لكم. وبلّغا صهركما سلامي. إنه تبين عن رجل حقيقي ولو أنه بلغاري. حقاً نسيت أن دمّاً شركسياً يجري في عروقه من جهة أمه. قال ألبان لمن قابلهم ولم يكن يريد هذه المقابلة، "لو جاد عليكما صهركما الكافر، البخيل صاحب

¹ تحمل الكلمة الأديغية معاني كثيرة: الفقير، المرحوم، المسكين، الداعي إلى الشفقة. والمعنيان الأخيران هنا أقرب إلى المقصود.

أسنان الكلب، بأحد حصانيه لما افتقر... لا أعرف كيف سيُطوَّعون من هنا
الفرسان الكثيرين المكلفين بالحماية، وليس لهم خيل؟!..."

اتخذ ألبان طريق شلوميه كما أخبر حاتام وحجرت، والتفت إليهما شاهداً على
توجُّهه نحو قرية شلوميه. عرف الجهة التي يذهبان إليها وإن لم يعد يسمع وقع
حوافر الحصان في الغابة: "لم أخطئ، هما متجهان إلى قرية ستيفانكا حيث
تقيم أختهما. وهما يجنيان ظهر الحصان بجسامتهما ولا شيء معهما. ومع أنهم
لا يملكون شيئاً، وليس في ديارهم شيء من الماشية كما تعج ديار البلغار
والترك بالماشية، ومع أنهم نتاج مأساة، فيوتهم مفتوحة لدعوة الضيوف إلى
الطعام، تسبقهم إنسانيتهم حيث ساروا. واحترامهم المتبادل وفطنتهم كبيران. ألم
تر حاتام ينهر أخاه الأصغر الراكب وراءه، الذي عارضني، طالباً منه التقيّد بما
يفرضه عليه الهرم العمري... يدينون المرأة الشركسية التي حمت حظها فعارضت
الأسرة التركية التي كان يتحقق لها ما تريد. يتآمرون عليها بما يستطيعون تحقيقه
ولا يستطيعون. ألا تفهمون أن العود إذا لُوي قبل أوانه انكسر أو صدم
عينك..." - أعاد ألبان حصانه بقلب ثائر وإعٍ وعاد مع المساء إلى قرية
مافليود. وحين زار مراد بيه قال لمن استقبله على غير عادته بوجه طلق:

- لم آتِكَ بخير سارّ: انشقت الأرض وابتلعت بارافان!

- هذا خبرٌ سارّ، حسنٌ أنك لم تجده.

- لماذا؟ - نظر ألبان في وجه مراد بيه واجماً.

- ليس هذا مشكلة في أي وقت. نحن سنتكفل بإزهاق روح نصف البلغاري،
نصف الشركسي... لماذا نأثم في حق أم الصبي؟ كنت سمعت قولاً مأثوراً ممتازاً
للشراكسة: "الكلام الحلو يُنسيك المصيبة" ولا أظن الترك لا يملكون مثل هذه
الحكمة. غير أنني سأعامل من لم يقبل قرابتي باغ حسب هذا القول المأثور. ألم

يربط الله بيننا بهذا الصبي الذي لا ذنب له وإن لم تتفق أصولنا؟! سنبحث عن رجل حكيم جداً من جهتنا، وآخر من جهتهم، وسنذهب لتهنئتهم. هل يطردنا الشراكسة من أمام باب دارهم؟ ليس هذا من شيمهم!

الفصل الثامن والثلاثون

لم ينبح الكلب شوركاً لأجل الصوت القادم من جهة باب الدار فخرج تودور من الغرفة موقناً أنه ليس رجل سوء، فرأى بارافانوف، فلامه:

- ما الأمر يا بارافان؟ لماذا لا تترجل؟ تفضّل!

- سأترجل مع أبي في عجلة من أمري. وسأصافحك. وسأسأل عن أحوالكم. وإن كنت لا أعرف أستغضب عليّ أيضاً كما فعلت في مرة سابقة.

- متى حدث ما تتكلم عليه؟ لا أظني قلت لك ما لا تستحق. كنت أنت السبب في ما عتبْتُ عليك لأجله. ولو تناسيت هذا وهنأتنا بستيغان الصغير لسررتنا. غير أنني حزنتُ أكثر لغيابك عن جنازة كبيرنا ستيغان.

- لم أكن أنا السبب مع أبي أعترف بذنبي في المناسبتين. منذ الشهر الذي تخافينا فيه كنت أجول البلقان. وخالطتُ بالإضافة إلى الترك - الألبان المتعاضدين، أبناء قومنا من الصرب والبوسنيين وأبناء الجبل الأسود. البلقان السلافية لم تعد تنام، استفاقت. لم تعد ساعة حريتنا بعيدة. ولا يسمح إخواننا الروس لأنفسهم أن ينسونا. وهم أملنا. سنتكلم في هذه الموضوعات وغيرها من القضايا البلغارية غداً، تأتي في الساعة الواحدة إلى المكان المعروف من كلينا. يحزنني أنّ ستيغان فارقنا ونحن على أبواب الحرية. ويسرني قدوم ستيغان الجديد.

- حياك الله يا بارافان على أنك عرفت الاسم الذي سمينا به صبيّنا.

- وسأخفي يا تود على أني أسأت إليك. - قال بارافانوف وهو يركب - لا يزال عليّ اليوم أن أقابل الكثير من الناس. سنتكلم غداً بعد الاجتماع على قضايا الأسر. ونفكر معاً في مصيرنا. ولكن أخباراً سيئة تصلني فكن حذراً واحرص على أسرتك.

لم يكن ما يفكر فيه تودور في هذه اللحظة هو الاجتماع السري الذي سيعقده البلغار القاطنون في فارنا وشومليه وترغوفيشت، المطالبون بحريتهم، ولا تصالحه مع صديقه، بل إبلاغ بارافان له: "تصلني أخبار سيئة فكن حذراً واحرص على أسرتك" كان تودور يتوجس وجود مثل هذه الأحداث في ترغوفيشت ولكن لم يُخبره أحدٌ صراحةً كما اليوم. ولولا قدوم حاتام وحجرت كل يوم تقريباً بذرائع مختلفة لكتمت دارينخان عن زوجها وعن أخيها الخواطر السيئة التي تراودها. ولكن المساندة الأكيدة منهما، وحمائتهما لها يمدانها بالقوة لتعيش. ما إن دخل تودور الغرفة حتى تناسى وسأوسه، واتجه إلى المهد الذي فيه ستيفانكا وابتسم له، وقال:

- ربطوك جيداً في المهد يا ستيفانكا، هيّا اقطع حزام مهدك وقف إلى جانبي كرجل!

- هل هناك خطر؟ - رفعت دارينخان التي كانت تُعدّ طعام الفطور رأسها فجأة.

- لا، أتكلم إلى ستيفانك فحسب.

- ماذا يقول بارافان، ولماذا لم تدعّه إلى الدخول؟

- كما يقول حجرت - ابتسم تودور - ذيلُ حصان بارافان ملتهب بالنار دائماً. دعاني إلى اجتماع الغد، ولكن لا أعرف ماذا أفعل.

- ولماذا لا تعرف؟ إذا دعوك فهذا يعني أنهم محتاجون إليك فعليك أن تلي الدعوة.

أتسمعُ يا ستيفانك ما تقول أمك؟ - ليست مسألة بلغاريانا مسألة شخص واحد. هذه مسألة كل البلغاريين كباراً وصغاراً. سندعو إلى الله أن يحقق مرادنا لأننا لا نطلب إلا الحرية والعدالة. وأنت فرحٌ يا ولدي لأنك فهمت؛ أليس كذلك. ستعيش في بلاد حرة ولو أنك ولدت في بلاد عبودية.

- ما أجمل نُطقك لهذه الكلمات كأنك تعرف اليوم الذي ستتحقق فيه! - لو كنت أعرف يا داري اليوم الذي ستحرر فيه! - قال تودور وهو يجلس إلى المائدة، وتنهد - لما عاش على الأرض من هو أسعدُ مني. أنا واثق من أنه "إن كان عندك الرغبة الصادقة فستتحقق" كما كانت تقول المرحومة أمي. ستتحقق لنا. ألا يكفي، أليس من العار أن يسيطر قوم على قوم آخرين خمسة قرون. والآن، كما يبدو، ليس الأمر بيدنا وحدنا، بل بيد إخواننا الذين يعيشون شمالنا، الروس. هؤلاء أملنا وسندنا في البلقان.

- نحن لم يكن لنا من يساندنا... - قالت داريخان بقلب ممزق. واختتمت بكلام أشد حدة: - نحن، كما كان أجدادنا وجداتنا يروون، احترقنا في نار من تسميهم إخواننا. لا تؤاخذني على ماقلت يا تود، وأنتم قلوبكم مليئة حميةً ضد من سلبوكم أرضكم...

- ولماذا أؤاخذك إذا قلت الحقيقة؟ لو كان كل إنسان يعيش دنياه كما يريد لما جرى للشراكية ما جرى. وأنت تقولين إنه لم يكن لكم سندٌ في الحرب التي دارت على أرضكم ولكن أقرباءنا البولونيين السلاف حاربوا معكم. هل سمعتِ باسم "لابينسك" البولوني؟

- سمعت بلابينسك هذا، يسمونه توفيق بيه التركي. لأنه يقال إن أمثاله حاربوا معنا لحماية حريتنا؟ سألت داريجان وهي تضحك متعجبة مما تسمع، وتهز سرير طفلها. ثم خصت بالسؤال: - حسب ما سمعت من أخبارهم كانوا أناساً محرضين يريدون منا أن نحارب أقباءهم أعداءهم. وهل سمعت إذن باسم زان سفري؟

- كنت سمعت بارافان حين كان يحارب في بلاد الشركس يذكره بالخير. وحين ألّف الحاجُ برزج رفيقُ برقت الذي يتابع أمور الشراكسة في البلقان المجلس^١ كان ابنه زان قره باتر معه. والآن انقطع ذكره هنا. ما العمل، كما يقول المزوحوون من غابروفو^٢: يمكن أن يحدث في العالم مثل هذا. - ابتسم تودور، وأعاد ذكر ما كان يقلقه من بين ما قالت داريجان: - مع أن الترك والإنجليز ليسوا أقباء الشركس فقد كان هذا مرادهم.

- يمكن أن يمرضكم إخوانكم الروس الذين طردونا من أرضنا ضد تركيا فيمتلكوا بلادكم؟

- هؤلاء لن يفعلوا بنا هذا! - ارتفع صوت تودور رغماً عنه.

- حسنٌ إن كنت تتصور الأمر هكذا، ولكن ماذا سيكون مصيرنا نحن، ماذا سيحدث لنا؟

^١ تألف في السنوات الأخيرة لحرب القفقاس من ممثلي الأبخاز والوييخ والشابسغ بمثابة برلمان وحكومة. وقام بنشاطات متنوعة تجدها مفصلة في رواية "المطردون" لكاتب هذه الرواية نفسه ولترجمها. وانتهى بإحراقه من قبل الروس، ولجؤ الحاج برزج ممثل الوييخ، وزان قره باتر بن زان سفري، إلى تركيا.

^٢ مقاطعة ومدينة بلغارية استمدت اسمها من شجرة الباغار التي تعني السّحر، اشتهر أهلها بالمزاح والدعابة والنكتة.

- وماذا سيجري لنا نحن يا داري، مصيرنا مصيرُ البلاد التي ستعود إلينا.

- لا أتكلم على ثلاثتنا. بل أقصد الأديغة الذين رموا بهم في بلغاريا والبلقان، ومصير الشيشان والأبخاز.

- هذا ما تقصدينه؟.. - سأل تودور عما لم يفهمه أولاً، ثم استدرك سريعاً:
- أما قلت لك إنك إن كنت تقصدين الشراكسة، أنتم، والشيشان والأبخاز، وغيرهم من الآتين من القفقاس، فمصيرنا، نحن البلغار، في بلادنا مصيركم. وسامحني على أنني لم أقل "الأديغة" بل "الشراكسة" كما اعتدنا. - واختتم شاعراً بأنه يرجوها من أجل نفسه أكثر من أي سبب آخر.

- لا أهتم بتسمية "الشراكسة" التي يُطلقها غيرنا علينا بدلاً من "الأديغة". لا يهمُ الاسم إن لم نقرض من الدنيا بمحاسنها ومساوئها... الأمر الوحيد الذي أريده... - أصلحت داربخان وضع مخدة الصبي الرائد في السرير مُخفيةً بهذه الحركة انكسار صوتها، ثم عادت وابتسمت للرجل وكأن شيئاً لم يحدث: - لا أعرف إن كنت أثرتُ، ربما أنفُس عن ضيقي. الآن فحسبُ فهمتُ يا تود معاناتكم، ولكن عندكم أرضاً تسمونها بلاداً، أما معاناتنا نحن بالقياس إلى معاناتكم فهي عذاب. الأمر الوحيد الذي أريده - أضافت داربخان إلى ما لم تكن استطاعت نطقه - لو رأيت ثانية، ولو لمرة واحدة، الساقية التي كانت تمر من وراء بيتنا، والتي كانت جدتي تسميها "الماء المبارك"، لو سمعت صوت مائها الفضي. وفي هذه الأنحاء مثلُ تلك الساقية، وها هي ساقية نظيفة تمر بزاوية حديقتنا، والشمس ترتفع فوق رؤوسنا، والسماء سماء. ولكن أصحابها، هي وغيرها، هم أنتم، لا الترك المسيطرون عليكم، ولا الشراكسة محتاجون إليها. أحلام هؤلاء الصامته هي ما وراء البحر القريب البعيد. وسأقول لك يا تود شيئاً آخر مما أفكر فيه. يُخَيَّل إلي أن والدتك، من خلال ما رويت لي، عاشت

وهي تشتاق إلى تلك الأرجاء، دون أن تنسى أنك تحمل دمها. ودون أن تنسى الأرض التي سُبيت منها، ولا تُنسِيك إياها، فارقت الحياة. ربما كانت ذكرياتها التي تركتها لك هي ما جمعتنا نحن الاثنين، وهذا الصبي الذي لا يعرف بعدُ أصله هو السبب في أن يدخل حياتنا التنوع. "ولَدَ الضيقُ فأُنْجِب الانفجار" كما كانت جارتنا في الوطن الأم العجوز غوتسه تقول، لا أعرف يا تود إن كنت أصدع رأسك بضيقِي وشكاواي. لنترك هذا الحديث إلى غيره مما يُدخل شيئاً من السرور إلى قلوبنا.

- لسنا نفتقر يا داري إلى ما يسر القلب - ابتسم تودور للمرأة، ونظر إلى الصبي نظرة حبور. - ستيفانكُ فوق كل شيء بالنسبة لنا كلينا. ثم أضاف بعد قليل: - غير أنني لم أسمع ما يصدعُ رأسي. بل إنك تقولين ما يُسبب لك الهم، وأنا أسمع ما يُهمّني. وما قلّته لي بشأن أُمي جعلني أعيد التفكير، إنها، وإن لم تكن تقول لي تلك الأفكار صراحة، رحلتُ وهي تقول لي إنها بلاد غريبة عليها، ولكنها بلاد والدي، وظلّت تحبّني فيها. ونصبتُ على قبرها الصليب الذي لم تكن تحبه من قلبها، والذي يكرهه الترك. وإن فعلتُ ما لا يليق فماذا كان أمامي من خيارات أخرى. أكنثُ أنفصل عن البلغار الذين أحمل اسم أسرتي منهم؟ سيعفّر لي إلهنا الكبير، ويرحمنا.

- أريد يا تود أن أسألك عما كنتُ إلى الآن أرغب في السؤال عنه إن كان لا يزعجك. ألم يعبّرِكَ البلغار المسيحيون أن والدتك كانت شركسية، وكانت على دين الأتراك؟

- هذا دين الإسلام يا داري، وليس دين الترك. - حسم تودور الموضوع بصوت رزين، وأكمل بصوت أنعم: - نعم كانوا يعيرونني في طفولتي، وينادونني الشركسي المسلم. وبعدما دفنتُ أُمي في المقبرة البلغارية المسيحية، ووضعتُ

الصليب على شاهدة قبرها توقفوا عن منادائي به. وأكثر من آلمي في هذا الشأن، سواء كان يمزح معي أم لا يمزح، هو من قلت إنه لم يقبل الدخول قبل قليل، بارافان. وكنا نتشاجر كثيراً لهذا لولا أن ستيفان صالحنا.

- يا للقبيح! - بادرت داربخان. كنت أشك أنه ليس رجلاً صالحاً.

- لا تحكمي عليه بهذا يا داري، بارافان ليس إنساناً طالحاً. - قال مرتاحاً إلى أنه تصالح معه، متناسياً أنه أهانه حين تزوج امرأة تحمل في بطنها صبياً تركياً - إنه رجل لا يكل من القيام بأعباء القضية البلغارية.

- وهل كل من يعمل في القضية القومية أناس صالحون؟ سألت داربخان تودور مستغربة ما تسمع، وأضافت رأيها: - برقت يتابع أمور الشراكسة في تركيا، ويعبئهم للحرب.

- عندنا علمٌ بهذا، لم يعد هذا سرّاً على أحد. بارافانوف يناضل من أجل حرية البلغار.

- أمن أجل هذا حارب في بلادنا في صفوف أعدائنا؟

نظر تودور بحنان إلى داربخان مخفياً ارتعاب قلبه من طريقة السؤال المفاجئة، كما يفعل عادة في مثل هذه المواقف، وقال مبرمجاً نفسه:

- لا أعرف يا داري بِمَ أجيبك على هذا السؤال... - وفي الحال أصلح موقفه: - يُحَيَّلُ إِلَيَّ أن بارافانوف أدرك خطأه خلال أسره عند الشراكسة... ولكن لن أكنتم ما فعلتُ بما أنك سألتني عن أصعب ما كان يثقل عليّ: حين عرض عليّ أصدقائي الذين نسوا أنني شرکسي من جهة الأم لم أوافقهم.

- تصرفت بحكمة إذ رفضت أن تقاتل من تشاركهم دمك. ولكن - تنهدت داربخان - لا أعرف كيف سيتصرف من يُخَرِّضون إخواني الصغار والآلاف من أمثالهم، ولمن سيسفحون دماءهم... - حين صدر صوت بكاء ستيفانك

قفزت داربخان وأسرعت إلى السرير الملاصق للجدار: هل أفقت يا ستيفانك؟
هذه أنا، ووالدك تودور واقف أمامك، نعم يا صغيري، حان موعد طعامك،
حالا...

- هاتي ستيفانك أحمله ريثما تجهزين نفسك - حين أعطته الصبي الدافئ
فحضنه عدّ نفسه أسعد إنسان في الكون، فتمشى بالصبي على أرض الغرفة،
وقال لصاحب الوجنتين الحمرابين وهو يمدّه إلى أمه: - الآن ستطعمك أمك،
هنيئاً. ارتاحا أنتما، أما أنا فعلي بعض المهام في الفناء.

لم تكن إراحة الأم وابنها الذي يرضع منها السبب الوحيد لخروجه من البيت:
الفناء نظيف ومرتب، وكومة حطب مقطّع في مكان جاف، ومعلف حصانه
الذي يعرفه ويشتاق إليه مملوء، وكلبه شوركي الذي يرافقه يحوم حوله، ومسكبة
الخضار التي انتهى موسمها نظيفة وأعيد تجهيزها للموسم القادم، كان يريد أن
يتفكر وحيداً في الحديث الذي نجم فجأة بينه وبين زوجته. أمس وأول من
أمس، كما في زمان أبي وأمي، واليوم من قريب - بعيد تظهر قمم الجبال
البيضاء، والسواقي الشبيهة بالساقية التي ذكرتها داربخان تجري فيها باستمرار،
والساقية الأخرى تمر بجانب حديقتنا، وشمس دافئة تُشع في السماء، وتتلاقى
بمجموعات من السحب فيها. والقرى البلغارية والتركية، وقرى الشراكسة
والشيشان والأبخاز التي انضمت إليها، على المرتفعات، وفي الوديان. وهذه
القرى المتنوعة، وغيرها من القرى المجاورة، تظلمها سماء واحدة، وتشرق عليها
شمس واحدة. وتحب عليها الريح، وتهطل عليها الأمطار، وتسقط عليها الثلوج،
وتصفعها الصواعق، ويدوي فوقها الرعد، ولكن كل هذا لا يمنع أن تتعايش في
عالم واحد. وهذه الجبال وغابات الأشجار تعيش معاً. والزهور في المرج لا

تتنافس... ونحن البشر لماذا نعيش على ظهر البسيطة تتبادل نظرات العداة البشرية، وتتعدى بقلوب إنسانية؟..

في اليوم التالي الذي كان قرر فيه تودور ألا يذهب إلى أي مكان قالت له المرأة:

- أنت تؤخر نفسك يا تود؟

- لن أذهب إلى أي مكان.

- ولماذا وأصدقائك الذين وعدتهم ينتظرونك؟

- ليس ضرورياً أن أكون معهم هذه المرة.

- لا تدعنا نخطئ يا تود.

- وما شأنك أنت بهذا؟ - نظر مسروراً بتصريحها: "لا تدعنا نخطئ"،

وصارحها بسبب عدم ذهابه: - لن أدعكما وحدكما في البيت.

- بعد الأحداث الأخيرة التي جرت لي، صرْتُ حكيمة على مبدأ والدي:

"الأديغي عقله الخمير أفضل من عقله الفطير" - ضحكت داريجان مع أنها

كانت منفعة على وشك البكاء. إذا كان الخنجر الذي جاءني به حجرت

سيبقى تحت وسادتي حين تغيب عن البيت، وإذا كان مَقْصِي سيبقى في جيبي

فلا تقلق علي يا تود. وثقْ بقدرتي على حماية صغيري أكثر من حماية نفسي.

سيكفي ما أودعته مأساتي فيّ من القوة لمجابهة عدوي. تعال يا ستيفانك نودّع

والدك إلى اجتماع البلغار، وندعو إلى الله أن يعود إلينا.

الفصل التاسع والثلاثون

حين رأى حجرت الفرسان الثلاثة الذين وقفوا إلى باب دارهم، أسرع إلى البيت

وأخبر أباه غير مدرك سبب مجيئهم:

- مراد بيه اللئيم مع فارسين على باب دارنا.

- أليست أديغياً إن جاؤوا، أفلا تدعوهم للدخول، لماذا تركض إلي؟

- لا أعرف!

- استقبلهم وادعهم للدخول، وأين حاتام؟

- هذا استقبل الضيوف غير المنتظرين.

- هيا! لا تفضحانا في القرية. حضراً ما في البيت من ضيافة. واستدعيا ناورز

وكوبل، - وما إن ترك السرج الذي كان يصونه وأبعد الأدوات عنه قائلاً:

أخشى أن يكون حدث ما كنت أتوقعه، وعاد إلى كرسيه، حتى نهض

لاستقبال الرجال الثلاثة وقال مُخفياً امتعاضه منهم: - تفضلوا! - وتوجه سريعاً

إلى أفندي المخوش وسأله: - لم نتقابل يا حزرت أفندي منذ زمن بعيد، ما

أخباركم وأحوالكم؟

- نعم، منذ هذا الربيع يا مزحِب، يامن جعل الله يومه مئة، وغفر له. لقاءنا

قليلة وإن لم تكن بيوتنا متباعدة. دنيانا الفانية تتجه يوماً بعد يوم، وأنت تعرف

هذا حتماً، إلى مزيد من الفناء بالنسبة إلينا. وتعرض لنا مهمات كثيرة تُختبِرُ بها.

نحن مخلصون لإلهنا العلي العظيم الذي يتهل إليه الجميع ولا يتهل هو إلى

أحد. وأنتم ما حالكم بإذن الله، وما أخباركم؟

- ونحن على هذه الدنيا كما تعرفون وترون - أجاب مزحِب جواباً عاماً لا

يتعلق بشخص معين بل بالجماعة، وأجاب واضعاً النبرة على كلمة "قرية" التي

قالها بالتركية "كوي" بدلاً من الأديغية "شلّه" - لا اعتبار للمسافات بين القرى

إذا أردت الاختلاط. ليس لنا في الأرض التي ينادوننا فيه بالغرباء الأمل الذي

كان لنا هناك في الوطن الأم. تحدث لنا مصائب كثيرة لم تكن متوقعة، غير أننا

لا تتناسى هنا أننا أديغة. ولا نتحلى عما ترك لنا الأقدمون من عادات وتقاليد.

- نعم يا مزحج، نعم. - أيدَ حُزرت أفندي المضيف، - لا يجوز أن ننسى أننا أديغة ومسلمون، سواءً كنا في الجنة أم في جهنم. هذا ما في قلوبنا، وهذا مسوِّغ حياتنا على الأرض. ولهذا يختبروننا عن طريق الكفار الذين وطنونا في مواجهتهم.

حين دخل ناورز زغاشت وكوبل هارون إلى الغرفة لم يصادفوا الضيوف بل اكتفيا بالسلام، وجلسا لصقَ الحائط حيث أُشير لهما مقابل مراد بيه وألبان. وفي اللحظة نفسها جاء حاتام وحجرت، ومعهما قاسم بمائدتين من الشاي، وصفاهما على أرض الغرفة.

قال مخوش حُزرت الأفندي:

- والله ما كنا ننوي الجلوس طويلاً. ولكن بعد أن نذوق من طعام الله الذي وضعه آل باغ أماننا، سأُطلعكم على المهمة التي أناطوها بي بعلم الله تعالى وإرادته مهما كانت ثقيلة عليّ وعليكم. - مُدّوا أيديكم إلى الطعام بسم الله، - بعد أن رشف الأفندي من الشاي بضع مرات أضاف إلى كلامه: - ليس حسناً تحليل المشكلة التي حدثت بين الأسرتين والتي يعرفها الجميع. ولكني سأُطلعكم باختصار على طلب مراد بيه المعروف بالخير ليس في المضيق الذي اختاره الله لنا مكانَ إقامةٍ بل في أبعد منه، والصادرٍ من قلبه وعقله، دون أن أضيف إليه ما لم يعد نافعاً الآن: يريد مراد بيه أن يسترجع الولد الذي خرج من صلب ابنه رجب، دون اعتراض أو نقاش، إلى قومه وإلى أسرته ونسبه، كما يقول القرآن الذي أنزله الله تعالى على المسلمين. نحن قلنا ما علينا، والآن ننتظر ردّكم.

نظر مزحِب إلى زغاشت وهارون دون استعجال وإن كان يعرف ما سيردّ به عليهم. وسأل ناورزُ حالاً كأنه، على عادته، عرف ما في قلبه:

- ألسَتْ يا مخوش أديعياً؟ أنسيت أنك جالس في بيت الأسرة الأديعية التي أهين شرفُها؟

- الأسرة التي أنا في بيتها والتي لقمتهَا في فمي يا زغاشت يا من بارك الله فيك - ابتسم مخوش أفندي ابتسامة خفيفة تخفي تغَيُّر لونه - ليست مجرد أسرة أديعية فحسبُ لي بل أسرة مسلمة. الله العلي العظيم الذي أعبدَه لا يميز أديعياً من تركي، من بلغاري، من ألباني. إن فهمت فإن أي أفندي يستوي عنده آل باغ وآل وسمن. ألا تعرفون أن القرآن الكريم يقول إن الوليد يجب أن يبقى في بيت الرجل الذي خرج من صلبه، لا في بيت المرأة التي ولدته.

- نعرف أن الأفندية أدرجوا مثل هذه الأفكار في الدين الإسلامي دون أن يستشيروا أحداً. - لم يستطع صبراً كوبل الذي ما كان من عادته أن يساهم في الأحاديث - ولكننا من أمة الله بصلاتنا له ودعائنا إليه، على أن يبقى كل قوم على عاداتهم وتقاليدهم وشرعتهم، ولا أعرف إن كان هناك "شريعة إسلامية". حسنٌ أن تكون وكيلاً بالحق، ولكن لا أفهم أن يقعد موكلُك كأن فمه مملوء بالماء.

- حقاً، وافق ناورز صديقه كوبل، - ليتكلم من جاء العيب من جانبه، ليُسمعنا صوته!

- نعم، - قال حُزرت أفندي مخفياً عدم رضاه عما سمع - مراد بيه لم يأت إلى بيت باغ مزحِب مصمماً ألا يقول شيئاً. غير أنني لا أوافقك على ما رددت به عليّ في شأن الشريعة الإسلامية. الله تعالى القيوم علينا - مدّ حُزرت أفندي كفّه نحو السماء كأنه يريد أن يخرق السقف - سمعك؛ فإن كنت

محظوظاً غفر لك. وأنت ستدعو إليه أن يفعل هذا. ونحن سنشاركك. إنه يرعانا، نصائحه أكثر من لومه، هو من يُحيينا، ورأيه في الموضوع الذي جئنا من أجله. رققوا قلوبكم وتحلّوا باللطف والرحمة في الموضوع الذي التبس فيه الظلم والبراءة. وإن تجاوزنا ما قدره...

- يا مخوش، يا حزرت افندي، اهدأ! - صاح ناورز ورأسا كتفيه ناتئان. ثم اختتم بصوت أهدأ: - لا أظنكم جئتم إلى باغ مزحِب لإفهامنا الدين الإسلامي. إن كنت "أسمعنا أغنية من تركب عربته..."

- ألا تسمع يا مزحِب كيف يهينني صديقك الرجل الطيب دون اعتبار لك ولي، ودون خشية من الله تعالى الذي أعزّه؟

- بالغت في توجهك إلى الله تعالى يا حزرت - قال مزحِب باسمًا ودافع عن صديقيه: - في كلام ناورز وكوبل نصيب من الصحة. ولكن، بما أننا أنت وأنا، أكبرُ من في هذا المجلس، لا أريد أن ندخل في مهاترات. وسنمراد بيه ضيفنا هذه الساعة، تخطّى عتية بابنا ولو لم يكن قريتنا من جهة النسب. وإن خرج دون أن يحقق ما أظنه يريده فسيبقى ضيفنا حتى يتجاوز حدود قريتنا. والآن إن كان عندك ما تقوله فأنا أسمعك.

- أنا لم آت إليك جاهلاً بالشرعة الأديغية - قال مراد بيه دون رجاء - ولكن إن كان هذا رأيك فلن أطيل الكلام في سبب زيارتي: إذا لم تعترفوا بحكم الإسلام في الصبي فسنحصل، بمقتضى قانون تركيا التي استضافتكم، على الصبي الذي يحمل نسب وسمن. - نخض مراد بيه مقتنعاً أن مطلبه لن يتحقق، وقال وهو عند الباب: - لن أدع البلغار الكفار يرثوا ولدنا حاملاً نسبهم.

- مع السلامة - قال باغ مزحج في إثر الضيف التركي - وإن كنت لا أعرف هل سيتحقق لكم هدفكم... حاتام أين أنت؟ أوصيلوا الضيوف بأمان إلى ظاهر القرية!

الفصل الأربعون

في أحد الأيام، وقت ترويح المواشي إلى القرية خرج فجأة من مرتفع غابة ستيفانوسك خمسة فرسان بالزي الأديغي، وقتلوا النساء الثلاثة والصبيين الذين كانوا يجمعون المواشي، وهربوا باتجاه قرية الشابسغ.

كان تودور بين البلغار الذين حملهم الغضب على الاستنفار بسبب المأساة ظاهر قرية ستيفانوسك: من لهم قتلى يندبون قتلاهم، والآخرون يتعاقون ويربت بعضهم على كتف الآخر. وغيرهم ينظرون نظرات عدائية نحو القرية التي رجع إلى جهتها المجرمون. ويهددون بقبضاتهم. ويشتمون. وجرس الكنيسة الذي ينعى القتلى يحشد الناس.

- ماذا حدث؟! - سأل بارافانوف الذي قفز من السرج.

- الشراكسة قتلونا وهربوا. - أجاب من كان منكباً على زوجته المقتولة بدلاً من تودور المسؤول، وشرح له سبب كلامه: - ألقوا من الذين جاؤونا بهم من القفقاس جيشاً من الفرسان المسلحين، لذا يصبّون علينا نار أحقادهم وثأرهم. ما الأمر يا ديمتروف؟ لماذا تنظر إليّ شرراً؟ ألا أنك نصف شركسي؟ أم لأنك سلبت التركي زوجته واتخذتها زوجة لك؟

- أفهم مصيبتك يا إيفان، - واسى بارافانوف الرجل الملقّع، - احرص على ما تقول، وتحلّ بالرحولة!

- أيّ رجولة وقد بقي في عُهدتي أربعة أطفال! - انحنى إيفان على المرأة وبكى.

- من منكم رأى الفرسان القتلة؟ - سأل تودور الواقفين مبتلعاً الإهانة.

- أنا - قال الفتى الذي في حدود الرابعة عشرة من عمره - كنت اختبأت في الأجمة فرأيت وجوه الشراكسة جيداً. لم يكونوا يتحدثون فيما بينهم، غير أن كبيرهم كان يخاطبهم بالشركسية.

- ومن أين تعرف أنها لغة شركسية؟

- أنا لا أعرف الشركسية غير أنني أفهم التركية قليلاً، لذا، ومن لباسهم، أقول لك إن المهاجمين شراكسة.

- ما اسمك يا أخي الأصغر؟

- نيكولك.

- يا نيكولك هل تتعرف من سمّيته كبير الشراكسة إذا رأيته؟ - سأل تودور الفتى وقد استلم الحديث من بارافان.

- سأعرفه إن أريتموني إياه حالاً. ولكن لا أعرف بعد قليل. هو رجل متين نحيف بشوارب ولحية سوداء.

تبادل تودور وبارافان النظرات كأنهم حدسوا من وصفه الفتى بـ "الفارس الأسن". وفيما هم يحملون الجثث قال تودور لبارافان:

- أظن أن في هذه المأساة شيئاً غامضاً لا علم لنا به.

- وأنت هذا رأيك؟

- لا يمكن استنتاج شيء من أن ترتدي الزي الشركسي، أو أن تهرب باتجاه القرية الشركسية. أيمن أن يكون الترك يفتنون بيننا نحن البلغار والشراكسة؟

- هذا ممكن، ليس مثلاً هذا مستبعداً... - قال بارافان، وأشهد على كلامه:
- ألا تتذكر كيف دفعوا في العام الماضي القرية الصربية والقرية الألبانية إلى
الاقتتال؟ لا شيء يغيب عن خواطر الترك، ولولا أنهم يفكرون هكذا ما كانوا
جاءوا بالشراكسة إلى بلادنا.

- يا بارافانوف! - استدار إيفان الذي كان قد حمل العربة جثمان زوجته،
وقال ناقماً: - جعلتم الشراكسة المسلمين يذبحوننا وأنتم تعزفون على الوتر
البلغاري، وتُسمعونا الأغنية التركية. لن أبقى أحداً في مضيقنا من أحوال هذا
الواقف إلى جوارك يهمس في أذنك ولو لم يبق غيري!

- لا تردّ على هذا التعيس، لا أعتب عليه - توسل تودور الذي كانت الإهانة
تُحرّقه من الجانبين إلى صديقه الأسنّ، وأضاف: - ولو كنت مكانه لقلْتُ ما
يقول.

تذكر بارافان في هذه اللحظة أنه حارب في القفقاس وأسر عند الشراكسة،
وانتصب أمام مخيلته: "على ما يبدو فإن جرائمك هناك هاجت علينا هنا في
بلغاريا. كانت المستوطنات القوزاقية في الأرض الشركسية والقرى الشركسية
تتبادل العداء وتتحارب. وكان المنتصرون الذين يساندهم الحكم يدينون
المهزومين الذين لا يساندهم. وأنا حاربت بسيف مُشهرٍ مع أبناء قومي،
واقترفت مظالم كثيرة هناك، ودفعْتُ الثمن. وها أنا الآن فيما أحاول التصدي
للترك الذين يستبعدوننا وجب عليّ التصدي للشراكسة الذين وطّوهم بيننا...
من المذنب؟.. من العادل؟.."

- يا تودور - سأل بارافان كأن ناداه فخرج من خواطره - هل تركت
زوجتك وحدها في البيت؟

- لا، معها حجرت. ما الأمر؟

- لا بأس إن كان أخوها حجرت معها. أقول: من يعرف... أنا مجبر من الله أن أبقى مع أهالي الضحايا، وأنت عُذُّ إلى البيت. وكما اتفقنا خذ زوجتك إلى مكان لا يعرفونكما فيه. ولا تتهاون. ولكن، إن لم توافق، وإن لم تخش أن يقولوا لك: ها قد أعدَّنا إيلنا - تظاهر بارافان بالمزاح - فخذها إلى قريتها، عندها هناك من يحميها: والدها وأخوها. والجيران يحرسون عليها. وأهل القرية يساندونها.

- شكراً يا بارافان إن كان هذا ماترى فسأسمع نصيحتك. وسنرى ما يحدث إلى وقتها. وأنا ما كنت أريد أن أبتعد عن القرية. وأين أذهب تاركاً أرض والدي؟ وسأعرف حقيقة الفرسان الشراكسة الذين يقال إنهم هاجمونا.

الفصل الحادي والأربعون

سرى خبرُ فاجعةِ قريةِ ستيفانوفك في قرى مضيق ترغوفيشت: شموليه وفارنا، بأسرع من قرع أجراس الكنائس وأذان المساجد، بل وصل إلى صوفيا. ولكن قبل أن ينسأها الناس جرت ثلاث حوادث في ثلاثة أماكن مختلفة، وضحاياها أكثر: ومن يقولون إنهم رأوهم هم فرسان شراكسة... وحسب روايات من رأوهم ومن لم يروهم كان هؤلاء يعملون ليلاً ونهاراً. وأعجب ما في الأمر أنهم كانوا يقتلون البلغار دون تمييز، ولم يكونوا ينهبون أي شيء من ممتلكاتهم سواء كانت نقوداً أم ذهباً أم ملابس أم مواشي، ولم يكونوا يتركون وراءهم أي أثر لمتابعتهم.

ومع وجود بلغار يقولون "إنه يعيش هنا قوميات أخرى غير الشراكسة: الشيشان والقرشاي والأوسيت والأبازة" فإن كل الجرائم كانت تُحمَل للأديغة - الشراكسة لأنهم يعدّون كل من أتى من القفقاس "شراكسة". وكان احتقار

البلغار لهم يزيد يوماً عن يوم. وكان الأديغة يعرفون أنهم متهمون بما لم يفتروا ولكنهم شرعوا الآن بحماية قراهم وأسريهم. - وينضمون إلى المجموعات المسلحة التي تؤلف بقرار منهم. بل إن من لا يملكون أحصنة يعملون على اقتناء السلاح.

والبلغار الذين كان يُعاد إليهم وعيهم، والمجموعات المطالبة بالحرية بقيادة بارافانوف، مهتمون على نحو واضح بهذه الحجة بإجراءات حمايتهم الذاتية. والقرى التركية المدعومة من الحكم، والتي يُدرك زعماءها أنهم المتسيدون، لا تعير اهتماماً بثورة الحرية التي قامت في البلقان، بل اعتمادها بعد الله على سلطانها المنير، وتعيش كأن ما سيحدث غداً ليس من شأنهم: يملكون أجود الأراضي وأوسع المراعي والغابات، والأسواق، والدكاكين، والمخابز، وتمديدات المياه، وكل المرافق بأيديهم. وقد وقع الأديغة - الشراكسة الغرباء بين القوميتين المتجاحتين من الأزل، والمختلفتين ديناً. وحين كان هؤلاء يحمون بالدم بلادهم لم يسمعهم أحد مهما صرخوا واستغاثوا. والآن ماذا يستطيع أن يفعلوه في الأرض الغريبة بعد أن جرى لهم ما جرى، وما أملهم؟

الأفكار التي هجمت على فكر ناورز زغاشت أخرجته من البيت. وما إن استند بصدره على سور الدار حتى تذكر ما رواه له جده من حكاية الأفعى والخنزير البري: "استدعى صوت الخنزير البري المتألم الصياد إلى السهل. ولما نظر رأى الأفعى قد قيّده إلى شجرة بلوط وشرعت تحنقه. والاثنان خطران على الإنسان. من من الاثنين عليه أن يساعد؟ الخنزير بريء والأفعى مذنبه. والعادة أن يساعدوا الواقع في مأزق. سدد البندقية على رأس الأفعى فقتلها، وحرر الخنزير..."

"على ما يبدو - تفكر زغاشت ثانية في الحكاية التي تذكرها. - الصياد قتل الأفعى لأنها مذنبه. وحرر الخنزير لبراءته. الصياد عمل خيراً، وهذا ما يجب فعله. ولكننا - نحن الأديغة - من نشبه اليوم؟ نحن أفعى مذنبه أم خنزير بريء؟ إن كنا سنحقق للترك ما كانوا يلمّحون به إلينا ثم صارحونا به فنحن الأفعى بالنسبة إلى البلغار. حين كنا نحمي أنفسنا في بلادنا كنا خنازير، والآن يريدون منا أن نتشفى من البلغار المناضلين في سبيل الحرية فنكون كالأفعى. وإن فعلوا بنا ما فعلوا بالأفعى؟ من من الطرفين سيفعله بنا في المستقبل: الترك أم البلغار؟ ربما من أجل أمثالنا أطلقوا القول المأثور "لا تخرج، ولا تدخل، ولا تقع عيني عليك وأنت في البيت!" يقال: "لا شيء يتورع المضطر عن فعله" وفي هذا شيء من الصحة. نحن في مأزق والبلغار كذلك منذ مئات السنين. العيب الذي ألصق بنا في ما عُرف بـ "فرسان الشراكسة" يتجاوز حدود العيب في الوقت الذي بدأ فيه شيء من الوفاق والتفاهم يسود بين العريقين المضطرين، العريقين اللذين في مأزق - نحن والبلغار - ولا أستطيع تصديق موضوع الفرسان الشراكسة. ولست وحدي بل باغ وكوبل وغيرهما تحرقهم نار الإهانة. بل تصل إلى أمثال حاتام ممن أمامهم فرصة الثأر، والأصغر منهم المملوءة قلوبهم بالحمية. أظن أن في هذه المسألة جوانب لا نعرفها نحن"

- لا أخبار حسنة يا زغاشت. - قال له كوبل الذي وصل مسرعاً إلى باب الدار. - هاجم عدد من الفرسان البلغار تشبه "مجموعة الفرسان الشراكسة" السالفة الذكر قرية الشابسغ، وقتلوا عدداً من أهلها!

- هذا حقاً غير مقبول - صرخ ناورز من هول ما سمع، وسأله عما كان يهجس به: - ومن أين تعرفون أن هؤلاء بلغار؟

- كانوا يرتدون، على ما رووا، الزي البلغاري. تعال، اركب، ينتظرنا المعزّون، بمن فيهم أبو بكر الأفندي، عند الجامع.

- ما الأمر؟ تقولون، دون أن تعرفوا الحقيقة: "يرتدون الزي الشركسي - البلغاري"!.. ها هو الآن!- حين ركب حصانه ووقف زغاشت على اليمين بحكم تقدمه في السن، سأل: - متى حدثت المأساة؟

- الليلة - أجاب هارون، وفصل ما كان يثقل عليه: - يقال إنهم ذبحوا ثلاث أسيرٍ على تخم القرية وهربوا.

- ومن رأى القتلة إن كانوا بلغاراً؟

- كلام العجوز التي ماتت من جرحها... ومعهم قبعة بلغارية لأحد المهاجمين. وصل المعزون الثلاثون من قرية أبراخ عبر طريق مختصر في خلال ساعة. كانوا يشيِّعون في القرية أحد عشر جثماناً بين كبير وصغير فلم ينتظروا الوقت المحدد للدفن بل بدؤوا بإجراءات دفن الأطفال والنساء. وفي ساعة الظهيرة دفنوا الرجال. وفيما هم منصرفون من المقبرة وصل عدد من المعزين الترك - الأديغة بقيادة مراد بيه ومخوش حزرت متأخرين. وبعدما قاد الأفندي الدعاء باسم أهالي الأموات، وقف مراد بيه أمام الجمهور وقال:

- يا من أدعو لهم أن يغمهم الله العلي العظيم خالق الكون برحمته، أيتها الجماعة التي أدعو لها أن يفرج الله كربها. نعزيزكم بمن رحلوا قبل أوانهم. ندعو الله أن يهلك من الكفار كل ساعة بل كل دقيقة مثل ما لوعوكم بهم. نحن المسلمين واجبنا أن نغزو هؤلاء، ونُخلي عالمنا منهم. ألم تفهموا الآن وتروا بأعينكم ما يمكن هؤلاء أن يفعلوا بكم؟!

- مهلاً، مهلاً يا عبد الله مراد بيه - رفع قلوبات أفندي الشابغ يده باعتراض خطاب مراد - بيه. - لا تدعونا نلقي هذه الخطابات الحامية على

مسمع من الأموات. سنجد متى عدنا إلى القرية، وعزينا أهالي الضحايا، ثم إلى الجامع، أمام الله الذي يختبرنا في دنياه الفانية ما نقول وما نفعل.

حين ترجل الفرسان القادمون من قرية ستيفانك، بعدما عزی الضيوف بمن فيهم القادمون بقيادة مخوش حزرت الأسر الثلاث، واتجهوا إلى الجامع كما اتفقوا، عزّاهم بارافانوف بخليط من لغته الأديعية والبلغارية:

- جاءت بنا إليكم المصيبة التي يقال إن أبناء قومنا البلغار أنزلها بكم. إن كنا مذنبين فنحن نعتذر إليكم ونعترف يا جيراننا. وندعو الله أن يكون آخر عهدنا بمثل هذه الجرائم.

- وأنتم حياكم الله يا جيراننا على مقاسمتنا مصيبتنا. - ردّ عليهم الأفندي قلوبات.

الكلمات التي ردّ بها أفندي الشابسغ على تعزية البلغار أغضبت مراد بيه حتى رأى الحاضرون احمرار وجهه، قائلاً في نفسه: "اسمع ما يقول هذا، يتوسل إلى أولاد القذارة" كاظماً غضبه، حريصاً على سلوكه، فردّ على بارافانوف الذي يحقره بالتركية التي يفهمها الأخير:

- أيّ مأساة جلبتموها لهؤلاء الشراكسة التعساء، ثم تغطونها وأنتم ترددون "ما يقال"، "نحن مذنبون"؟ إن كنتم البادئين في سفك الدم فقولوا لهم الحقيقة، ولا تخدعوهم. لست أتعجب فحسب من مجيئكم تعزون ضحاياكم بل لا أفهم السبب. من حظكم أن الشراكسة لا يقتلون ضيوفهم كما تفعلون أنتم.

تبادل الأتراك ابتسامات ساخرة، ونظر الأديعة الذين لا يفهمون التركية نظرات الاستفهام، وحملت الإهانة البلغار على تبادل النظرات، وشمعت أصوات بكاء من جهة القرية القريبة، والشمس التي لا تميز بين الأجناس البتة تهوي نحو المغرب.

باغ مزحِب الذي لم يساهم في الحديث إلى الآن لم يتمالك نفسه:

- أسأل ماذا يقول هذا؟

- هؤلاء - قال بارافانوف - جاء بهم الموضوع الذي يشغلهم، وليس للتعزية.

- لم أفهم ما قلت... - ردّ ألبان شبه مبتسم على بارافانوف.

- فهمتَ ما قال كبيرُنا بأفضل منا، - ترجم تودور لألبان جواب بارافانوف

على غمزٍ مراد بيه. - غير أننا لسنا اليوم في موقف نتهاتر فيه. ما لم تفهمه

سنُفهمك إياه بسرعة.

نظر مراد بيه إلى ألبان الواقف إلى جانبه وما يسمعه لا يعجبه، ورأساً كتفيه

ناتقان، وحزرت الذي لاحظ ما يجري نصح الاثنين.

وفي اللحظة نفسها قال قلوبات أفندي:

- تحلّوا بالصبر يا جماعة! الله العلي العظيم يرانا ويسمعنا. إنه عادل مع عباده

رحيم. لا تبادلوا الكلمات المبطنة. دعونا ندع إلى الله أن يسهّل أسئلته على

من صاروا إلى جواره!

رفع الأفندي قلوبات راحتيه الرقيقتين إلى وجهه فقلّده حالاً الأديغة والأتراك

المسلمون، ورسم المسيحيون الصليب. دفع مراد بيه بمرفقه حزرت أفندي:

"انظر ماذا يفعل هؤلاء، كيف ينجسوننا"، وأفهمه بعينيه استياءه مما يحدث.

وحين انتهوا من الأدعية دعا الأفندي لجميع الحاضرين:

- اللهم بلّغ دعاءكم إلى أصحابها.

قال مراد بيه وقد جرحته الكلمات:

- وهل تقصد أيضاً رسم الكفار إشارات الصليب؟!

أثار السؤال اللئيم الجماعة المؤلفة من أكثر من ديانة، التي دعت إلى الله معاً متقاسمين المصيبة، كلاً حاملاً في نفسه رؤيته للموضوع، فارتفع صوت قلوبات أفندي فجأة:

- إذا كان الله خلق العالم ومنح كل قوم لغتهم المختلفة عن غيرها، واختبرهم عبر ديانات مختلفة، فأنا لا أتقبل سؤالك لأنه غير صحيح. أوجه سؤالك إلى الله العلي الذي نحن جميعاً بأمره لأنه هو من يشرحه لك ويُفهمك إياه. وقال حين عرف أحد الفارسين اللذين ترجلا عنده وقد وجد لنفسه ذريعة ممتازة: - وها هو برقت زوال، إن لم أخطئ، جاءنا. وإن لم أخطئ أيضاً فمعه باغ حجرت.

بعدها عَزَى برقت زوال الطرفين أنهى كلامه كمن يعرف تماماً مع أنه ليس عنده معلومات كثيرة عما حدث في قرية ستيفانوفسك وغيرها من القرى:

- نحن، وإن كنا في إستانبول، أو في بلغاريا، أو عشنا في صوفيا، نعرف كل ما يجري في بلاد السلطان المنير عبد العزيز خيراً كان أم شراً. ندعم الخير، ونقف في وجه الشر. أقول لكم باسم مصطفى باشا قائد الجيش إننا سنحيطكم علماً بكل ما يحدث في مضيق ترغوفيشنت. وأعزيكم جميعاً. والآن سأتكلم على الموضوع الذي يشغلنا باختصار ببضع كلمات: الفرسان الحراس الذين سمحنا لكم بتجميعهم - دَعَكْ من المشاة - الذين تدفعون من أجلهم ما تملكون لا ينفذون مهامهم. هؤلاء ينامون مع الشمس ويُيقنون معها. ووجهاء قراكم أسوأ منهم. لا أقصد الجميع، غير أن في إهمال الكثيرين منهم خرابكم.

- يا برقت، لا أعرف إن كان هذا سؤالاً غير أنني أريد أن أسمعك والواقفين ما يشغل بالي - قال باغ.

- نسمعك يا مزحِب، نسمعك.

- لا أفهم كيف أنه لا يُقتل أحد في القرى التركية في حين يُقتلون في القرى البلغارية والأديغية. والعجيب أن الفرسان المغيرين على القرى يرتدون الزي البلغاري والزي الأديغي. وحسب رواية الشهود فإن أحد من هاجموا قرية الشابسغ أخلّوه جريحاً.

التفت مراد بيه إلى ألبان بعد الكلام الذي فوجئ به، وبادله الآخر النظره نفسها. ولم يُطق مراد بيه صبراً بقلبه المتفجر غيظاً فقال بغضب:

- لا تدخلوا بين البلغار والترك الذين عاشوا حياتهم دائماً بسلام!

- نعم، يا جماعة، نعم. - عاد برقت زوال إلى وعيه - لا تدعونا ندخل بالشر بين الأعراق المختلفة. ما قلته يا مزحِب فيه ما يدعو للتفكير. وأنت أيضاً يا من لا أعرف اسمه يا أخي الصغير. ولنفكّر في ما قاله مراد بيه. ولنتحلّ بالحكمة والصبر. ولنتنجّب الأقاويل. وهذا ما يقوله لنا سلطاننا المنير باسم الله. وأنت ما رأيك في هذا يا أفندي؟

- وماذا سيكون رأيي؟ ما يقوله إلهنا العلي الذي نحن عباده هو قولي. ننهي سهرتنا هنا إذن. شكراً لكم جميعاً باسم قرية شابسغ وباسم كل الأديغة الذين يعيشون في مضيقنا. وشكر الله سعيكم وعوّضكم خيراً.

حين خرج المعزّون الأبخاز من قرية شابسغ سأل مزحِب حجرت عما يقلقه دون أن يعبأ بالفارسين من ورائه:

- كيف حدث يا ولد أن رافقت برقت؟

- ما كنت لأرسله وحده حين سأل عنكم في مروره بدارنا.

- حسناً فعلت، - قال ناورز إلى من ورائه، - ولكن برقت نسي أنه أديغي.

- إن كنت تتكلم يا زغاشت على مرافقة زوال للترك هذه اللحظة، - أجاب حجرت بسرعة - فقد أخبرني أنه سيعود معنا. وقد ترك كساءه وأشياء أخرى له في بيتنا. وها هو يأتي باتجاهنا .

- بلّغ شكري إلى من تلفظ اسمه جيداً، هذا الذي يُغيّر مضيفه^١ - غمغم حاتام، وقال للأكابر سناً: - إن أذنتم لنا فسنعود نحن إلى القرية.

- لا تغيروا رفاقكم ناقضين ما قلته قبل لحظات يا ولد! - جزم مزحج رافضاً - خرجنا من القرية معاً فعلينا أن نعود معاً، لا تدعونا ننقض شِرعتنا الأديغية. - ولكنه ترك داربخان وستيفانك وحدهما في البيت.

- لم أتركهما! - ردّ حجرت بفضاظة - رافقتهما إلى بيت جيراننا، وتعهد قاسم بالحرص عليهما.

- لماذا لا تقول هكذا إذن يا مبارك النسل؟ - غمغم حاتام ثانية، ونظر بعين الود إلى أخيه.

عندما دخل الفرسان المعزون إلى قرية أبزاخ تفرقوا أحاداً ومثنى. وترجل باغ مزحج وولده، ومعهم برقت زوال عند دارهم. وبعد قليل من استقبال زوال في المضافة دخل مزحج إليه. وقال له ما يشغل باله دون مداورة:

- والله يا زوال لم أتوقع أن نلتقي في مثل هذه المناسبة الحزينة. ولكن ما العمل؛ هذه حالنا في السنوات الأخيرة... لم يتسنّ لنا أن نتكلم كما نريد عند جيراننا الشابسغ. كيف حالك؟

- كيف ستكون حالك يا مزحج وقومك في ضيق لا يعرفون ماذا سيحدث لهم غداً؟ نحاول أن نجد تفسيراً للمشكلات التي وقعتم فيها. كل ما يجري في

^١ تغيير المضيف عيب كبير عند الأديغة.

البلقان من اضطرابات - سأثق بك، وسيبقى هذا بيننا - يتهمونا بها، وبصراحة أكبر، يؤلّبون بعضنا على بعض.

- ما قلته يا زوال لن يخرج من بيننا، ولكن - ابتسم باغ - هل الآن استوعبت الموضوع؟

- هذا فهمته منذ زمن بعيد... - أجاب برقت مع أنه يعتقد أن ما سمعه لا يليق به، وأضاف: - إذا كنت تتذكر، كنا في ضيق شديد، ونحاول أن ندبر أمورنا، وجب علينا أن نصف إلى جانب من نتهيب ذكر أسمائهم، ونشاركهم في مهامهم. ما يحدث في هذه النواحي نرى مثيلاً لها في أرجاء البلقان الأخرى. أظن أن اختيار تركيا بدأ منذ زمن أبعد من الآن في البلقان.

- وأنا لي بعض العلم بهذا رغم أنني أعيش في قرية أبزاخ. - قال باغ دون استغراب ما سمع، ثم حدد: - وهذا ما يقوله أهل البلاد الذين تدعمهم روسيا، إيفانوف، وصهرنا نصف البلغاري، نصف الأديغي، وغيرهم. ويقولون إن إنجلترا التي خدعتنا سنوات كثيرة تساعدهم خفية.

- لا أعرف إن كانت إنجلترا تساندهم أم لا، ولكن لا شك في أن أقرباءهم الروس يحرّضونهم. ثم من لا تتعامل إنجلترا سرّاً معه كما تقول بيكا سيدتنا الكبرى؟!

- حسنٌ أنك أتيت على ذكر بيكا السيدة الكبرى، وعلى كل حال كنت أنوي أن أسألك عنها. ما أخبار السيدة الكبرى التي نسيث إن كنا لا نزال على ظهر البسيطة؟ سمعنا أنها تقول إن الأديغة لا مجال لهم أن يعودوا إلى الوطن الأم.

- إن سمعتم - ابتسم زوال ابتسامة خفيفة - فهذا يعني أنها لم تنسكم... ولكن إن أردت حقيقة موقفها فإنه أقرب إلى ما قلت. ومع أن كلامي بالسوء

على من ربت ابنتي، ونفعتني شخصياً عيب، فأنا أعرف أن السلطان طرح هذه الفكرة بمعرفتها في اجتماع المفتين الترك. سأقول رأيي في هذا، وسأحني يا مزحِب إن أخطأت: إلى أين سنعود؟ ومن ينتظرنا هناك؟

- كنت سأحتك لولا أننا نُذنب بحق أرض أجدادنا وجبالهم... ماذا سنفعل حيال ما يجري ويُفعل بنا. كيف سنتغلب عليه؟ وأنا سأجيب نفسي بنفسي. هؤلاء - ليس لأن عندي صهراً نصف بلغاري أقول هذا - ليس بينهم ممارسات أدغية بلغارية خاطئة. يُخَيَّل إليّ أنك تحس كما أحس مصدرها.

- وأنت ترى هذا؟ - انتصبت أمام مخيَّلة برقت زوال في هذه اللحظة صورة مراد بيه وألبان. تذكّر أنه ترك في هذا الربيع مراد بيه وحده عند مصطفى باشا قائد الجيش الذي كان عينه معاوناً له. وتذكّر أنه يحس الحديث الذي جرى بينهما رغم عدم معرفته به.

- أظنني وحدي في هذا الشعور؟ معي ناورز وكوبل، ويمكنني أن أعد أسماء أخرى.

- ومن غيرهما؟

- غيرهما، وإن لم يقولوا صراحة هم بارافانوف وديمتروف...

- هل أسكنتم صهركم ديمتروف معكم أم...

- يا زوال! - أغضب الكلام مزحِب، ثم هدأ مع تقطُّع الكلام - أيها الضيف، كيف أُسكن معي صهري مُخالفاً طبيعتي الأدغية وأُنيمه على فراشي! اتفقنا أن تبقى أسرته عندي ريثما يجد مكاناً أو حلاً آخر. وسنرى ما يحدث هناك. أخشى يا زوال أنك سمعت أموراً غير صحيحة يُشيعونها عنا.

- نحن يصلنا الكثير يا مزحِب لو كنا نصدِّقُها جميعها. أنا من لا يسره أن يؤسَّس داربخان وتودور أسرة سعيدة؟ فرحتُ لدى سماعي الخبر كما فرحتُ

أنت. ولكن لا تدع أقربائك، ولو كان صهرك ليس بعيداً عنا، يتخذونك مستشاراً في أمور تخص من أعطونا هذا الملجأ فجاؤوا بنا إلى بلادهم.

- لم أفهم يا زوال... - نظر مزحج في وجه الضيف مستغرباً ما سمع.

- لا عجب في ما أقول - قال زوال بسرعة واحتتم: - أنا أطلعك ولم أكتمك. وأنت سمعت ما يجب أن تسمع. نظرنا نحن إلى الموضوع مختلفتان قليلاً تبعاً لموقعينا فلا تدعنا يا مزحج نبحت عن المذنب والبريء. وثق أي سأعرف ما يحدث في القرى ذات الأعراق المختلفة. ليس بعيداً أن يتورط الأتراك في هذه المسألة ونحن مشغولون بالأديغة والبلغار. وهذا لا يمكن السماح به. وإن رأيتم أن أوصل القضية، بما أننا نعيش مرحلة صعبة، إلى مصطفى باشا، وإلى إستانبول، بل أوصلها بمعرفة بيكا السيدة الكبرى إلى السلطان نفسه.

- أيمكن ألا يعرفوا ما يحدث في بلادهم؟

- الله العلي العزيز هو وحده من يعرف ماذا يحدث في الدنيا يا مزحج. والآخرين، من السلطان وغيره، صدق أننا لا نعمل معهم سدى. - أعاد زوال الحديث إلى الزاوية التي يريدونها مضمناً المضيف مزحج أنه مقتنع بما يقول: - لا أعرف إن كنت ستقبل مني: أرى أن ابنك الأصغر يمكنه أن يصبح ضابطاً جيداً في الجيش الذي أنتمي إليه، لذا كنت أود أن تُرفقه بي؛ ألسنا من قرية واحدة، ومن عرق واحد، وأنت هل قليل ما عانيه معاً؟!

قال مزحج وزوال جالس يعيد التفكير في العذابات التي مرّ بها في السنوات العشر بعد الهجرة من الوطن، وقبلها:

- لا أعرف بَم أجيبك بشأن حجرت بعد القضايا الكثيرة الغامضة التي تكلمنا فيها. يسرني أن عندك مثل هذه النية نحو ولدي. ولكن لا أظنه يقبل.

- اليوم حين لمُحِثْ له أجابني أن الرأي رأي والده.

-هكذا؟ - ابتسم مزحِب بين المستغرب لما سمع وغير المستغرب ولو أنه ارتاح
لما سمعه، ونادى إلى خارج الغرفة: - يا حاتام ادعُ أخاك الأصغر إلى هنا! -
وحين دخل حاتام وحجرت الجاهزان لنداء والدهما إلى الغرفة، ووقفوا إلى جانب
الباب سأل الأكبر: - أعندك اطلاعٌ على ما يريده ضيفُنا، ابن بلدنا، بشأن
أخيك الأصغر؟

- بعض الاطلاع.

- لا أسألك قليل أم كثير، أريد رأيك.

- إن كان زوال سيتخذ من أخي مرافقاً ويرعاه فأنا موافق. وهذا رأي أختنا.
تكلم الآن مزحِب بنبرة الُطف:

- إن كان هذا رأيكم أنتم الثلاثة، يا مبارك النسل، فما الحاجة إلى رأيي.
امض يا ولدي، أسمع لك، ولكن لا تُحَيِّب ظني فيك! - وأضاف لنفسه: "
ولكن لا أعرف ما سيكون رأي الصهر".

الفصل الثاني والأربعون

الأرض في جهاتها الأربع جميلة، كلٌّ في طبيعتها؛ سواءً في أرجائها المرملة أم في
مهابِّ رياحها، أم في سهولها الخصبة، أم حيث تتناقل العواصف ثلوجها، أم
حيث تهبُّ رياحها الحارة. ومضيق ترغوفيشت بجبالها المكسوة بالغابات أين
يقف خارج هذه الأصناف: اختلاف ربيعها عن شتائها، عن صيفها، عن
خريفها، يسرُّ القلب ويخطف العين. وإن كنتَ ولدت في هذه الأرض عشتَ
حاملاً في حياتك طبيعتها وجمالها دائماً. وإن كنتَ مولوداً في مكان آخر مثل
داريخان وحاتام وحجرت؟

داريخان تحمل طفلها النائم في حضنها الذي يختلط في عروقه الدم التركي بالدم الأدغي، والذي سمّوه باسم بلغاري: ستيفان، جالسةً على مسطبة بيت والدها القائم على أعلى المرتفع تُفكّر في هذا الأمر وغيره من أمور البيت. والخريف الأصفر الذهبي لبلغاريا، أسيرة تركيا، تراه ليس فوق القرى الأبراشية الغريبة الصغيرة فحسب بل في كل مكان زحفت من فوقه الشمس، من قفقاسيا، وحيث تتجه الآن غرباً، وجنوباً، وشمالاً، وأينما اتجهت.

وما أمام مخيلة داريخان في هذه اللحظة ليس هذا المنظر، ولا وطنها الأم الذي تذكره ويقضي فيه خيالها وقته، بل تفكيرها الذي لا ينتهي هو المصير الذي ينتظر الصبي الذي في حضنها. "كيف يكون الصبي الذي جاءت به التعاسة سعيد الحظ؟.." - لامت داريخان نفسها وواستها: - ولماذا لا يكون؟ أليس جاء من بطني؟ ألا يقولون إن الولد لمن رثاه وأنشأه؟ مهما تصرف معنا أعمامك، وليرفعوا دينهم وظلمهم في وجهنا، فلن نتنازل عنك لأحد يا ستيفانك. هذا المضيق، وإن لم تولد فيه أمك، ولا جدك، ولا حاتام وحجرت، وُلِدَ فيه مثلك من صار أباً لك تودور. وفي أرضه وبلاده وُلدت. أدعو الله ألا يجعلك مثلنا لا ننسى وطننا الأم! وأنت لا تنس هذا يا ولدي..."

جفلت داريخان من حاتام الذي فتح الباب الصغير ودلف إلى الدار. وأفاق ستيفانك من صوته.

- يا لمصيتي؛ أهنأك مأساة ما؟

- لا، هل والدنا في البيت؟

- أسمعك يا ولد - قال مزحج الخارج من الغرفة.

- الخبر الذي جئت بك به يا والدنا لا أعرف أهو خيرٌ أم شرٌّ... - ألقى حاتام نظرة نحو أخته التي تحمل الصبي.

- قلّه مهما كان!
- في بيت وسمن مراد بيه مآتم.
- وماذا جرى لهم؟
- مات ابنه الذي كانوا يكتمون خبر جرحه.
- كنت شككتُ فيه حين قيل إن جريحاً ممن داهموا قرية شابسغ أسقطوا منه قبعته البلغارية.
- دخلت داربخان إلى الغرفة واجمة حين سمعت أن طفلها الذي يبكي في حضنها مات والده. وأفهم حاتام بعينيه والدّه ما يفعله، ثم دخل في إثر أخته، وقال لداربخان التي كانت تهدئ طفلها وهي تمسح على ظهره:
- سيفهم من لا شفقة في قلوبهم شفقتنا نحن على نحو خاطئ، لا تُفني نفسك. أفهم موقفك.
- لست أبكي من مات جزاء إجرامه، أبكي نفسي عبّر هذا الصبي.
- حاتام، تعال إلى هنا لحظة... - حين نادى مزحّب من فوق المسطبة قال لمن خرج: - ماذا علينا أن نفعل يا ولد؟.. مهما تصرّف معنا هؤلاء وتصرّفنا معهم؛ أليس والد الطفل؟
- يا والدنا! - صرخ حاتام مسرعاً، ثم أنهى نادماً بصوت أنعم - لا تؤاخذني، لا أوافقك على هذا.
- اهدأ يا ولد، ولا تسمح لنفسك أن تنسى إنسانيتها وأديغيتها... يسامح المرء يا مبارك النسل حتى من قتل والدّه. هيا استدع لي ناورز وكوبل! سنتشاور، ونستشير أفندينا.

- حسناً يا والدنا، سأكون معكم مهما قررتم. ولكن مراد بيه لن يتفهم موقفنا المتسامح - قال حاتام لنفسه: - "لن توقظه المصيبة التي حلت به، بل سيقسو أكثر على داريجان وستيفانك وتودور... أظن أي سألحقه بابنه...".

ساعة دخول الفرسان المعزين الخمسة بقيادة أبي بكر إلى قرية مافليود، قال باغ مزحج ثانية لرفاقه:

- من سنزعيعهم تعرفون طبيعتهم ولو لم أذكركم. دعونا نتصرف بهدوء وصبر مهما عاملونا. سنعزي آل وسمن حسب ما يملي علينا واجبنا دون التوقف عند الإشاعات والأقاويل. أنت يا ولد يا حاتام هل فهمت ما أقصد؟ تصرف كما يتصرف الكبار.

- ما الأمر؟.. - بدأ حاتام مستاءً ثم سكت.

- يا أبا بكر وزغاشت وهارون هل سمعتم ما يقول هذا؟ - سأل مزحج من رافقوه، ثم أكد على ولده حازماً: - لن تدخل الدار، ستبقى مع الأحصنة!

دخل المعزون الذين لم ينتظروهم آل وسمن إلى الدار، ودعوا للمتوفى من الجانبين. وبعدها تكلم الأفندي أبو بكر بلغة الأديغة، ودون إطالة:

- كل من يفارقك في غير حينه مأساة. ندعو من يبتهلون إليه ولا يبتهل إلى أحد أن يعوضكم الله خيراً، وأن يغفر له ذنوبه، ويرحمه. وأن تكون حاتمة الأحزان لمن بقي من بعده.

ولحظة خروج المعزين الأديغة من الدار، وصلتهم لعنات عائشة التي كان يمنعها أحد الرجال من الهجوم:

- أيتها الأسرة الشركسية التي أدعو الله أن يبلوها بالطاعون الأسود لو أعدتم إلينا صبيئنا في حينه لعاش ابني الوسيم. لن أسمح لكم بالاحتفاظ بالولد الوحيد

الذي تركه لنا ولدنا الوحيد. لن أدع الكافر سليل البلغار والشركس يريه!.. ألم تفهم يا مراد بيه ما فعله بنا أعداء الله الشراكسة الغرباء! ركب آل باغ الذين كانوا يحمون وجههم الإنساني وشرفهم، وعادوا إلى قريتهم.

الفصل الثالث والأربعون

الفرح والحزن يتعايشان في الدنيا كالنهار المنير والليل المظلم، يلحق أحدهما بالآخر ويضيع فيه. وما يخرج من هذه المتناقضات الأربعة يُحيي الإنسان: يصصره، ثم يُقيله. ويبعث فيه قوة جديدة. ثم يتركه بلا حول ولا قوة. "يقول والدنا ليس هناك نسبٌ منحوس ولكن - يقول حاتام واقفاً على رأس الرَّجُل الذي قتله - هل آل وُسمن أسرةٌ خيرةٌ؟.. لا أذكر أن مراد بيه جلب لأحد خيراً إن لم يجلب مصيبة. لو لم يفعل إلا ما ارتكبه بحق داربخان... وكان من قضى على يد إجرامه يسمى رجب، وكان نسبُه وُسمن. حصل خيراً إذ لحق الأب بابنه"

حين قطع نخير الحصانِ القلبي أفكار حاتام نهر الحصان الذي كان يتفرّسه: - لماذا تنظر إليّ بعينين جاحظتين؟ هل أخطأت في كلامي؟.. - ثم لطف حصان ضحيته: - اهدأ، لا اعتراض لي عليك إلا أنك كنت تحمل على ظهرك أسوأ الناس. إن كنت صادقاً معه إلى هذا الحد فسأربطه إلى سرجك. انقلّه إلى المرأة التي عادت عليها لعناتها...

بعدما كمن حاتام لمراد بيه عدة أيام في المضيق الجبلي البعيد كما نذر وأزهق روحه، عاد إلى البيت كمن لم يقترف أيّ شيء يستوجب الإثم. - وصلت في موعد الغداء تماماً - قالت له داربخان التي استقبلته. - وهل تغدى والدنا؟ - سأل حاتام وهو يغسل يديه.

- تغدى، وخرج لمراقبة الأغنام.
 - وستيفان؟
 - نائم، حان موعد استيقاظه.
 - وتود ألم يظهر؟
 - لا، ليتَه ضمَّنَا إليه في البيت!
 - هل مللتُم منا؟
 - وهل أملّ في بيتي؟ ولكني أشفق على تود المسكين.
 - لا تقلقي، ستكونين في بيتك قريباً جداً.
 - لينطق فمك دائماً بالخير! قالت دارينخان وسألت: - ما الذي يجعلك تقول هذا يا حاتام؟
 - أتوقع حسب تطورات الأوضاع... - لم يكن حاتام مستعجلاً على مكاشفة أخته بسرّه فوجد ذريعة لنفسه بسرعة: - أنا متعب، سأستريح قليلاً.
- الفصل الرابع والأربعون
- احتفظ برقت زوال شهراً في بلغراد بحجرت الذي لم يكن يعرف كل من وُلِد في مضيق ترغوفيشت البعيد حيث ينتظره أصدقاؤه، ثم أوصى أن يُقلّده رتبة الضابط التركي المراسل كما وعده. وبعد مرور بعض الوقت على تعيينه ضابطاً، وفي الصباح الذي سيسافر فيه برقت إلى المدينة العظمى إستانبول، لرؤية ابنته عُشماف، قال لحجرت وقد امتنع من الخبر الذي وصله:
- جاؤوني بخبر مزعج من ناحيتنا، مات مراد بيه وابنه رجب!
 - وهل هذا ممكن؟.. - قال حجرت بين التعجب وعدمه، وسأل: - ماذا جرى لآل وسمن؟ أما كانوا في عزّهم؟

- هل قلت "في عزهم"؟ أتتذكر جرمت العجوز كيف كان يصف الدنيا بأنها عجيبة لا تدرك كنهها حتى بالتنجيم؟ على ما يبدو فإن أحدهم ييكي والآخر يفرح... هل سمعت بالقول المأثور: "من لا يهدأ يقع أخيراً في الهاوية"؟

- وكيف لا أسمع؟ - قال حجرت وقد تذكر والده - حين يُجَيَّل لوالدنا أننا أنا وحاتام، نبالغ في رداات فعلنا لم يكن يُنسبنا أن هناك مثل هذا القول المأثور.

- والدكما باغ مزحج رجل حكيم لولا أنه يبالغ في صراحته. وأنا يلّمح لي أحياناً بمثل هذه الحكيم... - ضحك زوال في سرّه، واختتم: أتعجب كيف يوفق بينكما وأنتما غيرُ أخوين بالإضافة إلى الصهر البلغاري. ولستُ وحدي بل كل من يسمع به. لا تظن أني أعتب على والدك من أجل بعض الكلمات الناقدة التي يُطلقها بحقي سواء كنا وحدنا أم لم نكن. كانت أحوالنا في "أجقاله" في غاية السوء. لماذا أكتهم؟ سأقول الواقع الذي خلاصته: كلٌّ وما يستطيع أن يخلّص نفسه به. وما اقترفته من أخطاء قليلة في ذلك الوقت العصيب لم يغفره لي إلى الآن. وأظن أن جماعة ناورز يؤلّبونه عليّ. ومع ذلك، لو لم أُكِنُ لمزحج الوُدِّ لما طالبت لك برتبة الضابط متجاوزاً رتبة العسكري التركي! نعم، الأتراك يتأملون منا العون، ونحن نتأمل. كثيرون لا يعجبهم القول المأثور "يغني أغنية من يركب عربته" ولكني شخصياً لا أرى فيه ما يعيب. ما الخطأ في أن تغني أغنية من تركب عربته؟.. وسترى إن لم يعلّق خصومك على ربتك هذا التعليق. لا تهتم بأيّ شيء مما يقول هذا وذاك. ولا تستغرب ما حدث لآل وسمن. لن تلقى خيراً ما لم تفعل خيراً. اصطدموا بالشرور التي ارتكبوها. وإذا كان من لن ننفعهم قد حدث لهم ما حدث فلن نجلس نرتب ونُفني أنفسنا في تقييم أمر الرجلين اللذين كانا يتنقلان سرّاً. تعال يا حجرت،

كما قلتُ أيها المراسل الموثوق، لم نسمع ما نوقف عملنا لأجله. سنركب الطريق الذي أمامنا إلى إستانبول. والله سيفهمنا ويرحمنا.

بعد أن جرى في شوارع بلغراد بعض الوقت في العربة المزودة بكل شيء صحا برقت إلى أقواله وأفعاله فغمغم لنفسه في سرّه: "لا أعرف إن فتحت قلبي أكثر مما ينبغي لهذا الجالس على يساري بخصوص آل وسمن قبل أن أقابل ألبان... هل عجيب إن وافقتي؟.. وأنا مهما تصرف معي آل باغ ألا أوافقهم ممازحاً إياهم حين أكون في مضافتهم؟ بعد أن راقبته شهراً كاملاً، وحملتهم على أن يقدموا له ما قدّموا؛ أيّ شكّ راودني في الرجل الذي قدمت له، ليس ما لم يخطر بباله، بل ما لم يحلم به، ومشيت به في طريق لم يره في حياته. مهلاً يا برقت، لا تحاول أن تحرك جمر الموقد بأصابعك بدلاً من ملقط الحديد. أعالمك الذي تعيش فيه مما يستحق أن تثق به؟ أنسييت أن مصطفى باشا قائد الجيش رغم رعاية بيكا السيدة الكبرى لي لم يثق بي بل شغلّ مراد بيه ابن قومه من ورائي جاسوساً يرصد حركاتي ويتنصت على أقوالي؟ فعل خيراً، وهكذا يجب أن تكون، لا يجوز أن تثق بغيرك. هذا منذ زمن غير قصير كنت أراقبه. ناورز قاسم وإن يكن شاباً ذكياً ووسيماً، فلا يصلح لي بوجود والده إلى جنبه، أما هذا فعنده وليس عنده أبّ. صحيح أن من رباك لا من ولدك ولكن إن لم يكن دم من رباك يسري في عروقك فمن السهل أن تُنسيه إياه... وإن تصرف معك هذا الذي تصفه بهذا؟.. بالقياس إلى حجرت وقاسم فحاتام رجلٌ ناضج يشرفك بوجهه وهيبته أن يعدّوه ضابطك المراسل وحامل سلاحك. إنه لم يعد عوداً طرياً بل هو رمح مدبب يابس..."

- حجرت يا أخي الصغير، - خرج زوال من أفكاره ولاطف حجرت الذي كان يتوجس منه إلى ما قبل لحظات - أراك لا تقول شيئاً!

- وماذا أقول يا كبير، لا أجد تفسيراً لما حدث لآل وسمن، ولا أستطيع تناسيه.

- أتشفق عليهم؟ - سأل زوال حجرت ليعرف ما سيجيب به، وما سيتصرفه.

- سؤالك يا كبير يمكن الإجابة عليه بأكثر من جوابين مختلفين أو ثلاثة.

- ربما تريد أن تقول: وهؤلاء أيضاً أناسٌ مثلنا.

- هذا صحيح، ثم إن الله سيفهمني ولو أن الميت لا يُذكر بالسوء، ولو أنهم يحملون اسم الإنسان، فهؤلاء، لا أقصد الأسرة الكبيرة كلها، كانوا محرومين من الإنسانية.

- وهذه نظرتي إليهم يا حجرت. ربما حفرا لأنفسهما قزبيهما بمساعدة ألبان. من حظنا أننا كلينا لم نكن هناك ساعة وقوع الجريمة.

- ولكن إن اتُّهمت أسرتنا بهذا الموضوع المعقد؟.. ليس قليلاً ما أشاعوا عنا حتى من دون الجريمة الأخيرة.

- كفى يا حجرت! بحضوري أنا إلى جانبكم من يجرو أن يتهمكم؟ - توقف لحظة، ثم أكمل كلامه: - ليبق ما سأقوله الآن بيننا. أيكون الفاعلُ مصطفى باشا؟ يكفي ما رأيت وما عرفت من سلوكه. ما يقوم به ألبان مع آل وسمن يملأ خزاناً؛ وماذا بعد؟ يختفي في البلقان أناس أفضل من آل وسمن، وضباط أترك، وأشخاص آخرون معروفون في البلقان. ومع ذلك لا تصغر الدولة ولا تكبر، تبقى تركيا كما هي. يا حجرت، أيها الضابط التركي، لا تدعنا نهمّ بما ليس من شأننا. لنستمع بخريف البلقان، بقمم جبالها البيضاء، بغاباتِها الملونة، بجوارحها المحوَّمة في السماء، بسحبها البيضاء. - قال لحجرت وحُزن الوحشة والملل باديان رغم محاولته إخفائه، ثم أكَّد عليه شاملاً نفسه أيضاً بالتحذير: - ولكن لا نوهم أنفسنا أننا نرى منظر بلادنا الأصلية فنجرح قلوبنا! ما حملنا

الله، ويختبرنا به، سنتحملة كما يتأمل منا المسلمون الذين جعلنا الله مُسَاكِينِهِمْ وحلفاءهم، وإن حالفنا الخطَّ فدون أن نُخرج بيكا السيدة الكبرى التي سأقدمك إليها، ودون أن نخيب ظنها، أحسنًا إلى البلاد التي وقعنا فيها محافظين على رجولتنا الأديغية، دون أن يعني هذا أن نكون عبيدًا لهم.

كان قلبُ حجرت وهو يراقب من قلب العربدة دون أن يعجبه شيء مما تراه عينه، ودون أن يُيدي رضاه عما سمع أو عدم رضاه، نحو الشرق الذي هو وطنه الأُمّ: قمم جباله البيضاء أعلى، وغاباته الجبلية الصاعدة النازلة دون حدود، وسماؤه وضيئته، وأنهارها وسواقيها المسرعة ترمي وراءها أمواجه الفضية. وعقبانه تدوّم في الفضاء بحريتها، وهوأوه اللطيف يحمل أوراق الأشجار المتساقطة. سأل حجرت الذي هاجت ذكريات طفولته وقلبه يتألم: "ما الذي يجري في نواحيننا هذه اللحظة يا ترى؟ ربما لا تزال رائحة البارود فوقها وإن توقفت الحرب. وإن سُمعت أصوات غناءٍ فلا أظنها من غنائنا نحن..."

- ربما كان في ما طلبته "لا تدعنا نجرح قلوبنا" شيء من الصحة يا كبير - بدأ حجرت الذي خرج من أفكاره الحلوة - المرة ملاطفًا ومناورًا حديثه مع زوال، وخصّه بنظرته إلى الموضوع: - غير أنك لا تستطيع أن تنتزع من قلبك وذاكرتك البلاد التي ولدت فيها؛ ساحني إن لم أقل الصواب.

- وهل تحتاج إن قلت ما يُهْمُكَ إلى "ساحني إن لم أقل الصواب"؟.. - تظاهر زوال بمسايرته ولو أن ما على لسانه لا يتطابق مع ما في قلبه. - كما قلت لك، لن يشي بنا سائسنا الصربي لأنه لا يعرف لغتنا. ولكن عالمنا ليس ذلك العالم الذي يسمح لك أن تعبر عما في قلبك تمامًا. فبالإضافة إلى ما يمتحننا به الله، فإن مسؤولينا في عملنا لا يغفلون عن مراقبتنا. ما أملنا؟ نحن أيضاً موضع اختبارهم. وهؤلاء يختبرهم أيضاً سلطاننا المنير. وأنت أيضاً أقول

لك: لا يجوز أن يكون بيننا سرٌّ لا يناسبنا كلينا. كيف سأشرح لك هذا بالكلام الدارج؟.. يقولون "من يكن الصدق دليله فالخط السعيد طريقه" - وهناك كلام مأثور، وأنت تعرف هذا يا كبير، ينطبق على الصدق والكذب "الصدق ولو ظننت أنك صرعته ينتصب أمامك من جيد، والكذب يهوي أمامك وإن نصبته"

- والله يا حجرت هذا قول مأثور في مكانه، يمكن أن تلخص به موضوع الصدق والكذب. امتدح حجرت بعض الوقت على ما فوجئ بسماعه منه. ثم قال لنفسه "هذا الذي وضعت أمني فيه ليس عوداً طرياً تشنيه كما تشاء، ولكننا حيننا رقاب كثيرين من أمثاله. وإن لم نستطع فبالسوط" وامتدحه: - أنت صادق القول على ما أراك.

- لا أعرف إن كنت صادق القول. ليس أكثر من رواية الأقوال المأثورة التي سمعتها من والدنا.

- نعم، نحن نعرف باغ مزحج، ولكنه مختلف عن أمثالي وأمثال ناورز من أقرانه بأنه رجل حكيم ومستقيم. حياه الله، ربّاكما على أنموذجه. غير أنني لا أعرف كيف ستكون معاملتكم للمسكين مستقبلاً.

- يا زوال لا تدع والدنا يسمعك تقول "مسكين"، سيعتب عليك، - قال فجأة حجرت الذي نسي في عربة من يركب، ومراسل من هو. وحين صحا إلى نفسه أنهى بصوت أهدأ: - والدنا يعدّ نفسه بالقياس إلينا ثلاثتنا، ومعنا ستيفانك وتودور سعيداً.

- ما تقوله عجيب! - مزحج معه وقال دون أن تعرف إن كان جاداً، وسأله: - لا أعلّق على ديمتروف، ولكن هل ستيفانك بن داربخان بينكم؟.. - قال في نفسه: "وهذا أين تذهبون به؟" ثم على عادته الدائمة غير الموضوع: - هيا يا

حجرت، أنصب سَلماً على طريقنا الطويل من أجل أن يصبح قصيراً كما يقول
مُسَنِّونا؛ لنلعب لعبة الحزازير: إن عرفت الجواب أعطيتك البلقان كلها: "حزام
رفيع ضيق، إن لففته حولك ألقاك في مأزق"

- لا أسهل من هذه، - ابتسم حجرت - ولكن ما أفعل بالبلاد الغريبة علينا
وعلى الترك: البلقان؟ أعطني طرفاً من البلاد التي سلبوها منا لأفرح.
- إن كان هذا رأيك فسأعطيك، دون حرب أو نزاع، ولا يصعب عليّ أيضاً،
بل راضٍ: "أوفوتين".
- أرفق به شيئاً آخر.

- إن كنت تراه قليلاً فسأرفق به "فِشتي" لأن ما ليس لك سهلٌ إعطاؤه.
- إن كنت كريماً هكذا بما ليس لك فهات اسماً آخر.
- إن كنت كريماً وأنت صعبٌ إشباعك أرفق بهما "لغو ناقة" الجبل الذكر.
- وإن أرفقت بها أنهار "شحه غواشه" وبشش وفُجيس وفارز، مع سماواتها
قبلت بها دون جدال لأن الأسماء التي ذكرتها هي من بلاد الأديغة، وفي أرض
الأبزاخ.

- مهلاً، مهلاً أيها الجشع الذي لا يشبع مهما أعطوه - سألته برقت زوال
مازحاً - وإن لم تعرف الجواب فماذا تعطيني؟
- أعطيك ما ليس للأديغة المساكين: تركيا.
- شكراً، الحمد لله^١. هذه لي عطية قيمة. إن كنت ماهراً هكذا في حل الألغاز
فاعرف ما قلت لك الآن!

^١ بالعربية في الأصل.

- أحمله - آكله. ولكن لأنه لا ينفعني في شيء فمن لا يأخذه مني يكن نحساً عليه. لست أنت المقصود يا زوال. وأنت لا ينفعك بشيء، هذا الحرام الرفيع الذي يضعك في مهلكة هو الحيّة!

- أستغفر الله^١. ما لا يعرفه الكثيرون كيف تعرفه أنت؟!

- سأقول لك - لمعت عينا حجرت العسلتان صادقتين - كنت سمعتها من حاتام أخي الأكبر، إن كنت ستقبل مني أخبرتك بم شبه حاتام تلك الحية. الحية من جهة هو العدو الكافر الذي طردنا من بلادنا، ومن الجهة الأخرى من أتى بنا إلى بلاده خداعاً دون مقابل، تركيا البلد المسلم.

- لماذا لا أقبل منك إن كان في ما أسمعني شيء من الصدق؟ - قال برقت يغلبه رياؤه، ثم نحر نفسه بنفسه: "اسمع ماذا يقول هؤلاء! هؤلاء مهما أحسنت إليهم، لو أجلستهم على جبل من الذهب، بل ضحيت بنفسك من أجلهم، فليس ما يُرضيهم: آل باغ وآل ناورز وآل كوبل، وحاتام الهائم الذي لا يعرف أصله، بمن فيهم هذا الذي أردفته ورائي، والذي بدأ يوافقني. انتشلوهم من النار ومن البحر أنصاف أموات، وأعطوهم من الأرض ما ليس لهم، ووطنوهم في قرى مستقلة، ومع ذلك ليسوا راضين... الله وحده من يعرف ماذا يثرثر هؤلاء الناس سراً حين يجتمعون. ليتهم لم يوصلوا إلى السلطان فرديتهم وطريقتهم الجارحة في التعبير عن حريتهم، والتي كانت السبب في نكبتهم. يكفي أننا نعيش رغماً عن أصحاب الأرض التي وُطنوهم فيها". - أوافق حاتام في تشبيهه الدولة الكافرة التي سلبتنا أرضنا بالحيّة، أما الدولة الأخرى المسلمة فلا تدعونا نخطئ، كائناً من كان صاحبها، كما يقول المأثور، نبصق في

^١ بالعربية في الأصل.

البئر التي نشرب من مائها. مهما كان تعامُلنا مع الترك وتعاملهم معنا فقد أضافونا حين كنا على شفا الفناء على يد الكفار ولم يبق لنا مخرج لنعيش معهم، وأسكنونا أرضهم. لا تُبالغ في ردود فعلك يا أخي الصغير. أفهم ما لا تستطيع قوله من طريقة إصغائك. لا أقول إن هؤلاء لم يكونوا طامعين في شيء من وراء مساعدتنا لأن العمل غير المثمر عمل فارغ لا يعدو تعب الساقين. وإن كنت سلماً على ما يقال فما لا فائدة فيه هو الجبن الذي يوضع في فخ الفئران فتأكله الفأرة دون أن تسقط في الشباك. غير أنني لا أستطيع أن أحكم أن قطعة الجبن هذه بلا فائدة. حين يتبع المعروف معروف فلا يجوز أن تغمط أحداً حقه. ثم ألا يجب يا حجرت أن نثار لدماء آبائنا وأمهاتنا وأجدادنا؟ لن نجد راحة حتى نحققه. أفهم أن من لا نثار له لن يجد فرصة للثار.

- هذا فهمته منذ زمن غير قريب، ولكن...

- أيّ "ولكن"؟ - سأل برقت بلؤم حجرت الذي لم يُسمح له بمتابعة كلامه، ثم واساه بنبرة ألطف: - إذا اتفقنا ألا يكون بيننا أسرار فلا تكتمني ما في قلبك يا حجرت. لن أعتب عليك لأنك قلت كذا وفعلت كذا.

- لا سرّ في سبب قولي "ولكن" - غير حجرت سريعاً موقفه - لأن من سنثار منه ليس واضحاً.

- قلّ هكذا، كما يقول والدك مزحّب، يا مبارك النسل، لماذا تُدخل الهواجس في قلبي؛ هل عبثاً شرفوك بهذه الرتبة التي يشتهيها أقرانك؟ هذا حسن، ولكن أحسن ما نفعله وقد اقترب موعد صلاة العصر، هو أن نتوقف في هذه المدينة الصغيرة "نوبا - ساراي" فنصلي ونقضي الليل فيها. ونستأنف رحلتنا صباحاً بعربة بديلة.

- كما تريد، أنا جاهز دائماً.

- هذا تعبير عسكري ممتاز. في محله تماماً لك ولي.

بعد ما تناول زوال وحجرت عشاء مبكراً، وبقي زوال وحده في الغرفة، أوى إلى فراش الفندق الوثير متكاسلاً عن صلاة العشاء. لم يكن يستطيع النوم وقد عادت فهاجمته الأفكار المتضاربة التي عبرت خاطره رغم أنه كان أرهقه سفر الطريق وأحاديثه. قلق لحجرت بشأن صلاة العشاء مسوِّغاً لنفسه ما فعله هو: "أليكون صلاًها يا تُرى؟ إن فهم ما قلته له اليوم صراحة أو تعريضاً فلا يُصلّ إن شاء... في البداية أفرعتني أفكاره وأقواله، ولكن لا بد أن يكون أعاد التفكير في ما طرحته عليه فقد عرض أفكاراً جيدة في النهاية؛ أجبني بنبرة عسكرية مختصرة: "كما تريد، أنا جاهز دائماً". أليكون يُرائي؟ لا يتورع شباب هذه الأيام عن مثل هذا السلوك. إن كانت فيه فائدتهم فليفعلوا!.. لا، هذا شاب لبيب، لن يفعل مثل هذا... - ابتسم برقت وقال لنفسه: - كل الأذكياء مراؤون! أكان يتحقق كل ما تحقق لي لو لم أكن أنا كذلك؟! - ما إن باشر زوال يمتدح نفسه حتى غلبه النوم.

ظهرت كوسوفو في ظهيرة اليوم التالي. وقال برقت دون اهتمام أو مبالاة: - هذه يا حجرت كوسوفو التي يتنازع عليها الألبان والصرب. سنراها متى وصلنا إلى القمة التالية. وعلى مقربة من المدينة الصغيرة المتربة "بريشتان" يقوم عدد من القرى الأديعية الصغيرة، وفي قرية لا با البعيدة يعيش الأخوان أسلان وقبلان اللذان هما أصغر منك ببضع سنوات مع جدتهما الوحيدة التي يقومان برعايتها. كنت أودّ أن نعرّج عليهما وأعترفك بهما، غير أننا لن نستطيع في هذا الجو المغيّب اليوم. سنفعل هذا ونحن عائدان من إستانبول. - ثم أكمل بعد تنهيدة: - وألبان الذي نعرفه من هذه الديار.

الفصل الخامس والأربعون

- يا حاتام! - جلب الصوت الغليظ الصادر من جهة باب الدار بعد موعد الفطور تودور إلى النافذة. وأسرع حاتام الذي كان يشدُّب لحيته وشاربيه فاخطف بندقيته المعلقة بالحائط، وخرج.

- هل ضللت بين بيت ديمتروف وباغ؟.. - قال تودور بالتركية لألبان الذي لا يُمكن له الودّ.

- لم أصل بعدُ إلى هذا الحد يا ديمتروف - أجابه الفارس بالبلغارية، وشرح له - أرغب أن أرى حاتام صاحبه إن لم تكن سرقت هذا الحصان.

- تفضّل! لماذا لا تزال على صهوة الحصان؟ - صاح حاتام المسرع إليهما. - وهل يعرف من يحمل بندقيته "تفضّل"؟ لو كان البيت بيت باغ لتفضلت... اركب يا حاتام أحتاجك في مهمة.

- وأيّ مهمة؟ - قلق تودور وقد عاد الرجلان إلى لغتهما الأدبغية. - كيف أفهم من لا يعرف معنى تقليد الشراكسة حين يقولون "اركب"! - أجاب ألبان الآن بالبلغارية محتدًا، وقال لحاتام وهو مسرع بالانصراف: - أنتظرُك عند الشلال.

- لن تذهب إلى أي مكان! - ألحت داربخان التي هُرعت حاملة طفلها حيث يقفان، مؤيِّدة زوجها. - ألا تعرف من هو هذا؟!

- أعرف! - غلبت حاتام طبيعَةُ الأدبغة فيه. - دعاني لأنه محتاج إليّ، أعرف أنه لن يصحبني إلى مغازلة بنات. إن لم ألب طلبه فبأيّ عين أنظر إلى نفسي؟ ألا تفهمان يا مباركي النسل؟!

- نعم يا حاتام، نعم. - وافقه تودور - فهمت في هذا الموقف لماذا كانت أُمِّي تقول: إما أن تكون رجلاً أو أن تموت^١ لا أظن يا داري أن كل المجرمين محرومون من أيِّ مبدأ، اركب إن كان محتاجاً لك، ولكن احرص على نفسك! جلس حاتام مقابل ألبان الذي كان جالساً على صخرة على أحد جانبي الشلال. تبادلوا النظرات مدة، ثم بدأ ألبان:

- حياك الله على أنك تحلّيت بالرجولة فجئتي. لن أطيل المقدمات فلا تقاطعني! تعرف دون أن أخبرك ما حدث لآل وسمن. لم أكن مع الراحل مراد بيه سنة أو سنتين فحسب كالكلب المدرب كما يقول الترك. رافقته خلال السنوات التي وطّوكم خلالها في هذا المضيق أقول ما يقول وأفعل ما يفعل سراً وعلناً. عرفته على نحوٍ لم يعرفه أحدٌ غيري، بمن فيهم امرأته الشبقة ليلاً ونهاراً. لم تخلُ قضيةٌ في القريب أو على مسافات أبعد لم يتدخل فيها. كنا نقتل الغني والفقير من أجل سرقة الذهب والفضة، من فارنا إلى شومليه وترغوفشت انتهاءً بمصطفى باشا. كان ينوي أن يأمرنا بقتلكم جميعاً ما إن يسترجع ابن ابنه من برقت الذي كان يترجاه لساناً ولا يحترمه قلباً، إلى أفندي المخوش، إليك وحجرت ووالدك وأختك وصهرك، غير أنهم لم يُمهّلوه حتى يحقق أهدافه.

- ولماذا تُخبرني بهذه المعلومات؟! - لم يتحمل حاتام المزيد.

- لا تُقاطعي!.. - نظر إليه بعينين حمراوين هجم عليهما الدم، ورجاه: - دُعني أنفُس عن ضيقي. أنت الوحيد الذي كنت تفهمني، والذي احترته من بين معارفي فحملت إليك ما ينغصني. - جلس بعض الوقت برأس ثقيل متدلّ، ثم أضاف: - من قتل مراد بيه سواء كان كافراً أم مسلماً فقد فُتحت له

^١ بين "تكون رجلاً" و "تموت" ما يسمّى في العربية جناساً، أي تشابهاً في اللفظ واختلافاً في المعنى، وهنا مكمّن الجمال في التعبير "

أبواب الجنة. أنا ماذا أفعل بعدُ في هذا المضيق اللعين الذي لم أهنأ فيه يوماً. يُخَيِّلُ إِلَيَّ أُنِي سأرتاح إن عدت إلى كوسوفو؛ ألم أولد فيها، ألا أنتمي إليها؟ ولكن لا أعرف كيف ستستقبلني... ليت حرباً نشبت في البلقان اللعينة... هات لي، وقد نهضت، وباعتبارك أصغر مني، على عاداتكم، الكيس المعلق إلى سرج حصاني. لا، لا، لن أدعك تفعل هذا!.. - قفز ألبان، وبحث في الكيس حتى أخرج منه زناراً فضياً نسائياً عريضاً. ساحجوني، كانت أختكم ترتديه حين خطفناها... أوصله إليها كي أكفّر عن ذنبي. والان ارتاحوا جميعاً أنتم وأختكم إذ لا خوف من جهة آل وسمن. أرجو ألا نلتقي ثانية على خير أو شر يا حاتام.

"ما أتعس حظ هذا الرجل... - قال باغ حاتام في إثر الفارس المنصرف.

الفصل السادس والأربعون

تصدح أصوات المؤذنين المتنوعة في أرجاء إستانبول إذ اقترب موعد صلاة ظهر اليوم الخريفي. الشوارع التي كانت قبل ساعة مزدحمة بالناس فارغة الآن. والدكاكين مغلقة، والأسواق صامتة. وتناقص عدد عربات الركاب، غير تلك التي يمتطيها برقت. واختفت أصوات الصبيان الذين يبيعون الشاي في السوق. - هذا الجامع الكبير الممسك بالأطراف الأربعة لإستانبول يسمونه يا حجرت "أيا صوفيا".

- أهو الذي كان يُقرئ فيه مرزخوي أفندي؟

- نعم، ولكن لا أعرف إن كان ما يزال... وفي الباب العالي الضخم يعيش السلطان، وفيه تعيش بيكا السيدة الكبرى، وغُشماف التي حدّثتك عنها. -

وفي هذه اللحظة استعجل ونادى السائس العجوز الذي صادف تبديله دخول المدينة: دعنا نمرّ من هنا.

- هل أنتم أديغة؟ - سأل السائس إلى من وراءه.

- نعم أديغة - قال زوال مرتعباً، وعاد فلامه: - وأنت لماذا لم تعرّفنا أنك أديغة؟ أتخجل من انتمائك؟

تبادل برقت زوال وباغ حجرت النظرات، وسأل الأخير لا يطيق صبراً:

- هل كرهت أصلك؟ ماذا جرى لك؟

- لا أعرف من أنتم لولا أنكما تتكلمان الأديغة، ولكني كسائر الأديغة. والمأساة التي حلّت بهم حلّت بي. أنا مربوط إلى هاتين الدابّتين، وأنا ثالثهما، بما لا يتناسب مع أسرتي. - قال السائس، وأخى بنبرة أهدأ: - كان أفضل لي لو كنت كردياً، هؤلاء وإن لم تكن عندهم دولة، يعيشون على أرضهم.

- كفى يا أخانا؛ هذه مبالغة. ماذا جرى، ما تقوله عيب. - لام برقت الذي عاين نارَ الحرب والبحر والمخل والموت والعيب، وهو ينظر إلى الظهر البارد للسائس ذاهلاً، منطلقاً من عيشة حجرت الفقيرة أكثر من حياته المترفة: - ونحن لم نتجاوزك إلى أبعد، فلا ترجم بيتنا الزجاجي غير المكتمل بالحجر. أنا برقت، وهذا الشاب باغ، وأنت من أين ولو قلت إنك كرهت كونك أديغياً؟

ضحك السائس ذو الكتفين العريضتين إلى من وراءه دون أن يهتزّ رأساً كنفه المدببين:

- ماذا تريد من أصلي يا برقت إذا لم ترد أن أكون كردياً، ولا أن أرجم بيتكم الزجاجي؟.. قل لي إلى أين أوصلكما.

- إن كنت غير مستعجل على صلاة العصر فخذنا إلى فندق لا غالٍ ولا رخيص.

- لِيُصَلِّ التُّرْكُ، والكرد معهم إن أرادوا! نحن أنهيينا صلاتنا الأدبغية منذ زمن بعيد... - قال السائس الذي تجاهل السؤال، وأراهم البيت المؤلف من طابقين:- هذا من نوع الفنادق الذي تريدان.

زاد حجرت أجرة السائس الذي رفض الكشف عن هويته ضعفاً.

- يا برقت - أجبر المبلغ الزائد السائس على الكلام - لا تُهَيِّ لَأَنْ لَمْ أَطْلِعْكَ عَلَى اسْمِي. لَسْتُ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّونَ الصَّدَقَةَ. وَأَنَا كُنْتُ يَوْمًا مَا يَنْقُلُونِي بِأَفْخَمِ الْعَرَبَاتِ فِي الْبَجْدُوغِ، وَكَانَ لَدَيَّ حُجَّابٌ، وَالنَّاسُ يَوْمُوثُونَ لِي بِرُؤُوسِهِمْ تَحِيَّةَ الْإِحْتِرَامِ.

- وَمِنْ كَانُوا يَنْقُلُونَكَ هُنَاكَ تَنْقُلُهُمْ هُنَا دُونَ أَنْ يَتَلَقَّوْا شَارَاتِ الْإِحْتِرَامِ.- التفت برقت غَيْرَ مَبَالٍ وَغَاضِبًا إِلَى السَّائِسِ، أَمْثَالَكُمْ مِنْ سَلَالَاتِ الْأَمْراءِ هُمْ مَنْ أَوْصَلُونَا إِلَى الْهَالَوِيَّةِ وَهُمْ يَمَيِّزُونَ الْبَجْدُوغَ مِنَ الْأَبْزَاخِ، مِنَ الْجُمْكُويِّ، مِنَ الشَّابَسِغِ... وَالْآنَ يَتَمَنَّى أَنْ يَصْبَحَ كَرْدِيًّا هُنَا... مِنْ حِظِّكَ أَيُّهَا النَّقَّاجُ أَنْكَ لَمْ تَرَنَا بِرُؤُسِنَا!

- نَعَمْ، نَعَمْ - وَافَقَ حَجَرْتُ زَوَالَ، وَتَعَجَّبَ: - مَا أَعْجَبَ مَا تَصْرَفُ مَعَنَا الْأَمِيرَ الْبَجْدُوغِ الَّذِي يَظُنُّ نَفْسَهُ يَصْرَعُ مِنْ أَمَامِهِ بِصَدْرِهِ وَكَأَنَّنا نَحْنُ مِنْ سَلْبِيهِ لِقَبِهِ... لَوْ التَّقِينَا فِي مَكَانٍ آخَرَ لَأَجْبَرْتُكَ مَتَجَاهِلًا عَمْرَكَ عَلَى أَنْ تَتْرَوِي مَا تَعْرِفُ.

- لَيْسَ مُسْتَعْرَبًا أَنْ يَحْدُثَ هَذَا... - وَافَقَ زَوَالَ أَيْضًا حَجَرْتَ.

مَعَ أَنَّهُ مَضَى بَعْضُ الْوَقْتِ عَلَى فَرَاغٍ بَرَقَتْ مِنْ صَلَاتِهِ فِي الْفَنْدَقِ الَّتِي اخْتَتَمَهَا بِدَعَاءٍ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَقَدْ بَقِيَ عَلَى السَّجَادَةِ، وَدَعَا لِنَفْسِهِ الْآنَ بِاللُّغَةِ الْأَدْبَغِيَّةِ: "ارْحَمْنِي، وَلَا تَحْرِمْنِي مِنْ رِعَايَتِكَ، وَافْهَمْنِي فِي مَا أَخْطَأْتُ فِيهِ بِعِلْمِي أَوْ بِغَيْرِ عِلْمِي فِي دُنْيَايَ الْعَارِيَّةِ الَّتِي تَمْتَحِنُنِي فِيهَا، وَاغْفِرْ لِي. سَأَحْمِلُ أَيَّ حِمْلٍ تُحْمَلُنِيهِ

مهما كان. سأعود إليك بقلب مسلم طاهر إذ سيعود الجميع إليك. ولكن في ما يخصّ أسرتي - عُشماف وأمها - أريدك أن تسمع ما حدث لي على الساحل وإن كنت تعرفه. حين أسلمتُك المرأة المسكينة روحها ممسكةً بيدي لم أستطع موارثتها الثرى. فارقتها وما يزال جسدها دافعاً متأملاً أن يدفنها أحدهم، مسلماً كان أم مسيحياً، في وقت ما. نفذت بجلدي وقد فقدتُ ابنتي في ازدحام باب السفينة تاركاً الأرض التي لم أستطع بأي وسيلة حمايتها وجئت إلى البلاد التي لا نعرف مصيرنا فيها. الأتراك وإن كانوا بعيدين عنا بلغتهم، وطباعهم وعاداتهم وعلاقاتهم الاجتماعية رضية عن بلادهم وباركت فيها. هنا، بعلمك، يبدو أنه تحقق لي بعض النجاح. أرجوك يا إلهي أن تساعدني بأن تحقق لي مزيداً من النجاح، وثبّيني تحت حمايتك، وتُعلي حظي على حظوظ من لا يحبون لي الخير، وتعينني على أن أتجاوزهم، وأن تقلل من يتهمونني بما ليس من ذنبي. ولا أعرف يا إلهي إن بالغتُ في طلباتي إليك مدفوعاً بجشعي...

حين فتح حجرت الذي كان أنهى صلاته منذ زمان، الباب، رأى زوال ما يزال على سجادة الصلاة فأسرع بإغلاقه. وكان زوال الذي تظاهر بعدم سماع صوت الباب ما يزال في منتصف دعائه: "أتوسل إليك يا إلهي، يا من يتوسل إليه الناس ولا يتوسل هو إلى أحد، اغفر لي يا إلهي، لا أظن في ما أطلب جشعاً، ما جرى لي عارٌ ما كان يجب أن أفعل فيه لأنه لم يكن بيدي شيء وفي غاية اليأس، أن تجمعي بزوجتي في الجنة حين أعود إليك. وليس هذا وحده: بل من ماتوا في قلب المعركة أيضاً، ومن خسرواهم على يد الكفار على الشاطئ، ومن راحوا ضحية المرض والجذب حين أخرجتنا من تركيا. اللهم رَقِّق لنا قلوب الأديغة الذين جئت بهم من تركيا بحمايتك فيسمعوا كلامنا وأوامرك على ألسنتنا، وأقرهم مثلي في مَنْ يُساكنونهم. ولما كنتُ أنا من يقف وراء الهجمات

المتبادلة بين قرى الأديغة الترك والصرب والبلغار، من أجل كسب ثقة مصطفى باشا الذي لا يثق بي، ولما كان مراد بيه مات، فقد كنت أود ألا يكتشف أحد هذا الأمر حتى ابنتي التي سأقابلها بعد أيام. و اجعلني من أجل ألا أتأخر في الوفاء بالنذر الذي ألزمتُ به نفسي نحو الكفار واحداً ممن يفون بندورهم، ومن يراني ومن يسمعي يتعجب مني، ومن يودني يغبطني، شوكة في عيني من يحسدي. نعم يا إلهي سمعني فليت لي أمني في ابنتي غُشماف. ولكني أتوسل إليك أن تُسعدّها في زواجها الذي تحلم به كل الفتيات. اغفر لي إن تجاوزت حدودي، وإن قلت خيراً فحققه لي..."

والآن التفت برقت مسروراً لمن فتح الباب، فنهض من سجادة الصلاة:

- تعال يا حجرت، حسناً فعلت إذ تركتني في حضرة الله قبل قليل. أعد السجادة إلى مكانها، هل هناك ما يشغل بالك؟
- لا، لم أدع صبيّ الشاي اللحوج يدخل الغرفة بعد الصلاة، قلت ربما تستريح، إذ قطعنا طريقاً طويلاً.

- وهذا حسنٌ. هكذا يجب أن تكون العلاقة بيننا نحن من أصابتنا المأساة، متناسين أمثال ذاك الذي يتمنى أن يصبح كردياً. حين فتحت الباب قبل قليل، هذا بالضبط ما كان الله يقوله لي ويطلب أن أحفظه في قلبي. إن لم يكن شأؤه برد فاطلب من التركي اللحوج أن يأتيني به. وأنت أما شربت؟

- وهل يمكن أن أشرب قبلك؟.. - استغرب حجرت ما سمع - كانت داربخان تنادينا إلى الطعام بعد أن تُطعم والدنا وتُريحه فحسب.

- لم يعد الإثم الذي جناه آل وسمن بحق داربخان بالخير عليهم. ولكن ما العمل؟ الصبي يحمل من دمهم.

- زوال، يا كبير! - ارتفع صوت باغ حجرت رغباً عنه رغم ضبطه غضبه. ثم أنهى كلامه على نحوٍ لطف حريصاً على سلوكه: - ساحني ساعد ما سمعته كأني لم أسمع.

- نعم يا حجرت نعم. - غيّر الجواب الحاسم الذي سمعه سلوك برقت سريعاً، - وأنتم أين تذهبون بأختكم داربخان؟ وأنا وإن لم أكن من أقرائها أليست ابنة صديقي القديم؟! حتى من دون هذا ألسنا من عرق واحد؟ نحن هذا العرق المنكوب المشتت إن لم يحم بعضنا بعضاً فلن يحمينا الأتراك والألبان المسلمون، ولا البلغار والصرب الكفار.

ابتسم زوال حين خرج حجرت من الغرفة لطلب الشاي وقال في إثره: "انظر كيف يحامي هذا عن كنة البلغار التي ليست أخته حقيقة... وليس وحده في هذا الدفاع بل معه ابن ناورز الأهبل الذي أعرفه منذ صغرنا إلى الآن؛ دعك من حاتم الأشعث الذي يُرعبك لُقياه. كان الأفضل له أن يتزوج ويؤسس أسرة من أن يحمي الأسرة الكافرة، ويطبخ لوالده الذي ليس والده، ويغسل له ملابسه. ومن تقبل أن تتزوج من هذا الدب الأشعث؟! أقول هذا ولكن من العيب أن تؤاخذ نساءنا في دنيا الأديغة التي صار فيها الذكور قليلين. ولكن هل صحيحٌ تصرّف ابنة آل باغ التي تربي طفلاً تركياً، أعجيب إن كان من تزوجته يحمل عرقاً من الأديغة ويتلفظ ببعض كلمات لغتهم؟ وأنا لو عثرت على امرأة تركية محترمة... كان حسناً لو أمكن لرجال الأديغة أن يتزوجوا كالترك، وبحسب شريعة القرآن أربع نساء... ماذا قلت؟.. - أجاب برقت كأنه يردّ على أحد سألته بعدما تفحص الغرفة التي ليس فيها غيره: - صحيح، وابنتي عُشماف في سن الزواج، ولا أعرف مصيرها..."

عاد حجرت إلى الغرفة حاملاً عدة الشاي على مائدة منخفضة. فقال برقت مرتاحاً لما يرى:

- حسناً فعلت إذ حملتها بيدك، ولم تسمح لأحد الخدم المتشققي الأيدي أن يحملها. صُبَّ لي، وتابع أعمالك أنت. لحظة، هذا ثمن الشاي...
- لا تقلق دفعت ثمنه!

- حقاً، فعلت خيراً. وسأراجع الحساب معك لاحقاً.
نام برقت زوال عميقاً من تعب الطريق. ولولا ضوء الشمس الذي ملأ الغرفة لما أفاق. ذرع زوال أرض الغرفة بضع مرات وكساؤه على ظهره، ثم صاح إلى الخارج؟

- حجرت! - لام الفتى الذي دخل الغرفة كأنه لم ينم قط: - أين أنت؟ أنا أفقت منذ زمن طويل، وبانتظارك؟

- ما كنت أريد إيقاظك وأنت تستريح.
- هذا صحيح، غير أن من مهماتك رعايتي. نحن الاثنين، وأكرر عليك، جنديان في جيش السلطان التركي.

- فهمت أيها البكباشي! - شدّ حجرت قامته.
- حسنٌ أنك لا تنسى كوني بكباشياً. ولكن هذا النداء يقتصر على ارتدائنا كلينا الزي العسكري. ها أنذا سأرتدي حالاً، وأنت أيضاً.

الرجلان الأديغيان يرتديان زي الجنود الأتراك، وعلى كتفي كلٍ منهما رتبته الخاصة به. قال برقت زوال لحجرت وهو يتفحصه بالزي العسكري ولو لم يكن يراه لأول مرة:

- مظهرك مقبول هكذا، يناسبك الزي العسكري. تبدو فيه شخصاً آخر تماماً. غير أنني لا أعرف ماذا كان سيقول باغ مزحج لك لو رآك... كان

سيفرح مهما قال لك بعد الأحداث الكثيرة التي جرت لنا. هل تعرف ماذا سنفعل الآن أيها العسكري التركي؟ سنُفطر في مطعم رخيص في الشارع لأن أسعار الطعام والشاي في الفنادق كلها غالية، ثم نتجه إلى مقر عملنا في الجيش حيث ينتظروننا. ليس غريباً أن يتبين لنا أن غدنا أعجب من يومنا. غير أن المتعجلين يهرمون بسرعة، ولذا سنتصرف على مبدأ "من يستعجل يتأخر". نهار إستانبول القصير الذي يدلّك على أن الخريف يبتعد عنها معتدل مع أن الشمس المشرقة كانت ترتفع دون استعجال. وبعض أوراق الأشجار القوية التي عجز عن اقتلاعها الهواء القادم من فوق البحر، من الدردنيل والبوسفور تسخر من الريح، أما تلك التي تعجز أمامه فإنها تظل تلويها حتى تُسقطها أرضاً حيث شاءت. والحميز التي لا تفوّت وقت الفجر فتتهق. وتتجاوب أصوات الصبية بائعي الشاي والحلويات. ويناديك البائعون من أمام الدكاكين. ولا يدعُك الإسكافيون تنسأهم. ولا يسمح لك ضاربو المندل الذين يُخبرونك بالمستقبل بتجاوزهم دون استشارتهم.

- سنستأجر عربة بعد أن نأكل قليلاً، ليس المكان الذي نقصده بعيداً، ولكن لن نتسبب عرقاً من أجل أن نوَقّر بضعة قروش. انظر ها هم الضباط أمثالي يتبخثرون في العربات. ونحن إن شاء الله نرى أنفسنا يوماً ما في مثلها.

- إذن دعنا نوقف إحدى العربات المارة.

- لماذا نتوسل إلى أحد، ها هي بضع عربات تقف بالانتظار. - قال برقت وقد ذكّرهُ السائس البجدوغ العنيد، ونَبّه حجرت: - إن رآنا أمثال نصف الأمير ذاك فليحسّدنا، ليعرف قدره!

لم يكن برقت زوال محظوظاً كما توقع: تمشى ذهاباً وإياباً، ولما لم يجد عربة السائس البجدوغ التي يبحث عنها طلب من العسكري باغ أن يفتح له باب عربة أخرى معتداً بنفسه، وركب.

قال البكباشي برقت لحظة دخوله مقر القوات المسلحة التركية للعسكري باغ: - سيُرفقون بي واحداً من أمثالك ذا رتبة أعلى وتنتظرنني أنت مع أمثالك في هذه القاعة محتفظاً بانضباطك العسكري. هذا هو النظام المتبع هنا. وإن انتهت أعمالي أسرع من المتوقع كان أفضل لي ولك. ولكننا لسنا أحراراً في أنفسنا، ليست المهام الحكومية سهلة. البلقان تموج بالحركة، ومن أقابلهم من الزعماء قد يرقعونني.

لم يكن لهما "مهمة حكومية كبيرة" في مقر القيادة كما كان البكباشي زوال يتوقع: ما جاء به إلى هنا مرة أخرى هو الرشوة التي كان يأتيه بها الضابط يوسف قريبُ القائد مصطفى باشا.

مع أن برقت زوال فتح الباب بجرأة خلافاً للأيام السابقة حين كان خجولاً فأرعب الضابط يوسف بسلوكه فقد استقبله بوجه طلق:

- تفضّل، اجلس يا بكباشي!

- لا تغلق الباب! لن أجلس. اليوم ننهي حديثنا وعملنا هنا.

- هل قائدك مصطفى باشا على علم بما تقول؟

- لا!

- وماذا إذن؟ - سأل الضابط الضخم بعينين جاحظتين: - "كلب من عضك" كما يقول الشراكسة؟.. - ثم جلس متراخياً كأنما تذكر شيئاً كان نسيه: - نعم، نعم. فهمت من سنّدك. كنت أتوجس من هذا... إن كنت ترى هذا فلن نصل إلى هذا الموقف لأنك تعرف سرّاً من أسراري يودي بي إلى

الهلاك. وإذ لم يبق بيننا قرابة فسأردّ إليك ما جئتني به في آخر مرة، وسأزيد عليه.

- لا، لا تقارني بمن يسترجع ما يعطي. الآن حالاً، متى وقفت إلى جانبي وصحبتي إلى الخارج كأن شيئاً لم يحدث بيننا فنحن نعمل معاً دون أن يكون بيننا رشاوى.

حين افترق الضابطان يتبادلان الابتسامات كأن شيئاً لم يحدث بينهما قال برقت لحجرت:

- ها قد رأيت بعينيك كيف يستقبلوننا، وكيف يودّعوننا في مقر قيادة الجيش وإن كان نصفُ الأميرِ البجدوغ وأمثاله لا يحترمونا. كنت أود أن يراني في هذا المشهد جماعة ناورز، باستثناء والدك، الذين ينظرون إليّ شزراً. يا حجرت ما الذي يشغل بالك؛ ألا تُصغي إليّ؟

- وكيف لا أصغي؟ - ذكّرني الضابط يوسف الذي كان يحْييك قبل لحظات بالغابة التي سكّناها في "أجقاله"... - قال حجرت شاملاً بالحديث برقت أيضاً، ثم غيّر الموضوع: - هذا الشخص الذي تُخفي سُمنته رتبته ما يزال في عزّه.

- في عزّه لأنه عاطل عن العمل... - لا تهتم بالمصاعب التي مررنا بها. لننظرُ إلى الأمام، ودعنا نختار ما يُعجبنا مادام عمر الإنسان قصيراً كنهار الشتاء. أنا تمرّ بي أحداث كثيرة... - قال زوال، ثم أضاف لنفسه: "أريد أن أعيش القليل مما تبقي من عمري إنساناً".

حين كان برقت قادماً إلى إستانبول أول من أمس عرّج على قرية بازار كما كان اتفق مع سعيد أفندي دون أن يُطلع حجرت على أنهما سيزوران مكاناً ما

ظُهرًا، فاستأجر أجمل عربة ركاب وطلب من السائس أن يذهب به إلى بوابة القصر حيث تعيش بيكا السيدة الكبرى.

- بيكا السيدة الكبرى التي هي بمثابة الجدة لِعُشماف تعيش في هذا القصر كما كنت أخبرتك. سيستقبلوننا استقبال السلاطين حالاً، لذا لا تنس كيفما استقبلونا في قصر السلطان أو في الفناء أنك عسكري عندي!

لم يسمح باغ حجرت لنفسه أن ينسى كونه جندياً تركياً كما نَبّهوه، غير أنه يتفحص جدران القصر للمّاعة من فوق رأس البكباشي الجالس، مقارناً بين القصر وبين ما يسميه الأديغة بالجنة. وحين نطق الحاجب الواقف إلى جانب الباب الآخر اسم بيكا السيدة الكبرى نهض سعيد أفندي والبكباشي برقت. ودخلا مع الجندي حجرت إلى غرفتها.

- تفضّل يا زوال يا والد عُشماف! - رَحّبت به بيكا وقالت بصوت حلو ناعم لمن إلى جانبها: - عانقي أباك يا عُشماف!

عانقت عُشماف أباهما وهي تتعثر، ووقفت إلى جاب السيدة الكبرى التي أجلستها على الكرسي.

سألت السيدة الكبرى بعد وقفة قصيرة:

- نعرف ما يجري في البلقان، ما أخبار أهلنا في نواحيكم بقيادة مصطفى باشا الذي خيَّب ظننا فيه، وما أحوالهم؟

- أهلنا الذين يعيشون في شمال البلقان راضون عنك يا من ندعو الله أن يديمها على رؤوسنا مباركاً في رضاه عنك مئة ضعف يا سيدتنا.

- يسرّني أن يكون أبناء قومي راضين عني مع أنني لم أقدم لهم خدمة تُذكر. لا يأسوا! الله جل جلاله معنا... هذا العسكري الشاب الواقف وراءك أيها البكباشي يُخَيِّل إلي من هيئته الوسيمة أنه من أبناء قومنا.

- من سألت عنه شاب أدبني. يخدم معي في الجيش. مساعدتي في عملي.

- من أي أسرة أنت؟

- أنا من آل باغ.

- إن كنت من آل باغ فأنت من نبلاء باغ الجمكوي! - انكسر صوت بيكا السيدة الكبرى رغماً عنها، وصحت بسرعة: - كان آل باغ يعيشون في زمانٍ ما في قريتنا... آنسّا ضيفينا يا سعيد ويا عُشماف. دورا بهما في دار السلطان، وادعواهما إلى مائدة الغداء. وأنا سأعود إليكم بعد قليل. وآنسّا العسكري دون اعتبار لرتبته.

الفصل السابع والأربعون

تبدّل المطر الصباحي البارد المتعب فجأة إلى الثلج الرطب، ولم يترك مكاناً إلا التصق به، فعمّ الجوارّ بياضٌ وسخٌّ. وقرية أبراخ تبدو كأنّ لم يبق فيها أحد: لا نباح كلابٍ، ولا خوار أبقار، ولا أصوات ديكّة. والغربان التي لم ترحل إلى الجنوب سكّنت.

خرج باغ مزحّب من البيت ورجع. ثم خرج ورجع. اقترب من النافذة وابتعد. وذرع أرض الغرفة دون أن يمثّل لعينيه حاتام الذي كان يقلّب الجمرات. سحب سوط الثيران المعلق بالجدار وأعادده. وجلس إلى سرجه غير المنتهي ثم تركه.

- يا والدنا هناك ما يُقلقك... - لم يُطق حاتام صبراً.

- ما الأمر يا ولد؟ - عاد مزحّب الذي وصل إلى الباب، وفيما هو يعود إلى مكانه من الموقد برأ نفسه مما لوحظ عليه: - ربما لأني اليوم بلا عمل ولا شاغل...

- لا، هناك ما يشغل بالك.

- هل قليلٌ أن تقلقك الريح المفاجئة التي تحمل الثلج، "كل شيء في وقته حلو" كما يقال. ندمتُ على أُنِّي وافقت دون تفكير على إرسال أخيك حجرت مع برقت زوال. وأنت وأختك وافقتماه فشجعتماه. فبلوتما الأسرة كلها.

- ليس حجرتُ الشاب الذي يُخاف عليه يا والدنا.

- لا تقاطعني! ألا تعرف يا مبارك النسل طبيعة برقت؟!

- أيمكن أن يتخلى عن أديغيته - إنسانيته؟.. - تتمم حاتام.

- أيّ أديغية - إنسانية تتكلم عليها أيها المنحوس؟! ابتسم مزحج ابتسامة خفيفة. وأكمل وقلبه يتلوى ألماً: - هذه بدأت في بلادنا التي هجرناها، وانتهينا منها هنا. نعم يا ولد، لا تنظر إلَيَّ هذه النظرة! لا تستغرب قولي "هجرناها"، لم أخطئ. نهرب مما جئنا على أنفسنا بأنفسنا.

- لم أفهم يا والدنا.

- ألم تفهم أنك غريب؟ جعلني أصل إلى هذه النتيجة قولهم: "الخير يجعلك تتصالح مع الشر"، تتصالح مع الشر إن كان في هذا الصلح خيرٌ. هل كل مغلوب يهجر أرضه؟

- سامحني يا والدنا. أما سفكتُم عبثاً دماء من طردونا إذن؟!

- الضرورة تُلجئك إلى الصلح، يمكن أن تحمي به نفسك.

- هذا حسنٌ، غير أُنِّي لا أوافقك في ما قلت عن "الأديغية - الإنسانية" ولو لم يبق إلا ما قدّمت لنا أنا وحجرت.

- لا أعرف ماذا تقول يا ولد. كيف تقارن ما فعلنا لأنفسنا وما فعلنا بحق أنفسنا كعرق من البشر!.. لو تأقلمنا مع من غلبونا كان أفضل لنا... - وجد

الذريعة التي كان يبحث عنها لنفسه بسرعة: - أظن الثلج يتوقف، هيا إن كنت بلا شاغل فاركب إلى بيت أختك، وهات لي ستيفان الصغير فترتاح أمه، ويملاً فراغنا نحن.

ركب ستيفان إلى القرية العمالية ستيفانوفك، مرتاحاً لقرار والده بشأن ستيفان الصغير ابن البنت، قائلاً في نفسه "إن ارتاح والدنا فلا بأس إن تُثلج أو تمطر". توقف الثلج الذي غزا كل مكان من الأرض إلى الأشجار، إلى جدران الإسطبلات، إلى رؤوس الأعمدة. وبعض نُثف الثلج تحوم في الفضاء، لا باردة ولا حارة، كفراشات صفراء. وحوافر الخيل تنثر خليط الثلج والوحل. والجوار المنكمش على نفسه خاوٍ.

حاتام الذي لم تكن هذه الأحداث والألوان تمر أمام عينيه ولا يهتم بها كان في ذهنه دون أن يعرف السبب شيء آخر: كلام أبيه: "الخير يجعلك تتصالح مع الشر" لم أسمع والدنا خلال السنوات التي وطّونا فيها في هذا المضيق يقول هذا الكلام لي، بل لغيري أيضاً. كل ما كان يصدر منه هو الاحتجاجات الصامتة ضد تصرفات الأفندي مرزخوي، وأفندي المخوش، والحاج برزج، وبرقت الضابط التركي. أما ندمه على عدم تصالحنا مع من كان يحاربنا فلأول مرة أسمع انتقاده له. لا أظن كلمته "الخير يجعلك تتصالح مع الشر" جاءت عبثاً. أعرف أن الخير والشر يتجاوبان دائماً ولكن لا أفهم كيف تتصالح مع الشر... يا حاتام حتى لو كنت منذ صغرك تحالط المسنين الحكماء فأنا أتعجب أحياناً من سفاهتك. - نهر حاتام نفسه بنفسه، ونصحها: - وما الذي لا تفهمه منه؟ الشر يرشدك، على ما يبدو، إلى الخير في نفسك. وأظن هذا السبب في سؤاله لي قائلاً: "وهل كل المغلوبين هجروا أرضهم؟". نعم يا والدنا، نعم. أوافقك في هذا. سكان البلقان غلبهم الترك ولكنهم لم يهجروا أوطانهم...

حَتَّى حَاتَامُ حَصَانَهُ بِعَقَبِ رَجُلِهِ، فَأَسْرَعَ بِهِ قَائِلًا فِي نَفْسِهِ: مَا كَانَ يَقُولُهُ جَرَمَتْ: " الْعَشْبُ الَّذِي عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ لَا يُحْشَى، وَالشَّجَرَةُ الْمَرِيضَةُ لَا تَوْرَقُ " لَا يَخْلُو مِنَ الصَّحَةِ.

مَا إِنَّ دَخَلَ حَاتَامُ الْغُرْفَةَ الدَّافِئَةَ حَتَّى قَفَزَ سَتِيفَانُكَ مِنْ حَضَنِ وَالِدِهِ إِلَى خَالِهِ الْمَلْتَحِي، فَأَمْسَكَ بِهِ الْآخَرُ كَمَا عَوَّدَهُ وَرَمَى بِهِ فِي الْهَوَاءِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ ضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ:

- هَلْ اشْتَقْتِ إِلَيَّ يَا سَتِيفَانُكَ؟ مَنْ مِنْ هَٰذَيْنِ يَصْرُخُ عَلَيْكَ؟ قُلْ لِي.
- أَشَارَ سَتِيفَانُكَ بِإَصْبَعِهِ إِلَى أُمِّهِ، وَفَاجَأَهُ بِخَلِيطٍ مِنَ الْأَدِيعَةِ وَالْبُلْغَارِيَّةِ:
- نَانَ تَقُولُ لِي: لَا تَكُنْ شَقِيًّا. وَلَا تَسْمُخْ لِي أَنْ أَقْعِدَ عَلَى أَرْضِ الْغُرْفَةِ.
- أَنَا سَأَمْنَعُهَا مِنْ هَٰذَا. وَمَاذَا يَقُولُ لَكَ تَات؟
- تَات يَلُوحُ لِي بِيَدِهِ.
- هَٰذَا غَيْرُ مُمْكِنٍ. لَا يَجُوزُ أَنْ يَشْكُو مِنْكُمَا الْحَفِيدُ الْوَحِيدُ لِحَدِّهِ... - تَظَاهَرُ حَاتَامُ بِأَنَّهُ يُلُومُ أُخْتَهُ وَصَهْرَهُ، وَقَالَ لَسَتِيفَانُكَ: - تَعَالِ مَعِيَ إِذْنًا إِلَى قَرْيَةِ أَبْزَاخِ نَزَرَ جَدُّكَ.

- هَيَّا! - نَظَرَ سَتِيفَانُكَ نَظْرَةً مَرَائِيَّةً إِلَى أُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَتَعَلَّقَ بِعُنُقِ خَالِهِ بِقُوَّةٍ.
- لَيْسَ الْآنَ بَلْ بَعْدَ أَنْ أَسْتَرِيحَ قَلِيلًا - حِينَ ارْتَاحَ الصَّبِيُّ فِي حَضَنِ حَاتَامٍ قَالَ لِأُخْتِهِ وَصَهْرِهِ: - أَرْسَلَنِي جَدُّهُ لِأَصْحَبِهِ إِلَيْهِ لِاشْتِيَاقِهِ إِلَيْهِ. مِنْذُ أَنْ اصْطَحَبَ بَرْقُتَ حَجَرَتْ - مَا كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أُحْبِرَكُمْ - لَمْ يَعُدْ وَالِدُنَا يَسْتَقِرُّ فِي الْبَيْتِ. نَقَصَ طَعَامُهُ وَنَوْمُهُ، وَلَمْ يَعُدْ يَخَالِطُ النَّاسَ كَمَا فِي السَّابِقِ. وَصَارَ يَتَأَفَّفُ مِمَّنْ يَزُورُهُ.

- أَيْكُونُ سَمِعَ مَا لَا يَجُوزُ بِشَأْنِ حَجَرَتْ؟ - نَظَرَتْ دَارِيخَانُ مَرْتَعِبَةً فِي وَجْهِ أَخِيهَا الْأَكْبَرِ.

- لا، حجرت ليس ممن يخرج عن إطار الأدب - قال حاتام باختصار، وفسّر: - على ما سمعنا فقد اعتاد على برقت، وارتاح مع الناس الذين خالطهم. والقائد مصطفى باشا راضٍ عنه، ويرعاه. وإن صدقت الأخبار فقد عرّفه برقت على بيكا السيدة الكبرى التي ربّت ابنته.

بعدما سمعت داربخان أقوال حاتام جعلتها وساوسها تسأل:

- أأكون والدُنا ندم على انتساب حجرت إلى الجيش التركي؟.. المسكين ضيقنا عليه كلانا فلم نسمح له بالتفكير.

- وأنا يُخَيِّل لي ذلك. ولا يغيب عن الموضوع عدم اقتناع والدنا ببرقت... لم يكن يريد مجرد ذِكر سيرة الجيش التركي. والمناسبة التي حدث فيها انخراط حجرت المنحوس في الجيش هي الفترة التي لم نعش فيها أنا وحجرت معاً في البيت. - ثم أنهى بعد سكتة قصيرة: - وأعجبُ من كل هذا ما قاله لي.

- وماذا قال لك؟ ارتعبت داربخان.

- يعد الأصبوب أن نتصالح مع من طردنا من أرضنا.

تبادلت داربخان وزوجها النظرات. وكسر ستيفانك الهدوء القلق الذي حيّم على الغرفة:

- جدّي ينتظرني، تعال!

- اهدأ! - قال تود لابنه، وقال للآخرين: إن كان والدكما يرى هذا فمن الصعب اتّهامه. ربما أعاد التفكير في ما حصل لكم.

- يا تود! - ارتفع صوت داربخان لا إرادياً، ثم صحت: - ربما في ما قلته شيء من الصحة. غير أن لي رأياً آخر. ربما والدنا يائس إذ بقي وحيداً في البيت: أنا وحجرت خارجاً، وأنت يا حاتام لا يثق بك.

- ولماذا لا يثق بي؟

- تهجر البيت متى شئت، وتعود متى شئت. هل ستبقى عازباً أبدياً يا أخي الأكبر؟

ردّ حاتام على أخته بلامبالاة:

- لا أخلو من بعض العيوب التي عيّرتني بها. ولا أدينك على ما قلت لي. -
ثم مازحها. ربما كانت العزوبية أمراً سيئاً، ولكن لا شيء يعدل الحرية وعدم
الارتباط بأحد. تجلس إن أردت، وتنهض إن أردت، وتركب وتنزل...
- هل تسمع يا تود أقوال حاتام؟.. - يشهد على صحة هواجسنا أنا
ووالدي.

- أنتِ مخطئة يا داربخان في شأن والدنا. لا أعدل به أحداً في العالم. غير أنه
يَحِيلُ إليّ أن ترمّله هو ما يفتُّ في عضده. لا أعرف رأيك غير أنني أجِدُ أن
يتزوج والدنا. - فسّر حاتام حالاً ما قاله: - في قرية مخوش امرأة وحيدة محترمة
تناسب والدنا. كيف أعرفكم من هي؟ حين يذكر والدنا مرزخوي محمد بالثلب
يذكر اسم أخيه الأكبر بكر بالخير، هي ابنة بكر^١.

- أهي التي يسمونها نات - نات؟

- نعم، هي. قد يكون الفارق بينها وبين والدنا قرابة خمسة عشر عاماً.
- أنا على عِلْمٍ بأنّ نات - نات امرأة صالحة تحترم نفسها. غير أنني لا
أعرف رأي والدنا فيها. لو عرفت أن هذا المسكين سيجد امرأة يرتاح إليها لما
فضّلتُ عليه شيئاً. ولكن لا تدعوني أدخل في هذا الموضوع. ومن دون هذا
التدخل يجد الناس الكثير مما يغتابوني به... هل تتذكر يا تود، أخبرتك مرة
عنها؟ هي الصبيّة الصغيرة التي وجدها مرزخوي بكر على ضفة النهر، هناك في

^١ من شخصيات رواية المطرودون.

نواحيننا وهي تكاد تمشي. استشيروا يا حاتام في هذا الموضوع ناورز وأصحابه ولو أنه ليس من عادات الأديعة أن يبحث الأبناء عن زوجة لوالدهم. إن حدث ووافق والدنا واستشارني فلن يسمع مني أي كلمة سيئة. سأحب المرأة التي يرتاح معها كما لو كانت أمًا... - حين رأى ستيفانك أمه تُجهش بالبكاء انتزع نفسه من حضن خاله وارتمى على صدر أمه.

بعدما جاء داريجان وتودور في العربة التي يجرها حصان وحيد يتقدمها حاتام على الحصان وتحت كسائه ستيفانك ترك الصهر تودورُ أسرته لدى آل باغ بعد الغداء قرابة الساعة، وعاد إلى القرية العمالية ستيفانوفسك.

قالوا: "بيتٌ لا أطفال فيه لا حظٌ فيه"، - كان الصبي وقد أنسى جدّه مزحبه همومه، يركض في أرجاء البيت، ويعدو بالحصان على ركبة جده، ممسكاً بلجامه، حاثاً إياه بكل صوته. وحين يملأ يرمي بالبندقية الخشبية من وراء الجدار. وحين يسقط يبكي إلى أن يُقيلوه من عثرته. وحين يُقيلونه وهم يترجّونه يغضب. ومتى تعب يقعد في حضن جده كحَمَلٍ وديع.

- أسعدتموني يا من بارك الله في نسلكم! - قال مزحبه لابنته ثم لامها: - لماذا لا تُكثرون زياراتكم. نَقَرْتُ المسكين حاتام من كثرة عتابي له بحق أو بغير حق. والمنحوس حجرت لم أعد أعرف مكانه.

- سنزيد من زيارتنا إليك يا والدنا - وافقت داريجان والدها، ثم نصحته: - وحجرت أين سيكون؟ أليس ابنك وأخانا، لن ينسانا. وأنت لا تحبس نفسك في البيت!

- وإلى أين أذهب؟ ومن يحتاجني؟ إن كان ناورز وجماعته فقد ملّ أحدنا من الآخر. من أين نسترجع الزمان الماضي؟ الآن كل الناس مشغولون بأنفسهم وبأسرهم. أين حاتام؟

- حاتام مشغول بالمواشي. لم تقل داريخان الحقيقة لأبيها: كان حاتام عند ناورز. حين أطلعَ ناورز زغاشت على ما تكلم فيه هو وأخته وصهره أجابه دون أن يدعه ينتظر:

- وأنا منذ زمن كنت أفكر في هذا. إن تكنَ وحيداً فأنت كحصان وحيد العربة. تحمل المسكين مزحج هذا الوضع ريثما ربّاكم ثلاثتكم، والآن ترى ما جرى له. أنت الوحيد الذي بقي معه... ومن يدري أين ستوجّه رأس حصانك مثل حجرت؟!

- يا زغاشت أيها الوجيه المبارك. سامحني تبالغ في لومك لي. - إن كنتَ مهموماً بوضع والدك، لا بشخصك فاسمع ما يقال، - ردّ زغاشت، ثم أكمل: - أن تؤسس أسرة في شيخوختك كلام سهل غير أنه صعب التحقيق... من أين تأتي الآن بامرأة تفهمك؟ قل لي إن كنت تعرف. - هناك امرأة تفي بهذه المواصفات في قرية المخوش، ووالدي وأنت تعرفانها. سأل ناورز وهو يضحك من بين لحيته وشاربيه، حادساً اسم المرأة المقترحة: - أ تكون هي نات - نات ابنة مرزخوي بكر؟ إن كانت هي فأنا ووالدك وكوبل نعرفها. لم تخطئوا في اختيارها. هي امرأة عانت وفقدت أسرتها. الحق يا حاتام أيمكن أن تكون أنت ووالدك تحدثتما في الموضوع وافتقتما ثم تدعاني أثرت عبثاً. قبل أيام كان مزحج سأل عنها ولم أعرف السبب.

- أسمع لأول مرة... - تعجب حاتام - إن كان الأمر هكذا فهو حسنٌ. ولكن ما يهمني هو ما سيكون رأيهم فينا.

- وماذا سيقولون عنكم؟ الزواج لم يبدأ منكما ولن ينتهي بكما. - صحيح يا زغاشت، صحيح. - تلَهف حاتام - غير أنني أقصد شيئاً آخر... كيف أعبر... سيقولون: لم يكفِ أن ابنة آل باغ خربت بيت الأسرة

المسلمة وتزوجت من كافر حتى أكملوا كفرهم بزواج مزحج من نات - نات المرأة ذات الأصل الروسي...

- ما الذي تُسمِعي إياه الآن كالجبان الذي يقول: ليتهم ما قلعوا عيني، بعدما امتدحتك طويلاً للهفتك على والدك؟ سنفترض أنه لم يجر بيننا أنت وأنا أي كلام في هذا الموضوع قبل أن أحدث أنا وكوبل إلى مزحج. والآن اسمع ما سأقول لك: لا تذب بحق نات - نات منطلقاً من شكوكك المبالغ فيها، كفاها ما لاقت من عذاب.

الفصل الثامن والأربعون

قرب الطريق الطويل الذي قطعه برقت زوال وحجرت بينهما رغم فارق العمر والرتبة، مُنسياً إياك قولهم: "تضجر إن لم يكن سميرٌ وإن كنت في الجمع" والآن زوال راضٍ عن حجرت، وحجرت صادقٌ مع زوال. ومع أن مهامهما في إستانبول حُلَّت فزوال مشغول البال، لا يعرف تفسيراً لعدم دِكْرِ حجرت شيئاً بخصوص عُشماف. يبدأ الحديث ببيكا السيدة الكبرى قاصداً أن يحمل حجرت على أي كلام بشأن عُشماف فيكتفي حجرت بالإعجاب بما يرى في قصر الباب العالي من غرفٍ ذهبية متراصة، ومن جنة دار السلطان الفسيحة، دون أن يتطرق إلى الموضوع الذي يلُمح به إليه.

"أنا أربي هذا الشاب لأعمال ومهام أخرى غير الحياة العسكرية، ولكن - قال برقت وهو يتابع بعينيه حجرت الذي كان يرتدي سترته العسكرية - تبين عن شاب قوي الملاحظة خلافاً لما توقعتُ. مع أن مزحج الذي ربي الولد الذي وجدته في الغابة يشاكسني أحياناً في ما لا أستحق فقد أحسن إلى الولد، وأحسن إلى نفسه مما يمسح إهاناته تلك. انظر إلى حركاته الناعمة، غير أنه لا

يأتي على ذكر ابنتي التي جئت به من أجلها من البلقان إلى إستانبول. أيكون يخجل مني؟ أفترض أنه يخاف من بيكا السيدة الكبرى غير أنها استقبلته استقبالاً حسناً متجاوزة إياي، وأسمعته كلاماً حلواً. لم تُشعره بالغيرة مقلبةً نظراتها بينه وبين عُشماف. وحين هممنا بالانصراف قرّبته إليها ومسحت على وجهه على عادة مستات الأديغة. ومع ذلك تظاهر بأنه لم ير شيئاً ولم يسمع فجعل من نفسه أصمّ أبكم. أيكون ينتظر ما أقوله له وأعرضه عليه؟.. - قال زوال للعسكري الممشوق الواقف إلى جانب الباب، وهو لا يجد من المناسب إسماعه ما لا يليق:

- تعال اجلس هنا إذ نحن وحدنا.
- حياك الله يا بكباشي، أنا واقف في مكاني المعتاد.
- كفى، تبالغ في تعليماتي إليك... - ناور ليقول له ما يريد - ألم تر كيف استقبلتنا بيكا السيدة الكبرى، ولم تُشعرك بالغيرة؟
- رأيْتُ، ورأيت عيشة الجنة...
- ومع ذلك لا تقول شيئاً؟..
- لا أعرف...
- وما الذي لا تعرفه؛ لا تتفوه بكلمات لا معنى لها! - احتدّ زوال في غير وقته، ثم فسّر وقد خجل مما قاله: - وهؤلاء يا حجرت أناسٌ مثلنا. ولكنهم أناس مرقّهون حتى لتشتهي حياتهم.
- لا أشتئها... - غمغم حجرت وأمام ناظره الأديغة الغرباء الذين يعيشون بين الجبال في البلقان، وسائر الأقوام البائسة بمن فيهم الترك هناك. ثم برأ نفسه: - اغفر لي أيها الزعيم الخير إن كنتُ أسأتُ إلى عُشماف بهذا الكلام.
- قال برقت متحججاً بأصوات عربات الركاب التي سُمعت في اللحظة نفسها:

- يجب أن تلومني جماعة عُشماف. تعال إذ نحن جاهزون للسفر لا ندغ عربات السلطان تنتظرنا.

حين خرج برقت زوال من الفندق متأخراً عن حجرت الحامل حقيبة البكباشي الجميلة، نبّه أحد الحارسين التركيين بالتركية دون أن يتوقف عند الخادم الذي كان يفتح باب العربة لِعُشماف:

- خذا من العسكري الحقيبة، وضعها في العربة - عانقت عُشماف والدها وسط فضول الناس في فناء الفندق، ومن النوافذ، وسألته بالأديغية دون أن يفهم الحاضرون: - كيف أنت يا والدنا. أراكما منصرفين قبل أن نشبع من لقائكما... - لامته بصيغة المثني شاملة حجرت باللوم.

- ما العمل يا ابنتي؟ نحن في عالم لا نعرف فيه ما سيحدث غداً. وعلى قول بيكا السيدة الكبرى: لا داعي لليأس. الله الذي نجّانا من كل مهالكنا معنا. سيرحمنا ويحمينا.

- نعم يا والدنا، الله أملنا. علينا أن نعيش وهو في قلوبنا. نانا تسلم عليكما. ترسلكما إلى البلقان وبرفقتكما ما تحتاجان إليه في عربة خاصة يحرسها أربعة جنود. لم تستطع نانا أن تصارحني أمس بأنها من آل باغ ولكنها تخبرك الآن يا حجرت. وأودعت العربة الهدايا التي توصلها إلى آل باغ. مع السلامة، نلقاكم بخير.

كان برقت مهموماً بنوع الهدايا التي قيل إنها وُضعت في العربة مع أنه لم ينبس ببنت شفة طوال الطريق إلى خارج إستانبول غارقاً في أفكاره المشتتة، غير أنه لم ير من اللائق مصارحة حجرت بقلقه. ولكن أكثر ما يشغل باله دون أن يعرف السبب هو اكتشاف أن السيدة الكبرى تنتمي إلى آل باغ. "إذا سمع باغ مزحج الأخبار التي لا ينتظرها - قال زوال لنفسه - فسيتيه علينا حتى وهو في

منزل ترؤله" ربما كان السبب في قولهم "معروفي انقلب نحساً عليّ وجاري صار عدوي" واحداً مثلي. من كان يدري أن بيكا السيدة الكبرى ستكشف أنها قريبة مزحج الثرثار المعاند في كل شيء؟.. هل للأديغة مشاركون في النسب؟ كل من يحملون اسم الأسرة أقرباء بالنسب! إيه أيها الأديغة الذين تسعهم الكفّ الواحدة ما أشد ما تبعثتم في العالم مدركين ما تخسرون... نعم، حجرت اليتيم الذي وجد في السيدة الكبرى قرية في النسب أشرقت نجمة حظه فجأة. دغك من ابنتهم داربخان، هذه نفضت عنها النسبة التركية وتحولت إلى زوجة لبلغاري. وحاتام الأشعث؟ وهذا يعيش بعكس التيار، يهاجمك إن قلت له شيئاً، ناسياً نسبه "برانت". أسأل حجرت الذي يحمل نسب باغ؛ أهو نسب حقيقي؟ لا، لا، أكسر رأسي بنفسني بالفأس، مثيراً الشكوك دون فائدة في قلب بيكا التي لها علينا كل هذه الأفضال؟!

وفيما يخاطب برقت نفسه بهذه الوسوس لأم حجرت من جديد:

- لماذا لا تقول شيئاً يا مبارك النسل كما يقول والدك مزحج!
 - كل شيء على ما يُرام. - قال حجرت بلامبالاة كأنه كان ينتظر هذا السؤال.

- وما الذي على ما يُرام؟ - انتفض زوال، ثم مازحه بهدوء متظاهراً بالابتسام:
 - ولماذا لا يكون على ما يرام أيها المنحوس إذا كانت السيدة الكبرى من أسرتك؟! إن سمع مزحج المسكين بالخبر فرح كثيراً. - صحا برقت لأن وصف مزحج بـ "المسكين" أثار حجرت - نعم، حقاً كيف يكون والدكما مسكيناً وعنده ابنان مثلكما! سهوئ قليلاً. والآن لا تعتبرني مجنوناً إذ أسألك هذا السؤال: ما رأيك في غُشماف التي هي في سن الزواج؟ لن أعتب عليك مهما كان رأيك.

مع أن برقت كان يعرف أن حجرت يغلبه الحياء من السؤال الصريح سيقول:
"فتاة ممتازة" فقد سأله ثانية وقد بان العتب على برقت لاعتباره تلكؤ حجرت
في الإجابة إهانة:

- حقاً أراك لا تجيبني على سؤالي!

- رأيتُ عُشماف فتاة مهذبة لا ينقصها الأدب. - كتم حجرت إعجابه بها
منذ الرؤية الأولى لها، والذي هاج اليوم حلولاً شهياً، وأجاب: - ليمنحها الله
الحظ السعيد، وليُسعدك أنت أيضاً يا زوال معها.

- حياك الله على هذه النظرة إلى ابنتي، وعلى تقديرك لها. - قال زوال مرتاحاً،
ثم أكمل: - وليُسعدك ثالثاً لنا ومعنا. نعم، نعم يا حجرت، لا تستغرب ما
سمعت.

- لا أستغرب - قال حجرت بمزيد من الصراحة الآن، ثم أفرد بصوت منكسر
ما يُهمه: - ولكن ما الذي يوصلني إليها؟ لو لم يكن في حياتها إلا بيكا
السيدة الكبرى التي ترعاها لما بقيت دون حُطّاب...

"اسمع ماذا يقول هذا الذي شمر عن ساقيه قبل الوصول إلى المخاضة!" -
صرخ برقت لنفسه - حسنٌ، حسنٌ، هذا أفضل من أن ينجل وينكمش على
نفسه. هذا الذي أمامي - من يعرف - رجل يوثق به، لا يخذلك عند
الحاجة. وسيكون صهراً نشيطاً. وأظن البنت أعجبها هذا الشاب، كادت
عينها تفضحها مع أنها كانت حريصة أن تخفي مشاعرها... أما من جهة
بيكا السيدة الكبرى فقد عاملته حسناً أمس وإن كنت لا أعرف إن كانت
ستتغير غداً. أيكون سبب ترحيبها به أن حجرت ذكّرها بنسب أهلها. صحيح
أنها لم تكن تعرف من اللحظات الأولى للقاء هذه القرابة حين نظرت إليه بهذا
الود. وفي جميع الأحوال كنت أتمنى لعُشماف أن تقترن بمثل حجرت أو أي

شاب أديغي خير من أي تركي جلف. وأظن أمنيقي تتحقق. وسنرى خاتمة القصة لأن لكل بداية نهاية. لن أَلعب مع من فتحت له قلبي لعبة الـ"الطميمة" بعد الآن. سأصارحه بما في قلبي نحوه".

- إن كنت تقصد الشباب الذين يخدمون عُشما في الباب العالي فلا تهتمّ بهم يا حجرت. هؤلاء، كيف أشرح؟ سأفسر لك، هؤلاء انتزعت منهم رجولتهم، يلبسون قبعة رجال فحسب. خضعوا لمثل ما خضع له خدم سلاطين الشرق؛ هل فهمت؟ وأنت تعرف دون أن أقول لك أن السيدة الكبرى آخَتَ بين عُشما وسعيد أفندي. - وفجأة احتد رياء برقت فصرخ: - أيّ موضوع نتكلم فيه ناسيين علاقة الأكبر بالأصغر! ولا أعرف إن كان سائسنا يعرف الأديغية... - دان نفسه الآن بحرص أكبر على نفسه.

- لا يعرف أي كلمة. - قال حجرت بصوت أعلى مُسمِعاً السائس، ومطمئناً برقت. - حين توقفنا عند النبع سألتُه بلغتنا لأتأكد إن كان يعرف فأجابني بالنفي، وطلب مني مخاطبته بالتركية.

- حسنٌ أنك انتهت إلى هذا، ولكن أَيْكون يخدمنا؟

- هكذا لا أعرف. وعلى كل حال هل قلنا ما لا يقال؟

- لا أعرف، أمثال هؤلاء جواسيس عادة... الأفضل أن تحمي نفسك، وأنت ما زلتَ شاباً، من الأذان من غير عرقك.

- صحيح يا زوال؛ أليس من أجل هذا سألتُه. في هذا الزمان لا تتخذ أحداً موضع ثقة سواء كان من عرقك أم لا.

- هذه مبالغة، - قال برقت مُخفياً أنه حمل ما سمعه على نفسه، - أنت تبالغ حتى لو كان في ما قلتَ شيء من الصواب.

- هذا ما كان يقوله جرمت حتى لو كنت أبالغ.

- جرمت، بالقياس إلى ولده هارون البليد، كان رجلاً حكيماً. ولكنه أيضاً كان يكرهنا أنفسنا من مبالغاته... - غير برقت فجأة من موقفه، وسأل متظاهراً بالمزاح: - هل تعرف فيم أفكر في هذه اللحظة؟ عدم اهتمامك بالهدايا التي وضعوها لنا في عربتنا. أوقف العربّة في مكان مناسب، ونراها دون أن نغيّر ترتيبها... لا، لا داعي. لم تعد بريشتينا بعيدة، نراها في الفندق على راحتنا. إن صادف وجودنا هذين الولدين النشيطين في الفندق قابلناهما. وإلا كان أفضل، سنختصر زمن رحلتنا.

- إن كانا غائبين يا زوال قابلنا جدّهما وأفرحناها ببعض ما تلقّينا من هدايا. - صحيح، هذا أيضاً مقبول... - وأضاف بسرعة: - ولكن لا تدعنا نستبق فتتكلم عل إفراح أحدهم بما ليس بعد في أيدينا.

- حقاً، أنت صاحب الشأن، كما تأمر - أجاب حجرت متعجباً مما يسمع. وفي خلال ساعة غير برقت برنامج فندق بريشتينا، وقرر أن يعرّج على قرية "الابا" الصغيرة، ويغادرها بسرعة. غير أنه كان في القرية التي دخلها مأتم. وتبيّن أن جدة أصلان وقبلان هي صاحبة المأتم.

أوقف برقت زوال وباغ حجرت عربتهما السلطانية غير بعيدٍ عن البيت الذي يُقام فيه المأتم، ودخلا كعادة الأديعة من البوابة الكبيرة، ووقفوا في حضرة الرجال الذين فهموا أنهما ضابطان تركيان رتبة، وأديغيان سلوكاً. وقال برقت بعدما دعا المعزون بقيادة الأفندي:

- ندعو إلى الله أن يغمر من انتقلت إلى داره بالرحمة، وأن يغفر لها خطاياها إن وجدت، ويفتح لها باب الجنة. ثم ندعو إليه أن تكون خاتمة الأحزان لمن بقي من الأسرة بعدها، ويعوضهم تعبهم راحة. أنا من آل برقت، وهذا من آل باغ. كان الصبيّان من معارفي فلما سمعنا بوفاة جدّهما غيّرنا الطريق وجئنا

لنعزيهما. لِيُسَهِّلَ اللهُ على الأديغة دار الابتلاء. - وبعدما انتهى من خطبته القصيرة اقترب من الصبيين اللذين كبرا على نحو ملحوظ فعانقهما، وقال لأكبرهما أصلاً: - نحن على الطريق، وهذا المبلغ القليل لتصدقوا به عن روحها. - والآن أضاف مُسمِعاً الجميع: - أنا أعمل معاوناً لقائد الجيش مصطفى باشا في بلغراد، ولذا يمكن لأيّ أديغي أن يجدني هناك.

لم يتبادل زوال وحجرت أي حديث ريشما خرجا من القرية الصغيرة التي تُعَدُّ زهاء خمسين منزلاً. وبعد ما اجتازا الجسر الحجري على النهر الصغير في جوار بريشتينا الذي سماه أهل المنطقة باسم "لابا" ليتذكروا به نهرهم الكبير لآبا هناك في أرض القفقاس، ورقيا المرتفع، قال برقت:

- هذه حالنا... لسنا نكافئ الترك عدداً ولكننا نقابل الأديغة حيثما سافرنّا... قرى الأديغة اليائسين منشورة إلى الشرق والجنوب من تركيا. ولكن لا يجوز أن نستسلم لليأس ولو كانت حياتنا هكذا. وعلينا أن نحمي بعضنا بعضاً وإلا دُبنا بين من صرنا بينهم. ألم نفعل خيراً يا حجرت إذ عرّجنا على هذه القرية القانطة، وتبرّعنا من القليل الذي عندنا ليتصدقوا عن روحها؟ سيسرّ هذا من رأوه ومن سيسمعون به. لم أر الولدين منذ العام الماضي فلم أتعرفهما. صحيح ما يقال من أن المعانة تدفعك إلى الهرم ولكنها تقويك، تجعل منك رجلاً. ها قد اتخذنا قالب الرجولة. أمثال هؤلاء هم من سيكونون أملنا. وأنت - من بدري - إن توقفت في أعمالك فقد تصبح أرحح مني أثراً.

كل ما سمعه حجرت آلم قلبه، ولم يعلق على شيء منها.

الفصل التاسع والأربعون

بين قرية المخوش وقرية أبزاح تسع أو عشر غلوات حصان. وإن كنت تعيش في الأرض المستوية فليست المسافة بينهما كبيرة: إن كنت راجلاً فمسير ساعة، وإن كنت فارساً فهي أقرب. وإن كنت تركب عربة ثيران على طريق نازل صاعد احتجت إلى نصف نهار. وإن كنت في عربة ركاب احتجت إلى ساعتين أو ثلاث. ولكن هل تذهب في زفة عروس بعربة ثيران؟ ومن أين تأتي بعربة ركاب ليست في القرية؟ ويصدف أن يؤتى بعروس على حارك حصان، ولكن هذا يحدث حين يتفق مُتَحَابَّان عليه، وليس زفةً.

قارب مزحج العريس الستين عاماً، ومرزخوي نات - نات مع أنها كانت تعرف أنه ومن سيصبحان ولدين لها لا أسرَ لهم، فقد وافقت من اللقاء الأول وكانت مستعدة لتتزوج حالاً لأن الناس كانوا يمتدحون مزحج الذي سيتزوجها كملجأ له.

- أليس حسناً إن استفدنا من عربة تودور التي يجرها ثور واحد. - قال ناورز - وإذا كانت لا تتسع لنا أربعتنا فسنكلف كوبل أن يعمل سائساً لعربة نات - نات، وأنا وإياك نتبعهما على حصانينا.

- إن رأيتما أن أعمل سائساً فأنا جاهز - وافق هارون بسرعة.

- لا أريد أن أقول هذا ولكن هل جُنتتما أنتما في آخر عمركما فترسلوني إلى الزفاف بعربة الثيران التي للصهر؟ - نهره مزحج وأضاف متمتماً: - ابجثوا عنه وعن حاتام وعن حجر ت واصحبوهم إلى الزفاف إن كنتم تخلّيتم عن عاداتكم الأديغية... - ثم صرخ مرة أخرى: - ألم يبق في عربة ركاب الأفندي شابسغ قلوبات عجلات؟

- نعم، حقاً نسيت... - انتفض كويل برأسه. - عند قلوبات الأفندي عربة جيدة.

- يا كويل عملك مختاراً يشبه قولك دائماً: "نسيت"، "لم أنتبه"، "اليوم أو غداً" - قال ناورز صديقه مقلداً إياه، ثم مازحه: - تستقيل من عملك بعد عرس باغ. يكفي ما قعدت دون عمل.

- إن كنت سأتعيب من أجل أمثالكم فمن هذه اللحظة أستقيل. ولكن لا أعرف من سيخلفني.

- ولماذا لا نعرف، زوجتي آسيث ستقوم جيداً بهذا العمل. ومن دون شيء تهججني من البيت وهي تنتقدكما على هذا وذاك. هذا ليس ملحاً، ليس موعده اليوم، أماننا وقت كافٍ. ما ليس أماننا وقت لأجله هو موعداً مع المرأة التي تنتظرنا في "مخوش" فنكسب العيب نحن الثلاثة الكبار من أجلها. الحل الوحيد إن لم توافق يا باغ على عربة الثور الواحد العائدة لصهرك هو أن نذهب ثلاثتنا على أحصتنا، وتحمل أنت العروس مشدودة إلى صدرك، مع حلول الظلام، ونواكبك نحن على الجانبين، ومن يرانا يتعجب منا. هل تقبل إن فعلنا هكذا أيها المختار كويل؟

- إن لم تخلعوني من المخترة غداً فأنا أوافقك على كل شيء باستثناء عربة الثور الوحيد للصهر، وأغنية الزفاف. ولكن صديقنا وهو يخفف لحيته وشاربيه، أفسد مكاناً في لحيته.

والآن، وقد فهم أن صديقيه استدرجاه إلى ثرثرة بشأن عربة الثور الوحيد لصهره، عاد فردّ عليهما:

- أستمع إليكما أنتما فأجدكما والله تصدعان الرأس بثرثرتكما حتى كرهتكما!.. شجعتكما على مصادقتي لأني لست حكيماً. إن كان هذا

الصوت لعربة شابسغ فتعالا، لن نُتعب الحصانين المربوطين إليها. وهذه المرة ستكون يا ناورز سائسنا مادمت ذكياً وخبيثاً هكذا.

- مثلما تأمر يا باغ، كما يقول كوبل . يسّر الله طريقنا، وأعادنا بالسلامة!
- لا حاجة إلى تشويش المهمة التي بدأناها، من انطلاقنا إلى عودتنا. - قال مزحّب إلى من وراءه وهو يعتمد بظهره المتين إلى عمود المسطبة. - وسيكون حاتم مُضيف الرجال في البيت، وداريخان مُضيفة النساء.
ترجّت نات - نات جاراتها الطيبات، إذ من يعرف ماذا ستكون نهاية زفّتها، أن يرعين ما جمعه في السنتين أو الثلاث الأخيرة من عِجلةٍ، أو كومة حشيش يابس، أو بضع دجاجات، أو أمتعة منزلية. ولم يطل بقاء النساء المكلفات بالزفاف في بيت نات - نات الصغير المريح فنهضن. وناورز زغاشت هو سائس عربة العروس كما كلّفوه. وعلى يساره كوبل هارون. ووراءهما مزحّب ونات - نات.

حين خرج مرافقو العروس من قرية مخوش شعر مزحّب الممسك بيد نات - نات بقوة بارتحافها فنصحها كمن يعرفها طوال عمره:
- اطمئني يا نات، كل الأمور ستسير على ما يرام.

الفصل الخمسون

مضى الخريف الغزير الأمطار والشتاء القارس ففتّح الربيع الطبيعة بألوان متنوعة كأن لم يكن خريف أو شتاء. وباغ حجرت اعتاد على حياة العسكري التركي، وهو الذي كان يتصور نفسه لن يعتادها. وبدأت التركية تسهل عليه. ولما لم يكن عنده، في نصف السنة التي مضت على عودتهما من إستانبول، هو وبرقت إلا الأعمال العسكرية، لم يغادرا بلغراد البتة. ومع أن

قلب حجرت كان يقفز إلى إستانبول فلم يكن يُبدي ما يعتمل في قلبه قائلاً لنفسه: " ومن أين لي مثل هذه الفتاة، وكيف الوصول إليها ". وفي الوقت نفسه كان مشتاقاً إلى والده وإلى حاتام وداريخان وستيفانك. ثم إذا أُضيف إليهم هدايا السلطان لم يجد لنفسه راحةً.

إستانبول الكبرى ملأى بالناس، وعربات الركاب، ودواب الحمل، وسقاي الماء والشاي. حراس البيوت كالظلال، ودار السلطان الجنة التي يعيش فيها أهل السلطان رافعي الرؤوس مُفعمي القلوب بالاعتزاز، وبيكا السيدة الكبرى وعُشماف فتاتها المدللة لم تكن تفارق مخيلة حجرت البعيدة، ومع ذلك كان يجد دائماً ذريعة تُنسيه إياها. كان مهموماً بمتطلبات خدمته العسكرية في بلغراد. ولم يكن بعيداً عن التفكير في من صار فجأة رفيقاً له، برقت زوال، مفكراً من جهة بطبيعته الإنسانية، ومن جهة أخرى بطريقة أدائه خدمته العسكرية. ولم يكن يتقبل أن يمدح الأتراك الذين هو في خدمتهم في العلن، ويغتابهم في إثرهم. ولم يكن الأتراك وحدهم من يتعامل معهم برقت زوال بهذه الازدواجية، بل قومه الأديغة أنفسهم.

يتساءل حجرت: "هذه الطبيعة المزدوجة كيف يمكن أن تفهمها؟ كما يقول والدي: يغذي النار بالخطب بيد، ويصب عليها الماء باليد الأخرى. لا أحد يصارحه بهذه العيوب وإن لم أكن الوحيد الذي يعرفها في زوال. لماذا لا يصارحونه بها؟ سمعت والدنا وزغاشت وغيرهما يصارحونه بها بكل فجاجة".

حين انتصبت صورة عُشماف في إحدى السحب المتفرقة في سماء الربيع تنظر من خلالها وتشرق، هز رأسه ليبدد الصورة ولكنها اقتربت من وجهه وهي تتبلور شيئاً فشيئاً ولم تكن تنوي أن تغادره. "كأن لم تبق في العالم فتاة أديغة أخرى - مرة أخرى لام حجرت نفسه، - لماذا تنتصب هذه أمام عيني دائماً؟

أتكون هذه المسألة على غير ما تخيلت وتوقعت؟ ما الذي أفكر فيه؟ كثيرٌ من أمثالي يمرون أمام عيني غُشماف في دار السلطان. ومع ذلك تذكّر حجرت أنها قالت وهي تودّعهما في العربة "افترقنا قبل أن نشبع من اللقاء" - لم تكن هذه الكلمة موجهة إلى شخص واحد بل إلى والدها وإليّ على عادة الأديغة. وإن قلتُ هذا فالنظرة التي رمثني بها؟!."

أجفل صوت الفرّاش المأجور الذي مزق هدوء يوم الجمعة الاستراحة حجرت، فركض نحو الغرفة قائلاً في نفسه: "ليتهم أنجزوا لنا مقرّناً إذ مللنا مما يحدث باستمرار في هذا الفندق". وسأله برقت الذي لا يعرف ما جرى:

- ماذا حدث؟

- وأنا ركضت إليك لهذا السبب.

- وهل أخفي ما يجعلك تُسرّع إليّ أيها المنحوس، اذهب واعرف ما يجري. -
وحين ظهر أصلان وقابلان اللذان يدوران بالشاي في الفندق سألهما: - ما هذا الصراخ الذي سمعناه؟

- لا نعرف حقيقته... - ثم نظر أصلان نحو أخيه الأصغر وقال: - بعضهم يقول إنهم وجدوا رجلاً ميتاً في غرفته، وبعضهم رجلاً مقتولاً. لا يمضي يوم على هذا الفندق دون حادث. واليوم عندنا شاي طيب يا زوال.

- أعرف أن شايكم طيب. ولكن لا أعرف كيف نشرب الشاي في فندق فيه جثة. إذا كانت حياتنا هكذا فما العمل؟ سنعدّل مزاجنا بكأس شاي.

قال حجرت الذي دخل الغرفة واجماً:

- جئتكم بخبر سيء: قُتل ألبان في فراشه!

- ماذا تقول يا رجل! - نخض برقت وقد هيّجه الخبر أكثر مما أدفأه الشاي. القول المأثور "من لا يهدأ يجد نفسه مرمياً خارجاً" صحيح. نظر إلى حجرت

وإلى الأخوين، وأعاد الكأس بسرعة إلى المائدة. - ألبان لم يكن يقيم هنا؛
أليس كذلك؟

- يقولون إنه توقف الليلة في الفندق، وكان باب غرفته مغلقاً.

- تعالوا! - تقدّم برقتُ الثلاثة، وسار بهم إلى غرفة المتوفى في الطبقة الثالثة.

وحين رأى الخنجر المغروز في صدر ألبان على فراشه همس في أذن أصلان: -

أنتم لا تعرفون صاحب هذا الخنجر من قريب ولا من بعيد.

أفهم أصلان أخاه الذي لم يسمع ما قاله زوال بالعين أن الخنجر ليس لهما،

ولا يعرفان شيئاً عن الجريمة.

سأل أحد الرجلين اللذين وصلا مع صاحب الفندق التركي سوليه، والذي هو

أعلى رتبةً، المجتمعين:

- من منكم يعرف القتل؟

- أنا - قال برقت. وبسرعة أضاف اسم أسرته ومهمته: - نسبي هو برقت،

وأنا معاون قائد الجيش لشؤون الشراكسة. وأعيش في هذا الفندق. والقتيل اسمه

ألبان، كان يعيش في نواحي ترغوفشت. كان صديق المرحوم مراد بيه الضابط.

عازب من نواحي بريشتينا.

- نعم، هو البكباشي برقت. ومراسله العسكري عندنا في الفندق - قال

صاحب الفندق سوليه للمحقق - وهذان الفتيان كانا، كالفراش أول من

شاهدوا الجثة، وهما خادما الشاي عندي. وأنا كفيل أنهما لن يفعلوا أي منكر.

وأشهد على صحة أقوال البكباشي برقت.

- أنا لستُ ممن يُشهدون على صحة أقوالهم، ولا ممن يُشكّ فيهم - حسم

برقت الأمر باختصار، وأصدر أمره: - إن لم يكن قد قُتد شيء من الغرفة فلا

تَدْعُوا جِثْمَانَ الْمُسْلِمِ هَكَذَا. أَرْسَلُوهُ إِلَى بَرِيشتِينَا. وَاللَّهُ الْعَلِيِّ مُطْلَعٌ عَلَى بَرَاءَتِهِ وَذَنْبِهِ.

- لَمْ يُؤْخَذْ شَيْءٌ مِنَ الْغُرْفَةِ، وَالْكَيْسِ الَّذِي تَرَكَهُ الرَّجُلُ الْمَقْتُولُ بِخَنْجَرِهِ مَا يَزَالُ مَرْبُوطاً، وَلَكِنْ لَا أَعْرِفُ مَا فِيهِ - أَفْرَغَ الرَّجُلُ الثَّانِي الصَّغِيرُ مِنَ الْحَقِيقَيْنِ، وَالَّذِي فَتَشَ الْغُرْفَةَ، الْكَيْسَ مِمَّا فِيهِ وَاحِداً وَاحِداً مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، مِنْ أَحْزِمَةِ نَسَائِيَّةٍ وَرَجَالِيَّةٍ، وَأَسِيَاخٍ، وَسَكَكَيْنِ، وَمَلَاعِقٍ، وَخَوَاتِمٍ، وَأَقْرَاطٍ، وَقِلَادَاتٍ، وَأَسَاوِرٍ. دُهِلَ الْوَاقِفُونَ مِمَّا رَأَوْا.

شَكُوكُ بَرَقَتْ زَوَالُ جَعَلْتَهُ يَصْحُو فَقَالَ:

- سَجَّلُوا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مَعَ الْخَنْجَرِ الَّذِي قُتِلَ بِهِ، وَوَقَّعُوا عَلَيْهِ، لِنَأْخُذَهَا حَالاً إِلَى مُصْطَفَى بَاشَا الْقَائِدِ. الْجَيْشُ الَّذِي يَحْمِينَا مَحْتَاجٌ إِلَيْهَا الْيَوْمَ أَكْثَرَ مِنَ الْأَمْسِ، وَلِذَا سَتَنْتَصِرُ فِيهَا حَسَبَ أَوَامِرِهِ.

لَمْ يَكُنْ مَضَى شَهْرٌ عَلَى نَقْلِ جِثْمَانَ أَلْبَانَ إِلَى بَرِيشتِينَا دُونَ تَعْقِيدَاتٍ بِشَأْنِ مَقْتَلِهِ إِكْرَاماً لِبَرَقَتْ حِينَ اسْتُدْعِيَ الْأَخِيرَ لِمُقَابَلَةِ مُصْطَفَى بَاشَا. تَوَجَّهَ بَرَقَتْ إِلَى قَائِدِهِ قَلَقاً كَمَا هِيَ عَادَتُهُ كُلَّمَا طُلِبَ وَإِنْ كَانَ وَاثِقاً أَنَّهُ لَمْ يَتَصَرَّفْ فِي مَهْمَتِهِ أَيْ تَصَرُّفٍ غَيْرٍ صَحِيحٍ. وَفِيمَا يَتَظَاهَرُ الْقَائِدُ بِالسُّؤَالِ عَنْ سِيرِ أُمُورِ مَعَاوَنِهِ، اقْتَرَبَ مِنَ الصَّنَدُوقِ الْحَدِيدِيِّ، وَأَخْرَجَ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ مُتَقَصِّداً إِسَاءَةَ اسْتِعْمَالِ يَدَيْهِ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَمَا وَضَعَ مَحْتَوِيَّاتِهِ وَالْوَرَقَةَ الْمُرَافِقَةَ:

- حِينَ كَتَبْتُ إِلَى إِسْتَانْبُولَ بِشَأْنِ هَذِهِ الْقِطْعِ الذَّهَبِيَّةِ وَالْفِضْيَةِ جَاءَنِي جَوَابٌ يَسْرُكُ أَكْثَرَ مِمَّا سَرَّيْنِي بِشَأْنِ تَنْفِيزِكَ لِمَهْمَاتِكَ فِي الْبَلْقَانِ. لَنْ أَطِيلَ الْكَلَامَ: الْمَالُ الَّذِي كُنَّا نُنَوِي تَمْوِيلَ الْجَيْشِ الْمُنَوِيِّ تَأْسِيسَهُ بِأَمْرِ السُّلْطَانِ مِنَ الشَّرَاسِكَةِ تَوْفَّرَ لَنَا مِنْ هَذَا الْكَيْسِ. وَهَنَّاكَ خَبَرٌ سَارٌّ آخَرُ لَكَ: رَقَّعُوكَ إِلَى رَتَبَةٍ أَعْلَى نَظْراً

لجمل خدماتك: إلى أميرلاي. — عرض عليه الورقة التي تشهد على ترفيعه، وأضاف باسمًا: — المأساة يخرج منها ما يسرّ كما يقول الأتراك والشراكسة، كان هذا الترفيع نتيجة لما جرى في الفندق. ولكن لما كنا أنت وأنا نتبادل الثقة فسنبادل المنفعة: خذ من هذه القطع أقربها إلى قلبك. وأنا سأخذ هذا الزنار النسائي لأنه يناسب ابنتي. لماذا لا تزال جالساً؟ ألم أقل لك إننا سنبادل المنفعة بعلمنا كلينا.

— ليس لأني لا أثق بك يا مصطفى باشا بل لأني لا أرى الخنجر الفضي بينها. كنت أفصله ولو أن جامع المال قُتل به.

— وهل قُتل بهذا الخنجر؟.. — قلق مصطفى القائد — إن كنت تريده، وهذا بديهي أن ترغب فيه وأنت شرکسي، فليس بعيداً. — مد مصطفى باشا الخنجر الذي أخرجته من الصندوق الحديدي بسرعة إلى زوال: أعطيك إياه، ولكن أقول الحق: كنت أنوي أن أفرحك به في موضع تكشف فيه عن رجولتك أمام الكفار. فإن لم يحدث هذا فسأضيف هذا السوار إلى ما أخذت. والآن ما في هذه الورقة قد يُفرحك وقد يحزنك: جاءنا أمرٌ بنقل باغ حجرت اليوزباشي^١ إلى مقر قيادة القوات المسلحة. — ثم أضاف مازحاً: — تبعاً للعادة عندنا وعندكم خُذْ حلواناً ممن تطالب به إستانبول.

— هذا خبر سار يا مصطفى باشا. لم يكن برقت يُيدي على نفسه انتظاره لهذا الخبر.

— ليس سيئاً أن تكون تحت رعاية بيكا السيدة الكبرى. — الآن قال القائد صراحة لبرقت وهو يبتسم.

^١ الملازم الأول. المؤلف.

ما إن خرج برقت من عند القائد مصطفى باشا حتى قال لحجرت بنبرة الضباط الحازمة، ناسياً الحلوان:

- جهّز نفسك يا يوزباشي باغ، ستسافر غداً!

- حياك الله يا زوال - أسرع حجرت بالرد على الخبر الذي انتظره أسبوعاً. -
كم يوماً منحوني؟

- ستخدم في إستانبول.

- وهل أذهب إلى إستانبول، أما وعدتني أن ترسلني إلى أهلي؟

- الآن صرت في عمل أفضل. أما قلتُ لك إنك ستقيم في إستانبول وتخدم فيها؟!

- سمعت، ولكننا كنا اتفقنا أن نخدم معاً هنا... إذن أتوسل إليك يا زوال أن تسرّحني وترسلني إلى أهلي.

- لستُ المخوّل بهذا بل مصطفى باشا. متى تطوعت في الجيش بإرادتك وجب عليك أن تنفذ ما تؤمّر به ولو على مضض، وليس ما تريد أنت؟ ثم لا تدمّر مستقبلك بيدك يا حجرت... في إستانبول المدينة العظمى يقيم السلطان، وبيكا السيدة الكبرى، وعُشماف. ورأيت كيف عاملك سعيد أفندي. كيف لا تمثل لأوامرهم وأنت أدغي؟! عدّ إلى الفندق وفكّر في ما قلتُ لك. وتبعاً لأوامر مصطفى باشا سيجهزون لك الأوراق التي ستسافر بها، وستصلك متطلبات السفر إلى هنا. حين نصبح أمام مفترق الطرق السبعة نمشي في الطريق الذي اختاره لنا ونحن نقول: لا داعي لليأس. وإن كان الموضوع يتعلق بالهدايا التي تلقّيها فلا تقلق، سأوصلها إلى والدك لأن لي مهمة في ترغوفيشت. وإذا رويث له كيف تتقدم في خدمتك العسكرية

فسيفرح. ومتى أخبرته أن بيكا السيدة الكبرى في القصر تنتمي إلى آل باغ، يا مبارك النسل، فلن تسعه الدنيا، وربما دعوكم، من يعرف، إلى القصر الكبير. لا يتذكر باغ حجرت الذي عانى في سني عمره الاثنتين والعشرين الكثير أنه وقع في حيرة كما اليوم. الخدمة في إستانبول التي يشتهيها الجميع أمر حسن من جهة، ومن جهة أخرى أمر سيء إذ من يعرف ما سيحدث له في هذا العالم الصاحب بعيداً عن أهله وقريته. مضى أكثر من نصف سنة على آخر مرة رأى فيها أهله، والآن الله وحده يعلم متى سيراهم مرة أخرى؟ يقول حجرت لنفسه: "ما حاجتي إلى من في إستانبول البعيدة وما فيها، كما يقال "في القرم حرير" سأخدم في إستانبول على ما يبدو متمنياً أن يراني أحد، طامعاً أن ينتبه إليّ، كما يقول والدنا: "كل ما أمام الغني ملكه، أما الفقير فيعزّ عليه حتى النقانق".¹ هل عجيبٌ إن كانت السيدة الكبرى بيكا من أسرنا؟ لم أكن أريد التدخل في موضوعها، ولكن أين كانت حين كانوا يقتلوننا في أرضنا؟ نعم، حقاً، ربّت عُشماف فالشكر لها...

حجرت الذي كان يفكر في هذه القضايا وغيرها جعله صوتٌ مألوف يرفع رأسه فجأة. وحين قفز من مكانه ووقف إلى جانب النافذة المطلّة على الفناء رأى حاتام الذي كان يناديه بين داور أصلاّن وقبلاّن، ففتح النافذة كمن سيخلعها وصاح منها:

- حاتام، هذا أنت... ها أنا حالاً!.. - ركض من الغرفة لا يسعه الفرح، وارتمى في حضن أخيه: - من أين جئت يا حاتام، ما أحسن ما فعلت!

¹ في اللغة الأدينية هناك جناس بين أمام عينيه، والنقانق، فلا يؤخذ المعنى بحرفيته بدهاءة.

- ما أشدّ ما كبر هذا!.. وما أجمل الزي العسكري عليه!.. - يتفحص حاتام أخاه الأصغر - مهلاً، مهلاً، ماذا حدث حتى تمدّ يديك إلى عينيّك؟ الجميع بخير، والجميع يهدونك تحياتهم. والدنا بخير، سليم معافى، وداريخان وستيفانك، كذلك تود. والجيران، والقرية كلها. الجميع في أمان وإن لم يكن أحد يدري ما سيحدث غداً. - واصلاً كلامهما بعدما دخلا الغرفة، وفيما هما يشربان الشاي الذي أوصله لهما أصلان وقبلان: - وأنت كيف تعيش أيامك يا حجرت؟ أرسلني والدنا حين طال غيابك قلقاً عليك. وأرسل معي من البرك والغريبة، وهذا المبلغ القليل، أرجو ألا يكون قليلاً. قالوا: الجندي يحتاج عادة، أرسله إليك والدنا ونات - نات، أتذكّرها؟

- شكراً - قال حجرت كأنه على عِلْمٍ بأخبار أسرته، وسأله ذاهلاً: - وما علاقة نات - نات بهذا الأمر؟

- سأقول لك يا أخي. زوّجنا والدنا من جديد.

- ومتى؟ - أسرع حجرت بالسؤال.

- قبل نصف سنة تقريباً - قال حاتام، وسأل حجرت الذي أمْتَقِعَ لونه: - ما الأمر؟

- إذا كان والدنا تزوج برضاه فهذا يُفْرِحني. وكيف لا أعرف نات - نات؟! -

امرأة ممتازة، ولكني أقول: لو عرفت بالموضوع كنت حصلت على إجازة...

- والآن لم تتأخر يا حجرت. إن كان الأمر بيد برقت زوال فسأترجّاه. وإن

كان المسؤول عن الإجازة أعلى أفهمْتُ برقت. إن منحوك عدة أيام عدنا معاً

إلى القرية، وسيفرح والدنا ونات - نات والجيران. بل إن ستيفانك، دعك من

أختنا، نسي اسمي ولم يعد ينطق غير اسمك.

- كم كنت أتمنى يا حاتام أن أرافقك، - قال حجرت بصوت منكسر - لو لم يتغير مكان خدمتي. وفي هذه اللحظة رَحَّب بحاتام على طريقة الأديغة^١ الضابطُ برقت زوال الذي خرج من غرفته معتدلاً برزّه:
- أهلاً وسهلاً حاتام. حسناً فعلتَ إذ جئت وكأنك تعرف أن أخاك مسافرٌ غداً.

- وأيَّ طريق؟ - سأل وعدم رضاه عما سمع بادٍ عليه.
- الملازم الأول حجرت والقائم مقام برقت زوال^٢ وُقِّفا في عملهما في الجيش. أهنتك على أن أخاك الأصغر أَسْتُدْعِي إلى إستانبول لِيخدم هناك.
- وأيُّ ماثرة قام بها أخي الأصغر ليشرفوه بهذا؟ - سأل حاتام زوال وعينه على أخيه.

- لا يُدعى كل من يخدم في الجيش يا حاتام إلى دار السلطان. وإن سألت أخاك الأصغر عن مصدر الأفضال عليه قال لك. الآن أنا مستعجل، يمكننا أن نتحدث مساءً براحة أكثر. وسأسأل عن أمور قريتنا. وستكلم على العلاقات بين سكان مضيقكم. أمامنا قضايا كبيرة علينا حلُّها يا حاتام. وأنت من الناس الذين نحتاجهم.

- ماذا يقول برقت كمن اشتعلت النار في ذيل حصانه؟ - قال حاتام متابعاً زوال الخارج من الغرفة، ثم أجاب نفسه بنفسه: - أنا، بل قَبَّعتي القديمة، تعرف أنه لا يُستقبل أي إنسان يؤتى به من الشارع في دار السلطان... - ثم نتر رأسه إلى الأعلى وسأل أخاه الأصغر: - أَيْكون برقت يورطك في مهمة غير نظيفة؟

^١ يقصد بطريقة الأديغة عبارة قَسَابَشِي.

^٢ المقدم. المؤلف.

- لا، اطمئنْ يا حاتام! لستُ أول من يُدعى إلى دار السلطان من العاملين في الجيش. متى كنتَ جندياً وجب عليك إطاعة الأوامر. - استحيا حجرت من أخيه الأكبر فلم يصارحه بما كان يشكّ فيه.

- هكذا؟ إن كان الأمر على ما قلتَ فلماذا لا تقول لي يا مبارك النسل. نَقَدْ ما يطلب منك، ولا تدعُ والدنا والقرية تحجل من أفعالك. - وبعد قليل سأله عما كان يُقلقه ولا يستطيع الكشف عنه: - نعرف أن برقت زوال يظل يضحّم أصغر الأمور غير أني أظنه يتابع قضية فيها مصلحة شخصية له. وكما يقول والدنا: هذا الرجل لا يتورع عن شيء، إنه مصمّم على نحوٍ يمشي به على رأسك إن كنت واقفاً، وعلى ظهرك إن كنت منبطحاً... لا يا أخي الأصغر لن أرسلك وحيداً إلى إستانبول، وإن لم أتصرف هكذا فلن يسامحني والدنا. أريد أن أرى بعيني ما ينوون لك في إستانبول. لا تنظر إليّ هكذا. هذا كلام لا تراجع عنه. وثنّ ما سلبته من الأغنام من الأتراك والبلغار وبعض المسلمين عديمي الإيمان مثل الأفندي حزرت في جيبي. سيكفيننا ويزيد.

- حاتام! - ارتفع صوت حجرت رغماً عنه، - أما قلت لي إنك أقلت عن سرقة الأغنام؟

- قلتُ، ولكن هل كنت آتي إليك بجيوب فارغة؟! لم أستطع أن أكظم نفسي. أعاهدك يا أخي الأصغر أن تكون آخر مرة. ولكن لن نعيد الكلام في رحلتنا إلى إستانبول - وغيّر الموضوع بسرعة كي لا يعيد الكلام في ما نواه: - حسناً فعلتُ إذ لم أصحب قاسم المشتاق لرؤيتك... ألا تعرف كيف هم مُسنّونا: حتى لو قررت اصطحابه كان والده سيجد الأعذار لابنه خائفاً على حياته.

- زغاشت، والد قاسم، ليس كهارون. كان من أوائل من شجع والدنا حين اختارني زوال من بين الشبان. ولكن لا أعرف لماذا تقول هذا فيه.

- أقول لأني أعرف طبيعته. لو اختار برقت ابنه مكانك لرأيت كيف كان سيتصرف. إنه لا يُطلق سراحه كأنه مربوط إليه بجبل غير مرئي. وسأقول لك، ما دمْتُ بدأتُ، ما أشاعوه عن والدنا: أفلت سراح الفتى لأنه ليس ابنه الحقيقي. - قال حاتام، وضحك. وما سمعه حجرت أضحكه أقوى مما أضحك أخاه.

- بديهي أن من لا يودوننا سيقولون الكثير - جزم حجرت بسرعة، وأضاف:
- سأريح هؤلاء. بلغ سلامي إلى قاسم. وبلغه أيضاً أنني إن وُفِّقْتُ حيث يرسلونني فسأبقي له ما كنت وعدته به.

- لم أفهم يا أخي الصغير، أتقصد أنك سترسله إلى الجيش التركي مثلك؟
- إذا كان حاتام لا يريد الجيش التركي، - نظر حجرت في وجه أخيه نظرة رياء - وإذا كان ناورز قاسم يريد، أفلا يجب أن ينفع أحداً؟..

- ليس مستبعداً يا حجرت أن ينضم أخوك الأكبر إلى الجيش التركي... -
مازحه حاتام على نحوٍ لا تعرف معه إن كان جاداً أم هازلاً، وقال لنفسه:
"مهما كانت العلاقة بين الأخ وأخيه، فكل منهما - كما كان يقول والدنا -
في خندق مستقل".

رجع برقت زوال من عمله، كما كان وعد، أبكر من العادة، ودعا الأخوين إلى المطعم - المشرب - النرجيلة الذي في الفندق. وفيما هم جالسون إلى المائدة التي طلبها لهم، وفيما هم ينفثون دخان النرجيلة لم يبق ما لم يتكلموا فيه، بدءاً من أمور القرية وانتهاء بأمور البلاد. وكان حجرت يكتفي بالإصغاء إلى الأكبرين دون المساهمة في الحديث، غير أن المسك بزمام الحديث كان

الأميرلاي برقت. وإذا كان حاتام الذي لم يخرج من حدود البلقان بين ترغوفيشت وسمليه يعرف القليل من أخبار تركيا قالاً عن قيل فما كان يشغل باله ويُثقله هو ما يحدث في قرى الأديجة، وعلاقات الجفاء بين الأديجة والترك والبلغار، وما يجري وراء البحر في الأرض التي أُجبروا على هجرها. ومع أن برقت زوال كان يفكر إلى الأبعد فقد كان الموضوع الأثير لديه لا يفارق لسانه هو تأليف جيش من الأديجة.

- مهما تناسينا يا حاتام ما فعلوه بنا في الوطن الأم الذي لا تنقطع عن ذكره، وعاملنا الكفار باحترام وإنسانية، بل سلخنا جلودنا لأجلهم - قال برقت ودخان الترجيلة يتصاعد من فمه - فلن يحبونا، ونحن لن نستطيع أن نحبهم أبداً. ومهما كانت حجة هؤلاء فلا يجوز لنا أن نسمح لهم أن يطؤوا أرض البلغار - البلقان. فإن وضعوا أقدامهم هنا - افهموا هذا جيداً - فلن يسمحوا لنا أن نقيم هنا يوماً واحداً.

- وإلى أين يطردوننا، هل سيرحلوننا من العالم كله؟.. - غمغم حاتام، ثم سأل عما كان يشغل باله وإن لم يصرح به: - وإن فعلنا هنا ما لم يفعله مستونا هناك في الوطن الأم فصالحناهم؟

أجاب برقت بالسؤال نفسه الذي اعتاد أن يجيب به حين يتحدث إلى جماعة من الأديجة سواء في تركيا أم في العاصمة إستانبول أو في أي مكان آخر، والذي يماطل فيه:

- إن فعلنا هكذا أفليست الحرب التي خاضها آباؤنا وأجدادنا طوال مئة سنة عبثاً؟ لا أعرف بم أعلق على هذا.

- كان بإمكاننا أن نفعل في يوم واحد، وبعملية واحدة، ما لم يستطع كبارنا أن يفعلوه في مئة سنة. - قال حجرت فجأة، وبرأ نفسه مما لم يستطع الصبر عليه.

- هيه حجرت - استغرب برقت - وهل لك أنت أيضاً مثل هذا الرأي في الحرب التي مضت ولن تعود؟!

- لا أعرف ما الذي يدفعك إلى هذا الكلام يا زوال، ولكن - قال حاتام دون انتظار جواب أخيه - لا أرى خطأ في كلام حجرت. حتى الطيور تعود في الربيع إلى مواطنها حيث تضع بيضها. ونحن الأديغة ألا يجب أن يتحقق لنا ما نرغبه في يوم ما من السنة ؟ ألا يجب أن نعود يوماً إلى ما كانت أرضاً للأديغة؟ ربما كان هذا الرأي هو رأي الأجيال التي ستأتس بعدنا وتأمل بالعودة، لا أقول اليوم ولا غداً، وهو ما يحملهم على الموقف الذي تستغربه.

- تجري في العالم يا حاتام أحداث كثيرة، - ابتسم زوال - لا يجوز لنا أن نلف رجلاً على رجل بانتظار ما قد يحدث في وقت ما. هل سنعيش في البلاد التي نأكل من خبزها، ونشرب من مائها، وأهلها يسخرون منا وينظرون إلينا شزراً في هذا العالم المتماوج؟ على كل إنسان أن يعمل ما يجب عليه دون اختلاق الأعذار.

- لم أفهم يا زوال من تقصد بالذين نعيش في بلادهم. سكان البلقان، على ما يقال من الأزل، وحسب ما أسمع، هم الصرب والبلغار، ومن غيرهم أيضاً... ليس هؤلاء أصحاب البلقان التي اختاروها لنا نحن الأديغة موطناً؟!

- كنت قلت لك سابقاً يا حاتام، وأقول لك الآن - بدأ برقت زوال متظاهراً بأن السؤال المزعج الذي طرحه حاتام لم يُعْضِبْه، ثم أكّد عليه - لا تصدع رأسك متصنعاً الحكمة بالأسئلة التي تصدع رأسك.

- تمام، ما قلتَه فيه نصيب من الصحة. - وافق حاتمُ زوالَ ثم عاد وسأله: - ولكن أليس الترك كالروس نهابين، البلقان ليست أرضاً تركية؛ أليس كذلك؟
- حاتم، يا أخي الأصغر - نظر زوال إلى ما حوله، ثم قال بنبوة عتاب لطيفة: - نحن من عرق واحد، وحجرت معي في الجيش، فأين نذهب بك، ولكن لا تُسمع غيرنا مثل هذه الأسئلة المبطّنة الفارغة. لن يغفر لك هؤلاء الذين سمّيتهم بالنهابين. سننهي سهرتنا الليلة الآن إذ ستسافران غداً باكراً. مهما تبادلنا اليوم من أحاديث فأنا أغبُطكما على علاقة الأخوة التي بينكما. ويخطر لي والدكما مزحِب بالخير. ما أخباره وما أحواله؟
- لا يزال أبونا بفضل الله في صحته، أسس أسرة جديدة.
- وي، وي يا حاتم، أيُّ عجب هذا الذي ترويه؟! - صاح زوال بين المصدّق والمنكر لما سمع. وبعد قليل سأله وقد هدأ: - من التي كانت من نصيب مزحِب أخيراً؟
- من تزوجها والدنا لا بدّ أن تعرفها أنت أيضاً - قال حاتم - هي نات- نات، ابنة بكر، الأخ الأكبر لمرزخوي محمد الأفندي.
- والله سررتني بهذا الخبر - قال زوال مُخفياً حسده - نات - نات امرأة ممن يُعجبُكَ. لا أعرف ما أعلق به عليها إلا الخير. ليُطل الله عمرهما معاً. واعتبرا والدكما مزحِب سعيداً في كبره. وأنتما رافقتكما السلامة حيث تسافران. ومتى رجعت يا حاتم اجتمعنا كما اتفقنا. وربما سافرتُ معك إلى نواحي ترغوفيشْت.

الفصل الحادي والخمسون

إن كان في قلبك الخير جعلك هذا الشعور ترى الدنيا من منظار الخير، وجعلك تحب الناس بغضّ النظر عن أعراقهم ولغاتهم وطبائعهم وعاداتهم. وسهّل عليك الصعاب، وتمّى الأفراح.

عاشت نات - نات سنواتها الخمس والأربعين، منذ وُلدت وإلى يومها هذا، كأنها تتحمل أحزان الدنيا جميعها، تعثر من ضربات الزمان فتسقط، ثم تعود وتقف على قدميها. وعلى رواية مرزخوي بكر الذي عثر على الطفلة التي لا يعرف اسمها ونسبها على ضفة نهر فرزة ورباها حتى تزوجت ربما كانت الأم المتوفاة التي تجلس الطفلة إلى جانبها بعمر نات- نات الآن... وحين سُئلت الصبية التعيسة عن اسمها فأجابت نات - نات ظلت الأسرة التي صارت لها أمّاً وأباً، والقرية كلها، تناديها بهذا الاسم.

نات - نات سليلة الأسرة الروسية، كان من حظها أن تعيش عذابات الأدیغة، حين فقدت الأسرة الجديدة لها، وزوجها، وولديها، وبقيت وحيدة لا أمل لها إلا عمُّها، لم تعد إلى أصلها الروسي رغم أن عمها خانها، فلم يكفِ أنها وجدت نفسها في تركيا مع من قاسمتهم مصيبتها، بل وجدت نفسها أخيراً في البلقان. عاشت نات - نات إلى أن صارت شريكةً عمرٍ لباغ مزحّب محترمةً نفسها، حريصة على شرفها، ولم تُلْمَح إلى أصلها الروسي، لا في البلقان، ولا في الوطن الأم. ولكنها كانت تفقد صبرها فتجھش بالبكاء حين تفكر بما حدث لها في السنوات الخمس عشرة الأخيرة، وما حدث لأبيها وأمها وولديها. ومع أن ماجرى لها لما وجدت نفسها وحيدة أمام المصيبة، وتملّص عمها من وعده لها "انتظري هنا وأنا عائد" كان يصعد إلى السطح أحياناً لم

يخطر لها مرة أن تعاتبه أو تقول بحقه ما لا يقال؛ أفليس عمّها، ألم تجلس في حضنه، ألا تحمل مثله نسب مرزخوي في الدنيا؟

وباغ مزحّب الذي أسس أسرة ثانية وهو في الستين، لا يتذكر أي يوم سعادة في حياته إن استثّيت طفولته حافياً، وبعض سنوات الصبا. وقبل أن يكمل الأربعين حارب مدافعاً عن بيته وأرضه وقريته مع الرجال الذين يحمون أرض الأديغة، من أمثال جده إبراهيم، ووالده أصلانج، وكوبل جرمت، وأبناء جيله ناورز زغاشت وكوبل هارون وكوداي زاورج وبرقت زوال، حارب الجيش المزود بالعتاد والسلاح الذي لن يستطيعوا هزيمته مضحين بدمائهم حتى طردوا من الوطن. والجروح الكثيرة على جسده تشهد له بهذا. وكما يقال: "جرح الجسد يشفى ولكن جرح الروح يظل يصرخ" فكثيراً ما يحدث أن تهيج في صدره الأحزان التي عاشها في حياته والتي تحوّلت إلى همّ دائم. ولكن ما يفكر فيه الآن أمرٌ آخر: نات - نات التي صارت شريكة عمره في شيخوخته التي تنسج حوارب الصوف لستيفان الصغير.

- هذه حالنا. ما العمل؟ - قال مزحّب بعد أن عاش مدة مع ذكرياته البعيدة.
- ما الأمر يا مزحّب؛ أهنأك ما يُقلِّقك؟ - سألت نات - نات.

- لا يا نات، اطمئني، لا شيء يدعو للقلق. كنت أفكر في ما جرى لي ولك ولكثيرين من أمثالنا. مع أن جدي إبراهيم كان يقول: لا يجوز أن تُفني نفسك بالأفكار التي يسترسل معها المرء ولا نتيجة لها، فإن قلبي لا يتحمل حين تطفو الذكريات على السطح ما فعلوا بنا وما ألحقوا من إهانات.

- وهذا نفسه ما كان يقوله والدي المرحوم بكر، ليوحِّه الله إلى الخير حيث رحل. من حظه أنه لم يعيش ليشهد ما فعلوا بنا في الوطن وجلاءنا إلى تركيا.

نظر مزحّب بعين الرضا إلى المرأة وقال لنفسه: "حين مزح معي ناورز قبل أن يمضي أسبوع على تأسيس أسرتي الثانية قائلاً: "وكيف تتصرف معك الزوجة الجديدة" أجبتّه مازحاً "كيف تقيس المرأة الثانية بالأولى؟" ولكني أحسن منذ دخلت نات - نات هذا البيت قبل نصف سنة بروحها اللطيفة وحسن تعاملها مع أولادي. ولا تصدّق أنّها لم تحمل داربخان في بطنها ولم تلدها ولم ترهّجها. ترعى ستيفان الصغير، وتأتي على ذكر حجرت ولو أنّها لم تره قطّ، وتقلق عليه كما لو أنّه أخوها الأصغر. وحاتام الذي أرسلناه يسأل عن أخيه تهم بتأخّره خائفة أنّ يكون حدث له على الطريق مكروه. وأنا، حريصة على مظهري وطعامي ولباسي، لا تُخجّني إلى شيء. وهي كريمة بالطعام على أصدقائي. ولا تحرم الجيران من أي نوع من الطعام جهزته في البيت. وتعامل منذ اليوم الأول مع زوجات الأصدقاء كأنهن أخوات لها. بل الكلب في الدار والقطّة في البيت يحبّانها. فماذا تطلب من الله يا باغ أن يقدّم إليك أكثر من هذا؟..."

- والدك بكر رحمه الله سمعت الناس كثيراً يذكرونه بالخير ولو لم أقابله بشخصي. وهو، ووالدي وجددي، وآخرون، من حظهم أنّهم لم يشهدوا مأساتنا. أما نحن فقد كتب الله علينا أن نحمل حملهم مع حملنا. ولكننا سنتحمل، ولن ننحرف إلى اليأس، وإن يئسنا فمن سيرانا ويسمعنا ويفهمنا؟

- نعم يا مزحّب. سنفعل كما كانت تقول والدتي: "إن كانت يدنا مُدهنة مسحنا بها رأسنا" سننفع أنفسنا. وإن لم نياس حتى الآن فلن نفعل هنا. وكما كانت جاري العجوز تشابها تقول: من لا يعرف العادة ويبحث عنها يضع العسل في برك القرن، فلن ندع البلاد التي رمونا فيها، والناس الذين رمونا بينهم يقولون: لا يعرفون كيف يعملون، ولا كيف يعيشون.

- والله يا نات هذا كلام صائب. - نظر مزحج في وجه المرأة مرة أخرى طلقاً
- أنت من الجماعة ولو كنت على جانبها، كما يقال، يصيبك ما يصيبهم.
ذكرتني بقول جرمت والد هارون: "الأصابع تمتد معاً إلى هدفها وإن لم تكن
متشابهة". نعم، يا مباركة النسل. سنعمل مع هذه الأقوام التي ذكرتها، غير أننا
لن نسمح لأحد أن يرانا يائسين بلا أمل ولا بلاد. وأنا أقول هذا لحاتام
وحجرت. وإن أردت معرفة الحقيقة فأنا يصعب عليّ مصير داربخان وستيفان
الصغير. وصهرنا البائس تودور أين نذهب به، وأنت تعرفين أصله.

كان قلب نات - نات يتوجّع محملة نفسها ما يقوله مزحج من أحداث
جرت معه ولو أنها غير مقصودة بها. وكيف كان لصبية السنتين أو الثلاث التي
جاءت إلى بلاد الأديغة التي تجري فيها الحرب بعد المأساة التي حدثت لأمرها
على ضفة فرزة أن تعرفها.

وعلى ما يعتقد والدها الذي رباها بكر، وعلى ما يرويه، فقد كانت أمها التي
ولدتها والتي لا يعرف شيئاً عنها كان زوجها يلاحقها. وكانت المأساة الأدعى
للحزن أن المرأة ماتت دون أن يكون معها ما يثبت اسمها أو نسبها أو القرية
التي جاءت منها، ولا أي حقيقة أمتعة، أو رضوض على الجسم. ونات - نات
نفسها لا تتذكر كيف جاء بها بكر إلى البيت، ولا كيف ضمتها من ستصبح
أمرها "جاناش" إلى صدرها الدافئ، ولا كيف ابتسم لها عمها الأفندي محمد،
ولا كيف جاء الجيران ليهنئوا الأسرة. ولكنها تتذكر أن أمها الجديدة خاطت لها
دمية جميلة من القماش، وتذكر كيف يتنزه بها والدها ممسكاً بيدها الصغيرة في
أرض الدار الواسعة، وكيف كان عمها يقرأ القرآن بصوت رخيم، وكيف كان
كلب الأسرة الملون يستقبلها فرحاً، وكيف كان الديك الأحمر الكبير يصيح.

وتمر أمام عينيها سنوات الطفولة الحلوة، وسنوات المراهقة والأحلام الجميلة، وزواجها السعيد، والمصائب التي أطبقت عليها لاحقاً إلى الآن.

سألت نات - نات نفسها: "هل سيرتدّ زواجي الجديد في بلاد الغربة خيراً عليّ أم شراً؟" ووجدت سؤالها المفاجئ مضحكة فأجابت نفسها بنفسها: "ومزحّب الذي جمعني إليه، ووثقتُ به، ليس ما مرّ به من مصائب أقلّ مما مررت به أنا. ولو لم يفعل إلا تربية ولديه اللذين ليسا من صلبه: حاتام، وحجرت الذي أحببته من حديث والده الدائم عنه قبل أن أراه... لن يضيع معروفك يا مزحّب كما لم يضيع معروف والديّ المرحومين، ليُسكنهما الله العلي العظيم الجنة! وأنا، مادمت فقدت أي أمل سواك، سأساندك في شؤون أسرتك. ألا يكفي أني عشت عشرين سنة من سنوات عمري الخمس والأربعين أرملة وحيدة؟.. لم أترك في قرية مخوش ما أحرقّ إليه أو أجزع عليه إلا بيتي الفارغ وأرض الدار، إن كنت سأعيش في مثل هذا البيت، وسيقوم على أمري زوج مثلك، وسأرتاح إلى الابنة داربخان والابنين حاتام وحجرت، ويكون عندي صهرٌ مثل تود، فما حاجتي إلى البيت والأرض؟! كيف يُقارَن ما أتركه في قرية مخوش بما تركته في أرض الوطن! ولكن كان الأفضل أن أجد لأملاكي مصرفاً كيلا تلوكني أفواه الناس قائلين: ما إن وجدت أرملة آل مرزخوي زوجاً حتى تركت وراءها كل شيء جمعته بشق النفس. حين يتزوج حاتام وحجرت..."

- مع أنك سألتني يا نات قائلة إن كان هناك ما يقلقني فمن الواضح أنك أنت القلقة الآن. - قال مزحّب فخرجت نات - نات من أفكارها.

- إذا كانت حياتنا الحالية تركّبت من أسئلة متنوعة، حتى وإن كانت أجوبتها صعبة التمييز، فكلُّ شيء على ما يرام، ولا سبب لليأس. - قالت نات -

نات للزوج باشّة في وجهه، ثم أضافت: - غير أنني أفكّر في البيت والأرض اللذين تركتهما في مخوش.

- في تلك القرية كثير من الأرامل لا بيوت ولا أراضٍ لهن. كان يسريني، وكنت تكسبين الثواب لو أعطيتهما لإحادهنّ.

- صحيح يا مزحّب فكرة جيدة. ولكن إن تزوج حاتام وحجرت ألا يحتاج أحدهما إليهما؟

- حياك الله على لهفتك من أجل من صاروا ولدين لك. ولكن، وإن كنت لا أريد أن يبتعد أيّ منهما عني، فلأنهم يقولون الأصغر أحبّ إلى الأب فليبق حجرت في البيت، وحاتام وإن استقل لأنه الأكبر فليبق في قرية أبزاخ ساهراً علينا.

- إن كان هذا رأيك يا مزحّب فسأطيعك، أوافقك على اقتراحك بشأن أملاكي في مخوش، ومتى كنت جاهزاً سافرنا إلى مخوش. وسنحسن إلى أرملة فقيرة أعرفها، وليبارك الله لها فيها.

- حسنٌ يا نات، حسن. ما إن يعود حاتام من حيث أرسلناه حتى نطلب منه أن يرافقنا.

الفصل الثاني والخمسون

كان حاتام الذي ينتظره آل باغ مسافراً إلى إستانبول في يوم قائط في قرية ركاب متماوجة، معتداً بنفسه ولو أنه ليس من يحمل رتبة الملازم الأول، جالساً إلى يمين حجرت حسب ما يفرض العمر.

لا يَنْمُ وجه حاتام على تعبٍ عدة أيامٍ على الطريق. وكل ما يمر أمام عينيه يقارنه إن أعجبه أم لم يعجبه بما في البلقان التي يأتي منها كأنه لم يُقَم في تركيا

عدة سنوات. ثم يخرج من هذه المقارنات شيئاً فشيئاً إلى بلاده التي قضى فيها سنوات صباه، فتمر أمام عينيه بغاباتها، ومراعيها، وبراريها الفسيحة، وأمكنته لعبة " الباي " فيها^١. ومراعي مراكز القرى، وساحات سباقات الخيل على أطراف القرى. ثم يرى كل هذه وقد التهمتها نيران المدافع. ثم يسمع أصوات إطلاق المدافع، وصيحات نصر القوزاق " هورا "، وأصوات نواح النساء وبكاء الأطفال. ويمثل لعينيه آلاف المهاجرين المجتمعين على الساحل الأديغي للبحر الأسود. ويسأل حجرت الجالس إلى يساره تحت حراسته الفائقة، لتجاوز عقبات الطريق السابقة وغيرها مما لاقى في حياة الغربة:

- حقاً يا أخي الأصغر كأنك نائم؟

- أأنام بهذه البساطة يا حاتام! - ظن حجرت أنه يبرئ نفسه فداها - عربية الركاب كمهد الطفل، ربما نعست قليلاً.

- هذا هو؟ - قل هكذا إذن! أنا كنت في نواحيننا رغم أني في الغربة.

- ما العجيب الذي تراه يا حاتام في نواحيننا؟.. - نظر حجرت بعين راضية إلى أخيه، وصارحه بما يشغل باله: - تقلبني أوضاع والدنا.

- أي أوضاع؟! - لم يفهم حاتام ما قيل له.

- لا أعرف إن كانا سيتوافقان.

ضحك حاتام:

- مع أني كنت أتحيل في الأيام الأولى أن سيقوم بينهما سدٌ فقد يكون صحيحاً قولهم: الهمم والأمل يرققان قلبك، فاطمئن! تغير والدنا إلى شخص آخر تماماً حتى إنك لتُنكره. ليس متملق نساء بل أضاءت لطافته وهدوءه دارنا

^١ الباي: هو الاسم الأديغي. وهي لعبة دق الحاي في بلاد الشام، وشعبياً: " البري ".

من جديد. - وفي اللحظة نفسها فسّر ما سمّاه " نواحيننا ": - لا أقصد بها مضيق ترغوفشت التي لا أعيش فيها الآن بقلبي، بل بلادنا ما وراء البحر.

- أهنأك كنت؟.. - قال حجرت بين اللامبالاة والاستغراب، ثم نصّح بعد قليل أحاه حذراً: - لا تنظر إلى ذلك الاتجاه كثيراً. كان جرمت يقول: " إن نظرت في البحر كثيراً رأيت فيه دماً " فتناس شيئاً فشيئاً أننا فقدناه.

- أيّ " شيئاً فشيئاً " التي تنصّحي بها جاعلاً من نفسك عجوزاً وحكيماً؟! - غضب حاتام حتى رجّ العربة. - ألم يبق عندك قلب أديغي أم وضّع الجيش التركي الذي نسّبتك إليه قلباً تركياً مكانه؟ إن كنت تحاول أن تقتلع نفسك من جذورك فسأصفع رأسك دون اعتبار لرتبتك التركية!

- لم أصل إلى هذه الدرجة من انعدام الشرف يا حاتام. وحين تكتشف هذا فيّ فلك الحرية في أن تفعل بي ما تشاء. - قال حجرت، ثم نهر نفسه: - حتى من دون هذا فنحن في البلاد التي نعيش فيها بلا جذور.

- إن كنت تعرف في نفسك هذا يا أخي الصغير فحسنٌ - لأن قلب حاتام لما سمع - إن كنت تريد أن تكون أديغياً، وتريد أن تنفع أبناء قومك المساكين فثبّت هنا جذورك الشركسية. ولكن ليكن في قلبك أن جذرنا الأزلي إنما هو في وطننا الأم.

قال حجرت وقد قطعاً مسافة لا يتبادلان حديثاً بعدما تهاترا ثم تصالحا:

- لا تعتب عليّ يا حاتام. ليس لي في هذه الدنيا أحدٌ إلا والدنا وأنت وداريخان... - وأنهى بعد قليل: - لا يقبل الأتراك أن تكون أديغياً. لأنهم لا يحبوننا.

- كما يقول والدنا - قال حاتام ضاحكاً - هل ما يريدونه هو أن نعزف لهم بشبابتنا أغنياتهم التركية ونرقص عليها؟ أمثال هؤلاء المغنين والراقصين يظهرون

من بيننا ولو لم نصرِّحْ بأسمائهم. ولكن لو كنا غنيا لأنفسنا ورقصنا لها وحمينا أنفسنا هكذا لكان أفضل. - "كيف سيحمي بعضنا بعضاً ونحن لسنا متحابين نتحاسد ويتآمر بعضنا على بعض؟..." - أضاف حاتام إلى كلامه، ولكن لنفسه، والأسئلة المزعجة تثقل عليها، وتؤثر فيها.

وفي هذه اللحظة انتصب أمام عيني حجرت الأميرلاي برقت. وتبدأ الأشهر التي صار فيها جندياً في خدمته تمر أمام عينيه متتابعة: قرية شابسغ التي هاجمها فرسان بالزي البلغاري، ورجاء برقت لوالده الموافقة على تطويع ابنه في الجيش التركي... وبلغراد... ومصطفى باشا... وجيش المشاة على أطراف المدينة... وجيش الفرسان... وإستانبول... ومقر الخدمة في تركيا... وقصر السلطان الذهبي في الباب العالي... والسيدة بيكا الكبرى... وعُشماف... الحاج برزج... وألبان... والصبيان أصلان وقبلان من بريشتينا... وصهرهم البلغاري ديمتروف تودور، وزعيم البلغار في ترغوفيشث بارافان بارافانوف... ومن يتذكرهما بالخير كوبل جرمت وستيفان ستيفانوف... ومن لم يكن يخفي جفاه بوريس ستيفانوف، وصديقا والده ناورز وكوبل... حجرت الذي كان في عينيه هؤلاء وغيرهم، بعدما ارتقت عرته الرابعة، وظهرت إستانبول المتناثرة بين المضيقيين البوسفور والدردينيل بين البحرين الأسود والمتوسط، قال له أخوه حاتام:

- أوقفِ العربة؛ سأأمل إستانبول التي صدعنا دِكْرُها ولم نرها، ولكن لا أعرف إن كنت سأرى فيها خيراً... - قال حاتام واستدرك بعد تفكير سريع: - لست المقصود بهذا يا أخي بل أنا. ليجعلها الله لك ولكل الأديغة مدينة خيراً! - ابتعد حاتام، وفيما هو يمسح على جبين الحصان الأوسط من أحصنة العربة الثلاثة قال لنفسه "غير أني لا أظن أن هذه المدينة العظمى

ستكون خيراً علينا نحن الأديغة الغرباء..." - تعال يا أخي، حتى لو لم نعرف ما ينتظرنا فليس ما يدعو لليأس كما يقول والدنا. إن كان أمامنا ما يكفي من الوقت فاطلب من السائس أن يأخذنا إلى الشاطئ حيث ركب المهاجرون الأديغة التعساء، وسندفع له أجرة تعب أحصنته.

وفي هذه اللحظة بدأ حاتام يغني المراثة التي عنوانها "مرثية الهجرة من تركيا":

إن نظرنا إلى الأمام فأكوام من الضباب،

وقمم جبالنا يغطيها السحاب،

يسلبوننا بلادنا،

يا ويلنا!

قرقة عجالات العربات القديمة تصم الآذان،

وإن نادانا الأهل، لم يجدونا،

طردونا من البلاد،

يا ويلنا!

مواعد السفن ترتفع عالياً،

ينقلوننا من إستانبول تائهيين،

نحجر الوطن،

يا ويلنا!

قطع حاتام المراثة التي كان يغنيها من أعماقه بصوت خفيض، ولام أخاه

الأصغر:

- لماذا لا أسمعك يا حجرت؟

- أغني معك من قلبي يا حاتام.

- هذا حسنٌ غير أنني كنت أريد أن تغنيها بصوتك.

- ولكن يا حاتام... - انقطع صوت حجرت وما لاقاه من صعاب ينتصب أمام عينيه.

- نعم، حقاً من يبكي دائماً يخفت صوته، ولكن لا يجوز أن ننسى المصيبة.
- لن تنسى إن كانت تفيدك... - قال حجرت وكأنه هو المقصود بالكلام، ثم فسّر: - الأمل يُحييك، والحزن يُفنيك.

نظر حاتام نحو أخيه بعين راضية. وقال لنفسه متعجباً مما سمع: "اسمع ماذا قال!" - وهذه الحكمة أحد المخارج من مصيبتنا. ولكن بأي وسيلة تقترب من هذا المخرج؟ إن جلسنا ننتظره أفنانا الحزن، وإن تناسينا الحزن عشنا في الدنيا تائهين خانعين، ودُّبنا بين الترك والبلغار ونحن لا أترك ولا بلغار. ألا يعني هذا أننا عشنا بلافائدة نأكل وننام، وحين نقوم نخدم بطوننا؟ ومرة أخرى قال لنفسه وقد تذكر أقوال والده: كان علينا أن نتفق مع من غزونا دون أن نسمح لهم أن يطردونا إلى هنا... ألم يعد لنا من القوة ما نشعل به نار موقدنا إن انطفأت؟ من الذي أعاد للأديغة نارهم حين سرقها العمالقة؟ أليس سوسرقوه؟ ألم يبق فينا رجلٌ مثله؟.. مع أن شجرة الفاكهة التي لم تنبت في بلادك سهلة القطاف والأكل فإنها لا تُشبعك كتلك التي زرعتها في أرضك.

ولم يكن أحد اللذين جعلت منهما الغربة أخوين، أعني حجرت، محروماً من التفكير والمعرفة: "ما جرى لي في السفينة، وفي الغابة جرى مثله لحاتام. لماذا يفوقني حاتام الذي لم ير إلا الغابة والقرية في مشاعره نحو قومه مع أن من ربانا معاً وزع علينا بالتساوي إنسانيته ودفعه كما لوكان أبانا الحقيقي. أنا مررت بأمور كثيرة منذ فارقت القرية مما يحضُّك على التفكير، ولا أزعم أنني محروم من الوفاء، ولكن مع ذلك هل يمكن أن تفهم هذه المشاعر بالسؤال والجواب إن لم تكن في دمك؟.. ها أنا، سواء عيّرتني حاتام أم لم يعيرني، لم أستطع أن أغني

معه الميراث التي تحز في النفس. لا تتذرع بأقوال من يزعم أنه حتى من ولدتهم أم واحدة ليسوا متشابهين" ما إن حادث حجرت نفسه بالكلام السابق حتى قال حاتام:

- لا أقصد أن نظل نبكي حالنا... إن كان عندنا وعي بأنفسنا على قدرنا، بل أقل منه، ساعدنا هذا على التمسك بانتمائنا. - وبعد قليل مزح معه: - وإن لم تندم يا أخي الأصغر فلن أكتفي بأن أطلب منك أن تأخذني بالعربة إلى حيث أحاطوا ساحل البحر بالأديغة المساكين، بل سأجبر السائس عليه. - يا حاتام! - لم يتحمل حجرت - أنت تتناسى أننا كلينا نحمل الجرح نفسه وإن اختلف وجعٌ جرحي عن وجع جرحك.

بعدها وقف حاتام وإلى يساره حجرت لأياً يتأملان البحر المملح بدموع الأديغة، جثوا على ركبتيهما وبللاً وجهيهما الساخنين بماء البحر.

ثم ركب الأخوان العربة، ووصلا إلى الفندق دون أن يتبادلا أي حديث، ودون أن يفرح حاتام برؤية المدينة التي طالما تمنّاها.

وفي الصباح أمر حاتام أخاه دون استشارته:

- توجه أنت بعد الإفطار إلى مقر القيادة حيث استدعوك، وأنا عليّ أن أجد اليوم مرزخوي محمد أفندي.

لم يقبل حجرت:

- انتظري إلى أن أعود، لا تذهب إلى أي مكان، استرخ. وحين أعود سأصحبك إلى مرزخوي إن كان لك معه مهمة.

- لا شأن لك أنت بالمهمة التي لي مع مرزخوي... لا أعرف ماذا تقول، أظنني لا أستطيع العثور عليه إن لم ترافقني؟! إذا لم أته في غابات بلغاريا الجبلية فكيف أتوه هنا وعندي لسان أسأل به! ثم إني لا أطيق الإقامة يوماً

إضافياً في إستانبول التي تفوح منها رائحة الحمير. هذا قرار لا تراجع عنه! -
ابتسم حاتام حين سمع نهيق الحمير: - هل تسمع: الحمير لا تُنسك موعِد
الإفطار !

- أسمع يا حاتام نهيق الحمير - اكتفى حجت بالابتسام. وأضاف: أريد أن
أقول لك: احذر من الذي تريد مقابله.

- أتحسبني يا مبارك النسل ساذجاً فأشرب الماء من أنفي، ولا أُميّز الجنَّ
الأبيض من الجن الأسود؟! هيا شائي الصباح يبرد. ذكّرني أين يقيم مرزخوي!
هل قلت: أيا صوفيا؟ إن كانت المئذنة ذات الأطراف الأربعة الظاهرة للعين فلا
صعوبة في الاهتداء إليها. وإن كان أحد المؤذنين الأربعة يؤذّن انتظرتَه ريثما
ينزل - مزح حاتام مع أخيه ليُطمئنه، ثم أضاف: - لا تقلق، تابع أنت
مهماتك العسكرية التركية برحولة!

الفصل الثالث والخمسون

لم يكن فندق "سلطان" الذي نزل فيه الأخوان باغ بعيداً عن الجامع الكبير
أياصوفيا فوجده حاتام بعدما اجتاز عدة شوارع دون حاجة إلى عربة.
كان المصلون ينصرفون بعدما أدّوا صلاة الفجر. سأل حاتام كنّاس الصحن
بلغته الأديغية التي لا يعرف غيرها واضعاً النبر على اسم من يريده:

- أين أجد مرزخوي محمد أفندي؟

- هل أنت أديغي؟ سأله الآخر فجأة.

- أديغي أيها البائس... إن كنت أديغياً... ما أقلنا وما أكثرنا فلتقي حيثما
ذهبنا!

- ألا يحدث لك غيرُ هذا متى ألقوا بك في أرض الغربة؟! لا يجوز أن تستغرب
هذا. من لا يعرف الأفندي الذي تسأل عنه! يستريح بعد تلاوة وِرد الصبح.

- أي استراحة ولما يبدأ النهار! أكان في الحراثة؟ استدعه لي، أخبره أن رجلاً من الأديغة اسمه باغ حاتام يريد!

- وهل يعرفك؟

- ألسْتُ أديغياً يا مبارك النسل؛ إذا طلبوا منك استدعاءه فاستدعه!

- أستحق ما قلت لي، حالاً - أسرع الكناس الذي يبدو عليه جفاؤه للأفندي.

وفوراً صاح من النافذة الأفندي الأسمر الذي يبدو أشد سمرة حين يرتدي القميص الأبيض الناصع:

- من هذا الذي يثير ضجة في صحن الجامع المقدس؟

- أنا، إن كنت ما زلت تتذكرني. حاتام القادم من قرية أبزاخ في مضيق ترغوفيش.

- من قُلْتُ لي؟

- من سمعت اسمه، وإن لم يكن من وجهاء الأديغة، أدَّكرك به يا مرزخوي. من جاءكم قبل مدة بابتين مراد بيه على حارك حصانه وألقاه وسط اجتماعكم، حاتام. ليس لأني أعدّ ما فعلتُ رجولة مني بل لأنك سألتني من أنت فأجبت أن أعرفك نفسي. وباغ مزحج الوجيه المبارك والدي، وداريخان أختي الكبرى، وباغ حجرت الذي تعرفه أخي الأصغر.

- هذا أنت!.. قل هذا يا من رعاك الله. وأنا هنا إلى جانب النافذة هاجراً ما اختاره لنا الله العلي العظيم الذي نحن من عباده من الشعور بالأديغة. تفضلُ حالاً إلى غرفتي. تفضل إلى الجامع الذي شرفني الله بالحياة فيه. لماذا لا تزال واقفاً أيها الكناس، ألسْتُ أديغياً؟ عامل ضيفي بالعادات الأديغة، واصحبه إلي!

استقبل مرزخوي محمد الأفندي - المقرئ حاتام بالترحيب، وأدخله الغرفة كمن يعرفه طوال عمره. وأجلسه على المقعد الوثير الذي لا يسمح عادة لأحد بالجلوس عليه، متجاهلاً تقدّمه في العمر على ضيفه. وصاح من الغرفة بصوت حنون:

- هاتوا أحسن ما عندكم من الشاي ومن الحلويات المناسبة له. هذه حياتنا يا حاتام. وكيف لا أعرفك؟ اجتريحت بطولة في ذلك اليوم ولو عاتبك والدك مزحّب... ما أخباركم وأحوالكم بإذن الله؟ كيف يتصرف معكم من تجاهبهم من غير ديننا؟

- هذا العام كأننا استوينّا على أرجلنا بالقياس إلى السنوات الصعبة التي عشناها. ومن سألت عنهم، وسميتهم من غير ديننا، لا بأس بهم. ولكن أبناء ديننا الترك...

- ماذا؟ سأل المضيف مخفياً سبب جزعه.

- يهاجمون البلغار مرتدين الزي الأديغي فيهاجمنا البلغار رداً عليهم. أظنهم يخرّضون بعضنا على بعض للحرب.

- هل لما قلته أساس واقعي؟

- وكيف تعرف؟ من الصعب التمييز بين الأصول والفروع.

- مهما جرى لكم، فلن يفهمكم الله العلي العظيم الخالق إن لم تتفاهوا وتعاونوا أنتم والترك، العرقان اللذان يدينان بالإسلام. لا تفاهم بين المسلم والكافر، تماماً كالنار والماء. أتوقّع أن تبدأ معركة الغزو¹ في البلقان، ولذا علينا أن نكون جاهزين دائماً للانتقام. وأنت يا حاتام رأيته تتحلى برجولة فائقة،

¹ بالعربية في الأصل.

وحكيماً أكثر من أقرانك، ومادام الله واثقاً منك، فإننا نتأمل منك أن تقود جيشاً من فرسان الأديغة أو مشاتهم. الله أكبر! لم يولد كفاء له ولن يولد. "اسمع ما لا يزال يردد هذا العديم الإيمان، أحدٌ من جلب لنا الكارثة إلى الأديغة!.. — قال حاتام ضابطاً أعصابه بصعوبة، غير منتبه إلى الشاي والحلوى اللذين جاؤوه بهما. — الأديغة القلائل الذين اكتووا بنار الحرب وخرجوا منها كصفوة الخطب يريد أن يدفعهم إلى الحرب في أرض الغربة!.. أأصبُ كأس الشاي هذه في وجه الأفندي عديم الشرف؟! الأفضل من الشاي أن تبصق في وجه الأفندي... ولكن سأصبر ولو من أجل أخي حجرت وحده"

— ما هذا الكلام؟ أيُّ جيش فرسان وجيش مشاة تتحدث عنهما في حين أن هناك اتفاقاً يمنع الأديغة من الانخراط في الجيش التركي قبل انقضاء عشر سنوات على هجرتهم؟ — سأل حاتام.

— كم سنة مضى علينا ونحن نعيش على رحمة الترك أمة الله العلي العظيم، ونشرب من زمزمهم، ونأكل من خبزهم؟ — سأل مرزخوي وأجاب نفسه بنفسه: — إن لم أخطئ فقد مضى علينا وعليكم أكثر من عشر سنين هنا، وربما سبقنا غيرنا من يومنا إلى هنا.

— ولماذا تخطئ أنت يا مرزخوي — ردّ حاتام بعنف ناسياً أنه في ضيافته وعلى مائدته. — أنظر إليك فأراك في عزك، تسكن بيتاً مضيئاً، ومائدتك غير موائد غيرك، وخادمك رهئ إشارتك. لست أنت المخطئ بل مئات الآلاف من الأديغة الذين يعيشون في تركيا، ولم يذوقوا ماء زمزم الذي جئت به من الكعبة. — مهلاً، مهلاً يا حاتام يا بن قومي الغالي — استعجل محمد أفندي — لا تنفوه بمثل هذه الكلمات مُسمِعاً الله العلي العظيم. اسمع أيها الخادم ألسن من

أطلب منه إغلاق الباب؟ وأضاف إلى كلامه بنبرة ألطف: - لو عرفت أنك ستطيعني ما سمحت لك أن تنطق مثل هذه الأقوال الجافية في حضرة الله. قل: آمين! وشاركني في الدعاء. حين رفع مرزخوي يديه إلى وجهه قلده حاتام ولكنه انتظر ريثما انتهى الأفندي من دعائه دون أن يتلو هو شيئاً. وقال له الآخر: - والآن إذ رققنا قلوبنا أرجوك وأنت تشرب من ماء زمزم، وقد سرتني أنك تعرف مصدره، أن تُصارحني يا حاتام إن كنت جئت ترجو مني شيئاً تنفّس به عن ضيقك.

- لم آت إليك لأعلمك أن ماء زمزم يأتي به الحجاج من الكعبة. - ابتسم حاتام ابتسامة خفيفة - وليس عندي ما أرجوك بشأنه، ولا ضيق أنفّس عنه. جئت مع أخي حجر الذي يخدم في الجيش التركي في إستانبول، فعزمت ألا أعود إلى القرية دون أن أطرح هذين السؤالين عليك.

- نعم، نعم، سمعت الأخبار الطيبة عن باغ حجر الضابط في الجيش التركي البلقاني. وأنت جئت معه قاطعاً كل هذه المسافة، متعاملاً معه بعاداتك الأدبغية. بإذن الله وفّق في عمله هنا. وسيتمنّون عمله في دار السلطان. وتبعاً لما رواه لي أناس متنفذون فسيرفعون من شأنه وعمله أكثر من برقت زوال. أليس حسناً أن يظهر من أبناء قومنا أمثال برقت وأخيك الأصغر! ونحن لا نعدم تدخلاً منا في شأنهما. نعم، نعم يا حاتام يا من بارك الله فيك وحماك، أسمعك. السؤالان اللذان قلت إنك ستطرحهما، ولا أدري لماذا سؤالان، سأجيب عليهما إن استطعت.

تفحص مرزخوي حاتام بنظرات صامتة، وقال لنفسه: "أيّ سؤالين جاءني بهما من لا يردعه حُسْنُ استقبالي وطلاقة وجهي، ولم يحفظ حق طعامي، ولا يسمع ما أقوله له، ولا دين له عليّ، ولا قرابة بيني وبينه؟ ومن دون السؤالين نحن

مرگبون من جمع من الأسئلة، ونعيش ونحن لم نعد نريد أجوبتها. سمعت أن أخاه ستوكل إليه مهمة جيدة في القوات المسلحة في دار السلطان فكنت أنوي أن أستفيد من هذا على سبيل المعروف من ابن قومي، وبصفتي مقرئاً مشهوراً في إستانبول... إن لم يختلّ عقلك في الغابة فلن أجعلك تتخذ من سؤالك مجالاً لمخاصمتي ومعاداتي. يا ربي هل الخادم بعيد عني؟ ما كان عليّ أن أطلب منه إغلاق الباب. والكناس عديم الإيمان انقطع صوته، وصلاة الظهر التي يمكن أن أتحدجج بها ما يزال موعدها بعيداً جداً..."

مع أن حاتام الذي شرب شفة من كأس الشاي البارد وأعادها كان جاهزاً منذ زمن لسؤاله فقد كان يسوّفهما غير متحمّل طبيعة ابن قومه وطريقة كلامه: "انظر إلى هذا كيف يستمتع بطريقة جلوسه وتدليله نفسه، لا يعرف إن كان غيره يعيش على هذه الأرض، ولا يعرف إن كان هذا الغير سعيداً أم شقيماً. غير أنه يعرف، ليس ما يجري في إستانبول، بل ما يجري في الوطن، وأذناه تتصيدان ما سيجري فيهما. إنه يعرف قبل أن نصل إلى هنا من الذي استدعى حجرت ولماذا. بل يدعي أن له يداً في شؤونه. ما الفائدة في أن تقيم في إستانبول التي بدأت فيها مأساة الأديغة، ولا أحد يسمع صوتك، ثم تقرأ في القرآن المكتوب بغير لغتك ولا تفهم ما فيه؟.."

- اسمع! - نادى مرزخوي خادمه بحجة الشاي الذي برد - ما الذي تفعله بعدما حبستنا في الغرفة المغلقة، هيا غير لنا الشاي. مهما وثقت يا حاتام بالأديغي وعاملته بلطف، وأنت لست جاهلاً الأمر، فهو دون جدوى. ولكن هذا ليس مشكلة. أسمعك أيها الضيف، اطرح سؤالك مهما كانا!

- إن كنت ترى هذا يا محمد أفندي - لأول مرة نادى حاتام مرزخوي بمحمد أفندي. فسأبدأ بسؤالي الأول لأنه يتعلق بالله وبالأديغة: هل تؤمن بوجود الله وبأنه خالقنا؟

- إيه، أي سؤال مناكد هذا! - صرخ مرزخوي جزعاً، وعنّف الخادم الذي أسرع إلى الغرفة. لماذا أنت واقف؟ أغرّب عن وجهنا، أخرج وأغلق الباب! ثم قال بصوت ألطف لحاتام: - أنت لم تقل هذا، وأنا لم أسمعك.
- ولكن ألم يسمعنا من سألت عنه والذي تقول إنك موفده؟ لماذا نخدع أنفسنا بأنفسنا؟ ونخدعه هو؟

- أسمع يا إلهي العزيز ماذا يقول هذا؟ أسمع ما يقول في بيتك الجامع؟!
- لا تُتعب نفسك عبثاً، لن يسمعك الله الذي تؤمن به. وهو لا يسمعك أنت أيضاً ولا أنا. لم يرتكب عرق الأديغة ما يستحق به كُره الله له. أمثالك من الناس الخبثاء هم من أوصل الأديغة إلى هذا الوضع المأساوي، لا الله.
- ماذا يقول هذا، ماذا يقول!!

- باسمي أنا، وباسم أسرتي التي لم يبقَ منها غيري، وباسم العرق الذي أنتمي إليه أقول! وكما كنت قلتَ أعتبر المسألة تنفيساً فحسب، سواء قبلتَ أم لم تقبل. ولا أعني بهذا أن الله ليس في قلبي. ولا أحاول تناسيه. أتأمل معروفه حين أنام، وحين أفيق. وأدعو إليه كيفما انقضى نهارى أن يكون غدي أفضل.

- الآن أرضيتني يا حاتام يا من أدعو الله أن يشملك برعايته، طمأننتي!
- ليس الله الذي على شفّتيك هو الله الذي في قلبي. - مرة أخرى جزم حاتام باختصار.

- هه، هه!! - غمغم محمد أفندي.

- من يسمعني إذا ناديتُهُ ودعوت إليه هو الله الذي في قلبي.

- وكيف ستفهم هذا؟

- ما لم تفهمه أنت إلى الآن فهمته أنا منذ زمن بعيد. - ابتسم حاتام وأكمل: - أنت وأنا لن نتفاهم مهما تناقشنا وتجادلنا. ولست أنت المخوّل بتحليل الأمر، ولا أنا، بل الله القيوم علينا.

- أنا راضٍ عنك يا حاتام لمقاربتك هذه وفهمك. ويرضَ الله عنك!

- وأنا إذ أنظر في عينيك أجد نفسي راضياً عما قلت لك. ولكن يحزنني أبي لم أصارحك بكلامي في حضور الناس الذين خدعتهم. وربما نجد أنفسنا مستقبلاً في مثل هذا الموقف.

"سننهي هذه المهاترة السخيفة مع من استقبلته في غرفتي وعلى مائدتي، وتصرفت معه بما يمليه شعوري القومي، وإكراماً لأخيه الأصغر الذي يجهزون له منصباً ممتازاً دون أن نقرب من السؤال الثاني" - قال مرزخوي لنفسه، وقال لضيفه مخفياً حنقه:

- والآن إن كان سؤالك الثاني بعيداً عن الدين، خلافاً لسؤالك الأول فأنا أسمعك.

- أتأمل أن يكون جواب السؤال الثاني أسهل عليك من الأول، ولذا لن أطيل: هل تتذكر نات - نات؟

- من قلت؟ - سأل مرزخوي وقد ارتعب من سماع اسمها.

- الفتاة التي وجدها أخوك الأكبر الرجل الطيب على ضفة فزرة فتنّاها، نات - نات، هي من أتكلم عليها.

- أتقصد الفتاة التي تنتمي إلى الكفار الذين دمروا حياة الأديعة المساكين، ولم تصلح أن تكون ابنة لبكر المرحوم. ألم تركض إلى القوزاق حين هاجم جيش

القوزاق قرية تامبي حبله، وتنضم إليهم، كما يقول المثل: " البيلسان يُهر، وكلُّ يعود إلى أصله " - قال مرزخوي لنفسه وأمام عينيه تنتصب حادثة تركه إياها على طريق الهجرة إلى تركيا.

- مرزخوي نات - نات التي كنت تناديها " نَفْسَت " لم تركض إلى أي مكان. هاجرت إلى تركيا، وعاشت إلى الآن في قرية مخوش التي تعرفها.

- هذا مستحيل يا رجل! - صرخ مرزخوي رغم أنها لم تكن المرة الأولى التي أُبلغ فيها بالخبر. - ربما كذبوا عليّ على مبدأ: لسان الإنسان سبعة ألسنة. ما قلته معجزة. وإن تكن فارقت مخوش فأين تكون؟ لا يجوز أن تعتب على هذه الروسية الأصل التي عانت معنا كل هذه المصاعب برضاها. ربما عادت إلى أهلها البلغار بعدما عاد إليها رُشدُها.

- لا، نات - نات تعيش الآن في قرية أبزاخ زوجةً لوالدنا.

- حقاً، لم أسمع أعجب من هذا طوال هذه السنة. ألم نصبح إذن يا حاتام نحن آل مرزخوي وآل باغ أقرباء ونحن ندري ولا ندري؟! - سأل وهو يتذكر أنه حين دُعي إلى عرس ابن حزرت أفندي تظاهر بأنه لم يتعرف نات - نات، وسأل: - ومن أين كان لي أن أدري، وأنت تعرف المآسي الكبرى التي نحن فيها، أنها وصلت إلى تركيا... ربما تعتب عليّ المسكينة إذ لم أبحث عنها كما يبحثون عن الأهل.

- لم تُن عن مثل هذا العتب، بل تقول أين أذهب بعمي الوحيد الباقي لي سواءً كان صالحاً أم طالحاً.

- هكذا؟.. إذن لم تنسني هذه التي رضي الله عنها. ما إن أجد وقت فراغ من زحمة أعمالي حتى أزورها، وأهدئ قلبها؛ أليس أخي وزوجته رباها وإن لم تحمل

دمنا؟! ولكن حديثنا الطويل ونقاشنا اليوم لا يجوز أن تسمع به نفست، بل أي إنسان آخر.

- والآن، وقد انتهيت من أعمالي، سأعود إلى الفندق. وليت أخي الجزع ما بحث عني.

- هل يعرف حجرت أنك أتيت إلي؟.. ولا أريده هو أيضاً أن يسمع ما تكلمنا عليه اليوم... لحظة يا حاتام، لا تستعجل، سأخذك بنفسني إلى الفندق.

- إذا كنا سمحنا لهم أن يطردونا من وطننا، وجئنا إلى هنا على أرجلنا، فأنا أستطيع الوصول إلى الفندق وحدي.

- بلغ سلامي إلى أخيك الأصغر حجرت ولو لم أره إلا مرة واحدة. سأدعو من أجله إلى الله الذي خلق الكون كله ويقوم عليه أن يوفقه في مهامه. خرج باغ حاتام من الغرفة، ووصل دون أن يلتفت إلى الفناء الذي غاب الكناس عنه الآن.

الفصل الرابع والخمسون

ما إن اختفى حاتام وراء أول منعطف حتى خرج مرزخوي محمد على عجل من الجامع، وقال للسائس الذي أوقف عربته:

- أوصلي بسرعة إلى زقاق " بژدم ".

- إن كنت كريماً إلى أخصنتي أوصلتك يا محمد أفندي، لا مشكلة.

- وهل عرفتني؟

- ومن لا يعرف المقرئ الشركسي الحاذق؟! ولكن من أين لأخصنتي التي لا تراعي الكرامات أن تعرفك؟ هذه لا تركض سريعاً إن لم تعتنِ ببطونها.

- والله أنتم يا معشر السائسين تسلخون جلودنا كلما ركبنا فأسرعتم بحوافر خيلكم فممد أيدينا إلى جيوبنا... ومع ذلك حُثِّها، أَسْرِعْ بها... - ثم أنهى كلامه، وكأنه يتحدث من أنفه، مسمعاً السائس: - لو كنتم تعطوننا كلما قرأنا لكم شيئاً من القرآن...

- أنتم يا أفندي تُطْلِعُوننا على دنيا الله العظيم الفانية، وتحضروننا لآخرته الباقية. من يعرف كيف سيستقبلوننا هناك...

- اختبر نفسك في دنياه الفانية من أجل أن تكون جاهزاً لجنّة الآخرة. تصدّق عن أهلِكَ الراحلين. وساعد مَنْ في الفراش. وخفف عنه مرضه. ولا تدع أطفالك يشتهون شيئاً ليس لهم. وأكرم مُسْتَيْك. وربّ شبابك. إن فعلت هذا فسيفتح لك باب جنته دون أن يُحرق سراط جهنم أخص رجلك.

- هذا صحيح يا أفندي ولكن يحدث ألا نحقق هذه النصائح في دنيانا الفانية. لن أذهب بعيداً: أنت لا تأتي على ذكر أجرّة التعب الزائد على أحصنتي، وأنا لا أقبل منك هذا. كيف سنتفق أنا وأنت، دعنا من موضوع الخيل.

"هل ما تريدونه هو أن نعمل نحن مجاناً دون أن تمدوا أيديكم إلى جيوبكم؟.." صبر مرزخوي محمد الأفندي على السائس رغم غضبه خوفاً من كلمة جافية. وفي هذه اللحظة سأله السائس:

- أين سأتوقف. نحن الآن على زقاق "بُزْدَم"؟

- ها قد وصلنا. هذه أجرّة عربتك، والزيادة مقابل تعبهما.

- سأخذ أجرّة العربة يا أفندي، ولكن لن آخذ أجرّة عن تعب الأحصنة.

- هكذا؟ - فرح محمد أفندي لِمَا سمع، وأمسك بالقطعة النقدية الزائدة في راحة كفه. - إن كنت تقول هذا فالله سمعك وغمرك برحمته، وأضاف ما فعلت إلى حسناتك.

اقترب مرزخوي من القصر الكبير المتميز من جيرانه. وقرع الباب الحديدي في وسط الجدار الحجري، ومع أن الخادم الذي فتح الباب تعرّفه فقد أبلغه رجاءه على نحو بارز:

- أودّ لو قابلت الحاج برزج الزعيم المبارك إن أمكن.
- حالاً! سأخبر المحترم.

بقي محمد أفندي وحيداً صغيراً أمام الباب الذي أغلق بقوة حتى كاد يلطم وجهه. ولما لم تكن هذه المرة الأولى التي يشهد فيها مثل هذا الاستقبال قال لنفسه وهو بين المستغرب لما فعلوا به والباعث على الضحك: "ما العمل، كان أخي الأكبر يقول: يتحقق لبعضهم ما يريد، ومن لا يتحقق له فبئس المصير مصيره". من أنا واقفٌ على بابه إنسان مُراءٍ، يا إلهي لا أحسد من سيستقبلني وهو يتظاهر بأنه ينهر الخادم بالكلام. كل الناس متساوون أمامك من راكب الحصان والراجل، والفقير والغني، تختبرهم في دنياك العارية. وأنا وبرزج وبرقت ومن كان يماريني حاتام والسائس الذي أبى أن يأخذ مني القطعة النقدية، والسلطان التركي، وجدّته بيكا وغيرهم من عبادك جزء من هذه الأمة. ومن سمحت لي أن أفعل به ما يستحقه مرزبج العنيد، وميرائه الذي جلبته من الوطن الأم، والأشياء الذهبية والفضية التي كنت أخفيها عن نات - نات سليفة الكفار، والتي نجمت لي اليوم من تحت الأرض، لن أصف نفسي بالفقر لأنك تعرف كل هذا مني يا إلهي، ولكني لن أستطيع أن أعيش كما يعيش من أنا واقف على بابه، في غنى فاقع، ومن يراني يحسدي ويلعني. وأنا أعرف ما سأصرف به مع هذا الملك بمعرفتك... "

- وهل يُترك مثل محمد أفندي الضيف الغالي على باب داري، يا منحوس؟!
- سُمع صوت عتاب برزج الحاج - كم قلت لكم ألا تفعلوا مثل هذا! تفضّل

يا أفندي. ما فعلوه بك عيب، أهانوني بسلوكهم معك. هل أنت راجل؟ أين عربتك؟

- لماذا أحبسه هنا أسبَّب له الخسارة وأُنقص مما أعطيته وقد أوصلني إلى بابك يا محترم؟

- والله لا يجوز يا محمد أفندي يا موفد الله العادل أن تبقى إلى الآن دون أن تكون لك عربتك الخاصة. لو ترك لك كل من سمع تلاوتك فلساً واحداً، وأمثالي ليرة واحدة، لكنت أغنى من في إستانبول باستثناء أسرة السلطان. ونحن من جهتنا مقصرون في هذا الموضوع. سنفكر في تغيير منحى حياتك بطريقة ما ولو كنا ممن يقال فيهم "لا تذهب ضيفاً إلى حيث يعرفونك".

- لا، لا أيها الزعيم المبارك، لا تدع هذه الأفكار تغزو رأسك من أجلي. - ابتسم مرزخوي أفندي وهو يغفر لنفسه كيس الذهب والفضة الذي سلبه من مرزنج في الوطن بعدما قتله. - لم آت إليك بقصد المنفعة. وصفك إياي بـ"موفد الله العادل" - ومن خلقنا ويقوم علينا يسمعنا - لا يعدله شيء. الفائدة كالندى تأتي وتغيب.

- ويقال مثلُ هذا - لم يسمح الحاج برزج لنفسه أن تقصّر عن جليسه، - "الفائدة كالندى، وروح الإنسان كالماء".

- نعم، يا محترم لا شيء يعدل روح الإنسان، إنها كرمز الكعبة. - والله هذا كلام صائب منك يا أفندي. لأجل هذا يحبك المسلمون الذين تُحسن إليهم. أنت أول من يستحق كل المحامد التي تأتي من الله العلي العظيم. ولكن لا أظنك جئت إلي من أجل أن أقول لك هذا. يا عبد الله العادل؟

- لا أستطيع أن أدعي أنني جئت لسبب في غاية الأهمية أيها المحترم - بدأ مرزخوي محمد على عادته يناور من بعيد ويدور حول الموضوع - أظني جئتك بخبر عجيب لا تعرفه.

- هناك أخبار كثيرة نعرفها ولا نعرفها في العالم - قال برزج كأنه لا يبالي، وعاد وسأله بالطريقة نفسها اللامبالية: - ما الخبر الذي تريد إطلاعي عليه بإذن الله؟

- أحسن إلينا الخبيث برقت مرة أخرى.

- أظنك تتكلم على الخاطب - الصهر الذي وجدته لابنته التي ربتها له بيكا السيدة الكبرى.

- وما أدراك به؟ - سأل مرزخوي مستغرباً ما يسمع.

- أنت مخطئ يا أفندي؛ أتحالنا نقيم في إستانبول لا نعرف شيئاً؟! قال الحاج برزج واستياؤه من السؤال باد على صوته، ثم أتبعه بخبر مقابل ينم على تراجع احترامه لمن مدحه قبل قليل: - أظن السلطانة العجوز التي باتت طريحة الفراش الآن فقدت اهتمامها بالموضوع. سنرى ونتنظر الخبر الذي سيجمله إلينا الغد وما بعده. ولما كنا وحدنا، أنت وأنا، وتبادل الثقة بيننا أقول لك: كنا كلانا استرخنا لو فارقتنا العجوز التي نسيث اسم أسرتها، وتحولت إلى عجوز تركية. لن أغفر لهم ما عشت طردنا من وطننا وإحراقهم مجلسنا¹. مُدَّ يدك إلى الطعام، لا تدعه يبرد. لا بأس "سننتظر خوخنا الحامض قليلاً لأنه يكاد يحلو".
وممن يا أفندي حصلت على الخبر؟

¹ يتحدث عن المجلس البرلمان الذي أسسه الأبراز والشابسوغ والويخ والأباطة - الساز قُبيل نهاية الحرب القفقاسية، والتي يرد ذكرها كثيراً في رواية "المطرودون" للكاتب نفسه، وترجمة المترجم نفسه.

- إن قلت لك اسمه يا محترم فلن تصدّق بل لن يخطر لك.
- ربما هو ضيفك الصباحي حاتام الجيّ المجنون.
- وما أسرع ما وصلك هذا الخبر أيضاً!.. من يا تُرى أخبرك؟ - قال الأفندي لنفسه: "ربما هو الكناس عديم الإيمان"
- ضحك الحاج برزج في هذه اللحظة من أعماق قلبه، وقال له وقد اختلطت توريته بصراحته:
- من عنده بصيرة يرى بعينه، وليس كل من ينظرون عندهم بصيرة. ما فائدكم إليّ وماذا تفعل بهم؟ لاحقاً يا أفندي، السنة النمامين أصدقاء الجنّ.
- صحيح، صحيح، كل الجن شياطينُ كرههم الله. - وافق مرزخوي الحاجّ، وقال لنفسه: "وأنت تتصرف معي بأربع عيون خفية"، ثم فتح ساعة الجيب الفضية - الذهبية، ونظر فيها: - اقترب موعد صلاة العصر.
- عربي جاهزة، وأنا ماضٍ إلى الجامع.
- بعدما قطعاً مسافة في العربة الوثيرة المطرزة بمنقوشات الذهب والفضة، لم يُطق مرزخوي إلا أن يصرّح بما يفكر فيه:
- الضيف الذي فاجأني بحضوره صباحاً غير نظرتي إليه: ليس كما ظنناه رجل غابة بلا تربية أو أدب، صحيح أن أفكاره متضاربة ولكنه ليس محروماً من العقل.
- على ما تقول - ابتسم برزج - لم يُقيم في الغابة بلا جدوى لابساً قبعة مزجج المتعركة. منحه حفيف أوراق الأشجار الفطنة.
- ربما يا محترم، ربما. إن قابله واتّخذته محدثاً فستكتشف حقيقته أنت أيضاً.
- وفيهم سنتحدث؟ أقابل كثيرين من أمثاله كل يوم. غير أنهم لا يفعلون إلا أن يصدعوا رأسي.

الفصل الخامس والخمسون

السماء الخالية من أي أثر للسحب نظيفة كالمرآة. وشوارع إستانبول التي يصيح من فوقها المؤذنون فارغة من البشر. تسمع فيها أصوات بعض الحمير التي نسيت قدوم صلاة الظهر وإن كان يُحْتَلَّ إليك أن ليس في الشارع، بل في المدينة كلها، إلا وقع أقدام باغ حاتام. الدكاكين مغلقة، والمطاعم توقفت عن الخدمة، وسقّاؤو الشاي كفّوا عن التجوال، واختفى ماسحو الأحذية، وغاب عن الشوارع المتسولون.

"متى صرتَ وحيداً عاد إليك وعيك" لام حاتام نفسه مكتشفاً صحة هذا الكلام بنفسه: "صحيح أني جادلْتُ مرزخوي محمد في مسألة الإيمان بالله دون أن يعني هذا أن الله ليس في قلبي، ولذا من المعيب أن أرى نفسي في الشارع وحيداً، ما أفعله غير مقبول" جلس حاتام إلى جانب بركة ماء صغيرة في مرج أخضر على منعطف الشارع وتوضّأ، ووقف يصلي على كسائه الممدود سجادةً. نهض حاتام بعد الصلاة وقد تنشّط قلبه وأطرافه، وتوجه إلى الفندق مع الناس الذين عادوا إلى الشوارع وليس في ذهنه إلا اهتمامه بقضية أخيه حجرت.

الشمس تنظر بلا مبالاة نحو الغرب منحدرَةً بكل بطء إلى مغيبها غير القريب ولا البعيد لأن النهار في منتصف الصيف. وأوراق الأشجار المرهقة من الحر حتى كأنها فقدت الحياة تتشوق إلى نسيم المساء اللطيف. والعصافير التي ارتخت أجنتها لجأت صامتة إلى الظلال. وأطراف الأعشاب التي لم تعد تتحمل الغبار متهدلة.

مع أن حاتام يتصبب عرقاً فرأسه تغطيه قبة أديغية أعلاها مغلف بالأخضر، والأزرار الظاهرة من قبة قميصه مشدودة. والخنجر مربوط إلى الحزام الرفيع،

وقطعة الجلد الرقيق المتفرعة عن الجزمة تلف ساقيه إلى العقبين. وحاتم غير العابئ بالحر يسترعي انتباه المارة، وبعد أن يتجاوزوه يلتفتون إلى القوام العالي الممشوق. وهو غير مهتم بهم وإن كان يعرف أنه يلفت الأنظار. ما صار مركز اهتمامه شيء آخر: كيف ستسير أمور أخيه الأصغر حجرت في إستانبول. ولا يفارق ذهنه السؤال: "أيُّ شاغلٍ أوقعنا فيه هذا الشاب وأوقع نفسه!"، "كل الذنب على والدنا وعلى برقت، وأنا لا أدعي أنني بريء. والمنحوس حجرت - بارك الله في نسله - الذي خدعناه، جعلناه يخدعنا. ماذا سيفعل في الجيش التركي، وفي هذه المدينة المزدهمة التي نقلوه إليها؟ من يسأل عنك متى هجرت قريتك وأهلك إلى حيث لا يعرفونك؟ من مثل والدنا يردك إذا وقعت في ضائقة؟ وهل الأعمال التي تحتاجها قريتنا قليلة: الذرة في حقولنا، والبطاطا، والفاصوليا، والكوسا، كلها تزدهر، وأشجارنا تمتلئ بالفواكه. وأكوام الحشيش اليابس على روايينا لم نجد بعد الوقت لإيصالها إلى البيوت. وأهراؤنا يجب أن تعود إليها سقوفها قبل أن يفاجئنا مطر الخريف. ولكن الأهم من كل هذا هو انعدام السلام بين الأعراق المتنوعة التي تعيش في مضيقنا. ما إن نوهم أنفسنا أن السلام وراحة البال قد سادا حتى تظهر المشكلات، ويعود الناس يتبادلون نظرات الكراهية، ويُشهر بعضهم السلاح على الآخر. ولم نعد نستطيع ارتياد أسواق المدن. إيه حاتم ماذا جرى لك حتى لتظن أنه قيام الساعة؟! - نهر حاتم نفسه كعادته حين تغلبه أفكاره المتناقضة - أنت بالقياس إلى أقرانك الراحلين، يا مبارك النسل، ما تزال حياً معافى. استطعت أن تأتي مع أخيك إلى هذه المدينة الكبرى. الأفضل من هذا أن تفكر في طريقة العودة إلى تلك القرية البعيدة وأنت تجهل اللغة التركية. ليست المشكلة في شخصي بل في أخي الذي سأتركه مع الغرباء. مهما كنت علاقتنا ببرقت فهما في جيش واحد. وهل

عجيب إن كانت ابنة زوال تُرَى في قصر السلطان. اليوم هي في حماية بيكا السيدة الكبرى التي ناهزت التسعين كأنها ابنتها. ولكن من يعرف ماذا سيحدث اليوم أو غداً لمن وصلت إلى هذه السن. والآخرون يظنون يغطون بالتركية، ويبتسمون في وجهك، ويلتفتون إليك دون أن يكون بينهم أي كردي أو بلغاري أو رومي أو صربي، كلهم أترك خُلص. لا أعجب فحسب بل لا أفهم كيف لم تفقد بيكا المرأة الأديغية شخصيتها في هذا الجو، بل علا شأنها فوق كل هذه المجموعة من نساء القصر؟ أهو جمالها؟ والدنيا جميلة، نعرف بجمالها، ولكنها لا تعترف بنا. "الجمال وحده كقائمة حصان وحيدة إن لم يقترب به العقل فهو مجرد زينة كأوراق الأشجار الذهبية... ومن أنا حتى أقيم كبيرة نساء قصر السلطان الأديغية؟! عليّ أن أشكرها على أنها لم تفقد لغتها وعاداتها وطباعها في الجو التركي الذي دخلت فيه... - خطر لحاتام فجأة نات - نات فدافع عنها مبرئاً نفسه: - ألم تكن صغيرة حين وجدها مرزخوي بكر على ضفة النهر حتى لا تعرف إلا كلمة واحدة من لغتها... كيف كان بكر سعيدها إلى القوم الذين يغزونك ويجابونك ويسلبونك أرضك. هل تدينه على أنه جاء بها إلى بيته ورباها ابنة وأديغية؟.."

حين دخل حاتام إلى فناء الفندق يفكر في هذه الأمور وغيرها أسرع إلى حجرته وقد أدخلت طريقة جلوسه تحت الشجرة واجماً الشك في نفسه، فسأل أخاه الذي نهض لاستقباله:

- لماذا تجلس وحدك في هذا الفناء الحار؟

- أنتظر.

- كيف سارت أمورك؟

- كل شيء على ما يرام يا حاتام، لا تقلق!

- ظننتهم قالوا لك كلاماً مسيئاً فأرعبتني. تعال إلى الغرفة!

- وأنت، كيف تصرف معك مرزخوي حيث كنت؟

ضحك حاتام ممن ذكروا له اسمه:

- عاملني حسب التقاليد الأدبغية. وصارحته ببعض الأمور التي في قلبي نحوه.

ويلغك تحياته. ويزعم أن له علاقة بنقلك إلى هنا... - حين دخل الأخوان

إلى الغرفة أكمل حاتام الحديث الذي كان قطعه: - أعجب شيء هو أنه

أخبرني بزيارة له إلينا بداعي القرابة متى انتهى من قضاياه التي لا نهاية لها.

- وأي زيارة قرابة؟!

- أنسيت ان ابنة آل مرزخوي نات - نات كُنتنا؟

- حقاً، نسيت!.. ليس عجباً أن أنسى الخبر الذي لم أعتده بعد. وأعجب

ما في الأمر تناسيه لابنة بكر شقيقه الأكبر.

- ألا تعرف كيف هو مرزخوي. كما تقول حكاياتنا يظل يرمي خُقه إلى بعيد

حتى لا ينسى هدفه. ويتناسى ما لا يفيد. حسناً، ليس هذا مهماً. أسمعني

الآن ما جرى معك على مبدأ: رأسان خير من رأس واحد.

- أنجزت مهمتي في قيادة الجيش ببضع كلمات، وخرجت منها بأسرع مما

دخلت. وأخذ الخياط قياساتي على أن ينجز بزّي بعد الظهر، وصرفوني.

- حجرت يا أخي الأصغر، أيّ حديث لأمعنى له تُسمعني وأنت تعلم أنني لا

أحب هذا النوع؟! ألهذا السبب التافه جاؤوا بك إلى هذا المكان البعيد،

مرهقين الأحصنة، ومنفقين عليك المال؟ ألا تكفيهم مشاكلهم؟

- لا مزاح في ما قلت لك يا حاتام. ما سمعته حقيقة. وسأقول لك ما هو

أعجب: نحن كلانا مدعوان الليلة إلى قصر السلطان.

- حقاً! صاح حاتام، وقال وهو يتفحص ملابسه: أصدّق أنهم يدعونك بزي الضابط، ولكن ماذا أفعل أنا هناك؟ ما كان عليك أيها التعيس أن تخبرهم أنني رفيقك.

- وهل يجوز ألا أخبرهم أن أخي الأكبر معي؟ ثم إنك لا يمكن أن تُخفي عمن دعونا رفقتك لي. هؤلاء يعرفون، كما يقول والدنا إن طار عصفور في الليل.

- وما العمل إذن؟

- أماننا الكثير من الأعمال، ولدينا مُتَسَّع من الوقت. أنت ستغير قميصك، وأنا سأمسح حذاءك وسترتك. أما حزامك الفضي الرفيع وخنجرك فيلمعان. وقبعتك تناسبك جداً.

- صحيح ما يقال إن البيت الذي لا امرأة فيه بيتٌ خالٍ. ملابس المناسبات هذه التي أردتها أجبرتني نات - نات، حياها الله، على ارتدائها. وحملتني قمصاناً وجوارب احتياطية. والله يا أخي الصغر لا أعرف ماذا سأفعل حيث نحن ذاهبان... وإذا كان العالم مركباً بطريقة صعبة الفهم فكيف نهرب منه وإلى أين نذهب؟ ولكننا لن نتراجع. وسنعتني بعض العناية بمظهرنا.

مسح حجرت كساء أخيه وحذاءه بعناية. ونفض القبة المناسب لونها للكساء، وأعاد الصوف المنفوش فيها إلى حاله.

تنهد حاتام الذي كان واقفاً أمام المرأة يشدّب لحيته وشاربيه بعدما عاين اهتمام أخيه بملابسه، وقال:

- هذه القبة والخنجر والزوار من تركة والدي المرحوم.

- وما تركه لي والدي ووالدتي سرقوه مني في ريف "أجي".

- ماذا بيدنا؟ ليست قليلة المصائب التي مرزنا بها ولم يشهدنا أباًؤنا. لن ننسى الرجل الذي تبنا حتى صرنا في قالب الرجال مهما جرى. والدك ووالدتك

ليسا من ولدك بل من ربيّاك. - اقترب حاتام من النافذة وغمغم: - الشمس مالت للغروب، وهم يتأخرون في جلب ملابسك. ما الحل؟

- ضحك حجرت في سرّه.

طُرق الباب، ودخل خياطان يحملان البزة، وألبسا حجرت الصدر الذي تلمع على كتفيه رتبة البكباشي الذهبية. وأشارا بإبهاميهما معجّبين بما صنعاه، وتبادلا المديح بالتركية. وحين أشارا إليه أن يخلع بنطاله لم يرض حجرت:

- لا يمكن أن أخلع في حضرة أخي الأكبر. - أخذ البنطال منهم ودخل إلى الغرفة الأخرى. كانت البزة على قياس الشاب الخارج من الغرفة نظيفاً لماعاً. وخرج الخياط فرحاً راضياً عن نفسه مفتخراً بها.

- البزة تليق بك يا أخي الأصغر. مبروك عليك. ولتبدّلها بالأحسن والأجمل!
- هنا حاتام حجرت، وأضاف: - ولكن لا أعرف ماذا ستفيد الأديعة التعساء... مهلاً يا أخي الأصغر، لحظة! أنظر إليك فأرى الرتبة التي على كتفيك غير التي كانت على البزة السابقة.

- هذه التي ألبسها أعلى من القديمة.

- وما مقدارها؟

- إن كنت تتذكر فهي تساوي التي كانت على كتفي برقت زوال.

- إذن ألم تلحق برتبتك برقت زوال يا مبارك النسل! - عاد حاتام الذي لم يسمع عبارة "التي كانت" فسأل: - الحق يا حجرت ما أسرع ما تبدّلون رُتبتكم

في الجيش التركي! أمس كنت يوزاشياً، واليوم ماذا سميت رتبتك؟

- بكباشي. اعتباراً من اليوم قلّدوني هذه الرتبة.

- والله ما يجري لنا أعجب من العجب... ماذا ينوي لك هؤلاء يا ترى؟

- وكيف لي أن أعرف، أنا أيضاً أستغرب.

- انتبه! الأتراك مخادعون. لا تدعهم يجرونك إلى ما يسبب لنا العيب. والدنا لن يرضى ولن يتحمل. وليس لنا من نتخذه ناصحاً نستشير. أفكر في مرزخوي وبرزج، لا سمح الله، فأجدهما يسببان لك الإغماء حين يعانقانك. وبيكا سيدة القصر الكبرى إلى أي حد يمكن أن تنفعنا؟

- أظن دعوتنا إلى قصر السلطان أتت منها. - قال حجرت ما لا يعرفه، بل يتوقعه.

- لماذا لا تقول هكذا. يا مبارك النسل، في الوقت الذي تراودني فيه شكوك لا معنى لها.

- أظن، ولكن كيف لي أن أعرف أنها هي.

- كان عليك أن تسألهم، أن تعرف، الناس يسألون حتى حصانهم.

- في الجيش لا يسألون يا حاتام. عليك أن تنفذ أوامر قادتك فحسب.

- اسمع ماذا يجد لنفسه من أعذار!

حين دفع صوتُ العربية التي كانوا ينتظرونها حجرتَ إلى النافذة قال:

- أرسلوا وراءنا عربة سلطانية.

- فلنذهب إذن. نخض حاتام بكل ضخامة وهو يصلح وضع القبعة على رأسه

على نحوٍ يُشعرك أنه هو من أرسلت العربة لأجله، وخرج يسبق أخاه البكباشي.

خاف حجرت الذي كانت ضخامة ظهر أخيه تُخفيه أن يتفوه أخوه في القصر

بما لا يجوز فقال وقد استبد به القلق والحذر معاً:

- في دار السلطان يا حاتام ينصتون ولا يقولون الكثير.

- اطمئن يا أخي. إن كنت تتصور أن الأديعة تخلّوا عن الأدب والاحترام

فاعتبرنا خسرنا كل شيء!

- إن لاحظنا على أنفسنا مثل هذا فكأننا أموات. أقول ما أقول على سبيل الاحتياط.

- ألسنت من طلبوا منه أن يهدأ! إمشي على يساري، لا ورائي، حتى يعرف من ينظرون إلينا من فينا الأكبر.

اقتحمت العربة دار قصر السلطان الكبيرة. وحين توجهت إلى جناح الحریم فحسبُ اقتنع حجرت بأن بيكا السيدة الكبرى هي من دعتهما كما في المرة السابقة. وفي اللحظة نفسها ارتسمت أمام عينيه صورة عُشماف التي يحملها معه في قلبه. وقال لحاتام الذي لم يكن يجد تفسيراً لما يرى في فناء القصر، ولا ما يقارنه به:

- بيكا السيدة الكبرى هي من تدعونا. وها هو سعيد أفندي ينتظرنا على مسطبة الباب.

- أهذا من تبني عُشماف ابنة برقت أختاً صغرى له؟ - قال حاتام في قلبه: "ما أكثر أفندية هؤلاء ومساجدهم!" ثم أضاف بلسانه: - ليس مُسنّاً، هو من جيلي. وربما أصغر مني. حسنٌ أن تكون بيكا السيدة الكبرى مضيفتنا. ولو كان السلطان نفسه مضيفنا لكان أفضل.

أدخل الأخوان إلى القاعة الكبرى التي أُدخل إليها حجرت حين أتى في المرة السابقة مع برقت زوال. تفحص حجرت بعينه الحادثتين القاعة متسائلاً عما إذا كان قد جرى أيّ تغَيُّرٍ عليها في الأشهر القليلة الماضية: السجادة المزخرفة التي تغطي أرضها كاملة، وباللون البني الفاتح فقط هي التي لم يرها. لا، وهناك نسخة كبيرة من المصحف باللون الأخضر الجميل مفتوحة على المائدة المشربة بلون الفضة والذهب، والمسندة إلى الجدار المقابل.

- سأل حجرت أخاه الأكبر الذي كان جالساً بكل هدوءه:

- أراك لا تقول شيئاً يا حاتام!

- وماذا أقول بعدما تبّهك أخوك الأصغر إلى الاحتراس في ما تقول؟ - لام
حجرت وصارحه بما يشغل باله: - عشنا يا حجرت عبثاً ونحن نمثّل عرق
الأديغة!

- إلى هذا الحد يا حاتام؟! - انتفض حجرت برأسه، - ماذا جرى لنا؟
- أقول هذا لأنني أرى في نفسي، في هذه الأيام القليلة إذ لست أعمى، ولا
أعدم قلباً، ما يدفعني إلى التفكير وعتاب الذات. كم نحن عرق منحوس
وبائس! ألا ترى الدنيا الجنة التي نحن فيها الآن وهم يُمنّوننا بجنة الآخرة؟!
حين رجع سعيد أفندي الذي كان خرج من الغرفة لاحظ نظرات الوجوم
المتبادلة بين الأخوين اللذين انقطع حديثهما فقال:

- ساجاني؛ قطعْتُ حديثكما. لا تكتما ما كنتما تتحدثان فيه إن لم يكن
سراً، وإذ لا غريب بيننا، ريثما يجّهّزون باغ بيكا السيدة الكبرى المتوعدة،
وريثما نتناول الشاي؛ أسمعكما!

- أنت على حق يا سعيد أفندي. كيف يكون بيننا حديث سري ونحن على
مائدة ابنة أسرتنا بيكا السيدة الكبرى التي ندعو لها أن يلطف بها الله في
توَعُّكها، وأن يُنيلها دواءها. - أكمل حاتام حديثه - نغبطكم على أن
عندكم دولة، وأن الجميع يسمعون كلمة سلطانهم، وأن عندكم مدناً عظمت
في الشرق والغرب كإستانبول، ولا نخسّدكم. نحن لا نستطيع أن ندّعي امتلاكنا
هذه الأشياء في الأرض التي سمحنا لهم بطردنا منها. وكيف نمتلكها يا مبارك
النسل ولا شاغل لنا من زمن أجدادنا إلا حماية أرضنا الجنة من الأعداء... -
حين نظر حجرت طلق الوجه إلى أخيه متعجباً مما يسمع منه قال له الآخر: -
نعم يا أخي، نعم، تعرف أي لا أنافق. إن لم أكن على حق فصوّب كلامي،

دون أن تهينني، آخذاً بعين الاعتبار أنني أخوك الأكبر، وأنا نتعامل حسب التقاليد الأديغية.

- لا تقول ما ليس حقاً يا حاتام. ما تقوله يصدر من أعماق حزنك الأديغي.
قال لهما الخادم الذي دخل في هذه اللحظة:

- أنتم مدعوون للقاء السيدة الكبرى!

ولما نهضوا ثلاثتهم توجه سعيد أفندي إلى حاتام وهمس في أذنه:

- أنتم عشتم حياتكم تحمون بلادكم، ولم تهجموا على أحد، ولم تسعوا إلى الاغتناء بالحرب.

السيدة الكبرى جالسة في كرسي عميق محاطةً بالوسائد، وعلى كتفها شال صوفي يدفنها، والوجه الأسمر يكتسب بياضاً من غطاء الرأس الحريري الأبيض، وبين الأصابع النحيفة سُبحة زاهية. وغُشماف ترتدي ثوباً طويلاً مائلاً إلى الحمرة وخفّاً رقيقاً منسجماً مع الثوب، وقبعة عالية قليلاً موشاة بالذهب والفضة، وتقف إلى يمين الجدة مستعدة لأي خدمة. وليس في الغرفة أيُّ شيء يمكن أن يُعدَّ زائداً، من الصندوق الكبير المشرب بماء الذهب المسنود إلى الجدار، والكراسي، والمائدة المنخفضة الطويلة في المنتصف، وانتهاءً بالرفوف التي عليها عدة مصاحف متنوعة الألوان، لولا أن ستارتي النافذتين تنشران شيئاً من الظلمة فيها.

- أهلاً بكما يا ابني قومي العزيزين. - حيّت بيكا الضيفين بوجه طلق لا يتناسب مع تقدمهما في السن ومرضاها - تفضلاً واجلسا. وأنت يا سعيد اجلس. رفيقك يا حجرت على ما قيل لي هو أخوك الأكبر.

- نعم أيتها السيدة الكبرى، - ما إن جلس حجرت حتى نهض وقال هذا مستمداً الثقة على نحو ظاهر منها - هذا باغ حاتام أخي الأكبر، أرسله

والدي لتفقدني في بلغراد فصادف مجيئه قدومي إلى إستانبول فقرر ألا يرسلني وحدي، فحضر معي.

- هذا سلوك أديغي بامتياز. اجلس يا بكباشي، حسنٌ أن يكون عندك أخٌ أكبرُ منك، ودليل حظ ممتاز: - قالت لنفسها "ربما أرسلك الله لمساعدتي على تحقيق نيتي"، وأكملت: - ما أوضاعكم في الجهة التي رحلتم إليها يا حاتام؛ ألم تعتادوا عليها ولو قليلاً؟ اجلس، اجلس أنت ضيف. أخوك فعل ما عليه ليستحق رتبة بكباشي في الجيش التركي.

- إن كنتِ ترين هذا أيتها السيدة الكبرى فأنا رهن إشارتك.
- أنا لست السلطانة السيدة الكبرى لكما بل امرأة أديغية فحسب. أنا لولا عمري هي من كان عليها أن تقف في حضرتكما محل عُشماف. ما العمل مع أُنِي صرت السيدة الأولى على غير قومي فقد عاش جسمي هنا وقلبي هناك.
انكسر صوت السيدة الكبرى فتلهفت عُشماف:
- نان!..

- نعم يا عُشماف يا ابنتي الصغيرة. يحدث معي أحياناً مثل هذا... - عادت بيكا إلى حالها فأجابت نفسها على السؤال الذي وجّهته إلى حاتام: - كيف تكون سعيداً في غير بلادك حتى لو حرصت عليها؟.. ومع ذلك كيفما جرت أموركم فيها فلا تهنوا. والآن يا حاتام، وقد جاء بك الله إليّ، أحب أن نتحدث أنا وأنت على انفراد في شأن الموضوع الذي دُعيتُما لأجله إلى هنا وإن لم أكن متأكدة من أُنِي مخوِّلة بما أقول. وأنتم الثلاثة الآخرون تفضلوا إلى الغرفة الأخرى.

تبادل حجرت وسعيد النظرات بسبب ما سمعا. وتوهجت وجنتا عُشما. ومع أن حاتام كان عنده بعض العلم بما تُسرّه بيكا فقد كان، وهو يتابع الخارجين من الغرفة، مهموماً في داخله بما سيسمع .

- عشتُ ما عشتُ، وأنتظر النهاية بين يوم وآخر فلن أطيل التقديم يا حاتام. أتأمل منك أن تردّ عليّ بجواب واضح في شأن أخيك وابنتي عُشما. أريد أن يتقاسما السعادة والحظ الحسن لأني لا أريد أن يضيعا بين من ضعت بينهم. وأخمن أنهما يريد أحدهما الآخر في قلبه.

- وأنا كنت أجدس هذا نوعاً ما أيتها السيدة الكبرى... - قال في نفسه حاتام الذي نسي أن من يجلس في حضرته امرأة سلطانية " ما أعجب ما تقول هذه العجوز المسكينة وما تفكر فيه! "، وأجابها: - وأنا أرى أن الرأي رأي الشابين، ولكن أعتقد أن علينا إطلاع والدنا على الموضوع.

سرت مسحةً ضحكةً على وجه السيدة السمرء، وتظاهرت بأنها تمازحه:

- هل عندنا تقاليد أدعية تقضي باستشارة الأب ولو كنت ابتعدتُ عنكم قليلاً؟

- لا أظن أن عندنا تقليداً صارماً في هذا الشأن، غير أن عندهم عادة إخبار كبير الأسرة بالعروس القادمة وتهنئته بها.

- والآن، وقد دخلنا في صلب موضوعنا، سنتكلم على نحو أكثر صراحةً: إذا كنا قررنا من جهتنا من سيكون صهرنا، وسيقم في إستانبول، فأنت ترى حالي في الوقت الذي تقررون فيه ما ستفعلون من ناحيتكم. الأفضل ألا تتأخروا في البت في المسألة.

- فهمتُ - قال حاتام البريء إلى أبعد حد، وواسى من كان قلبه يشفق عليها: - لا تيأسي وهذا الموضوع سيحلُّ على نحو ما. وأنا سأذهب إلى قريتنا

أبناخ، وسأرسل بمعرفة والدنا، ووسط استغراب الناس، مجموعة من الشباب لزفة العروس.

- لا يا حاتام! سيستغرق رجوعك إلى هناك وإرسال الشباب إلى هنا وقتاً طويلاً جداً. أعيش الآن وأنا أعد الأيام التي بقيت لي. أريد أن أشهد فرحة ابنتي ولو يوماً واحداً.

- والله لا أعرف إذن ماذا أفعل. نحن لا أهل لنا ولا أقرباء ولا أصدقاء هنا.
- لا تقل مثل هذا يا حاتام يا ابن عشيرتي الغالي، وأنا بعد الله حاضرة! وحتى لا يقول أحدٌ من الطرفين الأديغي والتركّي إنه لم يُستشَر فسنرفقك بأخيك مستشاراً ووكيلاً. وسنرفق بغُشماف فتاتين من الجهتين. وسيكون سعيد أخوها الأكبر الذي تعرفه مشرفاً عليهم.

- بما أنك أنت المخوّلة في هذه الترتيبات فنحن جاهزون، وإن كنت لا أعرف ماذا سيكون رأي برقت زوال.

- إن كانت غُشماف ابنة برقت زوال - ماذا يقول الأديغة: الولد من ربّاه وأنشأه هو أمه وأبوه - مَنْ لا يريد لولده الحظ السعيد؟! هذا الموضوع الذي أدعو الله أن ينتهي على خير، ليس برقت بعيداً عنه، ولا جاهلاً به. ولذا هنّوا، كما أفعل أنا، والدها الأميرلاي على الخطوة التي ستخطوها ابنته.

- نعدك بهذا يا سيدتنا. وسندعو إلى الله أن تشهدي فرح الشابتين، ويكونا سعيدين.

- آمين يا ربي. ليُنطقَ الله فمك بالخير دائماً!

الفصل السادس والخمسون

العربات السلطانية الثلاث التي تزفّ عروس حجرت الذي لا علم لوالده بزواجه تنقل المحتفلين من إستانبول إلى قرية أبزاخ الواقعة على مرتفع في مضيق ترغوفيشت. في العربة الأولى حاتام ومعاون قائد الحرس السلطاني القائم مقام - المقدم توركان - آيكان. وفي الثانية حجرت وعُشماف برفقة سعيد والفتاتين التركيتين. وفي العربة الثالثة ملابس العروس وملابس مرافقيها. وأمام العربات ثلاثة فرسان مسلحين، ووراءهم مثلهم، يُبعدون أيّ شخص يعترضهم كائناً من كان. وحسب تقدير القائم مقام توركان الذي يعرف جيداً طريق البلقان فسيصلون إلى قرية أبزاخ في حدود ستة أيام إلى سبعة مع حساب استراحات الطريق، وقضاء الليالي في الفنادق، وما تستغرقه وجبات الطعام.

لم يكن حاتام يستطيع متابعة المهمات المفاجئة التي أوكلت إليه مع أنها مهمات سارة. وليس الأمر أنه عاجز عن أدائها فقد خاض تجارب حياتية كثيرة. ولم يعد عابثاً بكونه مدير المشروع المرتجل لزوج أخيه الأصغر في حين ما يزال هو عازباً، ولا بكونه خالي الجيوب من المال، ولا بعدم استعداد الأسرة المستورة التي أرسلته لمرافقة أخيه لإجراءات العرس. كان ما يشغل باله شيئاً آخر: ماذا سيكون ردُّ فعل الأديغة والترك والبلغار وغيرهم ممن سيستقبلون العربات المملوكة الفاخرة للماعة، وكم سيكون مهر العروس السلطانية.

يقول حاتام لنفسه: "سنجمع مهر الفتاة بطريقة ما — عندنا بضعة خراف، وثوران معلوفان، وحمولة ثلاث عربات تقريباً من الحشيش اليابس المكوّم في المرتفع. وفي أرض الدار مخزن مليء بالذرة الصفراء، ولكن لا أعرف إن كان ثمنها كافياً... في النهاية سنتدبر أمرنا بشكل ما، وسيتفهم القصر والسيدة الكبرى وضَعنا المادي، ولكن لا أعرف الرأي الذي سيتخذه أبناء قومي

البسطاء من أننا صرنا من ملحقات القصر التركي. وأخاف أن يقول والدنا "أي مصيبة جلبتم إليّ دون استشارتي" والله لا أعرف ماذا أفعل وماذا أقول على مبدأ: إنك لن تقدر أن توقف تدفق النهار باعتراضك طريقه. لماذا تصدع رأسك يا منحوس بهذه الأفكار؟ لا يسلك أحد طريقاً لا تُعرف نهايته ولا هدف له، ولا يفارقه. استمتع بجمال هذا الصباح، وجمال السماء المرقطة، ونقاء الهواء، وشمس النهار الذي نقطعه! ما تركبه عربةً من عربات القصر المزخرفة. والمقعد الوثير الذي تجلس عليه لا يُستبعد البتّة أن السلطان أو أحد المتنفذين جلس عليه. - ضحك حاتام في سره - أفكرُ فيك فلا أفهم ماذا تريد؛ أنت كمن يُقال فيه: تبكي مرة وتضحك أخرى. مرة تعادي الشمس، وأخرى تسخر من المطر.

لا أظن أنه بقي شيء تستغربه في دنياك وليس دنياك، التي يتجاوز فيها، مادمت إنساناً، عملك وغير عملك، والصدق والكذب، والنفاق والخداع. وتكدح فيها رغماً عنك. أشجار جوانب الطريق هذه تغير نفسها أربع مرات في السنة تبعاً للفصل الذي هي فيه من الربيع إلى الصيف إلى الخريف إلى الشتاء. ويرافق هذه التغيرات الحرّ والبرد، والجذب والخصب، والمطر والريح. وهي تحني الشجرة التي تقاومها، وتكسر بعضها. والأخرى العنيدة ولو كانت مقصوفة الفروع تتابع النظر بجذور قوية إلى الريح التي هاجمتها فلم تتمكن منها. والناس بأنماط حياتهم وطرائق عيشهم يشبهون تلك الأشجار المعرّضة للحر والبرد، والجذب والخصب، والمطر والريح. فالحياة تحني ظهور بعض الناس، وتكسر ظهور غيرهم، وثالث يصحو بفضل جراحه، ويعود فيفكر في نفسه. وكيف نتعامل الآن مع تركيا التي تتركنا للخير والشر؟ أظنهم انتزعوا منا أخي

حجرت بأن فعلوا خيراً له، وفرّحونا نحن معه. وأختنا داريخان اضطرت أن تتجه إلى بلغاريا. والمصيبة التي عصفت بوالدنا وبنات - نات جمعتهم.

وأنا؟.. يعيش الكثيرون من أمثالي وقد صار من الصعب عليهم العودة إلى وعيهم، ولا يعرفون أين يتجهون في بلاد الغربة. من سيوعي هؤلاء؟ أهو برقت الذي صار قريبنا من جهة ابنته؟ أم من يستر وجهه الوسخ بالقرآن مرزخوي محمد؟ لا أذكر اسم حزرت أفندي. يقال إنه بعدما فارقه إلى الآخرة من كانا سنداً له، مراد بيه وألبان، صار طريق الفراش عاجزاً عن أي حركة. أغمغم أحياناً ولكن الله الذي يسمع شكواونا موجود. هو فوقنا، يرانا، يفهمنا. أمثال ألبان لا يليق بهم حتى أن يكونوا رماد جهنم. أنا لا أندم يا إلهي على ما فعلتُ بمراد بيه حتى لو لم يكن من الحسن أن تسلب روح من لم يكن ماثلاً أمامك لتطرح عليه أسئلتك العادلة.

لا أعرف ما الذي بعث مثل هذه الأسئلة في اليوم الذي انفتح فيه باب الحظ لأخي. ربما لأني أسمح للقلق من الطريقة التي سنُستقبل بها في القرية، وكيف سندبر أمورنا، وكيف سيجري العرس، وكيف سيتعامل حجرت مع القضايا التي ستفرع من العرس.

لا مجال يا حاتام لليأس أو التراجع بعدما حدث! ما سبق وعددته مشكلات طبعاً، ولكن ما يجب التفكير فيه هو الأسرة التي سنُحِلّ العروس ضيفاً عليها حتى لا ننقض عاداتنا الأديغية^١. من يستطيع تحمل هذا العبء؟ هل تسأل عن الموضوع وعندنا داريخان أختنا مع أن في القرية أصدقاء لحجرت من أمثال

^١ كانت العادة إلى ما قبل عقود أن تنزل العروس ضيفاً على أسرة قوية متنفذة قادرة على حماية العروس، ولاسيما إن كان الزواج تم عن طريق الاختطاف، حتى انتهاء العرس الذي يستغرق عادة أسبوعاً من الاحتفالات.

ناورز قاسم وآخرين. ولكن داربخان تقيم في قرية ستيفانسك محاطةً بالبلغار فإن وصل الخبر إلى قصر السلطان أفيكونون راضين عنا أم لا؟ ليتخذوا الموقف الذي يريدون؛ لن آخذ العروس إلى غير بيت داربخان. وليُحَلَّ حجرت ضيفاً على قاسم^١. وليُصَبَّحْ ربيب أُنالِيكٍ لأسرة صديقه! وإذا كان تودور لا يعرف هذه التقاليد فسُنْفِهمها له بطريقة ما؛ غير أنني لا أعرف موقف بارافانوف والبلغار الآخرين في القرية. وعلى كل حال أليس العرس لدى كل الأعراق فرحاً وخيراً، لا حرباً..."

حين انتزع الرعدُ التالي للبرق في سماء كوسوفو حاتام من أفكاره تتمم برأس جافل:

- ما هذا! كيف أبرقت السماء الخالية من الغيوم؟..

رفع القائم مقام توركان الذي كان وُسْنانَ رأسه فجأةً، وقال وهو ينظر باتجاه الصاعقة التي لم يرافقتها رعدٌ:

- في كوسوفو دائماً مطر وبردٌ مصحوبان بالصاعقة. لن تصلنا نحن.

- إن شاء الله!

- لا داعي لليأس. - قال توركان أَيْكان بلامبالاة، وتابع تقليب حبات السُّبْحَةِ بين أصابعه. - رأينا الكثير من هذا القليل. متى ما وصلنا إلى المرتفع الثالث أماننا ظهرت بلغاريا أرض الكفار.

^١ وينزل العريس ضيفاً على صديق له كذلك. وعلى الأسرة التي يحل عليها ضيفاً مسؤوليات أيضاً، وتصبح أسرة أُنالِيك، والعريس ربيب أُنالِيك كما يقول الكاتب، أي يصبح ابناً للأسرة من جهة المحارم، لا من جهة الوراثة.

- ماذا تقول؟.. مع أن حاتام فهم مقصد الضابط التركي فقد أعاد السؤال، وفسّر له: - في تلك الجهة يعيش مسلمون من شركاسة وشيشان وأبخاز ووبلقار وإنغوش وقره شاي، ومن نسيت أيضاً، ومئات القرى التركية.

- نعم، نعم، أنتم وأقرباؤنا الترك تعيشون فيها. السلطان موفد الله واثق من أنكم ستقفون في وجه الكفار العنيدين، وعرسُ اليوم شاهدٌ على أنكم صرتم أقباءه. ولذا يتأمل منكم أن تساندوه في كل قضاياه.

تذكر حاتام قول سعيد أفندي له "احذر من الضابط الذي سيرفقونه بكم في العرية" فابتسم مخفياً انفعاله، قائلاً في نفسه: "لستُ سادجاً يصدّق كلّ ما يسمع من غيره ممن يقول الأدبغة فيهم: يشربون الماء من أنوفهم، وينظرون ويسمعون بعيون غيرهم وآذاهم، ولو لم أكن رأيتُ ما رأيتُ وعانيتُ ما عانيتُ، ولو لم أكن متعلماً مثقفاً". وأجاب بصراحة على ما لم يلمّحوا به إليه بل كاشفوه به:

- نحن نثق بمن يثق بنا. ولكن يُخيّل إليّ أننا لسنا في موقف يسمح لنا بتبادل هذه الثقة، هذا الأمل. وإذا كنتَ رافقتني في فرحي، وكان أخي الأصغر المنتمي إلى الجيش الذي تنتمي إليه والذي صار قريباً للسلطان، ووالد كُنتنا أيضاً في هذا الجيش، فلن أكنتم ما في قلبي. أنا شخصياً لا أعدُ نفسي من رعايا تركيا التي تثق بي، ولا أُنتمي إلى أرض البلقان التي غرسونا فيها كالعصا. ولا أقول إنكم عرق سيء، محرومون من الرحمة. بل لا يحق لي أن أقول هذا ما دمت ذقْتُ من طعامكم ومائكم، وينطبق هذا الكلام على أهل البلقان الذين ليسوا من ديننا. وأربأ بنفسي أن أتكلّم عليهم بسوء لأن هؤلاء بشر وأنا أحمل تسمية الإنسان. واغفر لي إن قلتُ ما لا يقال، وأهانتك صراحتي في الكلام.

قال في نفسه حارس السلطان العثماني القائم مقام توركان: " كما أطلعني يوسف الثخين - ليس هذا الذي يحاورني إنساناً ساذجاً كما خلقه الله. يعرف ما يقول لك، ماهرٌ في التراجع عن كلامه وفي إلهائه عما قاله. إن كان هذا ما بدأت فيه أيها الشركسي المرائي فلن أدعك تدفني مفتوح العينين. وسأعامل معك بالطريقة نفسها التي تحابني فيها "

- أعدّ كلامك الصريح معي دون اعتبار لمهمتي ولرتبتي نوعاً من الشجاعة. وهذا ليس بمقدور كل من يعد نفسه شجاعاً. ولو كنت ضابطاً كأخيك ما غفرتُ لك ما سمعتُ. وسأعتبر نفسي لم أسمع ما سمعتُ مما هو خارجٌ عن المسموح كي لا أفسد فرحة الجدة السلطانية الكبرى والشراكسة الذين يستعيدون وعيهم. - "سنرى ماذا سيحلّ بكم متى غادرْتكم بين عشية وضحاها عجوزكم المتنفذة التي كانت توزع عليكم رُتبكم" ابتسم توركان في وجه الشركسي الذي رَفَّعه إلى رتبة القائم مقام، وهو الذي انتظرها سنين كثيرة، وأضاف لنفسه: "صدّق أني ما كنت لأغفر لك لو كنت رومياً أو كردياً، لا شركسياً".

- صدّقْتُ هذا يا أميرلاي، صدّقْتُ...

- يسرني أنك ناديتني بلقب الأميرلاي ولكن كتفي تشتاق له فحسب... أتظن أن هذه مهمتنا نحن؟! بل من يثق بي وأرفقني بك. من أسس لنا تركيا بأكملها، سلطاننا.

- وكيف خُيِّل لي أن رتبتك هي رتبة الأميرلاي!.. لا خبرة لي بالرتب التركية وغيرها. وإذا كان صدر مني هذا الكلام فما تشتهيهِ سيتحقق، سيتحقق!

- سيتحقق متى سمع الله ما رَفَّعني إليه ووجدني جديراً به. ولكني لا أعيش من أجل الرتبة، ولا أخدم من أجلها، بل من أجل سلطان تركيا الذي يدين له ركنٌ

من أركان العالم. وإذ قد أصبحنا على مرتفع قریتکم فسأنفد ما أمرني به. —
أخرج من الكيس الجلدي الذي لم يفارق توركان سواء كان في العربة أم
خارجها كيساً صغيراً سميكاً لماعاً من المخمل، مشرباً بماء الذهب والفضة،
ومدّه إليه.

— ما هذا؟ — سأل عما مُدّ إليه.

— لا أعرف ما بداخله وإن كنت أعلم أن سلطاننا المنير كريم. إعرف ما فيه
لأنك ستوقّع على إيصال بما في الكيس.

قال حاتام شبه لا مبالٍ بما في الكيس وإن كان ما فيه يهر عينيه لحظة فتّحه:
— نقود !

— إذا كانت نقوداً فعُدّها لأنها عطية السلطان.

— ولماذا أعدّ كل هذه الكمية! نحن آل باغ بكاملنا واثقون ممن أسدى لنا هذا
المعروف؛ حياه الله على كرمه. ندعو له أن يمد الله في سلطنته، وأن تسعد معه
أمته.

— سأبلغ دعاءك ومودتكم الصادقة إلى السلطان، ولكن كنت أفضل أن تعدّها
لراحة بالي وبال مُقدّمها لأن العادة أن تُعدّ النقود أيّاً كان معطيها.

— سأعدّها إذن... — عدّ حاتام النقود وقد فهم سبب رجاء الضابط له،
وفصّل: ألف قرش!

— ليس مبلغاً قليلاً، بإمكانك أن تُعيل به جيشاً شهوراً. — قال توركان مشتتياً
المال الذي رآه، ونادى السائس: — خفف من سرعة الأحصنة قليلاً... وأنت
يا حاتام أبصم على هذه الورقة!

- إن كان ينفع خاتم آل باغ الذي نستعمله في المناسبات فهات الورقة - شرح
حاتام للضابط فيما يُثبت صورة العجّلة على الورقة ما كان يفضّله هو: -
ليتك قدّمت لي هذه المنحة السلطانية أمام الناس، لا لي وحدي!
- لا، لا - قاطع توركان كلام حاتام وقد فهمه قبل إكماله - هذا لا يحتاج
إلى إعلان. أنا جندي، أنفذ ما أمرت به. والآن نترك العربة التي صارت مُلكاً
للأسرة الجديدة، ونودّعكم.
- بهذه السرعة؟! -

- ألم أقل لك إننا جنود ننفذ الأوامر! ما هذا؟ - سأل والرضا عما عُرض
عليه من مال بادٍ عليه، وسأل بنبرة ألطف. - أليس هذا كثيراً؟..
- نقدم إليك ما جادت به أنفسنا مقابل تعبك.
- حياك الله إذن. عوّضكم الله القرش بمئة. والآن لنحتفظ بيننا أنت وأنا بسرّ
آخر: وأنا أساهم في فرحكم بهذه القروش العشرين مما جدتم به علينا.
- وأنت حياك الله على هذه الخاطرة. ولّيعوضك الله بمئة ضعف. والآن إذ
كلانا مكلف بإجراءات العرس يا ديكان - بيه، فالأني أراك مُليماً بعض الإمام
بالتقاليد الشركسية، وعلى مبدأ: رأسان خيرٌ من رأس واحد سأستشيرك في
موضوع قد يكون سبباً لسوء التفاهم، وآمل أن ترشدني فيه إلى الصواب: ليس
مكانُ استضافة العروس قرية أبزاخ بل القرية العمالية البلغارية؟
- عن أيّ قرية بلغارية نتحدث! - أسرع توركان بالرد وقد تغيّر لونه من اسم
"القرية العمالية".

- هناك تعيش أختنا مع زوجها البلغاري. وقد رسا عليها الاختيار لاستضافة
العروس.

جلس حارس السلطان القائم مقام توركان أريكان لأياً يفكر في العواقب السلبية التي يمكن أن تترتب عليه من الموضوع المطروح فجأة ، وقال في نفسه "هؤلاء الشراكسة شئنا أم أبينا شأهم عجيب. وطنّاهم مقابل البلغار الذين لا يطيقوننا ومع ذلك يتخذون من قرية الكفار مكان استضافة وكأن قريتهم لا تتسع لهم" ثم أجاب باختصار مسوَّغاً لنفسه الفكرة: "وأنا ما شأني بقرية عمالية وغير عمالية بعدما أنهيت المهمة التي كُلِّفْتُ بها؟".

- كما تشاؤون. المكان الذي تختارونه لاستضافة العروس لن أندخل فيه لأني أنهيت مهمتي. - وفي اللحظة نفسها أعاد التفكير وإن ادّعى أن هذا ليس من شأنه: ربما أطلعت أحد المتنفذين في إستانبول على قرارك الذي تستشيرني فيه؟ - لم أصل إلى السلطان - قال حاتام الآن دون هزل لمن كان قلبه يغلي غيظاً عليه: - ولكنني استشرت بيكا السيدة الكبرى... بدت على التّبة قرية ستيفانوفك المجللة بالكنيسة غير قريبة ولا بعيدة... - ها هي ستيفانوفك. وما إن نتجاوز المنعطف حتى تظهر أراضي قريتنا أبزاخ.

الفصل السابع والخمسون

بعد ظهيرة ذلك النهار المشمس نفسه دار خبر عجيب في قرية أبزاخ أذهل الناس، وأخرجهم من بيوّتهم إلى الشوارع، لا يمكن أن يحلم به إنسان بل لا تصدّقه حتى لو رأته: سار السلطان التركي يحرسه الفرسان إلى القرية، ثم تجاوزها إلى قرية ستيفانوفك البلغارية.

ومزحج الذي سمع الخبر ابتسم وقال لنات - نات:

- هذا مستحيل. لا يسافر السلطان دون الإعلان عن سفره مسبقاً!

- وهذا ما قلته أيضاً لآسيت. - وافقت نات نات زوجها، وشدها صوت عربة الركاب إلى جانب النافذة: - ها هي عربة ركاب تتجه إلى بيتنا ويتقدمها فارسان.

- قد تكون عربة قرية شابسغ القديمة المتهرئة... - ضحك مزحّب غير مقتنع بما قالت شريكته: - ماذا يريد الشابسغ في هذا اليوم الخريفي الذي يجمع الناس إلى أعمالهم؟ مهلاً! أهو حاتام، أليس صوت الولد ما أسمعته؟!

- سبق قاسم حاتام إلى الغرفة وأخبر:

- البشارة يا مزحّب؛ عندكم عروس!

- ما الذي تقوله يا قاسم؟! - نظر مزحّب في وجه حاتام.

- نعم يا والدنا، عندنا عروس. حجرت تزوج!

- وهل هذا ممكن يا مبارك النسل؟ أعاد مزحّب السؤال الآن وهو ينظر إلى نات - نات: وأين العروس

- العروس عند داربخان - أسرع قاسم بالإجابة - ونحن - آل ناورز - حلّ حجرت ضيفاً علينا. البشارة يا مزحّب، البشارة!

- ومن العروس؟ - سأل مزحّب عما يُهمه دون أن يسمع ما يقال له - من هي؟

- عروسنا يا والدنا هي عُشماف ابنة برقت زوال التي ربتها بيكا السيدة الكبرى.

- مقدّم خيرٍ علينا إن شاء الله، ولتكن عروس خير وبركة! - دعت نات - نات إلى الله.

- نعم، نعم يا ابنة مرزخوي، ليجعلها الله عروس خيرٍ لنا. - قال مزحّب منفعلاً - ونحن آل باغ سنفكر معاً في ترتيبات عرس تناسب العريسين،

ونتشاور. هيا يا قاسم أرسل إليّ والدك ناورز وكوبل! ها هما قادمان دون حاجة لدعوتهما. يا حاتام، الكلام لك، أرسل قاسم وليختر من أغنامنا أئمتها بشارة له.

- لا، لن آخذ منكم خروفاً، أنا أمزح فحسب، أئتم أحوج الآن إليه.

- تعال، لا تدعنا نحن آل باغ نرى أنفسنا فقراء. - قال حاتام، وشرح لقاسم معنى البشارة: - لا مزاح في البشارة. وهذه من عادات الأديغة.

حين انصرف مهتو آل باغ، وبقي الثلاثة وحدهم، ومدّ حاتام إلى والده عطية السلطان لم يقبل الوالد. وقال له وهو يجد مضاضة في تقبل هذه الهدية، شارحاً أن مثل هذه الهدية لا تقدّم هكذا :

- شكراً له على تذكّره لنا. ماذا أفعل أنا به. أعطه لوالدتك. تعرف كيف تستفيد منه أحسن منا لمصلحة الأسرة الجديدة.

الفصل الثامن والخمسون

لم يمض إلا يوم واحد على انتهاء العرس حين طلب الفارس القادم من بلغراد أن يتوجه حجرت وغُشماف إلى إستانبول. تخاف غُشماف أكثر من حجرت من هذا الاستدعاء المفاجئ متحسّبة أن يكون لمسألة عسكرية: "كل القضايا السلطانية والعسكرية مفاجئة دائماً... لماذا استدعونا ولم أكد أستمع بحلاوة طباع الأسرة التي صرّت جزءاً منها وشعرت بالسعادة معها؟ الله أعلم بما سيبتدعه عبد العزيز حين يغضب كما تقول نانا... لا، لا، لا يجوز أن أفتح الباب للخواطر السيئة..."

انتصبت أمام غُشماف في عربتها السريعة لحظة خرجت من خواطرها المزعجة مشاهد عرسها أول من أمس: المساء الخريفي اللطيف الذي تلا نهاراً حاراً يخيّم

على قرية أبزاخ. والربابات التي نسيت مراثي المأساة تصدح من بين أكف العازفين. والشباب والبنات في صفين متقابلين في الساحة. وعريف الحفلة يعلن بصوت يسمعه الجميع اسم الشاب الذي حان دوره في الرقص، ويمتدحه. والراقص يدور الساحة بقوامه الرشيق ليلفّ من وراء الفتاة التي ستراقصه فيخرج بها من نسق البنات. وبعد الرقصة الهادئة التي يرقصانها وهما يتقاربان ثم يتباعدان^١ تأتي رقصة استعراض المهارات الجسدية في الخفة والرشاقة^٢، ثم رقصة "الوَج" الدائرية، فرقة المسنين، وكلها مما يسلبك العين...

تخرج أفكار عُشماف على نحو مفاجئ فتمثل أمام عينيها الأعراس الأنيقة التي رأتها في طفولتها في الوطن الأم... وبالقياس إلى المشاركين في الأعراس السابقة فالبنات والشباب، حتى المسنون المشاركون في عرسها يرتدون ثياباً رثة. ثم لامت نفسها: "ماذا كنتِ تتأملين من هؤلاء الذين خاضوا كل هذه المآسي أن يرتدوا؟! - وابتسمت في سرها حين وصلت بفكرها إلى نات - نات، حماها التي قدّموها إليها أمس، وإلى ابنة حميها داربخان، وصهر الأسرة تودور، والطفل ستيفان. "وأقران حجرت الشباب الذين زاروها وهي على كرسي الزفاف، والبنات اللاتي تعاقبن على زيارتها كلّ منهم ومنهن أجمل من الآخر. رأيت بعيني ما كانت تقوله نانا منذ اجتمعت بها: "ليس هناك عرق بشري بشع، ولكن هذا لا يعني أن الأديغة كغيرهم، إنهم يمتازون بجمال شامل للعرق"، "ظلت نانا تكتم مرضها، ملقية باللوم على عمرها، حتى وضعت قدمي على طريق مستقبلي. لو لم يتفاقم مرضها، أو يحدث تطور حاسم في وضعها لما استدعونا بهذه السرعة. يا ربّ أبعد عن نانا مرضها ودعها تعيش سعيدة بأن

^١ يقصد ما يسمى رقصة القافة التقليدية التي لا بد أن يُقننها الجميع.

^٢ يقصد رقصة الشّشّن العنيفة والتي فيها إمكانات استعراضية أكثر من غيرها.

تزوجتُ في أسرة كانت تحلم بمثلها! لا أحد يعرف نانا كما أعرفها رغم ما أُشيع عنها من أنها فقدت شعورها بانتمائها، وغدت ظالمة كالترك الذين صارت جزءاً منهم. سيفهم وضعها من قال: وحيد بلا سند...

- لا تبالي في هواجسك يا غُشماف - نصح حجرت شريكة عمره، - سيكون كل شيء على ما يرام كما يقول والدنا.

- لا أعرف يا حجرت، لا أعرف، الله...

- كان في قريتنا عجوز اسمه جرمت...

- أي قرية؟ تلك التي وراء البحر أم تلك التي صارت قريتي أبزاخ؟ - ثم توسلت إليه معذرة عن مقاطعتها كلام الرجل: - سامحني يا حجرت، أسمعك.

- يسعدني أنك سميت قريتنا في الغربة بـ "قريتي"، ويُسعدني يا غُشماف أكثر أنك لم تنسي قريتنا في الوطن الأم. كان هذا العجوز يردد: "الأمل كبير، والحياة عزيزة"

- نعم، نعم - رُدّت الروح إلى غُشماف. - لن نفكر في الطالح في وجود الصالح، كما تقول نانا. ما أطيب هؤلاء الناس الذين انخرطت فيهم بسببك، والذين عانوا كل هذه الآلام! - انفعلت غُشماف فانكسر صوتها.

- مهلاً غُشماف، مهلاً يا حيي - تلَهف حجرت فضم المرأة إلى صدره - ارتاحي، وجدّئك التي تهتمين لأجلها لا داعي للقلق عليها. - داراها ولاطفها - كل شيء بخير، صدّقيني.

- مهما كنت أشفق على نانا، ومهما اشتقت إليها فما هاج عواطفني أمر آخر... لم تُنسيني لغة أُمي طوال تلك السنين، وتحول الحلم الذي عشت لأجله، حلم الشعور القومي إلى حقيقة أراها بعيني.

- اتركي الأفكار التي تهيج عواطفك، غير أنني أظنك تبالغين في ما قلته.

- لا، لا، عندي ما أقيس به وما أربط ما سمعته. متى ما بقينا وحدنا، أنا ونانا، كنتُ موضع ثقتها في هذه الأمور، ومتى ما بدأت دموعها تسيل، كنت أبكي معها.

الكلمات المحدودة التي قالتها عُشماف بشأن السيدة الكبرى أعادت قلب حجرت إلى قريته وارتسمت أمام عينيه صورة إحدى الجلسات في مضافة والده. كان فيها ثلاثة أشخاص بالإضافة إليه وإلى وحاتام اللذين يقومان بواجبات الأصاغر سنّاً نحو الأكابر، وهم: مزحوب وزغاشت وهارون. والثلاثة أصدقاء وجيران، ويتشاركون أقوالهم وأفعالهم، ولكن اختلافهم في حياتهم في الغربة لم يكن قليلاً. ومن كان يفصل في خلافات باغ مزحوب وناورز زغاشت هو كوبل هارون الذي كان جالساً يتسم متناسياً أنه مختار القرية كلها. ولم يكن مزحوب وزغاشت حين يتعبان يحلمان زعماء الأديغة، ولا قيصر الروس، ولا سلطان الترك مسؤولية ما جرى لهم من مأسٍ، بل يحملانها، على عادة الأديغة، لبيكا التي قادها سوء حظها إلى ما وصلت إليه، متناسيين في غمرة الانفعال والشعور بالإهانة أنها امرأة، مذكّرين إياها بأصلها الأديغي.

سأل حجرت نفسه "والآن كيف سيفهم آباؤنا حالنا أنا وعُشماف، بعدما صرنا أسرة واحدة وأحدنا يكاد يعرف الآخر، برغبة بيكا السيدة الكبرى ووالد عُشماف الذي انحاز إلى جانب الترك. وأظن أن حاتام الذي وافقني دون أن يبيدي أي انفعال قريب من هؤلاء. ليقُلْ أيُّ ما يشاء، وليقبل أو لا يقبل، فلا أحد، دعك من صاحب النصيب، يعرف كما تقول داربخان، من أين يأتي نصيبه. — حين نظر حجرت في وجه عُشماف بعاطفة حب لذيد نهر نفسه معتبراً الكلمة التي طفت له على سطح ذاكرته غير لائقة: لماذا تقول "برغبة" بيكا وعُشماف؟ لم يجبرني أيُّ منهما على أن أفعل ما فعلت. بل فعلت لأني

كنت يجب أن أفعل، إذ أنّ عندي عينيّن وقلباً كما يقول والدنا، ولأن عقلي قد اكتمل". وبعد قليل برّأ نفسه قائلاً "ولا أدّعي أنّ ليس لهؤلاء علاقة بحبنا" وبرّأ نفسه بكلام ندمٍ لطيف من هذا القبيل.

ورغم أن أيام عرس عُشماف الثلاثة لا تفارق خيالها فإنّها لا تنفكّ عن التفكير في سبب استدعائهما العاجل إلى إستانبول. ويظل مرضُ بيكا مركز كل دواعي قلقها: "من حُسن حظي أن سعيد سلّمني حسب التقاليد الأديغية إلى الأسرة التي صرْتُ الآن منها، ثم عاد مع وصيفتي ليلبعها كيف استقبلوني..."

- لا تزال على شاي الصباح يا حجرت، أليست جائعاً؟ - سألت عُشماف الرجل قلقة عليه، سأقدّم لك شيئاً من زاد الطريق الذي جهّزتنا به نات - نات.

- لست جائعاً، لن نتأخّر في الوصول إلى بلغراد. وبعدما وصلا إلى بلغراد، والتقت عُشماف بوالدها، سألته وقد هدأ قلبها نوع هلدوء:

- ما الأخبار يا تات؟
- إستانبول الدولة في سلام يا ابنتي لولا أن مرض جدتك بيكا تفاقم. نحن من أوائل من سيتلقّون الأخبار إن كان هناك أخبار سيئة. وبما أننا نلتقى لأول مرة بعدما اقترن نصيبكما فأنا أهنيكما متجاوزاً عاداتنا التي تمنعني من مثل هذا الموقف. وأدعو الله الذي جمعكما أن يُسعدكما. اقضيا الليلة هنا، وغداً صباحاً تتابعان رحلتكما.

أجابت ابنة الأميرلاي على رغبة والدها جواباً مختصراً:
- لسنا في هذا الوضع. سنتغدى ثم نستأنف السفر.

- لا بأس، كما تريدان، - قال زوال مرتاحاً للإرادة الصلبة التي تتصرف بها ابنته، والتفت إلى صهره، - ولكن لا أعرف رأي القائم مقام باغ.

- هذا لا يحتاج إلى تردد، سنتابع السفر. - جزم حجرت.

كانت الشمس الخريفية تنوي أن تبرد حين صار حجرت وعُشماف على التل المطل على إستانبول. وحين وصلا إلى القصر الكبير وحراسهما يفتحون الطريق لعربتهما، ويُعيدون الناس عن طريقها، اجتازت العربة البوابة الكبرى دون أن يعترضها أحد، وتوقفت أمام غرفة بيكا السيدة الكبرى.

- اهديني! مئة عينٍ تراقبك - قال حجرت لعُشماف.

تجاوزت عُشماف النساء الثلاث اللواتي كُنَّ على باب غرفة بيكا دون أن تنتبه إلى تحيتهن، ودخلت الغرفة فرأت جدتها جالسة في الفراش والخدم يسقينها الماء.

- نان، يا جدتي الحبيبة! - أسرعَت إلى جدتها.

- هذه أنت يا عُشماف! - قالت بيكا بحبيبة ابنتها، ثم أضافت بصوت أنعم:

- ما أسعدني إذ رأيتك للمرة الأخيرة. أسمعيني بنفسك كيف استقبلتك أسرتك

الجديدة من أقربائي مع أن سعيد روى لي كل ما شاهد لا يسعه الفرح!

- كلهم، كبيرهم وصغيرهم، بخير يا نان، بمن فيهم أتراكهم وبلغارهم القريبون

منهم. كرموني وعاملوني بكل ود واحترام، لا يعرفون كيف يعبرون عن ترحيبهم

لي.

- ولماذا لا يكرمونك ويُعزّونك! - قالت بيكا مرتاحة لما تسمع، وأفهمتها

بصوت أعلى: - لا تظني أن وراء هذا الاستقبال كونك ابنتي، بل أبناء قومي

بهذه الأخلاق. ربما كتب الله لنا وعلينا أن نتقاسم أفراحنا وأحزاننا... وهل

يتعاش الأديغة والترك والبلغار في سلام؟.. - عادت فسألت عن الموضوع

الذي أُخبرت به والذي لم تتوقعه، واختتمت بلغة تركية تفهمها المرأة جليستها:
- حقاً الأفضل من التعادي والاقتتال أن يرتاح كلٌّ إلى الدين الذي هداه الله
إليه، عارفاً موقعه، ويعيشوا في سلام تُظِلُّهم جميعهم الشمسُ والسماءُ
أنفسُهما. وهذه المهمة هي ما يعمل السلطان التركي لها، بل يعيش لأجلها. يا
أثور ارتاحي أنتِ، أرسل لي الله الآن من تجلس معي. - قالت للمرأة التركية
الطلقة الوجه، وبقيتا وحدهما، فسألت من جديد إن كان الأديغة والبلغار على
ما وصفتهن.

- لا، يا نان!

- وماذا إذن؟

- كنت أتمنى أن يكونوا هكذا.

- نعم، يا صغيرتي، نعم... وأنا كنت أتمنى الكثير، غير أنها لم تتحقق...
اسقيني شيئاً من الماء - قالت بيكا بعدما تجرّعت بضع قطرات من الماء: -
أتعرفين ماذا يقول الأديغة في الماء؟ يشبهون الماء بالروح؛ أسمعهم تقارب
اسميهما: " پسه " و " پسه "... أدعو لك أن تعيشي مكرمة معزة كالروح
والماء يا صغيرتي. سامحيني على ما أُشيع في نفسك من الحزن في يوم ياسي.
ليس لي غيرك يا عُشماف في اليوم الذي أودّع فيه حظي وراحتي، تمسح بيدها
على جبيني وتبكي، فاحفظي بضع الكلمات التي سأقولها لك في قلبك.
- لا يا جدتي. - صرخت عُشماف يائسة.

- اهدئي يا ابنتي الصغيرة، لن يسمعك أحد مهما صرخت ودوّى صوتك في
أرجاء القصر. لا يَخْدَعُ لمعانُ هذا القصر! هنا أسعدوا كثيراً من الناس،
وأشققوا كثيرين. لم يكن السلاطين جميعهم سعداء، ولا زوجاتهم، بمن فيهم
شخصي، ولا أولادهم. هذا القصر أشبه بالقبر الذي يُهال فيه التراب الأسود

على الرؤوس. ابتعدا بقدر الإمكان عنه. لم يكن القصر علامة شجاعة وحكمة لعرق الترك. وإن قلت إنه لم يكن مصدر الحظ السعيد فأنا أخدع نفسي بمظلمة لن تُعْفَر لي. غير أنني فهِمت في آخر عمري وأنا أستعد للرحيل النهائي أننا، الأديغة، لم نسعد به: أنا نادمة على أنني وافقت السلطان على أن يأتي بالأديغة أبناء قومي الذين كانوا يُبادون على أرضهم إلى هنا، ولم أعترض الداعين، ولم أَدْخُل حين بدؤوا ينقلون بعضهم إلى البلقان. فارحمني يا إلهي واغفر لي...

في ليلة يوم الجمعة ذاك، وفي موعد صلاة العشاء، أسبلت عينيها إلى الأبد بيكا السيدة الكبرى التي كانت عُشماف تناديها: جدتي...

الفصل التاسع والخمسون

مضى على رحيل بيكا سيدة القصر الكبرى نصفُ عام. والسنوات السبع والتسعون، ما يقارب القرن، التي عاشتها، ليست شيئاً بالقياس إلى ما جرى لعالم الأتراك، بل يمكن أن لا يساوي أكثر من نصف نهار. لا يزال قصر الباب العالي على حاله ولو أن بيكا السيدة الكبرى غادرت: تطير من فوقه شمس النهار، وتسيل فوقه الأمطار الباردة والأمطار الحارة. والذهب والفضة يتلامعان فيه، والناس يفرحون فيه، ويضحكون، ويكونون، ويضعرون. ومع أن كثيراً من أبناء الأقوام الأخرى يعيشون فيه مكرمين أو مضطهدين فلا تسمع فيه غير اللغة التركية. ومن لا يريد أن ينسى لغته الأم يكلم نفسه. وحين يلتقي حجرت وعُشماف في بيتهما يتكلمان الأديغة سرّاً كما كانت الأمور زمن بيكا الكبرى.

- ماذا سنفعل يا حجرت؟ لم ننفذ ما أوصتنا به جدتنا، ما نزال نؤجل من يوم إلى يوم. - قالت غُشماف للرجل - لا أفهم، ولا أرتاح لسلوك رشدي محمد وعوني حسين معي.

- هل أساء القول إليك؟ - سأل باغ حجرت الذي عينوه قبل وقت قصير معاوناً لتوركان آيكان. وهو يكاد يتميز غيظاً ويكظم نفسه.

- لا، يتجاهلاني كما لم يفعل أيام كانت نانا حية. - قالت غُشماف وفسترت انزعاجها: - أستغرب سلوكهما، ولكن من أنا إليهما الآن؟ حتى ندسم محمود الذي أؤكلوا إليه منصب الوزير الأول بعد وفاة علي باشا الذي عمل لمصلحته الشخصية، لا يحترمانه.

- أ يكون لأنه يميل إلى جانب روسيا؟

- ربما... ولكن من يكرهانه هو السلطان عبد العزيز الذي يضحكان في وجهه ويكرهانه في القلب كما كانت نانا تقول... كل المسؤولية عليه. يعيش على هواه دون ضوابط ولا قيود إذ لم يبق من يُعيد به إلى وعيه.

- ربما يُذكر من نسوا أنه سلطان تركيا العظمى... - قال حجرت على نحو لا تميز جده من هزله، ثم استدرك: - وأنا، رغم أنني من حرسه، لا يعجبني طبعه وسلوكه. وأنت وأنا يا غُشماف، ولو أن تحليل هذا الأمر ليس من شأننا، فقد خمنت من اليوم الذي رحلت فيه السيدة الكبرى أن قصر السلطان لا يصلح مكان سُكنى لنا. ما لاحظته ورأيت على السلطان اليوم وأمس وأول من أمس، سواء بسُكره الشديد حتى إنه حبس نفسه وأنشأ يغني، أم بقفزه على كرسيه ومنه راقصاً، أم بكائه حتى ليعجز ندماءؤه عن إسكاته، بل هجومه عليهم، كل هذا أفهمني أنني لا يمكن أن أمتدحه.

- مَنْ يدفعه إلى هذا السلوك هما رشيد وعوني اللذان يعرفان عيوبه... - قالت عُشماف منفعة، ثم أكملت: - يقول سعيد أخي الأكبر الذي ربّوني معه إنه لا يجوز، ليس أن تتدخل في شؤونهم، بل أن تقترب منهم، رغم أنه تركي. علينا أن ننأى بأنفسنا يا حجرت. أنا أعرف أين أبعد بنفسي، ولكن لا أعرف مصيرك أنت.

- أنا ماذا، ماذا سيحدث لي؟! - جعل سؤال المرأة المفاجئ رأس حجرت يقفز، ثم قال وهو يهدئ نفسه: - إن كان هناك ما يقلقك ويشغل بالك فلا تكتمي!

- أنا حرة في ما أفعل، وأين أذهب، وإلى أين أجري. أما أنت فعسكري، أنت مقيد.

- لا تخطئي بهذه الحجة. ما دمنا شريكي حياة لم يبق "أنا حر، أنت حر" وفكري في الجنين الذي في رحمك!

- لم تفهم ما قلت لك - همست عُشماف للرجل وهي تضع رأسها في صدره وقد توهجت وجنتاها - لا تسمح لمثل هذه الخواطر أن تغزو رأسك بعد الآن يا حجرت. ما عنيته بقولي إني حرة بالقياس إليك شيء آخر. لو حدث هذا لا سمح الله بعدما فقدت نانا فأين أذهب متجاوزة الأسرة التي ضممتني إليها. - أهذا ما تعنيه؟.. - سألت حجرت كأن سؤاله ساذج، ثم فصل الموضوع: - لماذا إلى بيت أهلي البعيد وبيت والدك أقرب؟

- إذا وصلنا إلى هنا - ردت عُشماف وهي تُدغدغ بأصابعها الرقيقة حجرت - قلت لك سابقاً، وأكرر الآن: من هو أقرب إليك بالروح والقلب أقرب إليك دائماً، ولكني لا أقول إني قريب أو بعيد من والدك - حمي. هل فهمت يا حبيبي المخادع؟

- فهمت، كفى ما "كركرتني"!.. - انتزع حجرت نفسه من أصابع عُشماف العابثة.

- إن فهمت فهذا هو الوضع أيها القائم مقام التركي، ثق بي!

- ثقني فيك أكبر من ثقتي برتبتي. - قال حجرت، ثم أضاف بعد وقفة قصيرة:

- لو لم يشجعني والدك برقت زوال، حمي الآن، لما انتسبت إلى الجيش التركي.

ولو لم يحدث هذا لربما ما التقينا عند جدتك بيكا. ولكن حتى لو كنت أفرح

بهذا فلم أجد في ترفيعي ما يسرّ. فهمت أن جنة الكذابين الأرضية يفتحها

على الدنيا الفانية الناس المتنفذون الذين يخلقون المشكلات ويحلونها، والذين لا

يخجلون ولا موقف لهم، كما يقول صديق والدنا ناورز زغاشت، ولسنا نشرب

الماء من أنوفنا ونستمع بأفواهنا ويُطعموننا من آذاننا، ولكن مع ذلك يا

عُشماف...

- يا لمصيّبي إن سمع أحد ما تقول!.. - صرخت عُشماف وقطعت حديث

حجرت، وأغلقت فمه براحتها، ونظرت في وجه الرجل واجمة.

- لا تخافي، لا أحد يسمعنا. ولكن مع ذلك يا عُشماف - أكمل حجرت

كلامه الذي قوطع - لا ذنب لنا نحن الاثنين في هذا وإن كنت تعتقدين أننا

أهملنا شيئاً من وصايا بيكا السيدة الكبرى. ألا تتذكرين أن السلطان عبد العزيز

استدعانا إليه بعد إنحاز خدمتنا للسيدة الكبرى، وطلب منا أن نستريح في

داره، وندخل إلى بيته، ونستمع فيه، ونُحظى برعايته؟

- كان قد طلب، صحيح. ولكن ألا ترى... أنت تعرف هذه الأمور أفضل

مني بسبب عملي. رشدي وعوني اللذان يُحسنان إلى تركيا بالكلام، ولكنهما

يتآمران على عبد العزيز لن يتوقفا إلا بإبعاد الوزير ندسم الذي كان يحظى بدعم

نانا عن منصبه. وسيصلان إلينا نحن... أينما قررنا أن نعيش فقد تركت لنا نانا

ما نعيش به من المال... - انفعلت عُشماف مرة أخرى، ولم تستطع أن تغلب دموعها.

ضم حجرت عُشماف إليه ونصحها:

- كفى؛ تحلّي بالصبر والقوة، ودعينا نفكر في ما أمامنا! إن شئت طلبت إرسالك كما قلت إلى قريتنا.

- وأنت؟ رفعت عُشماف رأسها فجأة.

- أنا، ساحيني، لا أستطيع أن أترك السلطان عبد العزيز الذي التزمت بحمايته.

- وأنا إذن لن أتركك وأذهب إلى أي مكان! - جزمت عُشماف كأنها لم تبك قط.

دخل سعيد الذي قطع حديث حجرت وعُشماف شاحب الوجه إلى الغرفة، وقال لهما:

- جئتُ بخبر سيء: ترك ندیم محمود منصبه، وحل محله رشدي وعوي.

وكان هذا في الحادي عشر من شهر أيار عام ١٨٧٦...

الفصل الستون

لم يمض غيرُ ثمانية عشر يوماً على طرد الوزير ندیم من منصبه حين جاء رشدي محمد الذي حل محله، بصحبة قائد الجيش التركي عوي حسين ومدحت باشا أحمد، الوزير بلا حقيبة، مساء إلى بيت السلطان عبد العزيز دون إخبار.

وما إن أغلقوا وراءهم البوابة الكبرى اللامعة بالذهب والفضة حتى قال عوي بصوت واثق هادئ لعبد العزيز:

- الآن، حالاً، ودون أن تثير ضجيجاً، أنت معزول عن السلطنة.

- ومن أنتم حتى تفعلوا بي هذا؟! - قفز عبد العزيز من مجلسه.

- أنت أجبت عن سؤالك بنفسك! - أمر عوني بحزم توركان آيكان الأميرلاي والقائمقامين الذين دخلوا الغرفة: - اسجنوا هذا المواطن المجرم، وحاشيته كلها، في قلعة "فيرنيس"!

وفي المساء نصّبوا مراداً البالغ من العمر ستّة وثلاثين عاماً، ابنَ عبد المجيد، الأكبر الأكبر غير الشقيق للسلطان عبد العزيز، سلطاناً. والفرسان المنادون الذين كانوا يمتدحون السلطان الجديد مراد الخامس، ويرفعونه إلى السماء، كاتمين الإقالات الكثيرة في دار السلطنة وفي مقر الوزارة وغيرها، منتشرون في كل مكان من إستانبول وغيرها من المدن.

والتاريخ الذي حدث فيه مأساة كثيرة نتيجة هذه الأحداث كان الثلاثين من أيار عام ١٨٧٦.

الفصل الحادي والستون

التاريخ المديد للدولة العثمانية الواسعة إذا قورن بالعام ١٨٧٦ أمكن اعتباره كأنه لم يوجد البتة. ولكن إذا كان النهار مؤلفاً من الساعات، والأسبوع من سبعة أيام، والشهر من ثلاثين، والعام من أربعة فصول، فالعام الوحيد الذي نحن في معرض الحديث عنه، بل نصفه، إن لم تحسبه من مجموع الأعوام المئة فلن يكتمل تعداد أعوام القرن. وإذا كان الخير والشر متجاورين في الدنيا الفانية فإن نصف العام الذي تصارع فيه المتنفذون على مبدأ "من لا يعرف الخير والشر يتأمل ما لا وجود له" سيبقى في التاريخ التركي المطلي بماء الذهب والملطخ بالدم.

ما حدث لرشدي ومدحت وعوني الذين نصّبوا مراداً الخامس سلطاناً قبل نصف عام على نشوب الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٧ خلافاً لما توقعوا

كان مضحكاً مبكياً. مراد الخامس إنسان ناضجٌ عمراً، حسن المظهر، مهذب، من الناس الذين تستفيد منهم العقل والحكمة. يميل إلى أوربا، وعليه مظاهر التأثر بالثقافة الفرنسية، يكتب الأشعار والأغاني، ويحب القليل من الشرب.

كان السلطان مراد قد أرغم على تبوؤ السلطة كما يروي الشهود دون إرادته. وحين سمع السلطان الجديد بمقتل السلطان عبد العزيز ومن تقلدوا الوزارة في عهده وغيرهم تأثر جداً بالخبر. وحين شهد الطبيب النفسي ليديرسدوف الذي استُدعي من فيينا على فساد عقل السلطان أُستبعد بأمر من شيخ الإسلام ولم يحكم سوى ثلاثة وتسعين يوماً، ونُفي إلى قلعة شيراغان على ضفاف البوسفور، ومات فيها عام ١٩٠٤.

وُنصّب محل السلطان مراد الخامس الذي فسد عقله أخوه السلطان عبد الحميد.

وحدث هذا في العام الذي غدا نحساً على السلطانين العثمانيين، عام ١٨٧٦، في الحادي والثلاثين من شهر آب...

الفصل الثاني والستون

كل الخلافات تنتج عنها الحروب. وما يمكن أن تُشبّه به هذا الاقتتان بينها وثقارنه هو العلاقة بين المطرقة والسندان: المطرقة تطرق والسندان يتلقى ويتحمل. والمهم لديهما هو قطعة الحديد الحامية بينهما. وإلى أن تبرد هذه القطعة تصنع منها ما تشاء: سيفاً، لجاماً، خنجرًا، نعل حصان، وركاباً. وسواعد الحدادين تتحكم في المطرقة والملمزة، والسندان والحديدة التي عليه يتحملان. ويفعلون كل شيء بقطعة الحديد هذه: يسطّحونها، ويلوونها،

ويسننونها. ولكن يحدث أن تتكسر تلك القطعة العاجزة عن مزيد من التحمل
مهما كانت متينة.

- ألا يكفي ما خدمنا الترك وكنا لهم كالسندان والحديدة؟! - قال بعض
زعماء الهرسك إيفان غوتيج، وسيمون زجيفي، وإيليا ستيفانوفيتش، وتريفكو
غروباشين، ووبرودان رونار، ويتر رادوفيتش، - ليس في مقدور الناس تحمّل
المزيد من العناء. ألا يكفي كم قضينا تحت النير العثماني كثور تخين الرقبة،
وهو يسلبنا أكثر ما نجني باسم الضرائب المختلفة، ولم نعد أحراراً في شوارعنا
وأسواقنا ودكاكيننا ومطاعمنا؟!

- صحيح! - وافقه تريفكو غروباشين - ولا يتحملون قرع أجراس كنائسنا.
- أنت على حق يا تريفكو! - صاح آخرون من هنا وهناك - ويستهنون
لغتنا ولباسنا ورقصاتنا.

- لم يكف تسلّطهم على رقابنا، استقلّوه، فوطّنوا الشراكسة في البلقان.
- يشبّهوننا بعجلات عربات ركابهم! - قفز بيرو تونغوز، الرجل الرقيق الذي
كان جالساً وراء الجمع، - سأريهم والشراكسة مثّل من نحن!
- اجلس يا بيرو، اجلس! - أكمل إيفان غوتيج الذي هدأ من كان يلوّح
بقبضته كلامه: - إن كان هذا رأيكم فنحن نستعد منذ اليوم على نحو أفضل،
كما اتفقنا قبل أيام، للنهضة القومية المعادية للسيطرة التركية. وقد تكلمنا في
هذه المسألة مع نيكولا بيتروفيتش زعيم منطقة الجبل الأسود، ولكنه لم يعدنا.
- ربما كان مهموماً بمسألة إن كانت روسيا شقيقتنا ستشن حرباً على تركيا أم
لا... - ابتسم برودار روبر.

- أتوقع أن يساعدنا نيكولا بيتروفيتش لأنه، وإن تظاهر بهذا الموقف، عاجز
عن مجابهة إخواننا في العرق المضطهدين.

- أتتوقع أم سيقف معنا؟! - مرة أخرى نهض بيرو.
- اهْدأ يا بيرو، في المجلس غيرك - صرخ سيمون زيجيفيج على من كان عاجزاً عن ضبط سلوكه.
- أيُّ هدوء تريده فيّ تجاه من يدمر حياتنا؟ - وصلنا بهذه الحجة إلى أن نفعل كالفأرة التي تريد أن تُدخل رأسها في ثقب لا يسعُه... - جلس وهو يغمغم: - أنا أعرف كيف سأصرف معهم.
- حتى لو كنا ننشبه بالفأرة - أجاب غوتيج كأنه غير مبالي وإن كان ما سمعه مهيناً - فإنها تحتاج القطعة حين تحشرها في مكان لا مفرّ منه. هذه ليست مسألتنا وحدنا؛ الصرب والبوسنيون والجلب الأسود والبلغار مهمومون بها أيضاً. التقيت في الشهر الماضي حين سافرت إلى أنحاء فارنا ببارفانوف وديميتروف. وهم يستعدون للانتفاضة.
- هل ديميتروف، صِهْرُ الشراكسة، من وجدتهْ لتعتمد عليه؟ - الآن قال بيرو دون أن يقفز من مكانه.
- ليس تودور ديميتروف صِهْرُ الشراكسة فحسب، بل أمُّه شركسية أيضاً وأبوه بلغاري. وصار أباً لابن زوجته التركي.
- تبادل المستمعون النظرات، والخبرُ المفاجئ الذي سمعوه نَصَبَ رؤوسهم. وفهم كلٌّ منهم الخبر كما يريد. وكان بيرو الوحيد الذي لم يكنم رأيه:
- حين كنت أقول لكم - ظل يبتسم حتى تفحصه الجالسون - لم تسمعوني، ولكن ألم تقتنعوا الآن أن الأتراك سيحوّلون بساتينا إلى بساتين قَرَعَ لهم، وكل عرق منه مشبوك بعرق آخر ومرتبط به؟ متى ما شددت أحدها شدَّ معه الآخر، وقيّد يديك... نعم يا إيفان نعم، سأمحني على مقاطعتك. أسمعك وقد هدأت قلبي وطمأننته. أسمعك بأذنين مفتوحتين.

- حتى لو كان كل هذا الجمع من عرق واحد - استأنف غوتيج كلامه دون أن يخرج عن موضوعه، - فلنسا أولاد الأب والأم أنفسهما. وإن نزلت عميقاً في الجذور فرمما وجدتَ بيننا من له أصل من عرق آخر. ولكن القبعة التي يلبسها كلُّ إنسان، كلُّ عرق، ليست اللغة التي يتكلمها. ما تعتدّ به هو عيناه ووجهه، وروحه وقلبه. والأعراق على الأرض مختلفة اختلاف الفواكه التي تحملها الأشجار المختلفة. وكذلك يشبه هذا التنوع اختلاف الجالسين هنا في كبرهم وصغرهم، وفي جوههم وطباعهم. والترك بالقياس إلينا أكثر منا عدداً بكثير غير أنني لا أجد من المناسب أن يُهينك الكبير وينتقص من قيمتك. إن كان ما يُقال لك يستحق جواباً بغضّ النظر عن كبرك وصغرك فعلياً نحن أيضاً ألا نقصّر في هذا، وهذه النهضة القومية هي ما جمعنا اليوم. وسنجتمع خلال شهر في هذا المكان لمناقشة ما أنجزنا وما علينا إنجازه. وإذا كان أبناء قومنا المضطهدون يتقنون بنا، وما دمنا أملكهم، فاحرصوا على أقوالكم وأفعالكم. ولا تكشفوا الغطاء عن أسرارنا. عيون الأتراك حادة، وآذانهم مرهفة، إنهم عقلاء ومخادعون. وهم متشابكون أكثر من عروق القرع التي تكلمت عليها يا بيرو. لا تنسوا أننا هربنا إلى الجبل الأسود حين اكتشف الترك في العام الماضي عودة الوعي إلينا. شكراً للنمسا، بفضيل رجائها وإكراماً لها أعادتنا تركيا إلى وطننا الحرّسك. ولو لم تقف النمسا معنا لربما ما كنا قادرين الآن على متابعة قضايانا القومية.

- وأنت لا تنس أنها وقفت إلى جانبنا لأن في موقفها مصلحة لبسمارك. - مرة أخرى لم يستطع بيرو تونغوز إلا أن يتكلم.

- أوافقك في هذا يا بيرو - قال غوتيج وأضاف: - ولكن لما كان المعروف مفيداً لنا أيضاً فلا تدعونا نشير إلى فاعله.

فيما كان الترك يلاحقون بيرو تونجوز الذي كانت عاداته أن يكون دائماً في مقدمة الجمع، والذي اختطف ثلاث عربات ملأى بالسلاح قابلهم الفلاحون المسلحون الذين يقودهم غوتيج فاشتبكوا معهم، فأصبحت هذه الواقعة الدموية نقطة البداية في هبة سكان الهرسك. وفي خلال وقت قصير سلّخت عن تركيا نيفيسينك وييليجسك وستولاجسك، ثم غاتيسك، وغيرها. ووقف إلى جانب المنتفضين الصرب والبوسنيون وسكان الجبل الأسود. وأحرز هؤلاء الانتصار الأول في مدينة نيفيسينييه، وبعدها جرت في أماكن مختلفة في الهرسك والجبل الأسود وصربيا معارك الحرية. ولكن تركيا كانت متشددة في وجه الثائرين وتسفك الدماء.

وكانت روسيا من أوائل الدول التي رفضت سياسة القمع هذه. ورفعت روسيا في وجه تركيا عدم تنفيذها للقرارات التي اتخذها مؤتمر باريس عام ١٨٥٥ بوجوب تحسين أحوال الإمارات التي تحتلها في البلقان. ولما لم يُجَدِ المراسلات الدبلوماسية عُقد اجتماعان لهذا الموضوع لم يُفَيِّدا في شيء أيضاً، أحدهما في إستانبول والآخر في لندن. وحين رفضت تركيا التوقيع على مقررات الاجتماعين، ولا سيما اجتماع لندن، تمسكت روسيا بهذه الذريعة وأعلنت في الثاني عشر من الشهر الأول عام ١٨٧٧ الحرب على منقّذي الانقلاب في إستانبول.

الفصل الثالث والستون

سنعود نصف عام إلى الوراء.

البيت الذي لا دعائم قوية له لن يصمد طويلاً مهما اعتنيت به وزخرفته إذ لا يلبث أن يتهاوى. وهل الدولة العثمانية التركية التي كانت عيئها على الجنوب

الشرقي من شركيسيا في شمال القفقاس بلا حول ولا جذور؟.. كان الترك في عصرٍ ما من المحاربين المتنقلين العنيفين فوصلوا إلى آسية الصغرى ينهبون ما تصل إليه أيديهم. واحتلوا بيزنطة الشرقية، وسمّوا القسطنطينية الواقعة على ضفاف المضائق الواصلة بين البحر الأسود والبحر المتوسط الدردنيل والبوسفور التي يسميها الروس تزارغراد^١ مدينةً إستانبول. وهم يعيشون قادرين وغير قادرين على الاحتفاظ بالبلدان التي احتلوها بالقوة من مصر إلى البلقان، وحسادهم والطامعون في أملاكهم وأعدائهم كثيرون. وأضيفَ إلى هذا اضطرابات تغيّر السلطان.

لم يفهم عبد الحميد الذي ظل يشتهي سرّاً منصب السلطان أن في الخبر السار الذي ينتظره ما يُزعج: إن كرسي السلطان المتين ذا القوائم الأربع مهما كان ثابتاً متيناً وثيراً باعثاً على السعادة والنشوة لا يصبح عرشاً أبدياً لكل من يبوّثونه إياه. ثم إنك حين تكون عارفاً بمن كان يتبوّؤه، وتعرف طريقة خلعه، وتعرف أنه كان مريضاً فإنك لا تستطيع إلا أن تتأمل في كيفية وصول هذا المنصب إليك. والسلطان الجديد عبد الحميد الذي غشّت عينيه فرحة المنصب سأل حين عاد إليه وعيّه الوزير مدحت باشا أحمد شفيق:

- ما أحوال مراد المسكين؟

- كما سبق وأطلعناك، أدخلنا بناء على فتوى شيخ الإسلام، السلطان السابق مراد الخامس الذي اختل عقله إلى قلعة جيراجان الواقعة على البوسفور.

- هل أدخلتموه أم وجدتموه مناسباً له؟ - سأل عبد الحميد وما في قلبه نحوه ليس على لسانه.

^١ مدينة القيصر.

- رأيناه مناسباً له ليستريح فيه يا موفد الله.

- هذا حسن. لَبُّوا له طلباته! وطمئنوه. ولا تجعلوه مضغة في أفواه من يتسقطون الأخبار. سأزور هذا المسكين بعد مدة. متى انتهيت من الحرب الكلامية التي يشنها علينا الروس. ومتى مضى على سلطنتي شهران فسأقابل سفير قيصر روسيا إيجناتيف الذي لا يملُّ من تذكيرنا بأمور البلقان والسلاف، والراغب في مقابلتنا. ولهذا أطلعوني على طباع السفير الروسي، ونقاط ضعفه وقوته، وما في قلبه وما ليس فيه.

- انتهينا من التفكير في هذه الأمور يا موفد الله، ونحن حاضرون في أي وقت تشاء، حتى لو في هذه اللحظة.

- ذكروني بالموضوع، ليس اليوم، ولا غداً. بل قبل الموعد الذي حددته بقليل. اسمع، أوقفَ السلطانُ مدحتَ باشا الذي وصل إلى الباب منصرفاً: - لم تأت لي على ذكر عبد العزيز ولم أسألك: ما أخباره؟

- بخير، في صحة جيدة. يقيم في قلعة فيرنيس... - كتم مدحت باشا الآن أيضاً أنهم قتلوا عبد العزيز بعد اعتقاله ببضعة أيام.

- احذروا منه ريشما تقرر المحكمة أمره. لا يتورع هذا الرجل عن أي شيء يخطر له... - خرج عبد الحميد من قصر يلدز الكبير من خلال بابه الخاص به، قائلاً في نفسه " لم يكن يعرف بوجودنا في دار السلطنة مع أن جدتنا بيكا كانت تلومه كثيراً من أجل تذكيره بنا، ولم يكن يعبأ بنا. ظن أن الحكم دان له إلى الأبد " ودخل إلى فناء بيته الخريفي.

اليوم خريفي لطيف، وبعض الغيوم البيضاء تسري في السماء. والريح المتقلة قريباً من الأرض تحمل همسات بعض الورود المفتحة. يتجاوز عبد الحميد هذه الورود بمشية ناعمة، وتتجاوز أفكاره المتقلة في الرأس، وتمر أمام عينيه، وتجري

بعيداً. ثم تعود إليه. يروون أن أحد سلاطين الترك قال "حياة الإنسان مركبة بكاملها من المفاجآت" من هو يا تُرى؟ أهو عثمان... أم سليم... أم بيازيد... ولماذا تذهب بعيداً؟ الكلام الصادق كائناً من كان قائله ربما كان من قيل فيه أو قالوه لأجله واحداً مثلي. اغفر لي يا أخي الأكبر، اغفر لي يا مراد. حتى لو كان اتهامهم لك صحيحاً أم لا، وأنت أيضاً يا عبد العزيز، أن ما تحقق لي كان على حسابكم. ما العمل كما يقول الحكماء: يدينون هذا ويرفعون ذاك. يتهمون هذا ويرثون ذاك. وأنا هل سيكون طريق سفري بعيداً أم قصيراً؟ أيُّ منعطف ستخرج منه المفاجأة التي لا أنتظرها؟ من يعرف هذا هو أنت يا إلهي فارحمي وارغني، ولا تغفل عني!؟

الآن فقط شعر السلطان عبد الحميد بأنه وحيد في قصر السلطان الكبير المقابل لبحر مرمره. داهمه خوف لم يعهده في الماضي حين لم يكن سلطاناً. نظر حوله متخيلاً أن الخطر يكمن وراء أي شجرة. وحين وقف فوق رأسه الأمير لاي توركان آيكان الذي أحس بأزمة السلطان سألته مخفياً الرعب الذي كان في قلبه:

- أين هم العاملون في خدمة دار السلطان؟
- هؤلاء يا موفد الله ينفذون المهمة التي كُلِّفوا بها.
- وأيِّ مهمة؟ - سأل متظاهراً بالجهل، ثم تصنَّع معاتبته، عارفاً في قرارة نفسه أن عليه الثقة بجراسه، وعدم الإساءة إليهم: - أظن هذه المهمة تأخذ جل اهتمامكم، لا يظهر أيُّ منكم.
- لا يا موفد الله. نحن ننفذ الأمر المقرر منذ السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية. وحراسك المخفيون إلى جانبك كما أنا الآن معك.

- هذا حسنٌ يا أميرٍ لاي. استغرب الكثيرون أني سميتك رئيساً للحرس الذي أنشأته حديثاً مع أني أعرف أنك تناسيت ضرورة الإخلاص لمهمة الحراسة منذ عهد عبد العزيز. وحتى الآن يلمّحون لي إلى ضرورة الحذر منك. وسأطّلعك على أمر آخر: هناك من ينصّحي قائلاً: خيرٌ لك أن تكلف بحراستك من يجري في عروقه دم من جهة أمك من أن تكلف تركيا من قومك.

- حياك الله يا موفده. أن يكون اسمي على شفّتي رجل قديس مثلك لا يعدله شيء حتى لو لم أكن أستحقّه. ليس اليوم فقط تعرفني وتثق بي. لم أنس معروفك منذ كنا في الجيش معاً وإلى الآن. ولن أقبل ممن ينسى كعبد العزيز. - أضاف توركان إلى كلامه قائلاً في نفسه: " ما الذي ذكّر هذا الرجل بالشراكة الذين لم يأت على ذكرهم إلى الآن؟ ربما ينوي شيئاً لحجرت البكباشي المسجون في بيته... " - الشراكة محاربون أشداء، مخلصون وثابتون على التزامهم. ولهم عاداتهم وتقاليدهم، ولكن، لا تؤاخذني يا موفد الله، مهما عاملناهم يبقون غرباء في تركيا.

- غرباء اضطرارياً. - أنهى عبد الحميد لحارسه الواقف وراءه مضيفاً - هؤلاء جاهزون للفتنة التي حدثت وتحدث في البلقان.

- نعم، غرباء رغماً عنهم، وهم جاهزون دائماً للانتقام من أقرباء من فعلوا بهم هذا.

- من هذه الناحية لا يدّخر القائم مقام برقت زوال والحاج برزج والأفندي مرزخوي محمد، وغيرهم من وجهاء الشراكة جهداً. وقال عبد الحميد وهو يدخل الغرفة لمن وراءه: - القائم مقام باغ الذي أمرت توابّفتح باب بيته ومن لم تسأل عنه أتأمل فيه الخير. لا تُبعِدوني عن خدمه بعد الآن حين أدخل دار السلطنة. اتركوهم يقومون بأعمالهم، وأنتم قوموا بأعمالكم.

بدأ السلطان عبد الحميد يتقرب إلى عامة الناس من أمتة بمثل هذه الإجراءات والتي لم يكن سابقوه من السلاطين يقومون بها: يفتش الغرف التي تؤوي الجنود، ويتعرف على ما يأكلون وما يلبسون. ويشارك ضباطه غداءهم. ويتفقد طرائق تدريب جنودهم. ويجد جواباً لمن يقصده في حاجة. ومن يرتكب الشرور يجازيهم بما يستحقون. ومهما تصرف عبد الحميد بحكمة وخبث فقد وافقت سلطنته زمن عجز الدولة: المسلمون المسيطرون على القوميات والأديان المتعددة في الدولة الواسعة يشربون الكأس في حين لا يصل إلى المسيحيين شيء منها، فلا يتفق أنصار الديانتين: المال الذي يحافظون به على البلدان الأخرى يتناقص والأسعار تزيد، والنقود تفقد قيمتها. والناس الذين ثاروا في الهرسك وفي صربيا شنتَّ ضدهم حرب دامية. وإن لم تعالج تركيا فقرَ الأقوام السلافية ومطالبهم، ولم يتمكنوا من العيش بسلام في بلادهم فإن كل فرد يحس بأن حرباً خارجية ستُشن على تركيا، ليس خلال شهر، بل في أيّ يوم.

يمارس السلطان عبد الحميد سياسة مزدوجة لمنع روسيا على نحو خاص من بين الدول التي يمكن أن تشن الحرب: يوافقهم من ناحية على ما يُطلب منه، ومن ناحية أخرى يظل يماطل بمراسلات لا نهاية لها فيسوس الدول الأخرى بالخداع. ويمارس السياسة نفسها داخل بلاده: الدستور المكتوب فيه نواقص. ويتحجج بأن هذه النواقص تحتاج إلى جهود، فيماطل في تنفيذها خائفاً من أن يقتلع الإصلاح الدستوري أسس مُلكه. ولكن حين فهم عبد الحميد أنه لا يمكن تسويق هذه الأمور أكثر مما سُوِّفَت وقَّع على الإصلاحات في الثالث والعشرين من شهر كانون الأول عام ١٨٧٦ شاهداً على سلامة نواياه نحو الدستور، وكان قد مضى على استلامه الحكم ثلاثة أشهر وسبعة وعشرون يوماً. ولم يكتف بهذا بل ادّعى أنه سلطان عادل، يمارس مع عدله شيئاً من

الإسلام، غير عابئ بمن يعارضون هذا الاتجاه فاختر مستشاراً مسيحياً لقضاياه.

لم تقبل روسيا عدم توقيع السلطان عبد الحميد على الوثيقة التي اتفق عليها في لندن فشنت حرباً من جانب واحد على تركيا في الرابع والعشرين من شهر آذار / مارس عام ١٨٧٧.

ولم يكن مضي على سلطنة عبد الحميد إلا سبعة أشهر وخمسة وعشرون يوماً.

الفصل الرابع والستون

حين أخبر السلطان عبد الحميد أن الجيش الروسي هاجم تركيا من جهتين فهم أن الجدال تعقبه الحرب. وفي اللحظة نفسها جمع المجلس الحربي للقوات المسلحة، ولم يتأخر في خطابه:

- الحرب التي شنتها علينا روسيا التي لا شأن لها بنا بحجة مناصرة أقيائها البعيدين أبعدتها عن البلاد خلال الأشهر السبعة، مدة سلطنتي، تعلمون بها، بعد الله سبحانه الذي ندعو إليه أن يغمرنا برحمته، أنتم وأمتي التي وضعت أملها فيّ. روسيا التي لا تودنا روحاً ولا قلباً شنت علينا الحرب عدة مرات ووقفنا في وجهها: هذه الحرب مختلفة عن الحروب الأخرى علينا، إنها تأمل في مساعدة أهل البلقان الذين لا يحبوننا. ونحن معنا الله، وأملنا فيه، والبلدان التي لا توافق روسيا على تسرعها معنا. سنحمي بلادنا وهي في قلوبنا من الروس الكفار. واقروا الأمر القصير الذي أصدرته في اليوم الأول من الحرب.

وفي اللحظة نفسها قام أمام السلطان عبد الحميد الجالس على عرشه مستشار المجلس، وسمع صوت المستشار الحاد ذي اللحية والشوارب الشقراء:

- أعين باسم السلطان عبد الحميد المنير عبد الكريم نادر باشا قائداً لجيش البلقان، وأحمد مختار باشا قائداً لجهة القفقاس.

وقال عبد الحميد للقائدين اللذين نهضا دون أن يسمح لهما بالجلوس:

- نهني اجتماعنا هنا. لينتظر القائدان المعينان! - ثم نهض لمن استبقاهما، وقال لهما بصوت ألطف دون أن يتعد عن مكانه: - ثقني وأمل البلاد تركيا فيكما. - ثم أضاف بصوت هادئ حاسم: الآن حالاً اركبا طريقيكما دون أي تأخير.

بقي عبد الحميد وحده تأمل القصر المتألي بكامله. ولما فتح النافذة بعدما ذرع أرض الغرفة بضع مرات متأملاً في زخارف البلاط كأنه فقد شيئاً ما وصلته أصداء الطرقات، وإثر كل كلمتين يباركون اسمه.

ليس هناك على الأرجح من لا يحب المديح. ولكنه لم يتحملة هذه المرة فأغلق النافذة وغمغم لنفسه: "كأني كذبت معروفي وتعثرت به، ولماذا "كأني"؟ هل تشك فيه وقد أتحّ للعدو أن يشن حرباً عليك؟ من لا يفهم سياسة إنجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا - هنغاريا؟.. حين نكون وحدنا يساندنا هؤلاء بالكلام. وفي توقيعات وثائقنا يؤيدون الروس... ما شأن البلاد التي تبعد عنا كل هذه المسافة لترتب أمورنا الداخلية؟ ونحن جزء ممن أفسدوها هذا العناد. وجزء يعود إلى أوروبا. حين توغلت في القفقاس وشتت حرباً على شركيسيا، وحين شرع الشركاسة يستنجدون بنا لم نقف في طريقها معلنين رفضنا لسلوكها. وكيف نقف في وجهها وبيننا "اتفاقية" أدريانوبول المهينة؟! لم يكف أن روسيا احتلت الجانب الشرقي كاملاً من البحر الأسود بل لاحقت الناس الذين طردتهم منها لتبيدهم هنا. وعلينا إفهام هذا الأمر للشركاسة، سيفيدنا في

تأجيج نار الثأر عندهم. حان الوقت لنجابه السلاح الذي أشهره الكفار علينا
بسلاح الشراكسة... "

دعا عبد الحميد في اليوم الثالث للحرب الروسية - التركية إلى مكتب شيخ
الإسلام في الجامع أربعة أشخاص: برقت زوال، والحاج برزج، ومرزخوي محمد
أفندي، وباغ حجرت. وبعدهما صلى السلطان وشيخ الإسلام صلاة الظهر أمام
الأديغة، وقبل بدء اجتماعهم، وبعدهما قُدم الأربعة إلى شيخ الإسلام في مجلسه،
وقابل الأخير كل اسم بإيماءة تحية، وعاد كلٌّ إلى مجلسه المحدد، تفقد عبد
الحميد الجالسين أمامه بنظرة ود، ثم قال:

- أنا كنت أسمع اسم الله بالخير، ولكن بعدما رحبنا اليوم فأتاح لنا أن نجتمع،
وعرفنا أحدنا بالآخر، فأنا راضٍ عنه رضاء تاماً لأنه سمح لنا أن نمثل أمامه. وأنا
واحد من الأتراك المسلمين الذين تأثروا روحاً وقلباً بمأساة الشراكسة. ومع أن
أمورك لم تجرِ عندنا كما نريد تماماً وكما تريدون فأنتم تشاركوننا وطننا،
تقاسموننا خبزنا وماءنا وتعبنا، واجدين في بلادنا ملجأ لكم. ولكن من طردوكم
من بلادكم يُفسدون علينا حياتكم وحياتنا. وأنتم ترون الحرب التي يشنوها
علينا. أنا انتهيت من كلامي، وأنتظر ما ستقولون.

نقض مرزخوي محمد أفندي السكون الذي كان يسمع معه أصوات تنفس
الجالسين:

- إن أذنت لي يا موفد الله بعد كلماتك الحكيمة فسأقول بدوري بضع
كلمات بلا إطالة. مصيبة البلاد الإسلامية التي وجدنا فيها نحن الشراكسة
ملجأ لنا مصيبتنا أيضاً. ولا داعي للمناورة والالتفاف حول ما يجب أن يكون
عليه جوابنا: سنقابل بالجهاد الأعداء الكفار وفي قلوبنا الله العلي الذي أنت
موفده. وكن واثقاً في هذا من الشراكسة الذين لم ينسوا ثأرهم. وليسوا وحدهم

بل معهم كل المسلمين الذين يعيشون في بلادك. وأتبرع بالمال الذي سيزود به جيش الشراكسة مصداقاً على تطابق قولي وفعلي. وأنا أعدك أن أبقى جندي الله وأفنديه.

وفي اللحظة التي نظر فيها باغ حجرت وقد تذكرت نات - نات التي صارت أمّاً له إلى برقت. وكذلك الحاج برزج إلى مرزخوي محمد، قال عبد الحميد:
- ليرضَ الله عنك وليشمك برحمته يا أفندي. الدولة العثمانية العظمى عندها من المال ما يكفي لحماية نفسها ، ومع ذلك تشكر على مبادرتك ومعروفك. واعتبر الله حقك لك مرادك ! وأدعو الله أن يعوضك عما تبرعت به مئة ضعف.

صرخ برقت زوال بينه وبين نفسه قائلاً: " من أين جاء مرزخوي محمد بكل هذا المال؟ " وكأن الصهر فهم ما صرخ لأجله حموه فقال في نفسه للأفندي: " إذا كنت غنياً إلى هذه الدرجة فلماذا لم تتخذ على ابنة أخيك الأكبر ولو بلبرة واحدة، ولماذا لم تساعد أبناء قومك حين كانوا يموتون هنا؟! ". وقال الحاج برزج الذي أخفى شعوره بالغضب والإهانة من سلوك الأفندي - أليس برزج هو الأكبر - الذي لم يراعِ تقاليد الكبير والصغير عند الأديعة، ومن فورته:

- أما وقد شقّ الكفار الذين طردونا من أرضنا اللجنة حرباً على الدولة التي صارت منزلاً مباركاً لنا فتق يا موفد الله أن الشراكسة الذين لم تندمل جراحهم إلى الآن سيقفون معك. أنت يا موفد الله، بعد الله العلي العظيم الذي يبتهل إليه الناس ولا يبتهل هو إلى أحد، أملنا. ولن أذكر جهداً في ما أستطيع ولو أنني أكبر عمراً بكثير ممن دعوتهم. ولن أسأل، ليس عن ملكي، بل عن حياتي. وإذا سمحت لي يا موفد الله فسأرفق في خلال أيام الجيش الذي ألقته من الشراكسة بقائد الجيش أحمد مختار باشا.

- حياك الله يا محترم - قال السلطان عبد الحميد راضياً، وأضاف إليه: - منذ زمن بعيد نقدر رجولتك وكرمك. ويسرنا أن نجد مثل هذا عند الشراكسة أبناء ديننا بعد المأساة التي نجوا منها. - وأضاف بعد قليل بصوت منكسر: - باسمي وباسم جميع الأتراك أطلب منكم السماح معترفين بتقصيرنا في ما مضى مع أننا فتحنا بابنا لإيواء الشراكسة الذين وضعهم العدو الكافر الذي شن الحرب علينا في مهلكة. والآن سنسمع ما يقوله الأميرلاي برقت، والقائم مقام باغ الذي رُفعناه قبل وقت قصير.

ما إن سمعا اسمي برقت وباغ حتى نهضا. وقال برقت باسمه وباسم من وقف إلى جانبه:

- نحن، الضباط الأتراك، حاضرون كما البارحة، وكما اليوم، وفي أي وقت. وأيُّ مكانٍ ترسلنا إليه هو موضع اختبار رجولتنا. إن كان موفد الله، القائد الأعلى للحيش، يرى العرض مناسباً فأنا أرغب في التوجه إلى البلقان، بلغاريا. - إن كان هذا رأيك أيها الأميرلاي فسأدرس رغبتك. وسأبقي القائم مقام باغ عندي ليكون رسولي إليكم وإلى غيركم. ولندعُ إلى الله أن يحقق لنا ما قررنا في اجتماعنا.

قال شيخ الإسلام الذي كان ينتظر هذه اللحظة رافعاً راحتيه الضئيلتين إلى السماء:

- قولوا: آمين، الله أكبر!

الفصل الخامس والستون

لم تنكشف الحرب للسلطان عبد الحميد الذي رفض التوقيع على وثائق برلين عن نتيجة حاسمة، كما توقع في الأيام ولا في الأشهر التالية. وكذلك لم تبحر

الحرب للقيصر ألكسندر الثاني الذي كان ينوي إنهاء الحرب في أمد قصير، في أشهر الربيع - الصيف، وإخضاع السلطان المتمرّد، كما يريد تماماً. وستكلم على هذه المسألة وغيرها من أحوال الحرب الروسية - التركية بأقرب ما يكون من الصدق دون انحياز: الجيش الروسي في الجبهتين اللتين احترقهما، الجبهة الغربية بقيادة سليمان باشا، والجبهة الشرقية بقيادة أحمد مختار باشا لم يكن في وضع جيد في تركيا، ولم يأت من الجبهتين أي خبر يبعث على التفاؤل. الجبهة الشرقية التي تحابه فيها ثلاثون ألفاً من كل جهة بالقياس إلى الجبهة الغربية كانت هي المشكلة. كان الجيش التركي يتراجع كل يوم متخلياً عن القرى الصغيرة للجيش الروسي الذي يقوده رومانوف ولي العهد أخو القيصر. وما هي الحرب اليوم تنشب في أنحاء ألّا - داغ، حيث يحارب جيش فرسان الأديغة الذي جمعه الحاج برزج، غير بعيد عن قلاع قارص وأرضروم.

الريح الحارة الآتية من جهة الجنوب في ظهيرة يوم الخامس عشر من تشرين الأول عام ١٨٧٧ تحرق الأرض دون نار: تغلي رؤوس الفرسان الذين سينزلون إلى ساحة القتال، وتبعث بأعراف الخيول الساخنة، وتسفع وجوه ركابها. والحاج برزج الذي ركب أمامهم ينادي أبناء قومه وكأن الدخان يتصاعد من لحيته البيضاء:

- يا جيش فرسان الأديغة الذي يحرسه الله، الكبار منهم والصغار ومن هم أصغر سناً، أترون كيف هاجمنا جيش الكفار مرة أخرى. انظروا إلى قمم جبال القفقاس البيضاء تناديننا، وتضع أملها فينا. الآن في هذه اللحظة ندخل المكان الذي سنثبت فيه رجولتنا وننتقم لأنفسنا. الله معنا! دعونا نجابه الكفار وهو في قلوبنا!

ارتفع في البرية حيث المعركة أصوات حوافر الخيل وصراخ الفرسان وأصداؤهم من جهة، ومن الجهة الأخرى أصوات البنادق والمدافع. ومع أن كلا الطرفين لا يفكر في التراجع فإنهم لا يسلمون من الطلقات التي تأتي بالأجل لهم: الراحل يتهاوى، والراكب يسقط. ينكسر سيف هذا، وتسقط بندقية ذاك من يده. هذا يئنّ وذاك يلفظ الروح. المدافع تصب حممها، والبنادق تتقاطع طلقاتها، والخيل تصهل وتتداعى. والحاج برزج لا يسمح لدم الأعداء أن يجف على سيفه متناسياً يده اليسرى الجريح.

تراجع الحاج برزج وفرسانه والمشاة الترك الذين أرسلوا لمؤازرته حاملين جرحاهم وقتلاهم، مقتنعين بأنك مهما حاربت ببسالة فلن تستطيع مجابهة صف المدافع وصف البنادق إلى جانبها، عن ألاج - داغ، نحو قلعة أرض روم.

لم يكن قد مضى على انسحاب فرسان الأديغة ومشاة الترك نصف ساعة حين دنا الحاج برزج من الجريح الذي وقف على رأسه عدد من الجنود. وبدا للحاج أنه يعرف الشاب المسك ببطنه بيديه اللتين جفّ عليهما الدم. وامتدح برزج جراندوقه الشاب كاتماً إشفاقه عليه، وواساه:

- أثبت رجولة يا ولدي. عفارم! سيشفى جرحك، وستقف على رجليك سريعاً، من أيّ فرع أنت؟

- حياك الله يا محترم...

- من أيّ أسرة أنت يا ولدي؟ - سأله الحاج برزج ثانية.

- أنا من آل ناورز... والدي هو زغاشت إن كنت تعرفه.

- ولماذا " إن كنت تعرفه "؟ أعرفه جيداً.

- توفي والدنا... جاؤونا به في هذا الربيع قتيلاً فدفناه. كنتُ جئتُ إلى هذه الناحية ولو أنها بعيدة عن جبالنا لتحقيق وصية والدي، ونذري... - وقبل أن يُكمل ناورز قاسم كلامه فاضت روحه.

- انتقلتُ إلى رحمته تعالى ورجولتُك الأديعية وإسلامك متلازمان يا بن آل ناورز. لتلتقِ بوالدك زغاشت في الجنة. قولوا: آمين. ولنُثْلُ دعاء من أجل المحارب لأجل الله!

الفصل السادس والستون

في اليوم نفسه الذي خرج فيه الجيش الروسي القفقاسي من جورجيا واقتحم تركيا في عام ١٨٧٧ في الرابع والعشرين من شهر نيسان، توجه جيش روسي آخر مؤلف من ٢٧٥ ألف جندي إلى رومانيا التي كانت عقدت مع جيش روسي آخر اتفاقاً، فدخل إلى بلغاريا. وبفضل التعاون بين جيش المشاة والبحرية، أنشئ على عجل عدد من الجسور على نهر الدون، فأدخل الجنرال غوركو إلى بلغاريا إحدى وثلاثين وحدة من الفرسان، وعشرة أفواج من المشاة، واثنين وثلاثين مدفعاً. وتبعتهما عشرات من الوحدات العسكرية الأخرى. واحتلت هذه القوات خلال أشهر الصيف الثلاثة حزيان وتموز وآب، وجزء من أيلول القسم الأعظم من بلغاريا. وما تبقى منها كانت مدينة بليفنا التي حصّنتها تركيا جيداً، وكذلك مخرج جبل شيبكا، واتجاه بلوفديف وشينوف. وإذا تجاوزت هذه المناطق باستثناء بليفنا لم يبق كبير مسافة للوصول إلى إستانبول. وكما يقال: متى نظرت من فوق مدينة أضنة الصغيرة رأيت المدينة العاصمة.

لم يدّخر السلطان عبد الحميد جهداً عقلياً أو فعلياً: يغيّر بالإضافة إلى أحمد مختار باشا قائد اتجاه قارص وأرضروم، القادة المحاربين على جبهة بلغاريا: أزاح

عبد الكريم نادر باشا الذي كان قد أحلّه محل عوني حسين باشا، وعين محمد علي قائداً أعلى. ونقل جيش سليمان باشا من الجبل الأسود، ووضعه في مواجهة جيش الجنرال غوركو المقابل لشيبكا. وأرسل واصل باشا الخبر بتجهيز القلاع واحتلالها وغيره إلى تلك الناحية. وينتزع رُتب من أبدى جبناً في الحرب بلا رحمة. ويحكم عليهم، ويسجنهم ويُعدمهم.

حين تذكر عبد الحميد هذا اليوم وثيقة برلين كما ليس في الأيام السابقة انتقد نفسه لأنه رفض التوقيع عليها: "سواء وافقنا أعداءنا أم لم نوافق، ففي داخل البلاد وخارجها يصعب الحفاظ على الأراضي التي احتلها سلاطيننا والتي تحتوي كثيراً من الأعراق والأديان المتحاربة. ولم يكف هذا فضمامنا إلينا الشراكسة الذين لا نفعَ فيهم، بل تسببوا لنا في المشكلات. أين تخلى هؤلاء عن رجولتهم؟.. وأين قريبي^١ القائم مقام الشركسي باغ؟"

صفق السلطان بكفين ناعميتين للخادم على الباب، وقرع الجرس، وقال للدخل:

- استدعوا لي الشركسي باغ!

دخل باغ حجت بقامة ممشوقة إلى السلطان، وتسمر مكانه بعد أداء التحية بانتظار ما سيقوله له.

سأل السلطان القائم مقام بصوت يكسر قامة المسؤول إن لم يكن متينها:

- ما أخبار ساحات قتالنا؟

- ليس وضعنا جيداً على أي من الجبهتين يا موفد الله.

- أسمعك.

^١ إشارة إلى أن والدته السلطان عبد الحميد شركسية، ولكنها لم تعش طويلاً فريته زوجة أب.

- تقاوم جيوشنا الجيش الروسي القادم من القفقاس عند قارص وأرضروم.
والجيش الروسي على جبهة بلغاريا بالتعاون مع السكان المحليين لا يُقاوم.
- لم نوظنّ الترك والشراكسة وغيرهم من المسلمين عبثاً في بلغاريا. وهؤلاء ألا نفع فيهم؟ أم يعدون أنفسهم غرباء!

- لم يقصّر هؤلاء في ما يستطيعون - أجاب حجرث السلطانَ بينه وبين نفسه: "خيرٌ أن تسأل نفسك قائلاً: أمن السهل حماية ما ليست أرضك ولا لك فيها هوى من أن تسألني أنا".

- زماننا لا يسمح لك يا قائم مقام أن تعيش على مبدأ "يستطيع" فقط. بل يطلب منا ما نستطيع وما لا نستطيع. - يذرع السلطان أرض الغرفة كاظماً قلقه - الأرجح أن الأميرلاي برقت الطامح في رتبة الجنرال والأفندي الثثار مرزخوي الذي أرفقناه به توافقاً. والقائد الذي عينته مؤخراً محمد علي باشا ليس أفضل منهما. فهو يتراجع بدلاً من أن يصد جيش الكفار الذي حاصر بليفنا عبر نهر الدون. ستصبح مدينتا بليفنا وبلوفديف في متناول العدو قبل أن يتمكن سليمان باشا وواصل باشا من احتلال مخرج جبل شيبكا، وهكذا سيصل الجيش الروسي إلى هنا، إلى إستانبول، خلال عدة أيام. - وقف السلطان عبد الحميد أمام القائم مقام باغ حجرث، رسوله ببضع خطوات، شدّد أمره: - تمضي إلى بلغاريا، وتجنّد كل من يلبس قبعة، صغاراً وكباراً، بالإضافة إلى فرسان الشراكسة ومشاتهم، وتبلغهم، دون أن تصف هذا بالأمر السلطاني، أن عليهم بمواجهة جيش العدو إن كانوا يريدون حماية أنفسهم.

عاد حجرث إلى الغرفة وقال لغُشماف التي كانت جاهزة منذ وقت طويل:

- ذاهبون إلى بلغاريا.

- متى؟

- حالاً، العربية تنتظرنا.

- هل هي عربتنا؟

- لا، سأوصلك بالعربات التبادلية إلى قريتنا أبزاخ، - نظر بقلق إلى البطن المستدير الكبير، وسألها شاملاً بالسؤال الولد الذي في بطنها: - هل تتحملان مشقة السفر؟

- نتحمل إن كنت سترافقنا. - مزحت غُشماف مع زوجها، وسألته بعينيهما عما طراً.

- لاحقاً غُشماف، فيما بعد. لا داعي للقلق. سأخبرك في طريقنا المفاجئ.

ركب حجرت وغُشماف في خلال نصف ساعة طريق بلغاريا. وحين خرجا من غرب إستانبول وتجاوزا " بالقرکوي " بدت قرية سان ستيفان التي تسمى حالياً إيشلكوي. وطوال هذا الوقت لم يتحدث الزوجان، كما اعتادا في قصر السلطان، بالتركية أو الشركسية إذ لا يعرفان من هو السائس: كان كلٌّ منهما جالساً غارقاً في أفكاره الخاصة. سأل حجرت السائس المسنّ ذا الكتفين العريضتين، معتقداً أن من اللائق أن يسأله:

- هل أنت تركي؟

- لا، بل أوزبكي. - التفت السائس بوجه أسمر أعرض من كتفيه، وقال: - واسمي سُرّدار.

- اسمٌ جميل.

- ينادونني منذ أكثر من خمسين عاماً بهذا الاسم دون أن يفيدني جماله يا قائم مقام ولو كان جميلاً. ساعيني، وأنت أيضاً، من خلال لكتنك، لست تركياً. يبدو لي من مظهرك أنك شركسي. وبالقياس إلى الأوزبك والترك والكرد ذوي

الوجوه الطافحة، لا أقول هذا لأنك تدفع لي أجرة ركوب، فالشراكسة ذوو قامات ممشوقة ووجوه جميلة.

لم تُطق عُشماف التي كانت تضحك في سرها صبراً:

- لو استطعتُ لما سمحت لك أن تقول هذا: الإنسان هو القبيح، وليس العرق.

- نعم يا هانم، نعم. لو كانت إحدى البنتين اللتين رزقني الله بهما ولدًا لزوجته من فتاة شركسية. ومع ذلك نتأمل من بناتنا حين يتزوجن أن يُغنيننا بالمهر. وعندنا كثير ممن يبكيننا ساعة الموت... - سخر سردار الذي يأسى لافتقاره إلى الولد من نفسه.

لمست عُشماف الزوج براحتها الناعمة خجلة في حضرة السائس أن يتحكم فيها حبها فتضع رأسها على كتف زوجها. وأجابها الآخر بعصرة الراحة الدافئة على مثيلتها.

الخبان جالسان يستمتعان لا يهمهما برد الخريف الباهت الأخضر. هل حبُّ الشابين أقوى من أن يتأثر بما يجري في أرض تركيا من حرب ودماء تسيل وأرواح تزهق؟ والسائس الأوزيكي مهموم بقضايا الأسرة لا بالحرب. ولو كان مشغول البال بما يجري في تركيا لاستفسر من الضابط التركي في عربته.

"الدنيا العارية مركبة بطريقة عجائبية، كما يقول والدنا، لا تفهمها حتى لو بصّرت ونجّمت" - قال لحجرت لنفسه ثم سألها بسرعة: - "ولماذا دنيانا عارية؟" لن يتركها أحد بإرادته، أكان غنياً أم فقيراً، مادام عنده ذرة أمل. وعلى ما يبدو فالحب نفسه عاجزٌ عن الاستمرار. الحرب القاتلة للنفوس هي التي فوق الجميع. أي فهم السلطان التركي والقيصر الروسي هذا الأمر يا تُرى؟ وعلى ما يروي التاريخ البعيد الماضي فلن يتصرفا طوال عمريهما كما فعل الأمير

الأديغي "رَدَدَ"¹! وها هما الدولتان حشدتا الآن بحجة الأحقاد والمؤامرات آلاف الجنود وجهاً لوجه. من منهما المذنب؟ كما كان جرمت يقول: هو من يبادر إلى رفع يده عليك، يضربك. ولكن ألا يمكن أن تكون الجهة التي تدفعه إلى فعل هذا وإلى رفع يده مذنبه؟ تركيا التي احتلت من مصر حتى البلقان، ولم تعد قادرة على السيطرة على أملاكها ليست على حق. وروسيا ليست أفضل منها. وكما يقول الإنجليز والفرنسيون والألمان فروسيا التي تمتلك من مشرق الأرض إلى مغربها، وشمالها إلى جنوبها لا يكفيها أنها استولت بالحرب على القفقاس فحجأت إلى البلقان لتؤسس دولاً مستقلة لأقربائها في العرق. في البداية - قال حجرت لنفسه معتبراً أفكاره مدعاة للضحك - يعيشون لتركيا البلدان التي لم تعد قادرة على ضبطها، والثانية تضم ، وهي ترى الأرض التي احتلتها صغيرة، دولة عظيمة دون أن تعرف ماذا ستكون العاقبة إليها..."

¹ يأتي ذكر الحكاية في التاريخ الروسي، كما في "حكايات السنين الماضية" كتاب التاريخ الروسي. في عام ٦٥٣٠ (١٠٢٢) هاجم قائد الجيش ميستيسلاف "القوسوغ" (من أعراق الأديغة القديمة). واجه رَدَدَ أميرُ القوسوغ القائدَ الروسي بجيش وقال له: "لماذا نجعل محاربينا يتقاتلون؟ لنتصار نحن الاثنين، فإن غلبتني ملكتك نفسي وزوجتي وأولادي، وإن غلبتُك ملكتُ كل ما عندك" قال ميستيسلاف: "حسناً، أوافقك" أعلن ردد أنهما لن يحملا السلاح. وفيما هما يتصارعان، وجد ميستيسلاف نفسه محرجاً فتوسل: "ساعدني يا مريم العذراء، يا صاحبة أظهر القلوب. إن غلبتُ هذا الأمير بنيت باسمك كنيسة." ثم قتل ميستيسلاف بالسكين التي كان يخفيها وهو مغلوبٌ غريمه ردد. واحتل أرضه، وفرض على القوسوغ الجزية، والكنيسة التي بناها في "توم تقاشه" باسم مريم العذراء لاتزال قائمة. المؤلف. والأفواس من عنده. ومعروف أن "توم تقاشه" اسم خرافي للمكان الذي لا يصل إليه أحد، وكان يستعمله كبارنا شتيمة ودعوة: ليأخذك الله إلى توم تقاشه! والجزء الأول منه بمعنى الضائع: صار الشيء توم! أي ضاع. (المترجم).

كانت المدينة الصغيرة أدرنه التي سيقضي فيها آل باغ ليلتهم ما تزال بعيدة حين بدؤوا يلتقون في الطريق بالهاربين من ساحات القتال من البلقان وبلغاريا. كانوا يمتطون عربات ركاب وعربات ثيران وفرساناً ومشاة. قالت عُشماف وقد أوقعها ما تراه في قلق كبير:

- يُستحسن أن تغير زيتك العسكري يا حجرت!
- وأنا فكرت في الأمر. سأغيره متى وصلنا إلى أدرنه.
- هؤلاء، هل ترى؟ بينهم أديغة... يهاجرون مرة أخرى.
- لم يدع سردار الفرصة لحجرت الذي كان يتألم:
- أستمع إليكما فيعجبني أنكما تتكلمان بلغتكما. نحن نعيش بين الترك دون لغتنا الخاصة... ماذا يريد هذا السيل من البشر؟ لا يتركون لنا طريقاً؟!
- جعل الكلام القاسي الزوجين يتبادلان النظر واجمين.
- هؤلاء المساكين تعصف بهم ريح الحرب.
- نعم، حقيقة، تجري في البلقان حربٌ... - قال سردار، وشرح لحجرت وجهة نظره فيها: - لو كنت مثل هؤلاء - لا جعلني الله كذلك - لما تخلّيت قيد أُملة عن المكان الذي وقعت فيه. أقول لكما لثقتي فيكما: القوم الذين وقعنا بينهم، أنتم ونحن، لا ينسون إلى الآن أنهم كانوا قوماً رُحلاً. - ثم برأ نفسه بسرعة فرعاً من كلامه المبالغ في الصراحة: - لا أعرف إن كنت أقول ما ليس مفيداً... اسمع: سأروي لكما ما حدث لنا قبل أعوام أنا وضابط تركي - شركسي صالح: من أين لي وقتها أن أعرف إن كان ضابطاً تركياً! نقلته من أدرنه لابساً زياً شركسياً معتاداً، لما وصلنا إلى إستانبول كان قد أعطاني خنجره إذ لم يكفٍ ما معه أجرة ركوب، فأخذته منه مدفوعاً بجشعي على مبدأ: إن أعطوك فخذ. وفي اليوم التالي عشر عليّ ذلك الرجل يزهو برتبته العسكرية

فاشترى مني الخنجر الذي كنت معتداً به بثلاثة أضعاف سعره... وعلى ما قاله لي وقتها فقد كان يخدم في البلقان. ألا يزال حياً يا ترى هذا الرجل الصالح؟ ويحْيَلْ إليّ أن نسبُه اسم تركي قريب من "برقات".

تبادل حجرت وعُشَماف النظر وقد ذكّرهما "برقات" بـ "برقت". وسأل القائم مقام باغ السائس:

- ربما كان من تسميه "برقات" هو "برقت"؟

- قد يكون صحيحاً، ومن أين لي أن أتذكر تماماً. نحن ننقل كثيراً من الناس... ها أنتما لا أعرف اسمك ولا اسم أسرتك، ولا أسرة الخاتم. ولكن بركات ذاك كان رجلاً ممتازاً كريماً. إن كان ما يزال حياً فليحمه الله! وإن كان رحل، فما أكثر ما يحدث في الدنيا من مأس؛ ليكن في جنته!

- أتتكلم على الأميرلاي برقت؟ - لم تُطق عُشَماف صبراً: - حي، حي!

- نعم - الأميرلاي برقت يحمي تركيا من الروس الذين هاجموها. - وافق حجرت زوجته.

إن كان من رويث خبره هو ذاك الضابط التركي الشرکسي فما يقال من أنه لا شيء يُستغرب في دنيانا العارية صحيح يا إلهي... هل سمعتما يا حصانيّ المحجّلين؟ هيا أسرع! ربما كان الضابط الشرکسي الذي في العربة يسافر إلى تلك الجهة لحمايتنا. كنت أسمى نفسي غريباً فإذا بي أسمع أعجب من العجب، أسرع يا حصانيّ، أسرع!

عُشَماف أحست بحجرت الذي يكتُم الإهانة التي لحقت به فألهبته، وضعت يدها على يده وواسته:

- اصبر، لا تقل له شيئاً!

وبعد قليل قال حجرت:

- ماذا أقول له؟ قال الحقيقة!

بعد العصر ظهرت المئذنة التي تعلو بيوت أدرنه الطينية. وارتفع صوت سردار الذي كان يغني:

- بدت أدرنه المتربة. ولولا الحرب في بلغاريا لأوصلتكما أيها الطيبان... - ثم غيّر بسرعة: - لا، لا. لو أعطوني ملء عربي ذهباً لما ذهبت إلى هناك.

- هذا مبلغ كبير، بل هناك سلاطين لا يملكون مثل هذا. - مازح حجرت السائس - كان يكفيك أنت وأبناؤك وأحفادك إلى الأبد.

- لا، لا يا قائم مقام - صاح سردار الذي كان يزعم أنه لا يعرف شيئاً من رتب الضباط - روح الإنسان أغلى من الذهب.

ابتسم باغ حجرت وأجاب:

- عند الشراكسة هذا القول المأثور: "الروح تباع والشرف يشتري". وأظن أن عندكم أيها الأوزبيك الذين خرج منهم تيمورلان أمثالها.

- نعم، عند الأوزبيك أسلاف تيمورلان مثلها. ولكن من نعيش بينهم، من يحارب الشراكسة لأجلهم أنسون إياها.

تدخلت غُشماف تريد أن تنهي الجدال الدائر بين حجرت والسائس:

- كانت نانا تروي أن زانه سفرلي كان يعيش في بعض فترات حياته في أدرنه. - نعم يا خانم، هذه البلدة الصغيرة مُتربة ولكنها مشهورة، يروى أنه كانت

تجري فيها مهامٌ سلطانية. أسرعاً يا حصاتي هيا! ونحن يجب أن نستأنف سفرنا. ولكن لا أعرف إن كنا سنجد شخصاً طيباً يقدر أجركما...

بعدما قضيا الليلة في أدرنه، واتخذوا الطريق إلى قرية أبزاخ مع زخات من الثلج الرطب، صرّحت غُشماف بما لم تستطعه إلى البارحة:

- حسب ما سمعْتُ نانا وهي تعيّر السلطان محمود المتوفى فهذه المدينة هي السبب في نكبة الأديغة مع الترك^١...

كان حجرت سمع في طفولته بهذه الاتفاقية الظالمة فصمت شاعراً بأن له ضلعاً ما في المهمة المفاجئة اليوم، وجاهلاً ما سيكون عليه الغد.

غزت رأس عُشماف أفكاراً حلوة مفاجئة أنستها البلدة التي اختفت عن ناظرها وصمّت حجرت غير المفهوم فانتصبت أمام عينيها مشاهد عرسها العام الماضي. وقالت لنفسها وهي تتذكر كلمات بيكا السيدة الكبرى التي تُنسيها عربات النقل الفاخرة الثلاث والفرسان الحرس من الأمام ومن الخلف: "نعم يا نانا، يا جدي الحلوة، تبين لي أن قولك: " لا يأتي يومان متشابهان" صحيح. وحجرت وأنا نتقاسم اليوم هذا الوضع. نحن، أنا ومن أُرعاه في بطني، متى وصلنا إلى قرية أُنزاخ، ودخلنا بيتنا، سنكون في مأمن نوعاً ما غير أن المشكلة في حجرت الذي غيّر زي الضباط... على ما يبدو فأنا بنفسه حملته على أن يترك الجيش التركي ويتحلل من مهمته السلطانية... ولكنه يلتفت أحياناً إلى البزة العسكرية التي علقته له على جدار العربة كي لا تتجدد فرما ليس الأمر على ما أتوقع. لا أريد أن أتهمه ظلماً..."

قال حجرت وهو يُحسّ يد عُشماف باردة:

- سنرتقي تبة ترغوفيشت؛ غطّي ظهره بكسائي إن كنت تشعرين بالبرد.
- أبعده عني! يُحرّقي دون أن ألبسه - قالت عُشماف بنزق، ثم مازحته نادمة:
- يبدو لي أنك تشناق إليه، البسه إن أردت!

^١ في أعقاب حرب ١٨٢٨ - ١٨٢٩ وُقِّعت اتفاقية أدريانابول (أدرنه) في هذه البلدة. وبموجب هذه الاتفاقية منحت تركيا الأديغة الذين ليسوا لهم للروس. المؤلف.

- ليس في هذه اللحظة، متى اقتربنا من قرية أبراخ... - حين نظرتُ إليه عُشماف واجمة توسِّل إليها بعينيه بما يعني أن تسامحه. ثم تظاهر بأنه يشرح لها السبب: - لأن بزة القائم مقام لم يرها والذي ولا غيره في القرية. "هؤلاء الرجال، كما كانت نانا تقول مؤلفون من سبعة عناصر لا يعرف بعضها بعضاً..." - ابتسمت عُشماف ببراءة دون أن تكشف لزوجها ما في نفسها نحوه.

الفصل السابع والستون

على حدود قرية أبراخ، وحجرت يريد ولا يريد التوقف، وهو يلبس بزة القائم مقام ويساعد عُشماف على الترحل من العربة، خرجت من وراء المنعطف عربة ثيران وراءها ثلاثة فرسان. تعرّف الضابط التركي أحد الفرسان الثلاثة، واستقبل صهره تودور ديمتروف وقلبه يقفز في صدره توجساً من كارثة يجهلها إلى الآن. ترحل تودور حزيناً من الحصان، وقال لحجرت وهو يعانقه: - تحلّ بالرجولة؛ آتيك بجثمان حاتام.

هُرع حجرت إلى عربة الثيران ناسياً أنه يرتدي بزة الضابط، وانكب بصدره على حاتام:

- أيّ مصيبة شهدتها اليوم وأنا قادم متلهفاً على ما سأقول لك وتقول لي! - كان حجرت ينتحب ويتكلم - كنت أحدثك أنك ستكون في الطرف الآخر ممن صرتُ حليفاً لهم... تركتني في بلاد الغربة وأنت لا تعرف ما في نفسي ولم تترك لي الفرصة لأخبرك... اغفر لي أيّ لم أكن معك في اليوم الذي قُتلت فيه، ألموا جسدك، بل في الساعة، في الدقيقة، على أيّ لم أكن معك... كنتُ افتديتك بجسدي كائناً من كان قاتلك.

لم تمض ساعة على الفاجعة حين وصل إلى دار باغ عدد من الرجال، وأصبح الرجال يتقاطرون على البيت فيدخلون مجموعة تَلُوْ أخرى من البوابة الكبيرة. والنساء من الباب الصغير مثنى وثلاثَ يدخلن البيت. وكلما دخلت مجموعة جديدة ارتفع النحيب. وفي الغرفة الأخرى، حيث يجلس الرجال المسنون، يرقد الجثمان مغطى بكساء أسود ووجهه إلى القبلة. وبجانبه يجلس من نكست الفاجعة رأسه مزحِب. ومقابله أبو بكر أفندي يتلو الدعاء كلما دخلت مجموعة جديدة والسُّبُحة معلقة بذراعه.

- أيُّ أمل بقي لنا، وأيُّ شيء نحن أحرارٌ فيه - نقض أبو بكر الصمتَ المرين على الغرفة - الله وحده هو من يقرر مصائرنا. اصبر وتحلّ بالرجولة يا مزحِب. خيرٌ لنا أن ندعو للمرحوم أن يغفر له ذنوبه من أن نجلس هكذا نتأمل بعضنا إن كانت له ذنوب. قولوا آمين!

سُمع صوت عويل نسائي عالٍ، وتعرّف مزحِب صوت داربخان:

- هيا انصحو النساء، ليكظمن بكاءهن! - قال الأفندي الذي يقود حملة الأدعية.

- هذه داربخان، اسمحو لها أن تربت على جسد أخيها - انفعل مزحِب وسالت دموعه - هذا آخر ما يمكن أن تقدمه لأخيها.

- نعم، نعم، دعوها تبكيه. - وافق كوبل هارون صديقه - داربخان منذ كانت صبيرة تعبت على أخويها.

- وداربخان نفسها حين وقعت في مأزق كان أخوها سندها ومبعث أملها. - قال المؤذن جامبوت، واختتم: - ولما رأيت حجرت الأصغر بين الإخوة لم أتعرفه. صار رجلاً بزي الضباط. يا ربي هل يعرف أننا دفنّا في قريتنا الصغيرة سبعة عشر من أصدقائه؟

حين سمع مزحِب كَلاماً حول بزة الضابط التركي صرخ لابنه من أعماقه: "أيها المنحوس تدع الناس يعزّونك وأنت في لباسك العسكري متميزاً من أهلك! ألم يستوعب عقلك أن تغيّره؟ نحن الآن في وضع يصعب فيه تمييز العدو من الصديق..."

في آخر الليل، وقد تفرق المعزّون، دخل حجرت على والده دون بزته العسكرية، فامتدحه:

- حسناً فعلتَ إذ لبست زينا الأديغي بدلاً من زي الضابط. في نواحيننا كثيرون الآن من لم يعد هذا الزي يعجبهم. اذهب يا ولدي، استرخ أنت والكثّة، أنتم على الطريق طوال النهار. سيعود هارون عما قريب لنسهر مع حاتام بقية الليل. وغداً بعد أن ندفن أخاك نتكلم بمزيد من الراحة على أمورنا.

- حسناً يا والدنا. هناك ما نتكلم فيه، ولكن سأسهر معكما أنا أيضاً على أخي... - انفعَل حَجرت فانكسر صوته.

- هذا لا يجوز يا ولدي، ألسنت رجلاً فيضعف قلبك؟! - نصح مزحِب ابنه مع أنه كان في المشكلة نفسها.

الفصل الثامن والستون

مضى على وفاة حاتام أسبوع فوزعوا ملابسه.

وطوال هذا الأسبوع لم يتسنّ لحجرت وتودور الكلام على ميتة حاتام: كان الصهر يترك داربخان وستيفان الصغير في قرية أبزاخ ويعود هو قُبيل الليل إلى قريته العمالية ستيفانوف. ووالده الذي أخبره أنه سيتكلم معه لم يقل شيئاً. ولا يرى حَجرت من اللائق أن يلمّح له إلى الموضوع. ومع أن الأخبار المتنوعة المتعلقة بحاتام لم تصل إلى حَجرت فهو يحدهسها. وهو ينتظر تودور الذي ليس

من عادته التأخر ولكنه لا يظهر. ولا يجد مكاناً في الدار التي بقي فيها وحده:
كل ما يراه يُدِّكره بحاتام.

استدعى حجرت أخته من الغرفة وقال لها:

- يقلقني تأخرُ تودور.

- اليوم لن يأتِ تودور إلينا.

- لماذا؟

- نسيْتُ أن أخبرك... رجع إلى ساحة الحرب التي أعاد منها حاتام.

أسرع ستيفان الصغير إلى المسطبة، ودون أن يلتفت إلى أمه، كما طلب منه
جده، نادى خاله:

- حجرت يا مبارك النسل، والدنا يناديك. - بعدما أنجز مهمته رجع فارتمى
في حضن جده.

خَيَّل لْعُشْمَاف أن الرعد يدوي من جهة مرتفع قرية أبزاخ فكانت نات - نات
أول من أعادتها إلى وعيها:

- هل يقصف الرعد في مثل هذا الوقت من الخريف؛ هذه أصوات مدافع...
شحب وجه داربخان فالتجأت إلى حضن عُشْمَاف. ومرة أخرى دوى صوت
بضع انفجارات هزت البيت، ثم توقفت.

والآن دخل ستيفان الصغير واثقاً من نفسه إلى غرفة النساء وأبلغهن:

- يخبركم تات أنه لا داعي للخوف.

سألت داربخان ابنها:

- ماذا يقول تات وحجرت؟

- يتحداثان... ويطلب منكن تات أن تطعمني من الحلوى.

- ها هي حالاً - نهضت نات - نات، ووضعت على المائدة مزيجاً من
العسل والسمن مع الخبز. - كلٌ كالرجال، هذا الخليط يعجب والدك!
- ليس والدي من يحبه بل أنا.
- نعم أنت من تحبه، تفضل!
- اتجهت عيون النساء نحو الغرفة المغلقة التي يتحادث فيها الأب وابنه مهموماتٍ
بموضوع الحديث. ولكن لم يسمعن أيّ صوت منهما.
- سقط حاتام في المعركة مدافعاً على جبهة البلغار يا ولدي. مهما تحدث
الناس في سلوك حاتام فلن ندينه؛ هو ابني وأخوك. ولكن لو كنت مكانه لما
تورطت يا حجرت في حربٍ ليست لنا. وإن كنت ستطيعني فلن أدعك تخوض
هذه الحرب. ألا يكفي يا ولدي ما حوّلنا أنفسنا إلى لعبة في العالم ونحن نتبادل
المدائح وإياهم؟
- وعلياً نحن جزءٌ من الذنب.
- وأنت هذا رأيك أيضاً؟.. - سأل مزحّب ابنه وهو يرى في كلام ابنه ما
يُخيف وإن اعتبر رأيه صحيحاً.
- ليس رأيي فحسبُ يا والدنا، بل هذه قضية محسومة بعد الطريقة التي سقط
فيها حاتام!
- مهلاً يا ولدي، مهلاً. حديثنا سيبقى بيننا، ولكن هل يعرف غيري هذا
الموقف منك؟
- من يشاركني هذا الرأي ويوافقني عليه في الغرفة الأخرى.
- قضايا الرجال أيها البائس أهي قضايا النساء؟!
- هذه قضية الأديغة يا والدنا، قضية الجميع.

- حسنٌ إن كنتما تتبادلان الثقة هكذا، ويسرّني. غير أنني لا أعرف كيف سيكون موقف والد العروس، حميك، منكما... إن كان هذا رأيكما فأنا ومعي ابنة آل مرزخوي نؤيدكما. سؤال آخر إذن: ماذا إن اعتبروك هارباً من الجيش التركي الذي أقسمت له يمين الطاعة؟

- أنا لم ألتزم أمام أحد. لم أُلجأ إلى أحد قائلاً أنا سأحارب، وسأحمي الدولة التي فيها قرار بعدم السماح للأديغة بالقتال^١. ثم إننا يا والدي لسنا رعايا تركيا، بل نشترك معهم في الدين فقط، وجدّنا حين وجدت نفسها في ضائقة فحسب. وأنا لا ألوم حمي بوقت، ومرزخوي أفندي الذي صار قريبنا من جهة نات - نات، ولا الحاج برزج، وأنتم أيضاً لا تعتبوا عليهم. هؤلاء يديرون شؤونهم الشخصية تحت ستار الأديغية وملاحقة قضايا الأديغة، وهم، كما تقول أنت، يخرجون من ماء الفيضان إن ألقىتهم فيه بلا بلل. هذا عملهم يا والدنا، وسيتضح الأمر بين عشية وضحاها، لن تنجح مشروعاتهم في البلقان. ولكن الخوف هو أن عدداً من أبناء قومنا الأبرياء سيدفعون حياتهم ثمناً لطموحات بعض من أفسدوهم هنا.

- ما تقوله صحيح، وتحليلك جيد. - وافقه مزحّب، وأكمل بعد وقفة - ولكن لا أعرف أين اكتسبت هذه الحكمة.

- ربما تعلمتها ممن انخرطت فيهم... - ابتسم حجرت.

- نعم يا ولدي، يقول الأديغة: ما تراه العين يساوي العمر كله، يقصدون أن التجارب تعلم الإنسان. أنا عندي أسئلة كثيرة. ولكن هذا آخرها اليوم.

^١ كان هذا هو الوضع الرسمي، وهو منع الأديغة من الانخراط في الجيش التركي، غير أن الدولة تحايلت فألّفت جيشاً مستقلاً منهم.

وسأطَّلِعُكَ على قول أدِيعِي ماثور: "الروح تباع والشرف يُشترى"؛ ما رأيك فيه؟

- جواب سؤالك يا والدنا - قال حجرت جازماً - نعتبر حاتام قاله.

- حياك الله يا ولدي!

تأمل ستيفان الغرفة بعدما انتزع نفسه من يد أمه:

- أنتما لم تلاحظا يا جدي؛ هؤلاء كَرَّ يَتَنَصَّئْنَ عليكم من خلل الباب.

- هكذا! - مسح مزحِب على رأس حفيده الذي ارتقى في حضنه، وقال بلامبالاة: - لِيَتَنَصَّئْنَ إِنْ شِئْنَ، لم نقل، خالك وأنا، ما لا يجوز قوله.

كان مزحِب يتقلب في الفراش لا يأتيه النوم. لم يكف ما عانوه بدءاً من الوطن الأم وانتهاء ببلاد الغربة تركيا حتى لاحقهم العذاب في بلغاريا ببلاد الغربة التي لم يعيشوا فيها ما يكفي من الوقت ليألفوها. "الأرض الغريبة التي لم يكن قلب حاتام فيها، والتي دفع حياته من أجلها صارت قبراً له. حاتام المنحوس بالقياس إلى الضحايا الكثيرين الذين خسروا في مواقع لم نألفها، بما فيها البحر، كان محظوظاً إذ دُفِن في قرية مأهولة. - سأل مزحِب نفسه كما في الأيام الأخرى: - كيف سنسلك طريقاً جديداً آخر لا نعرف مصيرنا فيه إن هجرنا قريتنا؟.. علينا، كما كان جرمت يقول، أن نستقر حيث نتوقف بنا خيولنا مادامنا فقدنا وطننا الأم. ولكن متى هبَّت القرية المذعورة لا أعرف كيف أبقى في القرية وحيداً كغصن شجرة لم تُبقِ الرياح على غيره... - نسي مزحِب أنه ليس وحده فجعلته أفكاره القلقة يجهر بكلامه: - "لا تُجُنَّ قرية بكاملها".

- ما الذي حدث؟! - قالت نات - نات التي أفرعها الصوت المفاجئ مذعورة، وعادت فنصحت زوجها: - اطمئن؛ ربما كان حلماً مزعجاً.

- لا مشكلة لو كان حليماً، ولكنهم يُفنوننا في وضّح النهار... - عاتب مزحّب نفسه، وواسى المرأة: - اغفري لي، ربما أيقظتك... - كنت أقول في نفسي: ماذا إن رحلت القرية كلها وبقينا نحن هنا؟!

- ألم تقل " لا تُجنُّ قرية بكاملها "؟

- لست القائل، هذا قول أديعي ماثور.

قالت نات - نات بعد سكتة قصيرة:

- كنت سمعت المرحوم بكر والدي يردد مثل هذا الكلام: "إن خدعوك ثلاث مرات فأنت مجنون، وإن سقطت في الخندق نفسه ثلاث مرات فأنت أعمى".

- ما أحسن ما فعلتِ إذ ذكّرتني بهذا القول الماثور! كان في قلبي وعلى رأس لساني. أدعو إلى الله ألا يحدث لنا مثل هذا لأسرتنا ولقومنا، ولكن لا سبب لليأس وإن لم تجر أمورنا كما نرغب.

- نعم يا مزحّب، لن نياس. الله سيرعانا. سنبقى معكم نحن النساء. وناورز آسيت من الرأي نفسه كما قررت أنت ومزحّب.

- إن شاء الله يكون مصير آسيت التي بقيت وحيدة كمصيرنا نحن. ما يُفني شيء آخر، رتبة المنحوس حجرت من الجانبين: الترك والبلغار. كيف سيتعامل الطرفان معه؟ لا أعرف إن كنا، الأب وابنه، نخدع أنفسنا في غمرة قلق أحدنا على الآخر... - ابتسم مزحّب، وأكمل بمزحة: - من يعرف؛ عند الضرورة سنأتي إليكما في بلغاريا، ونبقى في حمايتكما أنت وداربخان.

- ما هذا الكلام الذي لا يليق بك يا مزحّب!.. ألم يكفِ تعبير أفندي المخوش لي بأصلي الروسي فتتضمّم إليه أنت أيضاً؟ إن كنت تعتمد عليّ في مأزقك لأنك تعد البلغار من أقربائي فأنت مخطئ، ولا تكرر هذا الكلام معي.

وإن فعلتَ جمعْتُ حوائجي والتحقت بأبناء قومي إلى حيث يهاجرون. إن ماتوا متَّ معهم، وإن حيُّوا حيَّيت.

- أستحق أي شيء تقولينه لي يا نات - نات - ضمَّ مزحِب المرأة إلى صدره، وهمس في أذنها: -أمزح معك هكذا بلا سبب، ولم يخطر لي أي كلام أخرج به المرأة الجميلة الحكيمة التي وجدتها آخر العمر. ولا تشبَّهيني بالمذعور الواقع في ماء الفيضان.

مع أن الجيش التركي الذي تدفق إلى قرية أبزاخ عند الفجر وهو يتراجع تحت وطأة الضغط الروسي أيقظ القرية كلها فقد اكتفى الناس بمراقبة الوضع من نوافذ بيوتهم، باستثناء باغ مزحِب وكوبل هارون وغيرهما من الرجال المسنين، ولم يطرق أحد الشارع. حين رأى حجرت أباه والخنجر على خصره والبندقية على كتفه سأله مستغرباً:

- لماذا أنت في أرض الدار يا والدنا مدحجاً بالسلاح؟

- وما يُدريني بنوايا هؤلاء المهزومين؟ ارجع إلى الغرفة يا ولد، وارْغِ النساء، أبعد عنهن الخوف. وإن كنت تقصد بندقيتي للصيد فأنا لا أحتاجها، وأظن هذا السيف بلا فائدة، أعده إلى مكانه كي لا يمد ستيفان الصغير يده إليه! وما هو كوبل قادم، لن نخافَ إذ نحن الاثنين معاً.

ولمَح كوبل هارون إلى الجار مستغرباً ما يراه:

- لا أعرف إن كانوا حملوك على أن تنزع أسلحتك.

- والخنجر الذي إلى جانبي أليس سلاحاً؟

- وهذا سلاح، ولكنه لن يكون كالسيف والبندقية.

- إن كان خنجرك الأديغي يليق ببندقيتك التركية فاحتفظ بهما إلى جانبك. ولكن هل يعرف هذا العسكري الذي يختلس النظر إلينا أنك مختار القرية؟ متى انتزعهما منك فلن تراهما مرة أخرى.

- ما الأمر يا باغ؛ أتريدني أن أخلع ما عليّ أمامهم؟

- أنسيّت يا كوبل أننا خلال الخمس عشرة سنة أخيرة عراة حفاة أمامهم؟ سأل مزحّب ببراءة كأنه كان جاهزاً لسؤال صديقه.

تبادل الصديقان بعض الكلمات غير المُعرّضة، وبعدما ما افترقا بنصف ساعة تقريباً رأى مزحّب برقت ومرزخوي يخرجان من العربة الموحلة التي وقفت أمام باب داره فاستقبلهما مخفياً برودة عواطفه نحوهما.

- تفضّلاً، أنتما ضيفان...

- حياك الله! قال برقت بصوت مرهق، وأضاف منبهاً على أنه ليس وحده: - لم نستطع مع الخبر المحزن الذي سمعناه أن نتجاوز بيتكم رغم أننا أنا ومحمد أفندي مشغولان جداً ولا وقت لدينا. نعزيكم بوفاة حاتام ولو لم يكن يوافقنا.

- نعم - أيّده مرزخوي - ألم يكن حاتام مسلماً ولو أخطأ! سندعو له من البيت الذي خرج منه إلى الآخرة. قولوا آمين. - وبعد الدعاء أضاف محمد أفندي: - كان بودي أن أرى أختي نفساً إذ صرنا، آل مرزخوي وآل باغ، أقرباء في شيخوختنا.

- أظنك تقصد نات - نات... - أصلح مزحّب كلام من يقوم الآن بدور حميه.

- نعم، هي نفس التي ثبّتوا عليها هذا الاسم. ولست وحدي؛ الأميرلاي برقت زوال أيضاً يود رؤية صهره وابنته.

- على ما يبدو يا مزحِب - كشف برقت زوال عما كان يغيظه على نحو لا يخفى - التجأ إليك ابنتي وصهري... ونحن هناك ننتظر القائم مقام باغ في الوقت الذي اختبأ فيه وراء والده! ما حدث لنا يتجاوز حد العجب... مثل هذه التصرفات تعرقل أعمالنا.

- هل جئت تجادلني في شأن ابني يا برقت؟
- القائم مقام باغ لم يعد ابنك يا مزحِب، ولا صهري. والده هو الرتبة التركية التي على كتفيه، وهو حموه، والسلطان الذي وثق به هو أبو آبائه!
- اهدأ يا برقت! - ابتسم مزحِب - لم يبق في ما تقول أي معنى أو فائدة. حان الوقت ليكون فعلك إلى جانب قولك.

وفي هذه اللحظة رَحِب بهم حجرت الذي دخل الغرفة.
- أيها القائم مقام باغ - سأل برقت متناسياً ما قيل له: - كنت أتوقع منك أن تمثل أمامي بزيّ الضابط.

- انسْ أنك كنت ترتدي الزي الذي تتكلم عليه كما نسيت أنا
- هذا ما جرى لنا... - انكسر صوت الأميرلاي برقت رغماً عنه: - ألا تخاف أن يرتد عليك إنقاذك نفسك سلباً؟
- أنا انفقأت دُمَلتي الأديغية وانتهى الأمر، أما دُمَلتك التركية فلا أظنك تحس إلى الآن بأنها تتقيح...

استعجل مزحِب خائفاً من أن ينقض ابنه قواعد الأكبر والأصغر في التعامل:
- أسرع يا ولد، هات مائدة للضيوف!
- لا، لا، نحن متأخران. سننصرف ما إن أرى ابنتي - توجه زوال إلى الغرفة التي كانت تنتظره فيها ابنته.

قالت داريجان التي أتت بالمائدة لوالدها:

- نادي أمك يا داربخان لتقابل عمها.
عانت نات - نات عمها وبكت بعض الوقت ورأسها على كتفه، ثم عادت وهي تمسح دموعها ووقفت إلى جانب داربخان على الباب.
- سامحيني يا نفسي - توسل إليها محمد أفندي الذي عاد فجلس في مكانه.
- على ما حدث لنا في أرض الوطن رغماً عنا كلينا.
- أنا سامحتك يا ممت، - نادت نفسي عمّها كما كانت تناديه في طفولتها، واختتمت: - ولكن لا أعرف إن كان الله سيغفره لك. - انفجرت نات - نات باكية وخرجت من الغرفة.
صاح الفارس الذي أتى يستدعي الأميرلاي برقت والأفندي مرزخوي من فوق السور:
- أرجوكم، استعجلا، جيش الكفار دخل قرية ستيفانوفك!
ارتقى برقت ومرزخوي في العربة دون أن يجدا فرصة للتوديع، وغادرا مسرعين باب آل باغ.

الفصل التاسع والستون

حين تحطمت جيوش وسمن باشا وسليمان باشا ومختار باشا، وأسر آلاف الجنود الأتراك، ولم يبق عندهم من القوة ما يقاومون بها جيش سكوبوليف، لم يكن قد بقي على وصول الجيش الروسي الذي يلاحق الجيش التركي على مسافة قريبة إلى إستانبول واحتلالها أكثر من اثني عشر كيلومتراً.
طالب المجلس التركي بتغيير الحكومة التركية حالياً، وإقامة السلام مع روسيا. وأرسل السلطان عبد الحميد في السادس من كانون الثاني عام ١٨٧٨ مبعوثيه إلى القائد الروسي نيكولاي رومانوف يتوسلون إليه وقف الأعمال القتالية.

ووعدهم الأخير أن يتكلموا في الموضوع إن تركوا له ما يتعلق بإجراءات السلام دون نقاش. ولكن ما كانت تركيا تنتظره ولا تثق فيه تحقق لها فجأة: إنجلترا حشدت قواتها البحرية ضد روسيا خوفاً من أن تغلق الأخيرة إذا احتلت البحرين الأسود والمتوسط مضيقى البوسفور والدرنيل فاشتربت على روسيا عدم التقدم إلى احتلال إستانبول، وهددت بإعلان الحرب على روسيا إن لم تتراجع فوجب على روسيا المنتصرة أن ترضخ للطلب الإنجليزي. وتبع هذا الحادث اتفاق سلام سان - ستيفانو.

الفصل السابع

في اليوم نفسه، السادس من كانون الثاني عام ١٨٧٨ حدث في أسرة باغ حادث سار: رُزق حجرة وعُشماف بالصبي الذي سماه مزحج: غَزَج!'

خاتمة

كانت اتفاقية سان - ستيفانو نهايةً للحرب التركية الروسية. ووقع عليها من الجانب الروسي إيغناطييف ونيليودوف، وصفوت باشا وسعد الله باشا من الجانب التركي.

وحسب ما حُدِّد في اتفاقية سلام سان ستيفانو فقد استقلت صربيا والجبل الأسود ورومانيا التي كانت تتمتع سابقاً بالحكم الذاتي، وتوسَّعت حدودها. ومُنحت بلغاريا، والبوسنة، والهرسك استقلالاً ذاتياً. وينسحب الجيش التركي من بلغاريا ويحل محله الجيش الروسي مدة سنتين. وقلعة إسماعيل إلى الجنوب الغربي من بيساريا التي انثُرعت من روسيا في خلال حرب القرم، بالإضافة إلى

' يعني العودة مصدراً، وعُدَّ فعلٌ أمرٌ.

بيساريا نفسها عادت إليها. وكذلك المدن التي كانت لروسيا في ما وراء القفقاس أرداغان وقارس وبيازيد وباطوم تعاد إلى روسيا. وعُزِّمت تركيا بثلاثمئة وعشر ملايين ليرة عقاباً.

ولما خافت الدول الأوروبية إنجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا - هنغاريا من أن ما منحته اتفاقية سان ستيفان لروسيا يعطيها أملاً كبيراً في إنشاء دولة سلافية واسعة دعت هذه الدول تركيا وروسيا إلى مؤتمر في برلين. وقد شارك في المؤتمر إيطاليا وإيران واليونان ورومانيا وصربيا. وكان رئيس مؤتمر برلين هو الوزير الأول بسمارك.

تظاهرت الدول الأوروبية المتحالفة سراً بالتنافس فيما بينها فأفشلت مخططات روسيا التي تخشى منها في البلقان، وغيّرت أكثر ما في وثيقة سان ستيفان إلى ما يفيد مصالح هذه الدول.

وحين رجع كبير مفاوضي روسيا غورشاكوف الوزير الأول من برلين أنهى خلاصة خطابه إلى القيصر بما يلي: "مؤتمر برلين من أشد إخفاقات حياتي ومصدر حزني في مجمل أعمالي" وأضاف إليها ألكسندر الثاني "وفي أعمالي أيضاً".

وكما يقال: "إن تضرب ثور الدار يتوجّع قرن الثور البري" فبعد الحرب حدث الأمر نفسه للأديغة الذين طُردوا من وطنهم إلى البلقان. وافقت إنجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا - هنغاريا على رغبات روسيا فصدر، مع تواطؤ تركي، قرار بمنع الأديغة من الإقامة في البلقان، وأُجِّلوا إلى بعض البلدان العربية. وكان أعجب شيء هو أن القرار القاضي بمنع الأديغة من الإقامة في البلقان كان يسمح للترك بالإقامة فيها؛ بل منع القرار توطينهم على حدود الدول المسيحية.

أسرة باغ: مزحج ونات - نات وحجرت وُعْشماف، وتودور وداريخان وستيفان الصغير من آل ديمتروف، بقيت في بلغاريا. وبرقت زوال يقيم في إستانبول آملاً أن تعلو رتبته التركية. ومرزخوي محمد أفندي صارت المدينة المنورة موطناً له. وبقي مقرئاً. وتوفي الحاج برزج متأثراً بجراحه، ودفن ليس بعيداً عن بورصة. وسعيد أفندي عاد إلى إستانبول ويعمل في الجامع السلطاني في يلدز على ضفاف بحر مرمرة. ومصطفى باشا وابن أخته يوسف يعيشان على زراعة الزيتون في طرابزون بعدما سُرحا من الجيش. والسلطان عبد الحميد الثاني الذي أمه أديغية يعيش كأن لم يحدث شيء، وكأنه لا يعرف أن أعداءه سيقتلونه في القرن التالي عام ١٩٠٩. وقد حدث الأمر نفسه للقيصر الروسي ألكسندر الثاني الذي دمر حياة الأديغة وشتتهم في أرجاء العالم، قبل عبد الحميد، عام ١٨٨١.

...

ارحمي واعطف عليّ يا ربّ وافهمني. يا ولدي لا أستطيع أن أكتب أكثر من هذا في مأساة الأديغة التي مزّقت قلبي.

